



تأليف

د. ليلى شوقي

راجعه ودققه وقدم له

د. محمد توفيق رمضان البوطي   د. بديع السيد اللحام

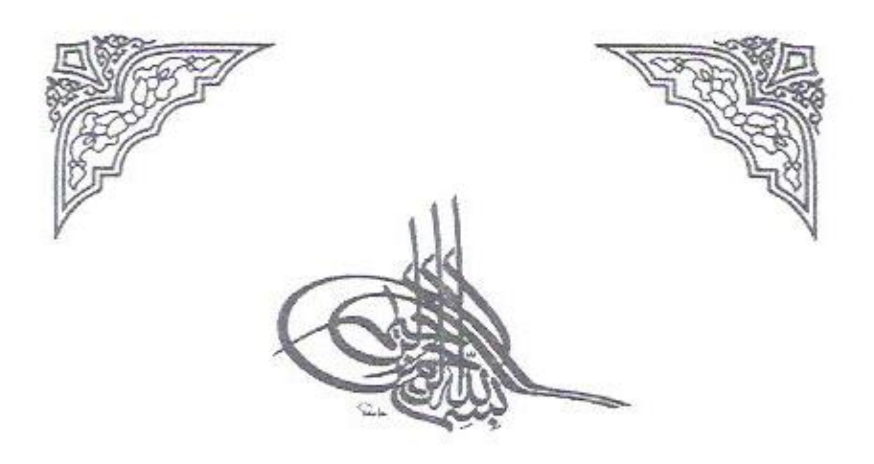
أ. محمد الفحام

الصديق للعلوم



منهج التزكية

عند الإمام الشهيد محمد سعيد رمضان البوطي



1439هـ/2018م



دمشق ـ حلبوني ـ جادة ابن سينا
00963 988288934
00963 11 2259497



تأليف

د. ليلى شوقي

الصديق للعلوم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تقديم الدكتور: محمد توفيق رمضان البوطي

عميد كلية الشريعة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد:

فقد ترك الإمام الشهيد محمد سعيد رمضان البوطي من بعده تراثاً عظيماً مقروءاً ومسموعاً ومرئياً، شاع ذكره وانتشر عبقه في مشارق الأرض ومغاربها، وشمل هذا التراث ما قدمه للأمة من كنوز في العقيدة والسيرة والفقه وأصوله وتفسير القرآن والتربية والتزكية والرد على شبهات الخصوم ومعالجة قضايا الأسرة والمرأة ومعالجة القضايا العامة، وغير ذلك مما جعل تراثه مكتبة كاملة لا غنى لشباب العصر وطلاب العلم عنها.

وقد أقبل الناس على كتبه ودروسه وأحاديثه التلفزيونية بحرص؛ إقبال الظمآن على مورد الماء العذب، وكانوا يقبلون على دروسه في مسجد السنجقدار في السبعينيات من القرن الماضي، ثم في مسجد تنكز في الثمانينات منه بعد أن ضاق بهم مسجد السنجقدار، ثم انتقل إلى مسجد الإيمان بعد ذلك ليتسع للمقبلين على دروسه بعد مغرب يومي الاثنين والخميس من كل أسبوع، وصار مسجد الإيمان يغصُّ بالآلاف من الرجال والنساء القادمين من أنحاء دمشق وريفها، بل من درعا وحمص لحضور دروسه؛ حتى وقعت الفتنة التي قطعت أوصال الوطن، وحالت دون تمكن

الكثيرين من حضور دروسه، بل قطعت أوصال دمشق، وصار من غير السهل الوصول إلى المسجد بيسر، إلى أن كان يوم الخميس (١٠ جمادى الأول ١٤٣٤هـ الموافق لـ ٢١ آذار ٢٠١٣م) حيث كان يلقي درسه في تفسير سورة آل عمران؛ وقع الحدث الذي هزَّ العالم كله بقيام مجرم بتفجير نفسه بين المصلين، ليمضي الإمام الشهيد إلى ربه وبصحبته وفدٌ كريم من خيرة أبناء دمشق تجاوز عددهم خمسين شهيداً؛ ليطفئ الذين خططوا لهذه الجريمة نوراً طالما انتشر في أرجاء الأرض مقروءاً ومسموعاً ومرئياً؛ عبر مؤلفاته ودروسه ومحاضراته؛ وأحاديثه التي كان يلقيها من خلال شاشة التلفزيون، أو غير ذلك من وسائل الاتصال، ولكن خسئ المجرمون، فالإمام الشهيد لا يزال حاضراً في قلوب محبيه ومسامعهم، حاضراً في مكتبة الكثيرين ممن يريدون الحق والخير والهدى، بل تضاعف الإقبال على كتبه ودروسه ومحاضراته بعد أن انطلقت متجاوزة حدود الجغرافيا واللغة، ليتجاوز انتشارها أضعاف ما كانت عليه قبل استشهاده رحمه الله. فصوته يتردد كل صباح من أكثر من إذاعة ودروسه المتلفزة تُبثُّ من أكثر من قناة تلفزيونية، وطلابه في تزايد ولله الحمد، فلا سعدت نفوس الحاقدين.

هذا وقد ألَّف كثيرون عن الإمام الشهيد وعن كتبه وفكره وحياته كتباً ورسائل جامعية، ولا يزال كثيرون منكبين على تراثه ليستخرجوا منها من ذخائر وكنوز علمه وتوجيهاته رحمه الله.

ومن هؤلاء أخت كريمة تأثرت بالجانب التربوي الذي طالما عني به، وظهرت عنايته به منذ بداية ما ألَّفه. في مثل كتاب (منهج تربوي فريد في القرآن) وكتاب (باطن الإثم) وغيرهما، وفي ثنايا كتبه الأخرى وأخيراً من خلال دروسه في شرح الحكم العطائية، والتي جعلها في كتاب يضم أربع مجلدات يعد من أعظم ما تركه من كنوز مؤلفاته.

هذه الأخت هي الدكتورة الصيدلانية ليلى شوقي، التي حرصت منذ ما يزيد على ربع قرن على متابعة دروس سيدي الوالد الشهيد رحمه الله، وتأثرت بتلك الدروس، وكتبت الكثير منها وقرأت الكثير، واعتبرت أن من الوفاء أن تستخرج من تلك الدروس ما يمكن أن يعد منهجاً في التزكية؛ رسم معالمه الإمام الشهيد رحمه الله، عسى أن ينتفع به القراء، ويعم نفعه، فأعدت هذا الكتاب.

ومن خلال قراءتي لما كتبته وجدت أنها كانت متأثرة بما سمعته وما قرأته من ميراث الإمام الشهيد، ولعل حضورها المستمر لدروسه جعلها أشد تأثراً، وقد تجلى صدق تأثرها من خلال صحة فهمها، ومنهجية عرضها لما استطاعت أن تصوغ من خلاله ما وجدت فيه منهجاً للتزكية عند الإمام الشهيد.

لقد غدا هذا السِّفْر القيم بما قامت به الأخت الدكتورة ليلى منهجاً متكاملاً لتزكية النفوس والنهوض بهمة المتوجِّهين إلى ربهم، ومعالجة ضعف نفوسهم في مواجهة المزالق والأهواء، بالعلم والعمل والوجدان، وبيان معالم الطريق لبلوغ درجة (الإحسان)، ويلحظ المرء أن الأخت الفاضلة كانت متذوقة لما سمعته وقرأته في هذا المنهج، ولذلك استطاعت بتوفيق الله أن تستخرج من تلك الدروس ما سمّته - وحق لها أن تسميه - منهجاً للتزكية.

أرجو أن يكون فيما قامت به الأخت الدكتورة ليلى ما يلبي حاجة كثير من شباب وشابات عصرنا لتزكية نفوسهم، ومعالجة ما يعاني منه الكثيرون من ضعف وتأثر بأمراض النفس ونزواتها، ويجعلهم قادرين على التزام نهج يُقرِّبهم إلى الله وينهض بهم إلى سبل مرضاته.

وفّق الله أختنا الدكتورة ليلى لما فيه رضاه، وجعل ما قدمته في صحائف حسناتها، ونفع بما جمعته في كتابها هذا الباحثين عن طريق ينجيهم من آفات النفس

ويسمو بهم إلى تزكيتها، وجزاها على ما قدمت خير الجزاء إنه سميع مجيب.

محمد توفيق رمضان البوطي

في: ٢٩ / محرم / ١٤٣٧هـ

الموافق لـ ١١ / تشرين الثاني / ٢٠١٥م



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تقديم الدكتور بديع السيد اللحام

الحمد لله القائل في محكم التنزيل: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩ - ١٠].

والصلاة والسلام على سيد الأبرار القائل: (الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك)(١) وعلى آله الأطهار، وصحابته الأخيار(٢)، ومن تبعهم بإحسان من السادة الأبرار.

وبعد:

فإن الأُسس التي تُبنى عليها التَّزكيةُ يمكن أن نرجعها - فيما أرى - إلى أساسين اثنين لا ثالث لهما:

الأساس الأول: التبصُّر بمنزلة الدنيا، والتعرُّف على حقيقتها، وذلك بأن نعلم يقيناً بأن الدنيا مهما طال مكوث الإنسان فيها إن هي إلا دار ممر وليست بدار مقر، وأنها دار للزراعة وأن الآخرة موعد الحصاد.

الأساس الثاني: - مبني على الأساس الأول - أن يعرف الإنسان وظيفته في هذه الحياة وأن يحدد هدف وجوده فيها بدقة، وقد رسم كتاب الله تعالى هذا الهدف بوضوح بقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦] وهذه العبادة هي للوصول إلى مرضاة الباري جل وعز.

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان (٥٠)، ومسلم في الإيمان، باب معرفة الإيمان (٣٤).

(٢) قال عليه الصلاة والسلام: (خير الناس قرني الذي أنا فيه) مسند أحمد (٣٠ / ٣٧٦).

وطريق الوصول إلى مرضاة الله تعالى لا يكون إلا من خلال تسخير ما جعله الله تعالى بين أيدينا - من متعلقات هذه الدنيا - لإعمار الأرض بالعمل الصالح والنصيحة ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾ [العصر: ١ - ٣].

وفي الحديث الصحيح يقول عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم: (الدين النصيحة، لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم)[١].

ونحن إذا نظرنا متأملين حياة العلامة الشهيد السعيد عليه الرحمة والرضوان نرى أن تلك الحياة - ابتداءً من سن الصبا يوم أخذ بيده والده العارف بالله الملا رمضان رحمه الله إلى معهد التوجيه الإسلامي ووضعه بين يدي سلطان علماء دمشق يومها العلامة حسن حبنكة الميداني إلى أن اختاره الله تعالى شهيداً وهو على مقعد تفسير كتاب الله تعالى في جامع الإيمان - أقول: إن تلك الحياة التي نافت على السبعين عاماً كانت أعوام جد واجتهاد وتزكية للنفس عروجاً في مدارج الكمال كل تلك الحياة تدور بين عمل صالح[٢] ونصيحة ما زال يرددها من خلال كل منبر من منابر الحديث يعتليه، لا فرق عنده في ذلك أن يكون هذا المنبر عند العامة من الناس أو الخاصة من المسؤولين والحكام، بله العلماء.

هذا وقد حاولت الأخت الفاضلة الدكتورة ليلى شوقي - من خلال هذا الكتاب الذي بين يديك أخي القارئ - أن ترسم لنا منهج العلامة الشهيد في التزكية وهي التي حرصت على أن تتبع مفردات هذا المنهج من خلال كتبه ودروسه ومحاضراته وحواراته.

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان، باب بيان أن الدين النصيحة (١٠٧).

(٢) كان من بعض نتاجه تلك المكتبة الغنية بفنون المعرفة والعلوم النافعة.

ولا أريد من خلال هذا التقديم أن أستبق الحكم على ما قدمته الأخت الفاضلة في هذا الكتاب ولكنني أقول: حسبها أنها عبَّرت من خلال عملها المبرور هذا - بإذن الله تعالى - عن صدق الوفاء لشهيد الإسلام الغالي، وهذا وحده يستصرخ ضمير كل من انتفع بعلم علَّامتنا[١] أنْ أين الوفاء لمن أخذ بيدك في مدارج العلم والمعرفة؟ ولم هذا التنكر؟ ألموقفٍ لم تدرك كنهه وهذا الموقف لو تدبرته بعيداً عن التهويل والتأثير لوجدت فيه كل الخير للأمة، وأنه موقف نابع من قلب يتحرق على رؤية الأمة وهي في أعلى معارج العز والكرامة.

أقول لأمثال هؤلاء المتنكرين: أدركوا أنفسكم قبل أن تدرككم النهاية التي تكونون معها من المفلسين من أمة النبي عليه الصلاة والسلام الذين أخبرنا عنهم بقوله: (إنَّ المفلس من أمتي يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي وقد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيُعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه أُخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار)[٢].

أسأل الله تعالى أن يرزقنا الفهم والعمل والإخلاص فيه فإنه خير مسؤول وأكرم مجيب.

والحمد لله رب العالمين

وكتب

بديع السيد اللحام

---

(١) بل إن بعضاً من هؤلاء لم يكن ليستطيع أن يبين لولا ما تلقاه عن الشيخ رحمه الله.

(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم (٤٧٨٤).

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تقديم: الأستاذ المربّي الشيخ محمد الفحّام

الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً على كل حال حمداً يوافي نعمه ويكافئ مزيده، ربنا لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك سبحانك لا نحصي ثناء عليك ولو حرصنا أنت كما أثنيت على نفسك، وأفضل الصلوات مع أكمل التسليمات على سيد الوجود محمد سيد السادات، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له إلهٌ تفرَّد بالعظمة والجلال، وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله، قام لله قانتاً بكمالات العبودية الخالصة في نظام الجمال نهضةً بقلوب أمته عبر منهجِ تربيةٍ سلوكية بصفاء توحيد القصد لضمان السلامة لبنيان العمل المرصوص في جميع الحالات، وبعد:

فإن حاجة العبد إلى تزكية النفس كحاجة الجسد إلى العافية، بل وحاجة الروح إلى أصلها، ذلك أن القلب - والذي هو موضع سرِّ الرب - إنْ لم يتعهَّدْه صاحبه بالمراقبة والعناية والمتابعة فإنه يُبْتَلى بالحجاب الظُّلماني المانع عن تلقي أنوار التجليات، والحاجب عن العيش في أُنس الفطرة السليمة التي متعه الله تعالى بها، فالأصل في أمر العلاقة بين العبد والرب أن العبد لا يستغني عن نعمتي الإيجاد والإمداد من رب العباد، فإنْ غَفَلَ عن المنهج النبوي بالإهمال وكفِّ القلبِ عن التوجه إلى ذي الجلال ابتُلي أول ما يبتلى بالإعلال، فيحجب بالران، فإنْ تسارع بالبحث عن سُبُلِ الخلاص عَبْرَ العمل بما عَلِمَ مخلصاً زال عنه الران ﴿... تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾ وإن تمادى في مهاوي الغفلات سَمُكَ الران، وعظم خطر الحجاب، فإن استمر كان ذلك المحروم من تحفة اللقاء المنشود لدى أهل القلوب

ففي بيان الله تعالى علام الغيوب أدقُّ تصوير، قال سبحانه: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ ولا حسرةَ على العبد - إذا عبد ربّه تكليفاً على متن الغفلة والاستثقال - من أنْ يُغَيَّبَ في أوحال الوبال يوم العرض على ذي الجلال فيُحرَمَ رؤية ذلك الجمال.

وعليه، فإن أمر الطلب للعلم بالدليل والبرهان مُجرَّدُ سبيلٍ للوصول إلى شهود الحقيقة للعيان بتمام التعرف على الرحمن... أقول: فهذا هو الجوهر الذي دَنْدَنَتْ حوله الأخت المباركة الدكتورة ليلى شوقي حفظها الله تعالى ورعاها بما أطلعتني عليه من جُهدٍ مبارَكٍ في رحاب رحلتها مع سيدي الشهيد السعيد عبر ربع قرن من الزمان تستَجْلي روعةَ الإثمار من إفهامه ذوي الأفهام بما كتب وقرَّر ودرَّس وحاضر بالدليل العقلي والنقلي، ثم استثمارِه ذلك كسبيلٍ ربانيٍّ وسلوكيٍّ للوصول إلى الغاية المنشودةِ بصفاء العمل فيما عَلِمَ، ألا وهي: العيشُ الهانئ في محراب الحب الإلهي الذي اقتضى أن يجعل منه مسارَ التشويقِ لكلِّ ناشدٍ فَهْمَ حقيقةِ الحكمةِ الإلهية من تكليف الله عبدَه سبحانه وتعالى، وكأني بها وهي تستعرض تلك العناوينَ والتراجم الدالةَ على مضامينِ الكتاب في نظام رابطِ العلاقة بين العقل ووُجْدانياتِ القلب إلى تصوير لزوم التوافق بين جوارح الإنسان وجذور مقام الإحسان لسلامة الجنان بالدلالة على سبيل الوصول إلى تلك الدرجة بكمالات الأصول ولطائف الإغراء السليم تذكيراً وتوجيهاً للتحقُّق بمقام العبودية الذي لا يمكن أن يَشْرُفَ العبدُ إلا بها، ثم وقوفاً بالتأمُّل على أهمية الذكر والأوراد اللازمة المستقاة من منهج النبوة ثم التأكيد على حاجة المرء - لا سيما الداعيةِ المتمكِّن علمياً - إلى مجالسة الصالحين الربانيين مع التأسيس بلُقْمة الحلال والبعد الكُلّيِّ عن الحرام في الشؤون القولية والفعلية، ثم التوجُّه - ارتقاءً - إلى توضيح تلك المراحل التي قد تعتري السالك لا سيما ما اصطُلِحَ عليه من مُسمَّى مَقَامَي الفناء والبقاء، ومفهومِ أنَّ الفناء عند أهل الله تعالى إنما هو فناءُ العبد عن

حظوظه وأهوائه للبقاء بالله تعالى المقام الذي هو الأصلُ الناهضُ بالقلوب والدالُّ على بضاعة علّام الغيوبِ لتَجَرُّدِ صاحبه من العلائق والعوائق ووصوله إلى قِطافِ أسمى ثمرات التزكية ألا وهي مقام المعرفة.. كل ذلك وعلى التوسُّعِ الهادِف تجدُه في جُهْدِ المؤلّفة الذي اسْتَقَتْهُ من جَولتها الآسرة في تلك الرياض المسعدة من دوحات سيدي الشهيد السعيد الماتعة المقروءة والمسموعة المشيرة عبرَها إلى أنَّ ذلك المعروض كان منهج الشيخ العملي رحمه الله تعالى قبل القولي لا سيما حينما حلَّقَتْ في سماء التزكية العملية لعافية النفس من أمراضها والتي أكثر ما يُبْتلى بها الكثير من الدُّعاة والمربِّين الذين لما غَفَلُوا عن جوهر حاجتهم إلى مدلول العلم النافع تاهوا في بيداء مُفْتَرَقِ الطرق فغدوا من علماء السوء الذين قيل فيهم:

يا أيها العلماء يا ملحَ البلد ما يُصْلِحُ الملحَ إذا الملحُ فسد

فجعلوا مما تعلَّموا مطيَّةً للإشهار وسبيلاً لمطالبة الغير بطرائقَ شتى أخطرها إسقاطُ العباد بالتقريع تارة، والتفسيق تارة أخرى.

أقول: فبقراءة الكتاب بالحرف وكذا الاستقراء وجدتُ أنها - جزاها الله تعالى خيراً - قد عرضت الداء ثم وصَّفت الدواء عبر تفسيرٍ لطيف من السهل الممتنع لمفهومِ حمل الأمانة وأدائها على ميزان التقوى المرقِّي في معارج المعارف من تقوى الشريعة إلى تقوى الحقيقة بالنفوذ إلى أسرارها وجوهرها التي خصَّ الله تعالى بها عباده الصالحين المخلِصين الراجين قبولَه بالرحمة وتمام العفو فرفعهم إلى سُدَّةِ المعيَّة الإلهية في الدنيا، وآنَسَهم بلطائفه إلى أنْ أتْحَفَهُمْ بحسن الختام، ثم فرحوا بلقائه على تجلِّي الجمال، ثم بالعيش الرَّغَد في جنةِ عدْنٍ مُتَلَبِّسين بجلالِ القُربِ مكانةً عند ربِّ الأنام مخاطَبين بالخطاب الأزليِّ القديم: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

في الختام، أرجو كلَّ طالبِ معرفةَ ربِّه ناشدِ سلوكَ طريقِه أنْ يَرْجِعَ إلى ذلك الكتاب السِّفْر الجليل ليَسْتَجْليَ حقائقَ خَبرَ جوهرَها سيدي الشهيد السعيد فغُمِرَ في دوحاتِ أنوارها غَمْراً إلى لحظات غروب شمس عُمْره من الدنيا بالختام الحميد حيث أشرقت حياتُه بعدُ بأماراتِ حسن الختام بوجْهٍ مبتسمٍ مشرق في رحابِ تفسيره بيانَ الله تعالى ومحرابِ بيته، وقتَ صعودِ ملائكةِ الليل ونزول ملائكة النهار ساجداً شكراً، مُسَلِّماً عقيدةً بقلبٍ سليمٍ، وَمُسْلِماً الرُّوحَ إلى بارئها العليم في رياضٍ بشارة الصادقِ المصدوق الأمين ﷺ في الحديث الصحيح: (يُبعثُ كلُّ عبدٍ على ما مات عليه) فالله أسألُ وبِنبيِّه الأكرمِ أتوسَّلُ أن يَجْزيَ الأخت المباركة الدكتورة ليلى شوقي بما هو أهله على جهدها الجليل الذي دلَّ على روعة استياقها، وصدقِ اشتياقها، وقوةِ تفاعلها وحُبِّها الخيرَ لأمَّة نبيِّها عليه الصلاة والسلام، كما أسأله أن يرفع مقامها وكلَّ السالكين إلى التفريد في مقام التوحيد، ويجعلنا جميعاً من أهل الدِّلالة على أسرار تلك المعارف آمين يا رب العالمين والحمد لله رب العالمين ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [يونس: ١٠].

وكتبه

الفقير إلى ربه الغني محمد الفحام



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

دعاء

بسم الله الرحمن الرحيم، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، اللهم أخرجنا من ظلمات الوهم، وأكرمنا بنور الفهم، وافتح علينا بمعرفة العلم، وسهِّل أخلاقنا بالحلم، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

اللهم لك الحمد أنك ربنا وأننا عبيدك.

نِعْمَ الربُّ أنت يا ربَّ الأرض والسماء، فاجعلنا نِعْمَ العبيد لك ونِعْمَ الإماء، وصلِّ يا رب وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، صلاةً هي لك رضاء، ولحقه أداء، ولنا اتباع واقتداء وشفاء من كل داء، وعافية من كل بلاء. اللهم إن سأل العبيدُ أسيادَهم إعتاقَهم، فإني أسألك زيادةَ رِقِّي، وعدمَ عِتقي.. فإنهم إن أُعتِقوا، تحرروا من عبوديتهم لكل مَنْ سواك، وأنا إنْ أعتقتَني وقعتُ في عبوديةٍ لكلِّ مَنْ سواك.

فانشلني اللهم بعبوديتي لك من كلِّ عبوديةٍ لمن سواك، يا من لا إله غيرك ولا رب سواك.

ولطالما كان حديث العبودية لله عز وجل يستهويني، فقد كتبتُ فيه كلماتٍ تحملُ في طيَّاتها ما سمَّيتُه.. (قصة حياة قلب):

حسبي أن الله ربي وأنني أَمَةٌ لله
ما لسواه يميل قلبي، إنَّ لي قلباً يهواه

ذاق حبَّ الناس لكن لم يَذُقْ طعماً هنّاه
ما كان شراباً يرويه بل كان سراباً عاناه
فلمَّا أنْ عانى من جوع ومن عطش لم يُرْوَ ظماه
وتبرم من حبٍّ فانٍ يبلى وقليل جدواه
حنَّ إلى حب يرويه يرجو منه كل مناه
يسمو به صعداً ولا يسمع من رناته لحن الآه
يبقى معه عند الموت أنيساً حيث الكرب علاه
طلَّق حباً كان مع الله، إلا حباً لله وفي الله
وتوجه لله وراح يطير يسعى نحو رضاه

فإن قلتَ: إنها شعر غير موزون !

أقول: إنها مجرد كلمات تزنها موازينُ المشاعر، وليست شعراً لتزنه موازين الأشعار !



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إهداء

إلى مَنْ أضاء عقلي وفتح مغاليق قلبي بعلمه الغزير وإخلاصه الوفير.

إلى مَنْ تعلَّمتُ منه معنى العبودية لله عز وجل والإناخة على بابه والانكسار على أعتابه والالتجاء الدائم إلى جنابه سبحانه وتعالى.. فحططتُ رحال نفسي على بابه وأنختُ على أعتابه فانتعش مني القلب والضمير، وارتاحت نفسي من عناء التدبير، فالجوارح مني تأخذ بالأسباب، أما القلب فلا يعتمد إلا على العلي القدير.

إلى من دلَّني على الينبوع الأقدس والمعين الأوحد الذي لا ينضب ولا يجَف، ألا وهو (باب الله الواحد الأحد).. (باب العبودية له سبحانه وتعالى)، بعد أن تمزَّق قلبي في السواقي والجداول، فهذه مزدحمة، والأخرى جافة، وتلك بعيدة المنال.

أما الينبوع الأوحد فإنه يتسع للناس جميعاً ولو اجتمعوا على صعيدٍ واحد ينهلون منه، ثم إنه لا يجف ولا ينضب، وفوق هذا وذاك فهو قريب قريب، يكفي لكي أنهل منه أن أضع، بل أن أعفِّر جبيني بالأرض، ثم أدعوه دعاء المضطر الذي خضعتْ له رقبتُه، ورَغِمَ له أنفُه، وفاضتْ له عبرتُه، فيملأ قلبي رضاً وسعادةً، أعطاني أم منعني؛ فأنا عبده وهو سيدي ومالكي، والخير كل الخير فيما يختار لا فيما أختار.. إنه إذاً الشراب العذب بعدما أضناني عذابُ السراب.

إلى روحك الطاهرة يا شيخنا الجليل الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي أقدِّم هذه الرسالة التي نهلتُها من دروسك وكتبك التي عكفت عليها أكثر من ربع قرن، راجيةً المولى تعالى أن يرزقني الصواب والإخلاص لوجهه الكريم، وأن ينفعني بها

أولاً، وينفع بها المسلمين خاصَّةً، وجميعَ من انضووا تحت مظلة الأسرة الإنسانية عامَّةً.

كنت فيما مضى، عندما أسمع هذا الشيخ الجليل يتحدث عن عبودية الإنسان لله عز وجل فيبكي بكاء الطفل المولع بأمه المشتاق لحضنها، أستغرب منه بكاءه وأنينه، وأقول في نفسي: لماذا يبكي؟

ما الإحساس الذي يهيمن عليه حتى تفيض عيناه عند ذكر العبودية لله عز وجل؟!

لم أكن أعلم الجواب.. لذلك كان يبكي رحمه الله، ولا أبكي.

ولكن.. لم يطل بي الزمان لمعرفة الجواب، فقد كان كثير التحدث عن العبودية إذ ينتشي بها طرباً، ويشرح ويبين - جزاه الله عنا كل خير - حتى انتعشت في نفسي مشاعر كانت موجودة - وهي موجودة عند كل إنسان بالفطرة - لكنها كانت راقدة.

فقد كنت أحس في نفسي شوقاً عميقاً إلى مجهول لا أعرف ما هو!

وكنت أحس أنَّ حاجةً مُلِحَّةً في كياني لِأَنْ أضع يديَّ على فمي فأهتف من خلالهما بأعلى صوتي وأقول (آآآه) هكذا طويلة، لتسري هذه الآه في طبقات الفضاء الواسعة ولتصل إلى أبعد مدى، وكأنها تغذي شيئاً ما مجهولاً في كياني، وتعبّر عن حنينٍ في أعماقي، ولكن.. إلى من؟ لم أكن أعلم.

وتابعت دروسه، ثم تابعت، ثم علمت أن هذا الحنين إنما هو حنين الروح إلى بارئها وخالقها ومَلَئِها الأعلى الذي أُهبطت منه، وعلمت أن اللغة العربية وغيرها تقف عاجزة عن التعبير عن هذا الحنين الفطري، وأن خير ما يسعف الإنسانَ للتعبير عنه هو هذه الـ (آه) والنغمات الشجية. وسأتحدث عن ذلك بتفصيل في هذه الرسالة.

إنها إذن مشاعر حنين الروح إلى بارئها.. مشاعر شوق العبد إلى ربه وخالقه.. مشاعر يقظة الروح إلى ذلك العهد القديم، عهد الخطاب الرباني لها قبل أن تنسكب

في الأجساد ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢].. إنها مشاعر العبودية الفطرية الاضطرارية التي فطر الله الناس جميعهم عليها ثم قال لهم ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦]، أي كما أنكم عبيد لي بالقهر والاضطرار، كونوا عباداً لي بالسلوك والاختيار.

عرفت الآن سرَّ بكاء الشيخ، فكان بعد ذلك يتحدث عن حديث العبودية الشجين ويبكي فأبكي.

كانت كلماته - ولا تزال - كالنور الساطع يسري في خلايا عقلي وأعماق قلبي، لتعقد صلحاً بين العقل والقلب بعد أن كانا متخاصمين، فقرار العقل في واد ومشاعر القلب في واد آخر. وما التربية إلا عبارة عن تحرير العاطفة المستقرة في القلب والمتمثلة بـ (الحب والخوف والتعظيم) من أسر النفس، إبتغاء تطويع تلك العاطفة لمقتضيات العقل وأحكامه.

وبتعبير آخر نقول: التربية عبارة عن ربط المشاعر الوجدانية المستقرة في القلب، من حب وخوف وتعظيم، بالله عز وجل، حباً له وخوفاً منه وتعظيماً له، وعندئذٍ يحدث انسجام بين العقل المؤمن بالله، والقلب المتجه بمشاعره وعواطفه إلى الله عز وجل. فلا تشاكس ولا تناقض.

وتابعت دروسه وعملت بنصحه، فانتقل الإيمان من قرار يحتضنه العقل - أما القلب فمتجه بمشاعره إلى الدنيا حباً لها وخوفاً عليها وتعظيماً لها - إلى قرار يحتضنه العقل ويهيمن على القلب حباً لله، وخوفاً من الله، وتعظيماً لله سبحانه وتعالى.

وغدتْ دروسُه - رحمه الله - الروحَ لروحي، فكنتُ إذا حصلت على أشرطة الكاسيت التي تحتويها أُقبِّلُها وأقول: إذا كانت الروح هي سبب حياة الجسد وبدونها يصبح ميتاً، فإن هذه الدروس التي تدل الإنسانَ على هويته عبداً مملوكاً لله عز وجل،

هي سبب حياة الروح، وبدونها تبقى الروح ظمأى، فهي روح الروح.

ما أَشْبَهَكَ يا شيخنا الجليل بالزهرة الفوّاحة، كلّما هبَّتْ عليها نسمة عليلة نشرتْ عطرها وعبقها الذي ينعش الأنفاس.

وأنت يا شيخنا الجليل كلما هبَّتْ عليك نفحة ربانية - وما أكثرها - نشرت منك عبق التذلل والانكسار والتضرع والافتقار، وفاح منك عطر العبودية الذي يأخذ بالألباب.

ولا أستغرب منك هذا الحال وقد سقاك أبوك الشيخ مُلّا رمضان البوطي رحمه الله، من مَعينها منذ نعومة أظفارك، لذلك كان كلامك يخرج من القلب الذي اكتوى بلوعة العبودية لا ليلامس شغاف القلوب، وإنما ليصل إلى صميمها وأعماقها.

اللهم ارحم شيخنا مُلّا رمضان البوطي الذي كان السبب في وجود هذا الشيخ الجليل إنجاباً وتربيةً واجزهما عنا خير الجزاء.

وكم تمنَّيتُ أن أُقبّل قدمي الشيخ مُلّا رمضان - رحمه الله - قبل وفاته، لا لشيء إلا لشدة قربه من الله - وهو مِظنَّة وِلاية - ولشدة إحساسه بتقصيره في حق الله عز وجل، فقد سُئل يوماً: أليس لك كرامات اختصك الله بها؟ حدثنا عنها ما هي؟ فقال الشيخ مُلّا رمضان رحمةُ الله عليه: بلى، لقد أكرمني الله، وإنَّ من كرامته لي أنه لم يخسف بي الأرض(١)!

هذا هو شأن العلماء الربانيين، كباراً عند الله، صغاراً عند أنفسهم.. لماذا؟

لأنهم اصطبغوا بمعنى العبودية لله عز وجل وعرفوا ربوبية الله عز وجل، وعلموا علم اليقين أنهم مهما فعلوا من طاعات وقربات فإنهم مقصِّرون في أداء حقوق الربوبية. وهذا هو التواضع الحقيقي الذي يقول عنه ابنُ عطاء الله رحمه الله: (ليس

(١) كتاب (هذا والدي).

المتواضع الذي إذا تواضع رأى أنه فوق ما صنع، ولكنَّ المتواضع الذي إذا تواضع رأى أنه دون ما صنع)[١].

ذلك لأن التواضع الحقيقي هو ما كان ناشئاً عن شهود عظمة الله سبحانه وتعالى وتجلِّي صفاتِ ربوبيته على العبد، عند ذلك تذوب النفس وتصفو من غشِّ الكبر والعجب، وتقف عند حدود عبوديتها لله عز وجل لا تتعدّاها.

وقد علَّمنا رسول الله ﷺ أن نصطبغ حقيقةً - لا تصنُّعاً - بهذا المعنى عندما قال: (لن يُدخل أحداً منكم عملُه الجنةَ) قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: (ولا أنا إلا أن يتغمدنيَ الله منه بفضلٍ ورحمة)[٢] أي إلا أن يدخلني الله الجنة برحمته لا بعملي، لأن عملي قاصر عن أداء حقٍ واحد من حقوق الربوبية، فكيف بمجموع هذه الحقوق!

وإني ما اخترت لرسالتي هذا العنوان إلا ليقيني بأن كل مصائبنا التي نعاني منها اليوم وكل آفاتنا إنما هي نِتاج نفوسٍ لم يُتَحْ لها أن تتزكّى وأن تتربّى على معنى العبودية لله عز وجل.

وإذا ما غابت مشاعر العبودية لله عز وجل عن قلب الإنسان، فإنه لا بد أن يحل مكانها أحد هذه الأمور:

- إما الاستعلاء والاستكبار على الناس لجعلهم عبيداً لهم، وهذا هو حال الطغاة والجبابرة ومثاله فرعون ومَنْ سار على منواله من فراعنة هذا العصر وكل عصر.

---

(١) الحكمة (٢٣٩).

(٢) رواه مسلم عن أبي هريرة (٢٨١٦) واللفظ له، ورواه البخاري بلفظ قريب عن أبي هريرة (٦٠٩٨).

- وإما الذلّ المقيت والعبودية الزائفة من المستضعفين لهؤلاء الطغاة والجبابرة ومثاله سحرة فرعون قبل أن يسلموا ويؤمنوا.

وعن هذين الفريقين يقول تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ﴾ [سبأ: ٣١ - ٣٢].

- فإن لم يكن هذا ولا ذاك فإنها العبودية للنفس والهوى والشهوات والرغبات الدنيوية وعن هؤلاء يقول تعالى ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٣].

فاللهمَّ أسألك بأنك أنت الله لا إله إلا أنت أن تنشلني وكلَّ عبيدك بالعبودية لك وحدك، من أن نطغى، أو أن نكون عبيداً لمن يطغى، أو أن نكون عبيداً للهوى.

واللهمَّ اجعلنا عباداً لك حقاً بالسلوك والاختيار، كما أننا عبيدك بالقهر والاضطرار، وكما أنك ربنا الواحد القهار.... آمين.

والحمد لله رب العالمين.

تلميذة الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي

رحمه الله

د. ليلى شوقي



بين يدي هذه الرسالة

أرأيتم إلى الغوّاص الذي يغوص أعماق البحار يستخرج منها اللآلئ والدُّرر؟!

أرأيتم كيف يلتقطها ثم يجمعها ثم يصعد فَرِحاً بها، يبتغي منها نفعاً مادياً لنفسه ولغيره من البشر؟!

هل هو من أوجدها؟.. قطعاً لا.

هل هو من أبدعها؟.. أبداً لا.

إنه فقط عرف قيمتها فغاص لأجلها فالتقطها فجمعها، ثم نظمها وصاغ منها أجمل حلية تُزيِّن الأبدان.

هذا الذي فعله هو تماماً ما قد فعلتُه في هذه الرسالة.. ولكن الفرق بيني وبينه أنه غاص في أعماق بحار مادية!

أما أنا فليس لي باع بالغوص، وإنما فقط لم أزد على أنْ تبلَّلْتُ على شواطئ بحارٍ معنوية، من علوم العلاّمة الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، شهيد المحراب، لألتقط منها جواهر معنوية، ودُرراً تربوية، هي أنفع للإنسان في رحلته إلى الله عز وجل، من تلك اللآلئ والجواهر المادية، إذ شتان بين ما يُزَيِّن الأبدانَ الفانية، وما يُزَيِّن القلوبَ والسرائر الباقية، في يوم قال فيه الله عز وجل: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء: ٨٨ - ٨٩]، وقال: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴿٩﴾﴾ [الطارق: ٩].

على أن كليهما عطاء من الله عز وجل ونعمة، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠]، ولكن كم من فرق بين هذه وتلك.

فالأجساد مهما تزيَّنتْ بالجواهر المادية في الحياة الدنيا، فإن الله عز وجل لا

ينظر إليها، مصداقاً لقوله ﷺ: (إنَّ الله تعالى لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم)[١]، ثم إن مآلها إلى أن ترحل عنها وتتركها لتنتقل إلى حياةٍ برزخية خالية من كل شيء، إلا الحنوط والكفن.

أما القلوب فإنها موضع نظر علّام الغيوب، فكلما تزيَّنتْ بالتقوى، من حبٍّ وخوفٍ وتعظيمٍ للمولى سبحانه وتعالى، كلما ازداد نظر الله إليها بالرحمة والعناية والرعاية، ليس فقط في الحياة الدنيا، وإنما هي زينة تلحق بصاحبها إلى الحياة البرزخية ومنها إلى الحياة الآخرة، لينعم نعيماً سرمدياً لا شقاء بعده أبداً.

لأجل هذه الأسباب، اخترت لرسالتي هذا العنوان: (منهج التزكية عند الإمام الشهيد محمد سعيد رمضان البوطي)، وجعلت مضمونها جواهر ولآلئ منتقاة من دروس وكتب ومحاضرات الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي رحمه الله.

فما لي - في هذه الرسالة - من فضل، إلا الجمع والترتيب، وإنما الفضل كل الفضل، بعد الله عز وجل، لهذا العالم الجليل، الذي أحيا بدروسه قلوبنا، وأنار بها عقولنا، وهذَّب بها نفوسنا، فلا عصبيَّات تأسرنا، ولا عواطف وأهواء تقودنا، ولا تحزّبات تدمّرنا، وإنما هو الحق المطلق المتمثل في إجماع الأمة، هو فقط منهجنا.

فاللهم إني أشهِدك أن عبدك هذا قد نصحنا، لا بل احترق فؤاده في نصحنا، وفي تجلية الحق صافياً من الكدورات أما أبصارنا وبصائرنا.. كل ذلك مضمَّخ بالرحمة والشفقة البالغين، خوفاً علينا أن نحيد عن صراط الله عز وجل.

إنه تماماً كالأب الشفوق[٢]، الذي يخشى على أولاده الضياع والهلاك، فقد

---

(١) الحديث رواه مسلم (٢٥٦٤) عن أبي هريرة.

(٢) تلك هي ميزته رحمه الله من بين العلماء، فكل مَنْ تلقى العلم على يديه يشعر بصلته بهذا الشيخ صلةَ سُمُوٍّ وعِفَّة، إنها كصلة الولد بأبيه، والفتاة بأبيها ومربيها على الهدى والرشاد، صلة منزهة عن الرعونات النفسية والأهواء المزاجية.

انبرى يشرح ويبين ويقول: (والله إنِّي ناقل لكلام العلماء وإجماعهم، ولست مجتهداً).

نعم يا شيخنا.. كل هذا العلم الغزير، والإخلاص الوفير، والسنوات الطوال في الدراسة والتدريس في هذا الاختصاص، وتقول: لست مجتهداً!

لم تأذن لنفسك - وأنت العلَّامة الكبير - أن تجتهد اجتهاداً يخالف إجماع الأمة، بل كنت ناقلاً أميناً لهذا الإجماع!

الرسول ﷺ معصوم في شخصه، وأمّته معصومة بإجماع علمائها[1]، فهو ﷺ القائل: (إن الله لا يجمع أمتي - أو قال أمّة محمد ﷺ - على ضلالة، ويد الله مع الجماعة، ومَنْ شذَّ شذَّ في النار)[2] فإذا قلنا هذا هو رأي جمهور علماء المسلمين، فإنه الحق المطلق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، كره مَنْ كره، وأحبَّ مَنْ أحبَّ.. فلئن كانت سفينة نوح عليه السلام هي أداة نجاته وأتباعه من الغرق في البحار المادية، فإن سفينة إجماع الأمة هي أداة نجاة الأُمّة من الغرق في بحار الفتن والهرج والمرج والطائفية.

---

(١) وسأتحدث في آخر هذا الكتاب، في بحث سميته (خاتمة) عن أهمية العمل بإجماع الأمة.

(٢) أخرجه الترمذي عن ابن عمر (٢١٦٧) وقال: هذا حديث غريب من هذا الوجه، ويؤيده قوله تعالى ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾ [النساء: ١١٥] ويؤيده أيضاً جملة من الأحاديث بلغت مبلغ التواتر المعنوي، كلها تدل على حجية الإجماع وعلى وجوب العصمة لهذه الأمة منها ما أخرجه الترمذي عن ابن عمر (٢١٦٥)، وابن ماجه عن أنس بن مالك (٣٩٥٠)، وأحمد عن أبي بصرة الغفاري (٢٦٦٨٢)، والطبراني في الكبير (٢١٧١)، وأبو داود عن أبي مالك الأشعري (٤٢٥٣)، والحاكم من الحديث (٣٩٥) إلى (٤٠٧)، والبخاري (٣٤١١) و (٣٤٤٢)، ومسلم (١٨٤٧) و (١٨٤٨) انظر تحفة الأحوذي للمباركفوري (ج٦/ص٣٢٠ - ٣٢١)، وانظر (الضروري في أصول الفقه) لابن رشد القرطبي (ج١/ص٩٠ - ٩١).

ولئن سَخِرَ قومُ نوح منه عليه السلام وهو يصنع سفينة النجاة، فلقد لقيت يا شيخنا الجليل من أبناء جلدتنا مَنْ أسمعك من السخرية ألواناً، وأنت ثابت راسخ رسوخ الجبال الراسيات، ولا عجب من ذلك، فقديماً قال العلماء الربانيون: من علامة الصِّدِّيقيَّة كثرةُ الأعداء ثم لا يُبالى بهم.

فاللهمَّ انشر علم هذا العالم الرباني في الآفاق، حتى يدخل الناس في دين الله أفواجاً.

اللهم إنَّ هذا العالم كان يكرمنا في جلساته من العلم والنصح على قَدْره، وقد آل بين يديك، فأكرمه اللهم على قَدْرِكَ فإنه لا يعلم حقَّ قدرك إلا أنت.

اللهم وأكرم عبدك الدكتور علاء الدين زعتري إكراماً أنت له أهل، وسدِّد خطاه وخُطا جميع علماء الشام على ما تحبُّ وترضى، إذ كان هو مَنْ طرح عليَّ فكرة الكتابة والنشر وشجعني على ذلك، فخضتُ التجربة الأولى لي في مجال النشر، أما الكتابة فقد كان لي معها تجارب كثيرة، غير أنني لم أنشر شيئاً منها، فجزاه الله عني خير الجزاء.

وقد عرضت عليه كتابي هذا بعد إنجازه وطلبت منه تقييمه، فراجعه مشكوراً وأثنى عليه قائلاً: إنه عمل في مجمله ممتاز، فتح الله عليكِ. وقام بتصحيح الأخطاء اللغوية التي وردت فيه، وأرشدني إلى خطواتٍ منهجيةٍ أتَّبعها ليكون هذا الكتاب في أعلى درجات التوثيق والتحقيق. وأنا لا أنسى فضله هذا ما حييت.

فالشكر كل الشكر للدكتور علاء الدين زعتري وأمثاله من العلماء الربانيين الذين درأوا بالعلم والإخلاص الفتنةَ عن شامنا الحبيبة، موصولاً بالشكر الجزيل لقناة نور الشام المباركة وجميع القائمين عليها، والتي كانت ولا تزال صلة الوصل بين المسلمين في كافَّة أصقاع الأرض وبين علمائهم الربانيين، إذ لولا هذه المشكاة النورانية ما وصلت أنوار علماء الشام إلى أهل الأرض قاطبة.

كما وأشكر الأستاذ المربي الشيخ محمد الفحام، الذي قرأ هذا الكتاب - مشكوراً - بالحرف، وأثنى عليه كثيراً، وعبر عن هذا الثناء لفظاً وكتابةً أتشرَّف بها ما حييت. وكم كِدْتُ أذوب حياءً واعتراني الصمت للحظات، ساعةَ شبَّه أسلوبي بأسلوب الكاتب الكبير مصطفى صادق الرافعي، وقلتُ في نفسي: أين الثرى من الثريا، ولكنني في الوقت ذاته عبَّرتُ له عن شكري له وامتناني على جبر خاطري وشَحْذ هِمَّتي، ثم رفعتُ يد الضراعة وأطلقتُ لسانَ الحمد لمولاي سبحانه وتعالى، فهو مَصدر النِّعم كلها، وهو المتفضِّل عليَّ منذ نشأتي بحب علوم اللغة العربية، نحوها وبلاغتها وآدابها، ولكنَّ شيئاً مما كتبته - كما ذكرت - لم أنشره على الإطلاق.. إلى أن فُجعنا باستشهاد الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي رحمه الله، فأخرجتُ قلمي وأوراقي وكتبتُ هذا الكتاب بِمدادين اثنين: حبري ودمعي!

لقد قام الأستاذ محمد الفحام - جزاه الله خيراً - بتصحيح ما ورد في هذا الكتاب من أخطاء لغوية - وما أكثَرها - من جهة، وتعديل بعض العبارات اللفظية من جهة ثانية.

أما الأخطاء اللغوية فقد قمتُ بتصحيحها واستدراكها، وأما العبارات اللفظية، فمن حسن خُلُق الأستاذ أنه خيَّرني بين الأخذ بها أو الإبقاء على ما هي عليه، فسلكتُ المسلكين: أما ما كان منها مأخوذاً من كتب ومحاضرات الدكتور البوطي رحمه الله فأبقيتُ عليها، وأما ما عدا ذلك فقد قمت ببعض التعديلات، وأنا مَدينةٌ له بالشكر مدى الحياة.

- وكذا أشكر الدكتور بديع السيد اللحام، الذي راجع - مشكوراً - الكتاب، خاصةً فيما يتعلَّق بتخريج الأحاديث النبوية، وأخبرني أنْ لا ملاحظة له على ما قمتُ به من التوثيقات والتخريجات، ووصف عملي هذا بالموفق، ودعا لي بزيادة التوفيق. ثم إنني راجعته في كل ما استشكل عليَّ من التعديلات، فساعدني وتفضَّل عليَّ بكثيرٍ من وقته، فجزاه الله عني كل خير.

لقد كنا نتحرى - إضافة إلى المعاني - الألفاظ والمباني التي كان يستعملها الشهيد محمد سعيد رمضان البوطي.. كيف لا، وقد كان رحمه الله قِمَّةً في العلم والفهم واستنباط خفايا المعاني، كما كان قِمَّةً في البلاغة والبيان والدقَّة في اختيار الألفاظ والمباني، فكان بحقٍّ العالِمَ الربانيَّ الرائد والمجدِّد، وكان لكلماته النورانية أثر كبير في حلِّ المشكلات الفكرية، وفكِّ المعضلات السلوكية عند جمهرةٍ كبيرة من الناس، فأحبَّه كلُّ باحثٍ عن الحقيقة بصدقٍ وإخلاص، وأبغضه كلُّ حاسدٍ ومخاتلٍ لا يبغي معرفةَ الحق، فضلاً عن أن يسير في ركابه!

فالحمد لله على ما أخذ منا - يوم أكرمه بالشهادة - والحمد لله على ما أبقى لنا من علماء عاملين سائرين على نهجه، قائمين بالحق إلى يوم القيامة، وهم بالشام.

وأحيِّي في العلماء المشْرفين على هذا الكتاب جميعِهم صفةَ التجرُّد والإخلاص لله عز وجل، حتى لقد قال قائلهم: إذا ثبتَ عزو الكلام إلى الدكتور الشهيد البوطي رحمه الله - وهو الحُجَّة - فكلامُنا من وراء كلامه.

فجزاهم الله جميعاً عني وعن الأمة الإسلامية خير ما جازى عالِماً عن أمَّته

اللهم أتمم علينا نعمتك، وحقِّقْ فينا وعدك لنبيك محمد ﷺ القائل:

- (إني رأيت كأن عمود الكتاب انتزع من تحت وسادتي، فأتبعته بصري، فإذا هو نور ساطع عمد به إلى الشام، ألا وإن الإيمان إذا وقعت الفتن بالشام)[(١)].

- (سيصير الأمر إلى أن تكونوا جنوداً مجندة، جند بالشام، وجند باليمن، وجند بالعراق) قال ابن حوالة: خِر لي يا رسول الله إن أدركت ذلك، فقال ﷺ: (عليك

---

(١) رواه الحاكم (٨٦٠١) عن عبد الله بن عمرو بن العاص وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ورواه بلفظ قريب: أحمد (١٧٣٢١) عن عبد الله بن عمرو، و (٢١٢٢٦) عن أبي الدرداء، والطبراني في الكبير (ج٨ / ص١٧٠ برقم ٧٧١٤) عن أبي أمامة، وفي الأوسط (ج٣ / ص٣٣٣ رقم٢٧١٠) عن عبد الله بن عمرو.

بالشام فإنها خيرة الله من أرضه، يجتبي إليها خيرته من عباده، فأما إن أبيتم فعليكم بيمنكم واسقوا من غُدُرِكم، فإن الله توكل لي بالشام وأهله)[١].

- (لا يزال من أمتي أمة قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم، حتى يأتيهم أمر الله وهم على ذلك)، قال معاذ: وهم بالشام[٢].

- (الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة، وعقر دار المؤمنين بالشام)[٣].

- (الأبدال يكونون بالشام، وهم أربعون رجلاً، كلما مات رجل أبدل الله مكانه رجلاً، يسقى بهم الغيث، وينتصر بهم على الأعداء، ويصرف عن أهل الشام بهم العذاب)[٤].

- (إن فسطاط المسلمين يوم الملحمة بالغوطة، إلى جانب مدينة يقال لها دمشق، من خير مدائن الشام)[٥]. ومعنى فسطاط: الحصن الذي يتحصن فيه المسلمون.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

د. ليلى شوقي

---

(١) رواه أبو داود (٢٤٨٣)، وأحمد (١٦٥٥٧) كلاهما عن ابن حوالة، ورواه بلفظ: (فإن الله تكفل لي بالشام وأهله) أحمد (١٩٨٤٣)، والحاكم (٨٦٠٣)، والبيهقي في السنن الكبرى (ج٩ / ص١٧٩) كلهم عن أبي حوالة، ورواه الطبراني في الكبير (٤٢٢٢) عن أبي طلحة الخولاني، وعبد الرزاق في مصنفه (٢٠٤٥٦) عن أبي قلابة.

(٢) رواه البخاري (٣٤٤٢) عن معاوية، ومسلم (١٩٢٠) عن ثوبان، واللفظ للبخاري.

(٣) رواه الطبراني في الكبير (ج٧ / ص٥٢ رقم٦٣٥٧) عن سلمة بن نفيل.

(٤) رواه أحمد (٨٩٨) عن علي بن أبي طالب، ورواه بلفظ قريب الطبراني في الكبير (ج١٨ / ص٦٥ رقم ١٢٠) عن عوف بن مالك.

(٥) رواه أبو داود (٤٢٩٨) عن أبي الدرداء، ورواه بلفظ قريب: أحمد (٢١٢١٨) عن أبي الدرداء، والحاكم (٨٥٤٣) عن أبي الدرداء وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، والطبراني في الكبير (ج١٨ / ص٤٢ رقم ٧٢).

كلمة شكر وامتنان

إلى فضيلة الشيخ الدكتور
محمد توفيق رمضان البوطي وعائلته المحترمة

إلى الدكتور محمد توفيق رمضان البوطي المحترم أقدم هذه الكلمة، ممزوجة بمشاعر الإكبار والتوقير له ولعائلته الفاضلة المباركة، بدءاً بالشيخ ملا رمضان البوطي رحمه الله، العالم والفقيه والمربّي الربّاني، والمهاجر في سبيل الله إلى قبلة العلم والعلماء (دمشق)، التي شهد لها رسول الله ﷺ أنها خيرة الله من أرضه، فازدادت به شرفاً فوق شرفها، كيف لا وقد قيل: يَشرف المكان بشرف المكين!

هذا العالم - بفضل الله ورحمته - كان هو السبب في وجود هذه السلسلة الربانية من العلماء العاملين المخلصين، الذين تفخر بهم بلاد الشام عامة، ودمشق خاصة، لما لهم من الأيادي البيضاء، واللسان الصادق، والهمّة العالية، والقلب الرحيم.. فكان لذلك تأثيره الكبير في تنوير العقول وتطبيب القلوب وتهذيب النفوس، في زمن عصيب، فشا فيه الجهل، واستحكمت فيه النفوس الأمارة والقلوب المريضة، فكان القرار بيد الأمزجة والأهواء، بدلاً من الشريعة الغراء، التي أحكمها رب الأرض والسماء القائل: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥].

ولو أن العلماء عامة كانوا على هذه الدرجة من العلم والإخلاص ومعرفة الواقع وما يحاك لهذه الأمة على أيدي الصهيونية العالمية والمسيحية المتهوّدة، إذن لأخمدت هذه الفتنة في أيامها الأولى، ولما سالت كل هذه الدماء الزكية الطاهرة.. ولكن المشكلة في علماء حُشيت عقولهم بالعلم وفرغت قلوبهم من التقوى، فكانت

القيادة بيد النفس والهوى، فحاق بنا الفساد الذي حذرنا منه الله عز وجل بقوله:
﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الروم: ٤١].

ثم مروراً بأبيه الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي رحمه الله وجعله في الفردوس الأعلى، الذي جمع بين العلم الغزير والإخلاص الوفير، والأسلوب الرفيع والتعبير البليغ، مدعوماً بالمثال الرائع واستقصاء الواقع، فكان أشبه ما يكون بالإمام الغزالي - حجة الإسلام - رحمه الله، ولئن فصلت بينهما قرون وأزمان، فقد جمع بينهما جلال المكان، فها هو مثوى الدكتور العلامة البوطي، عن يمينه غرفة الإمام الغزالي التي اعتزل فيها عشر سنوات، ألف خلالها كتابه الفريد (إحياء علوم الدين)، وعن يساره مثوى صلاح الدين الأيوبي رحمه الله، القائد الحربي الربَّاني، فغدا دُرَّةً بين دُرَّتين، والجامع المشترك بينهم جميعاً هو المنافحة عن الإسلام، إنْ بالقلم أو بالسيف، فيا طيب ذاك الثرى الذي جمع بينهم، والذي بهم يعلو على الثريا.

وعلى الرغم من جراح قلبي أقول: الحمد لله الذي أكرم شيخنا البوطي بالشهادة، وأنهى حياته على أحب الأعمال إليه، جمع له بها بين العلم والعبادة، فقد رحل -رحمه الله - إلى الله في مجلس تفسيره لكتابه عز وجل، فلما حملوه إثر ذلك التفجير الذي أودى بحياته وحياة كثير من طلاب العلم، أشار إليهم أن ضعوني على الأرض، فسجد سجدة لله عز وجل، وكانت هي آخر ما فارق عليه الدنيا.

ولو أننا لم نعلم عن بداياته شيئاً، لكانت نهايته هذه، هي الدليل الساطع والبرهان القاطع من الله على أنه عاش على الحق ومات عليه فـ (المرء يموت على ما عاش عليه، ويبعث على ما مات عليه)، و (من أشرقت بدايته أشرقت نهايته)، فكيف وقد خبرنا بداياته من علم واستقامة وإخلاص لله، ورحمة وشفقة حتى على العاصين من عباد الله؟!

ألا فليعلم ذاك الذي أفتى بإظهار الفرح بمقتله أنه قاتل، كائناً من كان، لأنه رضي بذلك، ولو بإيماءة رأس أو تحريكة لسان.

هذه هي نهاية عالمنا الجليل، والتي لا يقضي بها إلا الله، الذي يعلم السر وأخفى، فَلْيُرِنا ذاك الذي ينفخ بنيران الفتنة نهايته! نسأل الله عز وجل العفو والعافية وحسن الختام.

وأما شيخنا الدكتور محمد توفيق رمضان البوطي، فثمرة طيبة لغرس طيب، صحب أباه وجده في سنوات مديدة، فأخذ منهما إضافة إلى العلوم العقلية، التربية القلبية والتزكية النفسية، فكان بحقٍّ خير خَلَفٍ لخير سلف.

ونحن المسلمين إذ نعوّل عليه كثيراً، نسأل الله عز وجل أن ينير دربه ويعينه ويوفقه إلى كل خير، وأن يصرف به وبأمثاله من العلماء الربانيين، الفتنةَ عن شامنا الحبيبة وعن يمننا وعراقنا وسائر بلاد المسلمين، وأن يرد كيد أعداء الإسلام في نحورهم وأن يجعل مكرهم يحيق بهم وبأعوانهم من علماء السوء وعبيد الدرهم والدينار.

هذا وقد وضعت كتابي هذا بين يديه، وكلي أمل أن ينتشر هذا العلم في أصقاع الأرض، فتستنير به عقولنا، وتتهذب به نفوسنا، وتتوجه به قلوبنا إلى خالقها وبارئها، فهو علم ربَّاني مأخوذ عن عالم ربَّاني.. جعله الله عز وجل في مقعد صِدْقٍ عند مليك مقتدر.

ولقد قام - مشكوراً - بمراجعة الكتاب وتنقيحه، وأول كلمةٍ سمعتها منه بعد فراغه منه قوله: ممتاز ممتاز، إنَّ عبارات الصدق والإخلاص واضحة فيه، فالله أسأل أن أكون خيراً مما يظنون ويقولون، وأن يكتب لي ولكتابي هذا القبول في الأرض وفي السماء.

فالشكر كل الشكر للدكتور توفيق البوطي، وجزاه الله عني خير ما جازى عالماً عن أمته.

ابنة الشام البارة

وتلميذة الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي

د. ليلى شوقي

الفصل الأول

معنى التزكية وعلاقتها بكل من العقل والقلب والنفس

المبحث الأول: تعريف التزكية، وتعريف كل من العقل والقلب والنفس، ودور كل منها.

المبحث الثاني: لماذا يحذرنا الله بشدة من النفس؟

المبحث الثالث: مراحل انتقال النفس بالتزكية، من الأمارة بالسوء إلى اللوامة فالمطمئنة، وانتقال القلب من المريض إلى السليم، وانتقال العقل من المغلوب والمحكوم للنفس إلى الغالب والحاكم عليها.

المبحث الرابع: ما معنى قوله ﷺ: (كل الناس يغدو، فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها)؟

المبحث الخامس: متى تفوح من العبد رائحة عبوديته لله عز وجل؟

المبحث السادس: لماذا قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾، ولم يقل: (إلا من أتى الله بأوقار من العلوم والعبادات)؟

الفصل الأول

معنى التزكية وعلاقتها بكل من العقل والقلب والنفس

المبحث الأول: تعريف التزكية، وتعريف كل من العقل والقلب والنفس، ودور كل منها:

التزكية في اللغة: هي التطهير.

وهي في الشرع: تطهير النفس من الرعونات، أي من العواطف الشاردة عن ضوابط العقل، ومن الأهواء، ومن كل الصفات المهلكة من كبر وعجب ورياء وغرور وأنانية وعصبية وحبٍ للدنيا بكل أشكالها وشهواتها من مالٍ وجاهٍ وزعامةٍ ومنصبٍ ورئاسةٍ.. وهي التي سمّاها الله عز وجل (باطن الإثم) حين قال: ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٠]، وتربية القلب ليقوم بوظيفته التي خُلق لأجلها من معرفة الله وتوحيده والإخلاص له ومحبته والتعلق به وحده وإيثاره على كلِّ ما سواه، والخوف منه والتعظيم له. وبتوحيد الله عز وجل في ذاته وصفاته وأفعاله يتخلّص العبد من غفلاته ويستيقظ لمراقبة الله عز وجل.

وبتطهير النفس من الصفات المهلكات والمسماة (باطن الإثم)، وبتربية القلب على الصفات المنجيات والمسماة (باطن الطاعة)، تنتقل النفس من النفس الأمارة بالسوء إلى النفس اللوامة ثم إلى النفس المطمئنة التي قال الله عز وجل عنها: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٢٩﴾ وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾﴾ [الفجر: ٢٧ - ٣٠]، وينتقل القلب من القلب المريض إلى القلب السليم الذي قال الله تعالى عنه: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء: ٨٨ - ٨٩]، وينتقل العقل من المغلوب والخادم للنفس والهوى إلى الغالب، والقائد لها،

وقد نبّه الله عز وجل إلى أهمية العقل والتفكر في آياتٍ كثيرةٍ بلغت مئة ونيف، منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ١٩٠]، وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤].

لذلك قال العلماء: التزكية والتربية مترادفان، وهي ليست أكثر من ترويض الوجدان او العواطف - ومكمنها القلب - ابتغاء تطويعها لمقتضيات العقل وأحكامه؛ أي: إخضاع العاطفة المستقرة في القلب لقرار العقل وحكمه الصحيح. وقُصارى ما يهدف إليه المربون أن تتلاقى كلا القوتين، العقلية والوجدانية في كيان الإنسان على طريق واحد في تعاون وانسجام، دون أي تناقض أو تشاكس.

إنها إذن محاور ثلاث يتكون منها كيان الإنسان هي: العقل والقلب والنفس، بها تتحقق إنسانية الإنسان، وبسرها كان للإنسان تاريخه العجيب فوق هذه الأرض سلباً وإيجاباً[(١)].

أما العقل: فهو أداة الإدراك والوعي ومحل التفكير والإيمان بالله عز وجل، فإذا ما تفكر الإنسان وتأمل فسيصل حتماً إلى الإيمان بالله عز وجل، فدور العقل لا يزيد عن كونه إضاءة للطريق تماماً كالمصباح يكشف للإنسان الطريق ويبصِّره بالحق سواء كان صاحب هذا العقل مؤمناً أم ملحداً.

تلك هي وظيفة العقل، أما المؤمن فقد أذعن لقرار عقله فآمن، وأما الملحد فقد حجبه كبره عن الإذعان لقرار العقل مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

وأما القلب: فهو مكمن الوجدان أو العواطف بأقسامها الثلاث:

---

(١) الإسلام ملاذ كل المجتمعات الإنسانية (ص٢٠٠-٢٠١)، والحب في القرآن (ص١٠٦-١٠٧)، وشرح الحكم العطائية الدرس (١٣)، ودروس التزكية قبل التقنية الدرس (١)

- العاطفة الدافعة: وهي عاطفة الرغبة والحب.

- العاطفة الرادعة: وهي عاطفة الخوف.

- والعاطفة الممجدة: وهي عاطفة التعظيم والإعجاب.

ودور الوجدان أو العواطف هو أنه المحرك والمهيج للسلوك حسبما تمليه عليه الرغبة والرهبة والتعظيم، مهما كان نوعها ومصدرها.

ثم إن القلب كالمرآة لا تخلو في لحظة من اللحظات من انطباع صورةٍ ما عليها، حتى لو أنك ذهبتَ تسترها بساتر لانطبعتْ صورة ذلك الساتر عليها. فكذلك القلب لا يخلو في لحظةٍ من اللحظات من انطباع صورة من صور الرغائب والمحابِّ عليه، وكما أن المرآة إذا وجَّهتَها إلى الشمس انطبعت صورة الشمس عليها، ولو وجَّهتَها إلى بئر مظلمة انطبعت صورة الظلام عليها.. فكذلك القلب إنْ توجَّه بمرآته إلى العالم العلوي متأملاً في عظيم صنع الله وفي رسائل الحب المتمثلة بالنعم الوافدة إليه لحظة فلحظة من الله وفي لوحات الجمال المبثوثة في الكون، إذاً لانطبع حبُّ الله على مرآته، فغابتْ إثر ذلك الصور والأشكال التي كانت مثبتة قبلها، وإذا انطبع حبُّ الله عز وجل على القلب سار الإنسان بسلوكه وراءه طالباً مرضاة ربِّه الذي أحبَّه ساعياً في خدمته مخالفاً هوى نفسه، وبذلك يكون عبداً لله، وبذلك يدخل في مضمون قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ﴾ [الحجر: ٤٢].

أمَّا إنْ توجَّه القلب بمرآته إلى دنيا الشهوات والأهواء والرعونات، إذاً لانطبع حبُّها على مرآته، وإن انطبع حب الشهوات على القلب، سار الإنسان بسلوكه وراءها طالباً إياها، وبذلك يكون عبداً لهواه، داخلاً في مضمون قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الجاثية: ٢٣]، فأياً كانت الصور والأشكال المثبتة على

مرآة القلب، فإن قرار السلوك بيدها[١].

ولا تظهر عبودية الإنسان لله عز وجل إلا بفعل ما لا يتفق مع شهواته وأهوائه ورغباته، فالعبد لله ينبغي أن يستجيب لأوامر سيده مهما كانت شديدة على نفسه، وعندها تفوح منه رائحة العبودية لله عز وجل وهذه هي فائدة التزكية.. مجاهدة النفس في سبيل إخضاعها لقرارات العقل[٢].

ولو حُرم الإنسان من الشعور بهذا الجهد الذي يبذله في سبيل مخالفة نفسه إرضاءً لربه، وحل محله الشعور بالمتعة واللذة لدى النهوض بما طلب منه، إذاً لبطل معنى التكليف، ولحرم من المثوبة والأجر، ولهبط إلى مستوى الملائكة الذين جبلهم الله على الطاعة فلا يتأتى منهم معصية قط، وقلنا: هبط، وليس صعد، لأن الملائكة تُلْهَمُ الطاعة كما نُلْهَمُ نحن النَّفَسَ، وكما أننا لا نثاب على عملية التنفس من شهيق وزفير لأننا مجبولون عليها، فكذلك الملائكة لا تثاب على الطاعة لأنها مجبولة عليها.

فالتكليف معناه: فعل ما فيه كلفة ومشقة إرضاءً لله عز وجل.. نعم إذا سار الإنسان في مجاهدة نفسه أشواطاً وصل في نهاية هذا الطريق إلى لذة الأنس بالله والقرب منه، لذلك كان إبراهيم بن أدهم وهو من العارفين بالله عز وجل يقول: (لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه من النعيم والسرور، لجالدونا عليه بالسيوف أيام الحياة)[٣].

---

(١) كتاب الإسلام ملاذ كل المجتمعات الإنسانية (ص٢٠٠)، والحب في القرآن (ص١٠٣- ١٠٦- ١١٧).

(٢) فالعقل يُعلِم صاحبَه- أيا كان- بالفطرة أنه عبد لكائن ما، وعليه أن يبحث عن مالكه ومعبوده، فإن سار في طريق البحث الموضوعي بعيداً عن العصبية والمصالح والأهواء، فلا بد أن يصل إلى الله سبحانه وتعالى، لذلك كان العقل أشرف المخلوقات. فالعقل الصافي لا ميزان له إلا الشرع. هذا ما جاء في شرح رياض الصالحين الدرس (٢٧).

(٣) (صفة الصفوة) لابن الجوزي (ج٣/ ٣٣٥).

فالحب إذاً هو المحرك والمهيج للسلوك وليس الإيمان العقلي الأعزل، لذلك قال العلماء: إن اختيار الإنسان يتبع رغبته، أي يتبع الحب الذي استقر في قلبه، سواء في أمور الدين أو في أمور الدنيا.. فالمريض الذي يستجيب لكلام الطبيب إنما يندفع إلى ذلك بدافع من الحب لذاته، والمريض الذي لا يستجيب لكلام الطبيب إنما يندفع إلى ذلك بدافع من الحب للطعام.

وكذلك سلوك العبد لا يمكن أن يستقيم بدافع من الإيمان العقلي فقط، وإنما يستقيم- بعد الإيمان- بدافع الحب، فالإيمان العقلي هو شرط ضروري ولكنه غير كافٍ، إذ لا يقود- وحده- صاحبَه إلى السلوك الذي يرضي الله عز وجل.

لأجل ذلك جعل البيان الإلهي محبةَ الله عز وجل جزءاً من الإيمان به، بل أساسه قائلاً: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة: ٢٤].

وأكد رسول الله ﷺ ذلك فقال: (لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما)[١].

ومن الثابت أن جميع ما يصدر عن الإنسان من سلوك وتصرفات إنما هو بدفع وإيعاز من ملكتي العقل والوجدان، على أن العقل كاشف كمصباح السيارة يكشف لك الطريق، وأما الوجدان أو العاطفة فهو المهيِّج للسلوك، تماماً كوقود المركبة الذي يدفع بها إلى الأمام وفي كل الاتجاهات، لذلك كان ٣٠ - ٤٠ ٪ فقط من الدوافع السلوكية تأتي من العقل، بينما ٦٠ - ٧٠ ٪ من الدوافع السلوكية تأتي من

---

(١) مسند الإمام أحمد (١٢٧٣٩) عن أنس بن مالك.

الوجدان، فالعقل إذاً له سلطان، ولكن سلطانه ضعيف[١].

من أجل هذا يقرر علماء التربية قديماً وحديثاً أن الوجدان كثيراً ما ينفصل عن العقل، فيندفع الإنسان بدفع العاطفة إلى مسالك لا يقرّها الفكر السليم، لا سيما عندما تستبد الأهواء والشهوات وروح العصبية ونحوها بالوجدان، فإنَّ سائر دوافعه وروادعه إنما تتكون من تلك الأهواء والشهوات ونحوها.

والواقع يؤكد ذلك، فكثيرون هم الذين يتمتعون بمدارك واعتقادات سليمة، ولكنهم عند التطبيق لا يستطيعون أن يُلزِموا أنفسهم إلا بجزء يسير مما تستوجبه قناعاتهم الفكرية[٢].

هنا ينشأ الازدواج والتشاكس بين العقل والقلب، فالعقل مؤمن بالله وبرسوله وبسائر مقتضيات الإيمان، أما القلب فبدلاً من أن ينصرف بعواطفه الثلاث إلى ما قد آمن به العقل، حباً له وخوفاً منه وتعظيماً له، نجده منصرفاً إلى الدنيا والأهواء والشهوات والعصبيات، حباً لها وخوفاً عليها وتعظيماً لشأنها. وعندئذٍ هيهات أن يخضع صاحب هذا القلب إلى كتاب الله عز وجل وسنة رسوله، فيفعل ما أُمر به وينتهي عما نُهي عنه، وإنما سيخضع إلى ما فاض قلبُه بحبّه وما تُمليه عليه رغباتُ نفسه وشهواتها وأهواؤها وعصبياتها، وعندئذٍ يظهر الفساد في الأرض، ويحيق بأهلها - الذين رضوا بذلك - غضب الله ومقته.

فَمَنِ الذي صادر وأسر عواطف القلب لحساب الأهواء والشهوات، بدلاً من أن تكون منصرفةً ومتَّجهةً إلى الله رب البريات؟

---

(١) يستثنى من هذه القاعدة من اقتحم عقبة النفس وكسر طوقها الذي يأسر العقل وانطلق متحرراً من كل سلطان إلا سلطان العقل الكامل المجرد، وتلك وظيفة التزكية. هذا ما جاء في كتاب الإسلام ملاذ كل المجتمعات الإنسانية (ص٢٠٠وص٢٥٢).

(٢) الإسلام ملاذ كل المجتمعات الإسلامية (ص٢٠٠- ٢٠١).

ومن هو المسؤول عن التشاكس والازدواج بين العقل والقلب؟

إنها النفس: ويُعبَّر عنها بالغريزة الحيوانية المغروسة في كيان الإنسان، أو بالغريزة البشرية.

هذه الغريزة البشرية لها أوصاف كثيرة،منها ما هو مباح ومحمود، ومنها ما هو مذموم.

- **أما المحمود منها** فهو ما فطر الله عليه الإنسان من الشعور بمعنى العبودية لله ومن الحاجة إلى الطعام والشراب والمأوى، ورغبة الإنسان في أن يستأنس بأخيه الإنسان وبالراحة ويركن إلى زوجته وأولاده.

فهذه الصفات لا بد منها للإنسان ليؤدي من خلالها وظائفه وليضمن بقاءه.

- **وأما المذموم منها** فهو استعداد الإنسان للكبر والعجب والأنانية والرياء والعصبية للذات أو القوم أو الجماعة، وحب الدنيا بكل أشكالها وشهواتها من مالٍ وجاه وزعامة وما يتفرع عن ذلك من الحقد والحسد والضغائن والشحناء، فهذه صفات تتناقض مع عبودية الإنسان لله عز وجل، ولا بد للمسلم الصادق في إسلامه أن يجاهد نفسه في سبيل التحرر منها، والاصطباغ بصبغة العبودية لله عز وجل، فيكون عبداً لله بالسلوك والاختيار، كما أنه عبد لله بالقهر والاضطرار.

إن صفة الكبر، والتي هي ينبوع تلك الصفات المذمومة، تتناقض مناقضة حادة مع عبودية الإنسان لله عز وجل، إذ معنى العبودية هو منتهى الذلّ الناتج عن منتهى الفقر والضعف، والكبر يناقض ذلك مناقضة حادة.

وكذلك التعلق بالدنيا هو نقيض العبودية، لأن المسلم عندما يتعلق بها يكون عبداً لها لا عبداً لله[1].

---

(١) كتاب (الحكم العطائية شرح وتحليل) لـ د. البوطي المجلد الأول (ص٤٢٦-٤٢٨) إضافة إلى الدروس الصوتية.

والنفس هي مصدر الابتلاء الأوَّل الذي ابتلى اللهُ به الإنسان، وهي أشدُّ من الشيطان.

فالله عز وجل يقول عن النفس: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف: ٥٣].

ويؤكد رسول الله ﷺ هذا المعنى بقوله: (أعدى عدوِّك نفسُك التي بين جنبيك)[1].

بينما يقول تعالى عن الشيطان: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦].

المبحث الثاني: لماذا يحذرنا الله ورسوله ﷺ بشدة من النفس؟

الجواب: لأن النفس إذا تُركت بدون تزكية فإنها تقود صاحبَها إلى الطغيان.

والطغيان: هو مجاوزة العبد حدَّ عبوديته لله عز وجل، وتطاوله واستكباره. وإذا انسلخ العبد من حصن عبوديته لله عز وجل، فلا شكَّ أنه سيقع في فخِّ وشِراك العبودية للدنيا والنفس والهوى، وهذا يقوده في الآخرة إلى الجحيم، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ [النازعات: ٣٧ - ٣٩]، ويقوده في الدنيا إلى التعاسة والشقاء مصداقاً لقوله ﷺ: (تَعِسَ عبد الدينار والدرهم والقطيفة والخميصة، إن أُعطي رضي، وإن لم يعط لم يرضَ)[2]، أي هلك - وهذا إخبار وليس دعاء - مَنْ نفض يده عن مبايعته لله عز وجل أن يكون عبداً له، ومدَّ يده إلى الدنيا ليبايعها على أن تكون إلهه ويكون عبداً لها، فهذا الإنسان لن يذوق معنى السعادة لا في الدنيا ولا في الآخرة.

---

(١) أخرجه البيهقي في الزهد الكبير (٣٤٣) عن ابن عباس بسند ضعيف، وذكره العجلوني في كشف الخفاء (٤١٢) وضعفه.

(٢) أخرجه البخاري (٢٧٣٠) عن أبي هريرة.

والتزكية نقيض الطغيان، يقول تعالى: ﴿ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝١٧ فَقُلۡ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ۝١٨ وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ ۝١٩﴾ [النازعات: ١٧ - ١٩]، فقد وجّه الله عز وجل موسى عليه السلام في معالجته لطغيان فرعون إلى أصل العلاج وهو التزكية، ولم يقل له ابتداءً: ارجعْ عن هذه الربوبية الزائفة وارفع يدك عن ظلم الناس، لأنَّ النصيحة لا تجدي شيئاً إن لم يبدأ فرعون بتزكية نفسه وتطهيرها من أمراضها[(١)]، وباختصار نقول:

التزكية = العبودية لله عز وجل: أي أن يجعل الإنسان نفسَه تابعةً لقرارات عقله.

الطغيان = العبودية للدنيا والنفس والهوى: أي أن يجعل الإنسان عقله خادماً لرعونات نفسه.

هذا هو الفرق بين التزكية التي يكون العقل فيها هو القائد للنفس، وهذا هو العاقل، وبين الطغيان الذي يكون العقل فيه هو التابع والخادم للنفس والهوى، وهذا هو الأحمق.

وقد بيَّن لنا رسول الله ﷺ الفرق بين العاقل والأحمق بقوله: (الكيِّس من دان نفسَه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنّى على الله)[(٢)].

أي: العاقل هو مَنْ أذلَّ نفسه ووضعها تحت سلطان وحكم عقله وتفكيره، ولم يدعها تتسلط على عقله، ثم انطلاقاً من ذلك عمل لما بعد الموت، وهذا هو معنى قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ۝٤١﴾ [النازعات: ٤٠ - ٤١].

---

(١) دروس التزكية قبل التنقية الدرس (١).

(٢) رواه الترمذي (٢٤٥٩) وقال: حديث حسن، وابن ماجه (٤٢٦٠)، وأحمد (١٦٦٧٤)، جميعهم عن شداد بن أوس.

وأما العاجز - أي الأحمق - فهو الذي ترك نفسه تتمادى وتسيطر على عقله وتفكيره، ومن ثم فهو ذاك الذي يحصر اهتمامه بما قبل الموت ولا يلقي بالاً لما هو مقبل عليه بعد الموت، فيجر نفسه إلى حيث الشقاء والهلاك، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٣٧ - ٣٩][(١)].

يقول ابن عطاء الله رحمه الله: (أَخرُجْ مِنْ أوصاف بشريَّتك عن كل وصف مناقض لعبوديتك، لتكون لنداء الحق مجيباً، ومن حضرته قريباً)، أي: جاهد نفسك لكي تتحرر من صفات بشريتك المذمومة كالكبر والعجب والغرور والأنانية والعصبية وحب الدنيا وما يتفرع عنها من الحقد والحسد والرياء والضغائن والشحناء، وذلك بمعرفتك أنك عبد لله مملوك له في كل شيء، وأنك لا تملك شيئاً، والله عز وجل هو المالك لكل شيء. ولطالما كانت هذه الصفات تتناقض مع عبوديتك لله عز وجل فاخلع نفسك عنها وجاهد نفسك في ذلك عندئذٍ سيشتعل قلبك بالحب لهذا الإله الذي يملكك ويملك كل النعم التي تسبح في بحارها، وبالخوف منه والتعظيم له، وبهذه العواطف المتَّجهة لله ستُساق إلى فعل ما أمر به الله والانتهاء عما نهى عنه، كيف لا وقد علمنا أن السلوك بيد العواطف والوجدان، وهذا هو معنى قوله: (لتكون لنداء الحق مجيباً)، ثم قال: (ومن حضرته قريباً) أي: تكون في معيَّته، معيَّة الرعاية والتوفيق والهداية، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [العنكبوت: ٦٩][(٢)].

من هنا كانت الحاجة إلى التزكية، فهي ليست أكثر من ترويض الوجدان أو العواطف - ومكانها القلب - ابتغاء تحريرها من أسر النفس ومن ثم تطويعها

---

(١) شرح رياض الصالحين الدرس (٦٨).

(٢) شرح الحكمة (٣٤) من كتاب (الحكم العطائية شرح وتحليل) المجلد الأول ص (٤٢٦) ومن الدروس الصوتية.

لمقتضيات العقل وأحكامه، فهي إذن تستهدف ربط المشاعر الوجدانية بما آمن به العقل، وهو الله عز وجل، حباً له وخوفاً منه وتعظيماً له ورضاً عنه وتوكلاً عليه، عندئذٍ يحدث الانسجام بين العقل والوجدان، أي: بين العقل والقلب، فكلاهما متَّجه إلى الله عز وجل، إيماناً به وحباً له وخوفاً منه وتعظيماً له سبحانه، سار كل من العقل والقلب في اتجاه واحد، فلا تشاكس ولا تناقض، وهذا هو القلب السليم الذي تعلقت عواطفه ووجداناته بالله عز وجل، حباً له وخوفاً منه وتعظيماً له، بعد أن كانت أسيرة بيد النفس والهوى(١).

وعن هذا القلب يحدثنا رسول الله ﷺ فيقول: (ألا وإن في الجسد مضغةً إذا صلَحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب)(٢).

---

(١) الإسلام ملاذ كل المجتمعات الإنسانية (ص٢٠١)

(٢) متفق عليه، البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩) كلاهما عن النعمان بن بشير، وهو جزء من حديث: (إن الحلال بين...).

المبحث الثالث: مراحل انتقال النفس بالتزكية من الأمّارة بالسوء إلى اللوامة فالمطمئنة، وانتقال القلب من المريض إلى السليم، وانتقال العقل من المغلوب والمحكوم للنفس إلى الغالب والحاكم عليها:

١ - قبل التزكية أو التربية	٢ - أثناء التزكية	٣ - بعد التزكية
أما النفس: فتكون أمارة بالسوء، قد أذعنت للشهوات وقويت حتى استولت على عواطف القلب وجنَّدتها لتلك الشهوات، ولا تزال تقوى وتشتد حتى تدخل في طور الطغيان وينتقل إليها زمام القيادة. وأما القلب: فيكون مريضاً لأن عواطفه الثلاث خادمة للنفس أسيرة لها ولشهواتها وأهوائها. وأما العقل: فيكون مغلوباً على أمره، يقول لصاحبه: هذا هو الحق وهذا هو الباطل، ولكن اعذرني فأنا لا أستطيع أن أحملك حملاً على اتباع الحق، وإنما هذا دور العاطفة، والعاطفة عندك مستعمرة للأهواء والشهوات فأنا لا أستطيع أن أفعل شيئاً.	أما النفس: فتصبح لوّامة لصاحبها، فهي لا تسكن وتذعن للشهوات، بل تدافعها وتعترض عليها وتلوم صاحبها على مخالفة العقل ومتابعة هوى النفس، وشيئاً فشيئاً يقوى العقل وتضعف النفس ولكن بشكل جزئي نسبي، وأما القلب: فلا يزال مريضاً ولكن في طريقه إلى الشفاء، إذ تتأرجح عواطفه بين العقل والنفس، فتارة تخدم هذا وتارة تخدم تلك. وأما العقل: ففي صراع دائم مع النفس فتارة تكون له الغلبة، وتارة يكون مغلوباً لها.	أي بعد السير أشواطاً في التزكية، مع العلم أنه لا آخر لمجاهدة النفس إلا الموت: فالنفس: تصبح مطمئنة، والنفس المطمئنة هي تلك التي سكنت لأمر ربها وزايلها الاضطراب بسبب استمرارية معارضتها للشهوات، وبالتالي فهذه النفس تضعف وتصبح تابعةً للعقل الذي ينتقل إليه زمام القيادة. والقلب: تصبح عواطفه الثلاث خادمة للعقل الذي يوجهها إلى معرفة الحق، ومن ثم إلى حبّه وتعظيمه والخوف منه، وهذا هو القلب السليم. والعقل: يقوى وينتقل إليه زمام القيادة.

رسم توضيحي لكل من العقل والقلب والنفس في مراحل التزكية الثلاث







وقد حثَّنا رسول الله ﷺ على مجاهدة النفس للوصول بها إلى درجة النفس المطمئنة بقوله: (لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تَبَعاً لما جئتُ به)[1]، أي: لا يؤمن أحدكم تمام الإيمان حتى يكون هوى نفسه وعواطف قلبه تابعة لما آمن به العقل مما جاء به رسول الله ﷺ من عند ربه.

وبذلك يكون المسلم قد جمع بين إيمان يهيمن على العقل إدراكاً ويقيناً، ويهيمن على القلب حباً لما يحبه الله، وكراهية لما يكرهه الله، وذلك هو الوقود الذي يدفع المسلم للسير في طريق مرضاة الله عز وجل، ممتثلاً أوامر الله مبتعداً عن نواهيه.

(١) أخرجه الحسن بن سفيان ورجاله ثقات، وقد صححه النووي في آخر الأربعين برقم (٤١) عن عمرو بن العاص وقال: حديث حسن صحيح رويناه في كتاب الحجة بإسناد صحيح، فقد أخرجه البخاري في كتاب قرة العيون (ج١/ ص٣٨ رقم ٤٥).

ومع ذلك فإن الارتقاء بالنفس إلى درجة النفس المطمئنة لا يعني امتلاخ حب الشهوات من القلب لأن الله عز وجل يريد من عبده أن تكون محبته لله أشد من محبته لرغائبه وشهواته عند وجود التعارض، فإن لم يكن ثمة تعارض فأهلاً بالشهوات والأهواء المنضبطة بضوابط الإسلام، فالله عز وجل يقول: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، ولم يقل: لا يحبون إلا الله؛ لأنه رب لطيف بعباده، أعطاهم الرخصة في أن يحبُّوا شهواتهم وزوجاتهم وأولادهم، ولكنَّ حب الله عز وجل في قلوبهم أكبر من ذلك كله، فهو الذي أكرمهم بتلك النعم كلها، وبالتالي فعندما تتعارض هذه الشهوات مع رضا الله عز وجل فإنهم يضعونها تحت أقدامهم(١).

المبحث الرابع: ما معنى قوله ﷺ: (كل الناس يغدو فبائعٌ نفسه فمُعتِقُها أو مُوبِقُها)؟(٢)

الجواب: أي كل الناس على اختلاف نحلهم ومشاربهم، يستيقظون صباحاً ويتوجَّهون إلى قضاء حوائج لهم. هذا هو شأن الإنسان الحي، لا بد أن يسعى في حياته لشيء ما، بغضِّ النظر عن علوِّ هذا الشيء أو تدنِّيه، لكنهم بعد هذا القاسم المشترك بينهم ينقسمون إلى شطرين لا ثالث لهما:

- فالشطر الأول باع نفسه لله ووظفها في مرضاة الله، وعرف عبوديته لله عز وجل فوضعها موضع التنفيذ متمثلاً قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢]، وعندئذٍ يكون قد أعتقها من كل عبودية لمن سواه، وتكون نفسه قد تحررت تحريراً حقيقياً، وهو معنى قوله ﷺ: (فمعتقها).

ذلك لأنه عندما يبيع الإنسان نفسه لله عز وجل بيعاً حقيقياً، عندها لا تملك شهوة من الشهوات الدنيوية كلها أن تستعبده وتستذلَّه، كما لا يمكن لرهبةٍ آتيةٍ من عند

(١) الحب في القرآن (ص٧٥).

(٢) رواه مسلم (٢٢٣) عن أبي مالك الأشعري.

غير الله أن تأسره. فإنْ لاحتْ أمامه رغبةٌ سحقتْها الرغبةُ فيما عند الله، وإن لاحتْ أمامه رهبةٌ زوَّلتْها الرهبةُ من الله، فيكون فعلاً قد أعتق نفسه.. عبوديتُه لله عز وجل أعتقتْه من كلِّ عبودية لمن سواه.

- والشطر الثاني باع نفسه للشهوات والأهواء والدنيا، باعها لرهبة عابرة أو رغبة فانية فتمزّقتْ نفسُه في ذُلِّ العبودية لهذه الأشياء، وبالتالي يكون قد أهلك نفسه. وهذا هو معنى قوله ﷺ: (أو مُوبِقُها) أي: مُهلِكُها، ولذلك سميت الموبقات مُهلكات.

هذا الإنسان يعبث ويتقلب في مجونه وأهوائه، فإذا كان كيان الإنسان لا يحتاج إلا إلى غذاء الجسد والغرائز، لكان مقتضى ذلك أن ينتعش ويسعد سعادة ما مثلها، ولكننا عملياً نراه بعد زمن يسير يشعر بالملل والسأمة والضجر، وإذا بمشاعر خفية تُشعره بالوحشة من هذا كله، فينقذف منها إلى هنا وهناك ولا يجد مَخْلَصاً، وقد يقع في الجنون أو الأمراض النفسية أو يلجأ إلى الانتحار.. لماذا؟

لأن خللاً حصل في كيانه، فالجسد والغرائز حُشيت بكل الأهواء والشهوات، بينما بقيت الروح ظمأى لم تأخذ شيئاً من غذائها، وهذا هو مصداق قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: ١٢٤].

ووالله الذي لا إله سواه، إنَّ انغماس الإنسان في الأهواء والشهوات لا يجلب له السعادة إطلاقاً، وإنما الذي يسعد الإنسان هو تصوُّرٌ أولاً، وسلوك ثانياً.

أي أولاً عليه أن يهتدي إلى ذاته، ويتعرّف على هُويّته، ويدرك صلة ما بينه وبين خالقه ومالكه وسيِّد أمره، وعليه ثانياً أن يضع هذه المعرفة موضع التنفيذ من حياته، عندئذٍ تتنفَّس روحه الصعداء وتنتعش مصداقاً لقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: ٩٧].

نعم؛ إن بوابة السعادة الدنيوية والأخروية هي أن يحرر الإنسان نفسه من الأغيار ويعتقها من الذلّ والقهر تحت سلطان الآخرين، ونعني بالآخرين كل ما عدا الله سبحانه وتعالى، عندها فقط يكون عبداً لله وحده، لا عبداً لنفسه ولا عبداً لأحد من الناس.

إنَّ الله عز وجل هو الذي وَضَعَ في الإنسان غرائزه وفطرتَه وحاجاتِه، وهو الذي ألبسه كسوة الإسلام الذي يتفق مع غرائزه وفطرته وحاجاته، ومن هنا تنبع السعادة[1].

المبحث الخامس: متى تفوح من العبد رائحة عبوديته لله عز وجل؟

أي كيف يمكن للإنسان أن يضع عبوديته لله عز وجل موضع التنفيذ؟

هذا السؤال كما لو قلنا: كيف يمكن لرائحة العود الزكيَّة أن تفوح منه؟

الجواب: تفوح من العود رائحته الزكية إذا عرضْناه على النار، أمَّا إنْ وضعناه بعيداً عن النار فلا قيمة إطلاقاً لوجود هذه المادة العطرية فيه.. كذلك فالإنسان عبدٌ لله عز وجل بالقهر والاضطرار أي أن عبوديته لله عز وجل كامنة في كيانه، فهو لا يملك حياته ولا صحته ولا غناه ولا يملك شيئاً، بل هو عبدٌ مملوك لله عز وجل قهراً واضطراراً، لكنَّ الله عز وجل يريد أن تفوح منه رائحة هذه العبودية سلوكاً واختياراً، فكيف تفوح منه رائحة عبوديته لله عز وجل، وما هي النار التي تفعل ذلك؟

إنها نار النَّفْس والشيطان، يسلِّطها الله على الإنسان ليجره إلى بابه وليلتصق بأعتابه شاكياً وباكياً ومستعيناً به سبحانه على مجاهدة هذين العدوَّين. يقول ابن عطاء الله رحمه الله: (جعله لك عدواً ليَحُوشَك به إليه، وحرَّك عليك النَّفْس ليدُوم إقبالُك عليه)[2]، أي جعل الله لك الشيطان عدواً ليردَّك به إليه سبحانه فتستعين به عليه،

---

(١) شرح رياض الصالحين، الدرس (٢٥).

(٢) الحكمة (٢٣٢) وتمَّ شرحها من كتاب (الحكم العطائية شرح وتحليل) ومن الدروس الصوتية لشرح الحكم.

وحرّك عليك النَّفْس بطلب متابعة الهوى ليدوم إقبالك عليه. فكان تسليطهما في الحقيقة نعمة من الله تستوجب الشكر.. بهذا الالتجاء إلى الله وبهذا التذلُّل تصل إلى الله عز وجل، وإذا بنفسك الأمارة بالسوء قد أصبحت- بمعونة الله وفضله- نفساً مطمئنة، وإذا بقلبك المريض قد أصبح سليماً معافىً، وبذلك تدخل في مضمون قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨ - ٨٩].

المبحث السادس: لماذا قال الله: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ ولم يقل: (إلا من أتى الله بأوقار من العلوم والعبادات)؟

الجواب: إنَّ كل الأعمال الإسلامية الظاهرة إنما هي بذورٌ تُبذَر في تربة القلب، إذاً فقبل كل شيء ينبغي على المسلم أن يعود إلى باطنه فيصلحه، تماماً كما يُصلح الفلاحُ الأرضَ قبل أن يغرس فيها شجره ويبذر فيها بذوره. وذلك بأن يُعوِّد قلبه على حبِّ الله عز وجل والخوف منه والتعظيم له والرضا عنه ويُوطِّن فؤاده على الصدق، فيكون سرُّه صادقاً مع لسانه وجوارحه، ويصحِّح نيَّته ويجعل قصده من كل أعماله مرضاة الله عز وجل، ويعوِّد نفسه على الصبر عند الشدة والشكر عند الرخاء - وسنذكر السبل التربوية للوصول إلى ذلك - هذه الأشياء كلها لا بد منها أولاً، ثم تليها الأعمال الظاهرة.

فلو إن الإنسان بدأ في إقباله على الإسلام بالأعمال الظاهرة ولم يلتفت إلى هذه المعاني التي ذكرناها، لكان مَثَلُه مَثَلَ الرجل الذي بذر بذوره وغرس شجره في الأرض قبل أن يستصلحها، وكانت هذه الأرض صخرية مستحجرة لم تَجْرِ عليها سِكَّةُ حَرْثٍ في يومٍ من الأيام، وإذا به يأتي بالأشجار ليغرسها في هذه الأرض، ولطالما كانت مستحجرة فقد اكتفى بوضع قليل من التراب حول جذورها، ولكنه ما أن يفرح برؤيتها منتصبة إلا وتأتيها رياح هوجاء عاصفة فترميها هنا وهناك، فإن لم

تأتها عاصفة فسرعان ما تذبل ثم تذبل ثم تتساقط أوراقها وتتحول إلى حطب يابس للحرق، كذلك صلاة الإنسان وسائر عباداته وأعماله الصالحة، إذا لم تضرب بجذورها في قلب صاحبها، لأنَّ القلب لم يُلَيَّنْ بعدُ بهذه الأعمال الباطنية، فإنها تبقى على السطح، وبذا يكون إسلامه إسلاماً سطحياً، إما أن تتهدَّده عاصفة الرِّدَّة فتذهب به شكلاً ومضموناً، وإما أنْ يتخطَّفه الرياء والعجب وغيرها من أمراض القلوب، فيكون شكلاً بلا مضمون.

لأجل ذلك أمرنا الله عز وجل بتربية القلب وتهيئته لغرس مبادئ الإسلام وأحكامه الظاهرة، وعندئذٍ فقط يلين القلب، فتُغرس فيه المبادئ والأحكام السلوكية على خير وجه.

وإذا رحل المؤمن إلى ربِّه بقلب سليم، فإنه يلقى رباً غفوراً رحيماً، ولو كان مقصِّراً في بعض الطاعات، وسيجعل الله عز وجل من سلامة قلبه شفيعاً له في تقصيره لأداء حقوق الله.

فإن قلتَ: هذا بالنسبة لحقوق الله، فكيف إذا رحل المؤمن إلى ربِّه وهو مُثقل بحقوق الناس؟

الجواب: لن يكون هذا أبداً. أي لا يمكن أن يجتمع القلب السليم مع الغش والكذب والتلاعب والظلم أبداً، فهذا مستحيل، بل إنَّ صاحب القلب السليم لا بد أن يرحل إلى الله سبحانه وتعالى بذمَّةٍ نظيفةٍ، ليست مقتطعةً لأي من حقوق العباد.. لماذا؟

لأن القلب السليم هو القلب العالم بالله، والعامل لله، والساعي حقيقةً إلى الله، وما الجوارح إلا أتباع وخدم له، مصداقاً لقوله ﷺ: (ألا وإنَّ في الجسد مضغةً إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب)[1].

---

(١) متفق عليه، وقد مر ذكره ص٤٩.

ولمَّا سُئِل رسول الله ﷺ: أيُّ الناس أفضل؟ قال ﷺ: (كلُّ مخموم القلب، صدوق اللسان)، قالوا: صدوق اللسان نعرفه، فما مخموم القلب؟ قال: (هو التَّقيُّ النَّقيُّ، لا إثمَ فيه ولا بغي ولا غِلَّ ولا حسد)[1] [2].

---

(١) أخرجه ابن ماجه من حديث عبد الله بن عمرو (٤٢١٦) بإسناد صحيح ورجاله ثقات.

(٢) التزكية قبل التقنية الدرس (٢)، وشرح رياض الصالحين الدرس (٥٤).

الفصل الثاني

معنى الإحسان ومكانه من بنيان الحقيقة الإسلامية

المبحث الأول: تعريف كل من الإسلام والإيمان والإحسان، ومكان كل منها من كيان الإنسان.

المبحث الثاني: الإحسان هو السلك الواصل بين الإيمان والإسلام.. فما طبيعة هذا السلك؟

- ما هو حال المسلم إذا وجد هذا السلك؟
- وما هو حال المسلم إذا فقد هذا السلك؟

المبحث الثالث: الإحسان هو لبُّ الإسلام وجوهره، ومن لم يحظَ بهذا اللباب لم يَنَلْ من الإسلام إلا المظاهر والقشور.

الفصل الثاني

معنى الإحسان ومكانه من بنيان الحقيقة الإسلامية

للتزكية مرادفات لفظية وكلها بمعنى واحد..

فالتزكية = التربية القلبية = التربية الوجدانية = تربية الباطن = علم السلوك = التصوف = الإحسان.

والتزكية فرضُ عينٍ على كلِّ مكلَّف، إذ معظم الآيات المكية التي تدعو إلى التزكية والزكاة، ليس المراد منها إيتاء زكاة المال، وإنما المراد منها تزكية النفس وتطهيرها من السخائم والأمراض. أما زكاة المال فلم تُشرع قبل الهجرة إلى المدينة، وإنما شُرعت بعد الهجرة[١].

والتزكية أو الإحسان ركن من أركان الدين، إذ للدين ثلاثة أركان هي: الإسلام والإيمان والإحسان.

المبحث الأول: تعريف كل من الإسلام والإيمان والإحسان، ومكان كل منها من كيان الإنسان:

١- الإسلام: ومكانه الجسد، وقد عرَّفه رسول الله ﷺ بقوله: (أنْ تشهد أنْ لا إله إلا الله وأنَّ محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً)[٢]، وهذا الركن هو الطرف الجلي الظاهر

---

(١) يقول ابن كثير: إيجاب الزكاة ذات النصب والمقادير، إنما كان في السنة الثانية للهجرة على ما ذكره غير واحد. تفسير ابن كثير (ج٤ / ص٩٢).

(٢) رواه مسلم (٨) عن عمر بن الخطاب ﷺ، والبخاري (٥٠) عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه بلفظ قريب.

المصطبغ بالأعضاء سلوكاً، وهو جزء من الدين، ويشكّل ثُلُثَ الحقيقة الدينية الكاملة.

٢- الإيمان: ومكانه العقل والقلب، وقد عرَّفه رسول الله ﷺ بقوله: (أنْ تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره)[١].

والإيمان في اللغة هو التصديق، والتصديق إنما مكانه العقل إذ ليس في الإيمان ظاهرة سلوكية، وإنما هو عبارة عن يقين مغرسه العقل وأثره في القلب. وهذا ركن آخر للدين، ويشكّل الثلث الثاني للبنيان الديني المتكامل.

٣- الإحسان: ومكانه القلب، وهو الخطُّ الواصل بين العقل الذي آمن والجسد الذي استسلم، وقد عرَّفه رسول الله ﷺ بقوله: (أنْ تعبدَ الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك)[٢].

فالإحسان هو الجسر أو السلك الذي يوصِل يقين العقل بمهيِّجات الأعضاء إلى الصلاة والزكاة والصوم والحج، فمعنى (أن تعبد الله) أي أن تمارس أعمال الإسلام السلوكية، ومعنى (كأنك تراه) أي بيقينك العقلي بالله عز وجل، فإذا وقفتَ في الصلاة، أو قرأتَ كلامه، أحسستَ كأنك تقف بين يديه وكأنك تراه، ولكن بعين بصيرتك، لا بعيني رأسك. وهذه هي درجة المشاهدة وهي درجة عالية لا يرقى إليها كل الناس، خاصة الضعفاء من أمثالنا، لذلك قال ﷺ: (فإن لم تكن تراه) أي إنْ كنتَ دون هذه الرتبة، فأقلُّ المراتب أن تعلم بيقينٍ عقليٍ وشعورٍ قلبيٍ أنَّ الله يراك، وتلك هي درجة المراقبة، فالمراقبة هي الدرجة الثانية من درجتي الإحسان، وهي الدرجة الأدنى من درجة المشاهدة.

---

(١) رواه مسلم (٨) عن عمر بن الخطاب ﷺ، والبخاري (٥٠) عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه بلفظ قريب.

(٢) رواه مسلم (٨) عن عمر بن الخطاب ﷺ، والبخاري (٥٠) عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه بلفظ قريب.

والإحسان هو الثلث الثالث للبنيان الديني المتكامل، ولا يتكامل الدين في حياة الإنسان إلا إذا وُجدت الصلة بين الأعمال الإسلامية الظاهرة، وبين العقل الذي ينبض باليقين بالله، أي إلا إذا اتصل هذا بذاك عن طريق سلك الإحسان، عندئذٍ يتكامل الدين بكل أركانه.

ولكن.. هل في سؤال جبريل عليه السلام لرسول الله ﷺ عن الإحسان دليلٌ على أنَّ الإسلام والإيمان وحدهما لا يكفيان؟

الجواب: الواقع أنهما يكفيان، لكن لا بد من وجود رابطة تربط بينهما، وكأنَّ رسول الله ﷺ يقول: الإسلام مكانه الظاهر، والإيمان مكانه العقل، ولكي يفعل كل منهما فعلهما في كيان الإنسان، ينبغي أن يتصل الواحد منهما بالآخر عبر سلك الإحسان. فالإحسان هو الجسر الممدود ما بين العقل والظاهر، ويأخذ دَفْقَه وقُوَّته من العاطفة القلبية، وبه يُحقّق كلٌّ من الإسلام والإيمان الفائدة للإنسان.

إنَّ الإسلام المقبول عند الله لا ينفك أبداً عن الإيمان، فيوم القيامة لا ينفع إسلام بلا إيمان ولا إيمان بلا إسلام ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾، أما في دار الدنيا فيمكن أن ينفكَّ الإسلام عن الإيمان فيكون الإنسان منافقاً وهو يتشهَّد بشهادة الإسلام، ولكننا بموجب موازين القضاء الدنيوي نعدُّه مسلماً ونعامله معاملة المسلمين ونطبّق القاعدة: (لنا الظاهر والله يتولى السرائر)، فإسلامه هذا ينفعه في دار الدنيا فقط، أما في الآخرة فلا ينفعه أبداً[1].

(١) شرح رياض الصالحين باب المراقبة الدرس (٥١ - ٥٢ - ٥٣)، شَرَحَ د. البوطي رحمه الله من خلالها كلاً من الإسلام والإيمان والإحسان بإسهاب، إضافة إلى كتاب (الحكم العطائية شرح وتحليل) المجلد الأول (ص ١٢-١٣) إضافة إلى الدروس الصوتية لشرح الحكم العطائية الدرس (١-٢).

المبحث الثاني: ما طبيعة سلك الإحسان هذا، وممّ يتكون؟ وما هو حال المسلم إذا وُجِد هذا السلك؟

إنه يتكوَّن من حالةٍ عاطفيَّةٍ وجدانيةٍ قلبيةٍ، إذا تحققتْ، فاض القلب حباً لله وخشيةً من الله وتعظيماً وإجلالاً له سبحانه، بحيث لا يغفل هذا المسلم عن الله عز وجل أبداً.. لا يغفل عن الله في تقلباته الدنيوية، فكيف يغفل عن الله سبحانه وتعالى في مواقفه العِبادية؟!

إنه يعبد الله عز وجل وكأنه يراه بعين بصيرته، كما قال عمر بن الخطاب ﷺ: (رأى قلبي ربي)[1]، فإن لم يصل إلى هذه المرتبة العالية، فأقلّ المراتب، أنْ يعلم بشعورٍ قلبيٍّ إيمانيٍ أنَّ الله يراه ويراقبه.

وإذا استشعر المسلم أن قيوم السماوات والأرض يراه ويراقبه في حركاته وسائر تصرفاته، ثم ازداد هذا الشعور نموّاً، فإن هذا الشعور يجعل نبضات الخوف من الله عز وجل تسري في مجامع قلبه، ومن ضرام هذا الخوف تتفجَّر مشاعر الحب والتعظيم لله سبحانه، وإذا ما هيمنتْ هذه المشاعر على القلب، تحوَّلتْ النفس شيئاً فشيئاً من ماضيها التي كانت فيه أمَّارة بالسوء إلى لوَّامة لصاحبها على ما بَدَرَ منه من مخالفة هذا الإله الذي خافه وأحبَّه وعظَّمه، ثم تزداد بالمجاهدة حُسْناً لتصبح راضيةً عما يأمرها به العقل والقلب، فترتبط نياط الإيمان العقلي في داخل كيانه، بالاستسلام الظاهري الذي تصطبغ به أعضاؤه. في هذه الحالة يتناسق الإيمان والإسلام ويتعاونان على السير، والنفس راضية تابعة، بعد أن كانت هي المتبوعة.

وعندئذٍ تتخلى هذه النفس عما تتَّسم به عادةً من الأنانية والكبرياء والتعلُّق بالمال والجاه والعصبية بكل أشكالها، لتدخل في محراب العبودية لله تعالى طوعاً، كما

---

(١) إحياء علوم الدين (ج٣/ ص١٥) الإصدار (١).

انطبعت عليه قَسْراً، وعندئذٍ يصبح السلوك ثمرةً من ثمرات عبوديتها لله عز وجل، فتستقرُّ المحبة الأخوية الصادقة مكان الأنانية البغيضة، ويحلُّ الإيثار محل الأَثَرة، كيف لا وقد استيقنتْ هذه النفس معنى الحياة الدنيا، وأنها ليست في حقيقتها إلا جسراً للحياة الآخرة الخالدة، فلا تتعلق من الدنيا بشيء ولا تأخذ من نعيمها إلا ما يكون عوناً لها على السير على صراط الله سبحانه وتعالى وتحقيق مرضاته.

فيتم من ذلك الانسجام المطلوب بين حقيقة هذه النفس المسلمة وبين السلوك الإسلامي، الذي يشيع في تلاقٍ وتعاونٍ بين المسلمين، ولا تجد بين هؤلاء المسلمين سبباً لتخاصم أو تدابر، ولا يمكن أن يقوم بينهم حقد وتحاسد، أو أن تفرّقهم عن بعضهم دنيا يتنافسون عليها أو زعامة يتسابقون إليها، فتتوفر لهم من ذلك القوة التي لا تُغلب، ويتداركهم الله بنصره الصادق المبين مصداقاً لقوله: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧][1].

ولكن.. ما هو حال المسلم إذا انقطع هذا السلك؟

عندما ينقطع سلك الإحسان الواصل بين العقل والجسد فإنَّ حياة المسلمين تتحول إلى حديد بارد، فلا الإيمان العقلي يفعل شيئاً، ولا الحركات على الأعضاء تفعل شيئاً، لأنه وَقَعَ انفصام بين المحرِّك والآلات التي ينبغي أن تعمل، تماماً كالسيارة التي يدعها السائق تنحدر انحداراً بدافعٍ لا من محرِّكها الذي يضبطها، وإنما بدافعٍ من جاذبية المنحدر الذي تنحدر فيه، فالعجلة تتحرَّك ولكن لا علاقة بينها وبين المحرِّك أبداً.

فإذا لم توجد رابطة بين العقل الذي آمن والأعضاء التي استسلمت، فإنَّ حركة الأعضاء لا تنضبط بيقين العقل أبداً، بل كلٌّ يسير في وادٍ بسبب انقطاع سلك العواطف الوجدانية القلبية عن الله.

---

(١) كتاب باطن الإثم (ص ٢٥-٢٦)، وشرح رياض الصالحين الدرس (٥٢) باب المراقبة.

والإنسان الذي يمارس عباداته على هذه الشاكلة قلَّما تفيده عباداته هذه، إلا إذا كان يجاهد نفسه في سبيل أن يرقى إلى درجة الإحسان، فهو يستفيد شيئاً فشيئاً إلى أن يرقى إلى هذه الدرجة.

وفَقْدُ هذا المعنى من حياة أكثر المسلمين اليوم هو الذي يجعل إسلامنا وإيماننا إسلاماً وإيماناً تقليدياً جافاً لا يدفع صاحبه إلى أي سلوكٍ يرضي الله، ولا يرقى به إلى أي مستوىً من مستويات الجهاد والتضحية في سبيل الله، ولا يجعله قادراً على أن يرتقي فوق المغريات والشهوات والملهيات.

المسلمون اليوم كُثُر، ولكنَّهم ألف كأُفّ.

كيف ! ! والإسلام يقلب وجه المعمورة ويغيِّر الدنيا، فما لهم لا يتغيرون؟

ومالهم أتباع مقلدون وأذلاء تابعون؟

السبب هو:

أن الإسلام غدا حركات آليَّة ومظاهر تقليدية يصطبغ بها الأعضاء والجسد !

وأن الإيمان غدا قابعاً في زاوية من زوايا العقل فقط، إذ لم يتحول من الفكر العقلاني إلى الحرارة الوجدانية والشعور اللاهب الذي يسيطر على القلب حباً لله وخوفاً من الله وتعظيماً لله. فالقلب فارغ من هذه المشاعر الوجدانية السامية، وبالتالي لا بد أن تستحلَّه المشاعر الوجدانية الهابطة من حبٍ للشهوات والأهواء والمغريات، لتصبح هذه الأخيرة هي المهيمنة على مجامع القلب، وعندئذٍ تشتد وتقوى النفس الأمارة بالسوء لطالما تلقى وتأخذ غذاءها، وينتقل إليها زمام القيادة، أما الإسلام والإيمان فكلاهما ضعيف أعزل لا يغني عن صاحبه شيئاً.

وعندئذٍ فإنَّ ازدواجاً خطيراً يقوم في كيان المسلم، إذ تنشطر شخصيته ما بين سلوكٍ إسلامي ظاهر يتمثَّل في أقوالٍ وأفعالٍ إسلامية، ونفسٍ هائجةٍ تائهةٍ مستغرقةٍ في

أمانيها الدنيوية، فهو يلتقط من مظاهر السلوك الإسلامي كلَّ ما يجرُّ له حظاً من المغنم ولا يكلِّفه شيئاً من المغرم، فيكون في ظاهره قائماً بحق الله مقدِّساً للدين منافحاً عنه، ولكنَّه في الباطن وحقيقة الأمر يكون مقدِّماً لنفسه لوناً آخر من مطامحها الدنيوية ومقدِّساً لها ومنافحاً عن رغباتها، فالدين عنده ليس إلا لثاماً يستتر وراءه ليخفي حقيقةَ ما في نفسه. وهيهات أن ينهض المجتمع الإسلامي على لثام من التدين، دون أن نجد من ورائه تحملاً لما قد يرهق النفس أو يخالف شيئاً من أهوائها.

وما أيسر على صاحب هذه النفس أن يصطنع المعاذير ويفتح لها سبل التهرب الشرعي، إلا أن الدين نفسه لا ينخدع بشيء من ذلك مصداقاً لقوله تعالى عن المنافقين: ﴿وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ [الأحزاب: ١٣]، فكيف يحقِّق الله لهم نصراً على أعدائهم، وألسنتُهم وأقوالُهم في وادٍ من الدعاوي، ونفوسُهم تائهة في وادٍ آخر من التنافس على الدنيا والتسابق على أهوائها !؟

فهم لا يتَّفقون إذ لا يوحدهم هدف حقيقي.

وهم لا يتحابون لأن تعلُّق نفوسهم بالدنيا ومغانمها مثار حسد يشيع فيما بينهم.

وهم لا يتعاونون إلا بمقدار ما يوفِّر لهم مصالحهم الدنيوية.

وبناءً على ذلك كله فهم لا ينصرون، لأنَّ مَنْ بيده المعونة والنصر ناظر إلى قلوبهم عالم بحقيقتهم، فمهما رأيتَ جموعاً محتشدة، أو سمعتَ كلماتٍ رنانة، أو اطلعتَ على تخطيط رائع دقيق، فإن شيئاً من ذلك لا يخيف عدواً ولا يؤلِّف رابطة، لأنه (غثاء) والغثاء لا يخيف أحداً. وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم الذي

حذَّر المسلمين من هذا الخطر الأكبر يوم قال: (يوشك الأمم أن تداعى عليكم، كما تداعى الأَكَلَةُ على قَصْعتها)، فقال قائل: ومن قِلَّة نحن يومئذ؟ قال: (بل أنتم يومئذٍ كثير، ولكنَّكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعنَّ الله من صدور عدوكم المهابةَ منكم، وليقذفنَّ الله في قلوبكم الوهن)، فقال قائل: يا رسول الله وما الوهن؟ قال: (حبُّ الدنيا وكراهية الموت)[١].

وإذن.. فالخطر الأكبر إنما ينبع من مصدر واحد، هو تعلُّق القلب بالدنيا ووضعها في مرتبةٍ أعلى من مرتبتها الحقيقية التي وضعها الله عز وجل فيها، وقد أخبرنا رسول الله ﷺ عن مرتبة الدنيا فقال: (لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء)[٢].

والدنيا ليست محصورة في الدرهم والدينار والأرض والعقارات، وإنما هي تتمثل في سائر الشهوات التي تميل إليها النفس، كالمكانة والجاه والزعامة والمنصب، والركون إلى مختلف مظاهر النعيم، فكل ذلك من الدنيا التي ابتلى اللهُ الإنسانَ بها ليجاهد نفسه في التعالي عليها والتحرر من أسرها وسلطانها، ثم ليسوقها مطيَّةً ذلولاً في سبيل مرضاة الله عز وجل.

وعندما يتعلق القلب بأهواء الدنيا، ولا يقوى على التحرر من أسرها، ولا يجاهد المسلم نفسه في محاولة ذلك، يتفرع عن ذلك شتى الأمراض القلبية التي تعتبر من أعظم الآفات الخطيرة، فيُبتلى القلب بالكبر والحسد والرياء والعجب وشتى الضغائن والأحقاد، ويتغلَّب الشح على النفس، ويشيع فيها الزهد في الآخرة ومثوبتها، ويقلُّ الخوف من عقاب الله، ويتحول الجهاد عندئذٍ إلى تنافس على الدنيا،

---

(١) رواه أبو داود (٤٢٩٧) بسند صحيح، ورواه أحمد (٢١٨٩١) بلفظ قريب، كلاهما عن ثوبان.

(٢) رواه الترمذي (٢٣٢٠) وقال: حديث صحيح غريب، ورواه ابن ماجه (٤١١٠) كلاهما عن سهل بن سعد.

بعد أن كان سعياً للتحرر من رِقّها والاستعلاء على مغرياتها. وعندئذٍ يحيق بالمسلمين الهلاك مصداقاً لقوله ﷺ: (فوالله ما الفقر أخشى عليكم، ولكني أخشى أن تُبسط عليكم الدنيا، كما بُسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، وتهلككم كما أهلكتهم)[١].[٢]

المبحث الثالث: الإحسان هو لبُّ الإسلام وجوهره، ومن لم يحظَ بهذا اللباب لم ينلْ من الإسلام إلا المظاهر والقشور:

معلوم أنَّ المطلوب من الثمار لبابها، وإنما جُعلت القشور على اللباب، لحمايته من العطب والفساد، فإذا ما غاب اللباب، فإنَّ القشور لا تفيد شيئاً. أما إذا وُجد اللباب فإنَّ القشور عندئذٍ تغدو سراً من أسرار اللباب، إذ للقشور أهميتها الكبيرة طالما كانت ملتصقة باللباب الذي بداخلها، ولكن ما إن تنفصل عن اللباب حتى يصبح مكانها القمامة.

لأجل ذلك يحذرنا الله عز وجل من ظاهر الإثم وباطنه بقوله: ﴿وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ﴾ [الأنعام: ١٢٠]، إذن.. فعندما تقترن قشور الشريعة الإسلامية، من حجاب بالنسبة للمرأة ولحية بالنسبة للرجل، وكذا سائر العبادات السلوكية الظاهرة، بالقلب المراقب لله والمخلص له والمحبِّ له، والخائف منه والمعظِّم له سبحانه، فأنعِمْ بذلك من اقتران بين ظاهر الطاعة وباطنها، وهذا هو العمل المقبول عند الله.

وفي هذا الصدد يقول ابن عطاء الله: (متى رزقك الطاعة والغنى به عنها، فاعلم أنه قد أسبغ عليك نعمه ظاهرةً وباطنة)[٣]، أي: متى رزقك الله الطاعة بامتثال أوامره

(١) رواه البخاري (٣٧٩١)، ومسلم (٢٩٦١) كلاهما عن عمرو بن عوف، واللفظ للبخاري.
(٢) كتاب باطن الإثم (ص٢٦-٣١)، وشرح رياض الصالحين الدرس (٥٣)، وشرح الحكم العطائية الدرس (١).
(٣) الحكمة (٧٢).

واجتناب نواهيه في ظاهرك، والغنى بالله عنها بأن لا تركن إليها بباطنك فيداخلك العجب والرياء والغرور والكبر والاعتداد بالذات، فقد أتمَّ عليك نعمه ظاهرةً وهي تلك الطاعات، وباطنةً وهي عدم الاعتماد عليها، بل عدم رؤيتها وعدم رؤية نفسك والناس من حولك، وإنما فقط رؤية الله عز وجل، لأنه هو الموفِّق والمسدِّد والمعين، وبالتالي فالاعتماد فقط على رحمة الله وفضله سبحانه. هذا ما علَّمنا إياه رسول الله ﷺ بقوله: (قاربوا وسدِّدوا، واعلموا أنه لن ينجوَ أحد منكم بعمله)، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: (ولا أنا إلا أن يتغمدنيَ الله برحمةٍ منه وفضل)[1].

بهذا المنهج النبوي التربوي نعلم أن المطلوب من العبد شيئان:

١- إقامة أوامر الله عز وجل واجتناب نواهيه في الظاهر، وبهذا ينجو العبد من ظاهر الإثم.

٢- التعلق بالله عز وجل- لا غيره - في الباطن، وبهذا ينجو العبد من باطن الإثم، والمتمثل في الكبر وأخواته، والمدمر لظاهر الطاعات مهما كثرت.

وكلما ازداد العبد معرفةً بربه، ازداد شعوراً بعظيم سلطانه وربوبيته، وبعظيم حقوق هذه الربوبية، وبالتالي ازداد شعوراً بتقصيره ولا شيئيته، لذلك كان أكثر الناس شعوراً بقلة طاعاتهم هم الرسل والأنبياء، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: (كان رسول الله ﷺ إذا صلَّى قام حتى تفطَّر رجلاه) قلتُ: يا رسول الله أتصنع هذا وقد غُفر لك ما تقدَّم من ذنبك وما تأخَّر؟ فقال: (يا عائشة أفلا أكون عبداً شكوراً)[2].

وهذا هو دأب الصحابة والتابعين والصالحين من بعده، فقد كان عمر رضي الله عنه

(١) رواه مسلم (٢٨١٦) عن أبي هريرة.

(٢) رواه مسلم (٢٨٢٠) عن عائشة، ورواه البخاري بلفظ قريب (٤٥٥٦) عن المغيرة.

وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة - يعلم أنه إنما بُشّر بالجنة بمحض فضل الله ورحمته، وأنه لا يستأهل ذلك بعمله، فكان يقول: (ليت أنَّ أمَّ عمر لم تلد عمر)(١).

وكلما كان العبد بعيداً عن معرفة عظيم سلطان الله عز وجل وعظيم حقوق ربوبيته، كان بعيداً عن معرفة عبوديته لله، سيده ومولاه، وبالتالي يُعجب بعمله فيكون من الهالكين. وعندما يقع المسلم في مثل هذه الأمراض الباطنة، من عجبٍ وحبٍ للذات وتقديسٍ للأنا، واعتداد بالأعمال الصالحة، عندها تنفصل القشور عن اللباب.. ينفصل الظاهر المشمِّر للطاعات والقربات، عن القلب المريض بما سمّاه الله عز وجل بـ: (باطن الإثم)، فتذهب أعماله كلها أدراج الرياح.

وفي هذا يقول ابن عطاء الله: (معصيةٌ أورثت ذلاً وانكساراً، خير من طاعةٍ أورثت عزاً واستكباراً)(٢)، فإنَّ الذُّلَّ والانكسار من أوصاف العبودية، والتحقق بهما موجب للقرب من رب البرية، فهو القائل: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران: ١٢٣]، أما العزُّ والاستكبار، فإنهما من أوصاف الربوبية، والتعلق بهما موجب للخذلان والتباعد عن المراتب العلية، كيف لا وهو جل جلاله القائل: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥](٣).



(١) (حلية الأولياء وطبقات الأصفياء) لأبي نعيم الأصبهاني (ج٢ / ص٨٣).

(٢) الحكمة (٩٤)

(٣) شرح الحكمة (٧٢) من كتاب (الحكم العطائية شرح وتحليل) المجلد الثاني (ص٢٥٣)، إضافة إلى الدروس الصوتية لشرح الحكم الدرس (١-٩٦).

الفصل الثالث

كيف يصل المسلم إلى درجة الإحسان

المبحث الأول: من الناحية النظرية.. وفيه مطلبان:

المطلب الأول: أن نتذكُر هويتنا في هذه الحياة الدنيا وهي أننا عبيد مملوكون لله عز وجل.

المطلب الثاني: أن نتذكَّر وظيفتنا التي خُلقنا لأجلها، وهي أن نضع عبوديتنا لله عز وجل موضع التنفيذ.

المبحث الثاني: من الناحية العملية.. وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: كلمة عن الإرشاد وصفات المرشد.

المطلب الثاني: السبل التربوية للوصول إلى درجة الإحسان، وفيه خمسة علاجات:

١ – الخلوات الجزئية من أجل التحقق بمعنى العبودية لله عز وجل.

٢ – الإكثار من ذكر الله عز وجل لتربية محبة الله سبحانه والخوف منه في القلب.

٣ – الإكثار من الدعاء والتضرع لله عز وجل.

٤ – مجالسة الصالحين.

٥ – قطم الفم عن المال الحرام.

المطلب الثالث: وأخيراً لاستكمال الفائدة نقول: على المسلم الصادق في إسلامه، لكي يستفيد من العلاجات الخمس السابقة أن يضيف إليها أربعة علاجات أخرى:

١ – أن يتلمس ما يعانيه قلبه من الأمراض الخفية، وأن لا يرضى عن نفسه أبداً.

٢ - أن يعلم أنه لا يصل إلى الله عز وجل، إلا بتناسقٍ وانسجامٍ بين الظاهر والباطن وسيرهما معاً على الكتاب والسنّة.

٣ - أن يعلم أنَّ الذي يعينه على تزكية النفس إنما هو توفيق الله سبحانه، ويتم توفيق الله عز وجل له بأمرين اثنين:

أ - صدق الإرادة المتجهة إلى الخير والاستقامة.

ب- إخلاص الدعاء المتجه إلى الله عز وجل وطلب العون منه سبحانه

٤ - أن يثبت على هذه الحال، إذ لا آخر لمجاهدة النفس إلا الموت.

الفصل الثالث

كيف يصل المسلم إلى درجة الإحسان

من السهولة بمكان أن يصل الإنسان إلى الإيمان العقلي، وذلك بأن يتفكَّر بعقله ويتأمَّل برويته معتمداً على الأدلة المنطقية، وإذا به قد آمن.

ومن السهولة بمكان أن يمارس الإنسان شعائر الإسلام فيصلِّي ويصوم ويؤدي الزكاة ويحج البيت. ولكنَّ الأمر الصعب حقاً والذي تُدَقُّ دونه الأعناق، هو ربط الإيمان بالسلوك. هذه الرابطة هي التي تجعلك إذا قمتَ إلى الصلاة وسائر العبادات، تشعر وكأن الدنيا قد أُزيلت عن يمينك ويسارك، وكأنَّ الكون كله قد فرغ إلا من ديّانه وخالقه، فأنت تقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾، ولا ترى أمامك ولا في قلبك شيئاً غير الله سبحانه وتعالى.. ونتيجة ذلك، أنك لن تقع في الرياء - وهو أن تشرك أحداً مع الله - ولن تقع في العجب - وهو أن تشرك نفسك مع الله - ولن يستعبدك درهم ولا دينار ولا زعامة ولا مكانة ولا جاه ولا منصب، فتوحيدك لله عز وجل وعبوديتك له وحده، أنقذك وحصَّنك من أن تكون عبداً لغيره. وبذلك تكون قد قمت بظاهر الطاعة وباطنها، وابتعدت عن ظاهر الإثم وباطنه، وهذا هو العمل المقبول عند الله سبحانه وتعالى.. وهذا هو الإحسان.

ولكن.. من أين آتي بالقوة التي تجعلني إذا صليت، كأني أرى الله سبحانه وتعالى؟

.. كيف أربط بين العقل الذي آمن، والأعضاء التي تحركت بأفعال الإسلام؟

الجواب على ذلك يتضمن شِقَّين، الأول: نظري، والثاني: عملي. وقد تم إدراجهما تحت مَبحثَين اثنين:

المبحث الأول: من الناحية النظرية

علمنا أنَّ الذي يحول بين المسلم وبين وصوله إلى التزكية أو الإحسان، إنما هو تعلق القلب بالدنيا، حباً لها وخوفاً على فواتها وتعظيماً لشأنها، ومن ثم انشغاله بها عن الوظيفة التي خُلق لأجلها، وهي معرفة الله، التي تفضي إلى محبته وخشيته وتعظيمه جل جلاله، والذي يسوق إلى الالتزام بالأوامر السلوكية طوعاً مع الشعور بالسعادة الرضا. ولكنَّ شيئاً من ذلك لا يحصل إذا كان القلب مريضاً بحبِّ الدنيا، ويبقى صاحبُ هذا القلب كالغثاء في ضعفه ومهانته.. فما العلاج؟

العلاج يتضح بالمثال التالي:

طالبٌ يجلس في قاعة الامتحان منهمكاً في الأجوبة، استسقى المراقبَ كأساً من الماء، فلما جيء بها إليه، شرب الماء ثم ثبتت عيناه على الكأس وانصرف تفكيره إليها، وراح يتأمل صفاءها ورقّتها والمعمل الذي أنتجها، ونسي الامتحان والأسئلة والزمن الذي يمر سريعاً.

العلاج هو أن يأتي من يذكِّره بهويته: وهي أنه طالب في الجامعة، ويذكِّره بوظيفته: وهي أنَّ عليه أن يقدِّم هذا الامتحان على خير وجه، وأنَّ الوقت يوشك أن ينتهي، ويوشك أن تُسحب الورقة من بين يديه[1].

إنَّ المسألة واحدة ولا فرق بين الصورتين، إلا أن قاعة الامتحان هنا هي أعظم ضخامةً وأكثر اتساعاً، ثم إنَّ المادة الامتحانية هي أخطر بكثير، أما العلاج فواحد في كلا الصورتين، ويتمثَّل بمطلبين اثنين:

المطلب الأول: أن نتذكَّر هويتنا في هذه الحياة الدنيا، وهي أننا عبيد مملوكون لله تعالى، هوية يستوي في الاصطباغ بها كلُّ الناسِ، مؤمنيهم وكافريهم وملحديهم

---

(١) كتاب باطن الإثم (ص ٤٥ - ٤٦).

وفاسقيهم، فكلهم مفطور ومطبوع بطابع العبودية لله عز وجل، سواء اعترف بذلك أم لم يعترف.

فما هي العبودية؟

العبودية تعني منتهى الذلّ الصادر عن منتهى الضعف والعجز، فهي حال موجودة في كيان كل إنسان أياً كان، ولكن هذه الحال عند كثير من الناس راقدة تحتاج إلى مَنْ يوقظها.

فهل الإنسان متَّصف بهذه العبودية فعلاً؟

الجواب: الإنسان مطبوع بطابع العبودية لله عز وجل من فرقه إلى قدمه، ومن ظاهره إلى باطنه:

- إنه يفكر ويعقل، ويبني على أفكاره كثيراً من الإبداعات، غير أنه منفعل بالفكر والعقل وليس فاعلاً لشيء منه. ذلك لأنَّ الوعي أشرق في دماغه، دون قصدٍ منه، وغداً سيذبل أو يغيب- رُبَّما- عن دماغه، دون أن يملك حيال ذلك أيَّ سبيلٍ لاستبقاء هذه النعمة لديه ولو لمدة بسيطة.

- وهو يمارس قوته في كثير من الأعمال، ولكنه منفعل بهذه القوة وليس فاعلاً لشيء منها، فقد تسرَّبتْ هذه القوة إلى كيانه ثم تنامت بعد عجز ودون قرارٍ منه، بل دون أن يدري كيف تمَّ ذلك، وغداً ستتراجع قوَّته ثم تفارقه دون اختيارٍ منه ودون أن يعلم كيف تمَّ ذلك.

- وهو ينطق فيُبين، ولكنه لا يعلم قطُّ كيف تتم عملية النطق وكيف استقرت هذه النعمة في كيانه، وكل ما يعلمه أنه ينفعل بها عندما يريد أن يخاطب الآخرين.

- وهو يتمدد على فراشه لينام، ولا يملك من عملية النوم أكثر من أن يتمدد ويسترخي ويطبق عينيه منتظراً نعمة هذا الرقاد أن تتسرَّب إليه من حيث لا يدري، وإذا

نام وأخذ قِسطه الكافي من الرقاد عاودتْه الحياة والنشاط من جديد دون أن يعلم أيضاً كيف تم ذلك، ودون أن يملك أي حيلة للتحكم بهذا الشيء الذي يتحكم به.

- ثم هو يرى نفسه يتدرَّج من الطفولة إلى الشباب إلى الكهولة ثم المشيب فالموت، ولا يملك خروجاً عن هذه الأطوار، ولا يملك استبقاءً لشبابه ولا لصحته ولا لقوَّته ولا لحياته.

وهذا هو شأن كل الطاقات والقدرات والمزايا التي يتمتَّع بها، إنه يتمتَّع بها ولكنه لا يستطيع أن يتحكَّم بشيء منها. وهذا هو بيان قولنا: إنه منفعل بها غير فاعل لها.

وإذاً.. فالإنسان جهاز استقبال، وسواء عليه أعلم الجهة التي يأتيه منها الإرسال أم لم يعلمها، فإنه على كل حال يتقلَّب من واقعه هذا في حالة هي منتهى الضعف والعجز، وهذا هو معنى العبودية في أجلى معانيها.

غير أن كثيراً من الناس يجهلون من أنفسهم هذه الحقيقة على الرغم من شدة وضوحها، والسبب أن هؤلاء تلتبس عليهم الأفعال الاختيارية الصادرة منهم بالانفعالات القسرية الآتية من الخارج، فهم يظنُّون أنَّ تمتُّعهم بهذه الصفات والطاقات إنما هي أفعال اختيارية صادرة من كياناتهم، ولا ينتبهون إلى أنها انفعالات قسرية متلبِّسة بهم ليتمتَّعوا بها إلى حين، والتمتُّع بالشيء لا يعني إطلاقاً أن يكون فعلاً للشيء. غير أن هذا المعلوم يظلُّ خفياً عن الإنسان ما لم يلجأ إلى يقظة فكرية بالغة.

أياً كان الأمر فإنَّ النتيجة العلمية التي لابد أن نستيقنها أنَّ الإنسان مطبوع بطابع العبودية من فرقه إلى قدمه، وأنه مجرَّدُ مخزنٍ لطاقاتٍ وقدراتٍ شتى يصطبغ بها ولا يتحكَّم بشيءٍ منها.

وهذه حقيقة علمية ثابتة لا تتوقَّف على أيِّ معتقدٍ ديني، إذ الإنسان أياً كان

خاضع لسلطانها شاء أم أبى، وسواء أذعن لهذه العبودية أم لم يذعن فإنَّ هذا لا يغيِّر من الحقيقة شيئاً مصداقاً لقوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا ءَاتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٩٣ - ٩٥].

وإذاً فالإنسان محكوم عليه بالعبودية لمن هو مستقرٌّ في قبضته من خلال خضوعه الحتميِّ لهذه النواميس المهيمنة عليه، إن في داخل كيانه - كما ذكرنا - أو في الكون الذي يتقلَّب في أنحائه، وهذا ما أكَّده الله عز وجل بقوله: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣].

ومهما فكَّر الإنسان للتحرُّر من قيود عبوديته لله عز وجل فيملك قوَّته وصحته وعافيته وماله وحياته وليتمرد على الموت الذي هو آتيه، فلن يجد إلى ذلك سبيلاً، والله عز وجل يؤكِّد هذه الحقيقة في كتابه في أكثر من موضع فيقول:

- ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ [الإسراء: ٩٥].

- ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ [النحل: ٥٣].

- ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَآءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾﴾ [فاطر: ١٥-١٧].

- ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ [الروم: ٥٤].

- ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾﴾ [الطارق: ٥ - ٨].

- ﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الواقعة: ٨٦ - ٨٧].

فقد أطال الله سبحانه وتعالى الحديث عن ذات الإنسان ومصدره ومآله لينبهك -

يا أيها العبد - إلى أنك لست المالك الحقيقي لشيء ما على الإطلاق، لأن المالك الحقيقي يملك أن يحافظ على ملكه وأنت لا تملك ذلك، فكل ما تتمتَّع به سيفارقك، وهو ليس أكثر من أمانة استُودِعتَها إلى حين، وستُستَردُّ منك عما قريب.

وما قصة حريتك المزعومة للتحرر من ربقة عبوديتك لله عز وجل، إلا كقصة الحرية التي توهَّمتْها العنزة عندما أطال صاحبها من الزمام الذي أثبته في عنقها، فانطلقتْ تقفز إلى هنا وهناك، وتتسلَّق ما يصادفها من رواب وهضاب.

وما علمتْ أنَّ هذا الزمام إنما هو زمام امتلاك، ومهما بلغ طوله فلن يورثها أي حرية أو انعتاق، ولا عجب في ذلك، وإنما العجب كل العجب من إنسان عاقل لا يهتدي إلى مكان الزمام الذي أُثبت بإحكام في كل جزء من كيانه، واستقرَّ طرفه الآخر في قبضة مولاه وخالقه، وإنه ليوشك أن يجذبه إليه جذبةً واحدةً فإذا هو أسيرٌ في قبضته، ضئيلٌ تحت سلطانه، لا يملك لنفسه حولاً ولا طولاً.

وما من إنسان - لو تُرك لشأنه - إلا وكيانه الداخلي وضميره يستجيب لنداء الإيمان بالخالق، ويستجيب إلى أن ينتسب إلى هذا الخالق بالعبودية، ذلك لأنَّ في أعماق نفوسنا شعوراً خفياً خفياً يرجع إلى عهد ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ الذي أنبأنا الله عز وجل عنه في كتابه إذ خاطب الأرواح، وذلك في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾ [الأعراف: ١٧٢] وهذا نداء مسجَّل في العقل الباطن وفي أغوار النفس الإنسانية الكامنة.

ولكنَّ هذا النداء الفطري الكامن في أعماق الإنسان يحتاج إلى مصابيح العقل والعلم ليعرف ما هو الدين الحق المعبِّر عن حقيقة هذا الإيمان، وما هي الأديان المزيَّفة التي هي في الحقيقة لا تعبِّر عن الفطرة تعبيراً سليماً[١].

---

(١) كتاب حرية الإنسان في ظل عبوديته لله (ص١١- ٢٠)، إضافة إلى الدروس الصوتية المسماة العبادة والعبودية الدرس(٢)، إضافة إلى كتاب مدخل إلى فهم الجذور.

المطلب الثاني: أن نتذكَّر وظيفتنا التي خُلقنا لأجلها، وهي أن نضع عبوديتنا لله عز وجل موضع التنفيذ، أي أن نكون عباداً له سبحانه بالسلوك والاختيار كما أننا عبيد له بالقهر والاضطرار، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وبالتالي نخضع في سلوكنا وجميع مظاهر حياتنا لتعليمات هذا الإله الذي نحن عبيده، وهذا السلوك هو فرق ما بين المؤمن والكافر.. كيف؟

الجواب: كل الناس عبيد مملوكون لله عز وجل قهراً واضطراراً - كما علمنا - ولكن بعد ذلك ينقسم الناس إلى قسمين:

- قسم عرف هو يته عبداً لله، ولكنه لم يذعن لهذه العبودية ولم يعترف بها استكباراً، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤]، فهذا شأنه شأن القزم الذي عرف أنه قزم ولكنه لم يذعن بذلك ولم يعترف، وادّعى أنه مارد فارتدى ثياب المَرَدَة الطوال، فكان مثاراً للسخرية والضحك، لأن سلوكه لا ينسجم مع واقعه، وهذا محجوب عن الله عز وجل بكبره.

- وقسم آخر عرف هويته عبداً مملوكاً لله عز وجل، فاعترف بذلك وأذعن له، وجعل سلوكه منسجماً مع هويته وواقعه، هو عبد، إذن فعليه أن يذعن لمولاه الذي ينتسب إليه بنسب العبودية، فيطيعه فيما أمر وينتهي عما نهى عنه وزجر. وهذا شأنه شأن القزم الذي عرف نفسه قزماً، فأذعن لذلك الواقع وارتدى ثياب الأقزام، فكان سلوكه منسجماً مع واقعه، وهذا قريب من الله، قريب من رحمته، ولو بدرتْ منه معصية.

ذلك لأن الإنسان لا يُحجب عن الله بعصيان، وإنما يُحجب عن الله بالكبر الذي يسبّب العصيان قطعاً، أما المعصية بدون كبر - أي المعصية التي تكون بسائق ضعف - فما أيسر أن تذوب في ضرام رحمة الله عز وجل. ذلك لأن هذا الإنسان الذي

عصى الله بسائق ضعف كما قال تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨] لا بسائق استكبار، ما أن ينتهي من معصيته حتى تثور عليه عبوديتُه لله عز وجل فيبكي ويندم ويتألم، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له، وشيئاً فشيئاً يحفظه الله من المعاصي إلا اللمم وهذا هو معنى قوله تعالى في حواره مع إبليس لعنه الله: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الحجر: ٤٢] أي إنَّ الذين تحصَّنوا بحصن عبوديتهم لله لن تستطيع إليهم سبيلاً، فكلما أوقعتهم في المعصية التهبتْ مشاعر عبوديتهم لله عز وجل بين جوانحهم ندماً وحسرة وبكاءً وألماً وتوبةً ضارعةً لله، فيتوب الله عليهم. وهكذا كلّما أحدثوا ذنباً، دون إصرار، أحدثوا توبةً، والله يغفر ويتوب.

وليس معنى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ أنهم سيصبحون معصومين، لا، بل إنَّهم سيصبحون توَّابين، والله عز وجل يقول عنهم. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، ويقول: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟﴾ [آل عمران: ١٣٥]، فرحمة الله واسعة جداً، لكنَّ الذي يُحجب عنها هو المتكبِّر على الله العاكف على لهوه وعصيانه مع التبرير والإصرار، هذا الذي لا يغفر الله عز وجل له ما دام على هذه الحالة.

ولكي نضع عبوديتنا لله عز وجل موضع التنفيذ ونمارس وظيفتنا التي خُلقنا لأجلها لابد:

١ - أن نسمو على كثير من خصائص النفس وأهوائها ونُخضِعها لما أمر به الله تعالى، ثم أن نَعْنُوَ له وحده(١) بالحاجة والذل، فلا يتعلَّق القلب بأحد غيره، ولا نطلب خيراً إلا منه، ولا نستعيذ من شر إلا به، وسنذكر السبل التربوية للوصول إلى ذلك.

---

(١) أي نخضع له وحده.

٢ - أن ندرك أهمية هذه الوظيفة التي خُلقنا لأجلها فنجعلها هي الغاية العظمى، ونضعها نصب أعيننا في رحلتنا في هذه الحياة الدنيا، وعندئذٍ ندرك أن جميع ما دون هذه الغاية العظمى من مظاهر الدنيا ينقسم إلى نوعين:

- وسائط للوصول إلى هذه الغاية.

- ومعوّقات تقطعنا عنها.

وماذا تفعل إذا كنت تجتاز مفازةً إلى غايةٍ لك؟

إنك تعمد إلى الوسائط الموصلة أو المقربة فتستخدمها، وتنظر إلى العقبات فتنحرف عنها أو تجتاز من فوقها. وهذا بعينه ما ينبغي أن نفعله للوصول إلى الغاية العظمى التي خُلقنا لها:

- أما الوسائط الموصلة إلى الغاية فنستخدمها لها، وذلك هو شكر الله عليها.

- وأما العقبات المقطّعة فنحيد عنها أو نجتاز من فوقها، وذلك هو الصبر الذي أمرنا به. فإذا تذكّر المؤمن هذه الحقيقة، ثم ظلّ على تنبّهٍ لها، أو كان سرعان ما يتنبّه لها كلما أُخذ عنها بشيءٍ من مشاغل الدنيا وأهوائها، تجرّد قلبه عن التعلق بكل ما سوى الله، فلم يتعلق بمالٍ ولا جاهٍ ولا ثناءٍ ولا عجبٍ ولا كبرٍ، ولم يعد ينصرف قلبه إلى حقد أو ضغينة أو حسد، ولا إلى أملٍ يوثّقه بأحدٍ من المخلوقين، إذ هو قد أُشرِب معنى العبودية لمالك الملك كله، فهو لا ينصرف بحاجاته إلا إليه، ولا يطرق باباً إلا بابه، فإن أعطي شكر وسخّر العطاء لتحقيق المزيد من مرضاته، وإن مُنع صبر وأيقن أن ذلك هو الخير له في الدنيا والآخرة.

وهذا هو التوحيد الذي دعانا إليه رسول الله ﷺ بقوله: (إذا سألتَ فاسألِ الله، وإذا استعنتَ فاستعنْ بالله، واعلم أنَّ الأمّة لوِ اجتمعتْ على أن ينفعوك بشيءٍ لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضرُّوك بشيء لم يضرُّوك إلا

بشيء قد كتبه الله عليك، رُفِعَتْ الأقلام وجَفَّتْ الصحف)(١).

ولكن لا يُشترط لعدم تعلُّق القلب بشيء من الدنيا أن يقتلع الإنسان من قلبه طبيعة الاحتياج إليها وإلى مشتهياتها التي هي مضبوطة بضوابط الشرع، فهذا أمر منافٍ للفطرة التي فطر الله عباده عليها. وإنما المطلوب أن ينصرف بحاجاته كلِّها إلى الله عز وجل، فيطلب منه فقط ما يريد ويحب، ويشكو إليه فقط ما يعاني منه، تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ۝٥٠﴾ [الذاريات: ٥٠].

بل إن العبد - إذا تعلَّق قلبه بالله عز وجل - يزداد عبودية له، كلما ازداد شعوراً بحاجاته وتطلعاته المختلفة. ذلك لأنَّ مادة العبودية في الإنسان إنما هي الحاجة والضعف ﴿وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا﴾ [النساء: ٢٨]، فلو لم يكن محتاجاً إلى هذا الذي فُطر على التعلُّق به، ولو لم يكن ضعيفاً عن نيل كل مبتغياته، لما كان ثَمَّة دافع يدفعه لالتزامه موقف العبودية لله عز وجل. وبذلك يغدو هذا الضعف نعمة تجر العبد إلى باب القوي القدير.

إذن فطريق الوصول إلى درجة الإحسان - من الناحية النظرية - أن نظل على ذُكْرٍ لهوّيتنا الحقيقية، ومعرفةٍ لوظيفتنا التي كلَّفنا الله تعالى بها، وأن نجعل منها غاية نضعها نصب أعيننا، ونتخذ من الدنيا بما فيها وسائط لتحقيقها، وتلك هي حقيقة العبودية لله تعالى، وتلك هي أرفع منزلة يتبوّؤها الصِّدّيقون، ويتطلَّع إليها المخلصون. أما عوامُّ الناس فتلتبس عليهم هذه الحقيقة بمظاهر العبادة، فيقفون عند التمسك بهذه الثانية، ولا يلتفتون إلى شيءٍ من خطورة الأولى وأهميتها، لذلك كان القائمون بأمر العبادات الظاهرة هم الكثرة الغالبة من المسلمين، وكان المتحقِّقون بالعبودية الباطنة هم القِلَّة النادرة فيهم(٢).

---

(١) رواه الترمذي عن ابن عباس (٢٥١٦)، وقال: هذا حديث حسن صحيح، وأحمد (٢٦٦٤) عن ابن عباس.

(٢) كتاب باطن الإثم (ص ٤٧ - ٥٢)، وشرح رياض الصالحين الدرس (١٤).

وهذا هو السِّرُّ في أنَّ القرآن يبدأ مع الإنسان حديثاً طويلاً عن ذاته ومصيره ومآله قبل أن يوجّهه إلى القيام بأيٍّ من العبادات والواجبات السلوكية، إذ من الواضح أنَّ خضوعه لها لا يمكن أن يتمَّ بطواعيةٍ ورضاً إلا إذا اكتشف ذاته أولاً، وأدرك أنها قائمة على صفاتٍ وسنن تنسجم الانسجام التام مع النهوض بتلك الواجبات، فما أيسر عليه بعد ذلك أن ينصاع لتلك التعليمات والإرشادات. . إذن فمعرفة الإنسان نفسه وذاته بدقة هي السبيل الذي لا بديل عنه لخضوعه الذاتيّ والطوعيّ للمبادئ والأحكام السلوكية التي يُخاطَب بها.

المبحث الثاني: من الناحية العملية

علمنا أنه لا يتمّ صلة ما بين الممارسات الإسلامية على الأعضاء والجذوة الإيمانية في العقل إلا بسلك واحد لا ثاني له، ألا وهو سلك العواطف والوجدان، فهو وحده الذي يمكنه أن يمتصَّ القناعة الإيمانية في العقل ثم يُحيلها في القلب -حيث بوتقة العواطف- إلى شُعلةٍ متوهِّجةٍ من الحبِّ والخوف والتعظيم لله عز وجل. هذه الشعلة تدفع صاحبها إلى ممارسة الأعمال الإسلامية بنبضٍ من اليقظة بمراقبة الله عز وجل، وذلك هو الإحسان الذي عرَّفه رسول الله ﷺ بقوله: (أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك)[1]، وعندها يدرك المسلم معنى قوله ﷺ: (وجُعِلَتْ قُرَّة عيني في الصلاة)[2]، وقوله: (أرحنا بها يا بلال)[3].

أما إذا انقطع سلك العواطف والوجدان الديني بسبب تَوجُّه هذه العواطف إلى

(١) مر ذكره (ص٦٢).

(٢) رواه النسائي (٣٩٤٠)، وأحمد (١٣٦٢٣)، والحاكم في المستدرك (٢٧٢٣)، جميعهم عن أنس، وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.

(٣) رواه الطبراني في المعجم الكبير (ج٦/ ص٢٧٧ رقم ٦٢١٥) عن عبد الله بن محمد بن الحنفية.

الدنيا والشهوات والأهواء، وغدا الإيمان قابعاً في زاويةِ العقلِ والفكر وحده، عندئذٍ نجد أن الأعضاء تمارس الأعمال الإسلامية من صلاةٍ وصيامٍ وزكاةٍ وحجٍ وأذكارٍ ودعوة إلى الله، لكنْ بحركاتٍ آليَّة باردة تقليدية ميِّتة لا حياة فيها ولا ضياء. وتكون أشبه بمركبة انقطع وَقودها الذي يصل المحرِّك بالعجلات، فإذا بها - إن تحركت - تتحرك بقوة الدفع[1] حركاتٍ بطيئة باردة غير متَّصلة بقوة المحرِّك، ثم لا تلبث أن تقف إذ لا وقود فيها.

فكيف السبيل لتجنيد العاطفة والوجدان لتصل بين مركز الإيمان في العقل ومَظهر الأعمال الإسلامية على الأعضاء، فيتحقق بذلك الإحسان؟

كيف السبيل إلى أن نحرر العاطفة من أسر النفس وشهواتها ورعوناتها كي لا تغدو حجاباً يحجز قناعة العقل عن مظاهر الأعمال والسلوك؟

تلك هي العقبة الكؤود، وتلك هي الفتنة التي أقامها الله في حياة الإنسان، ثم ألزمه بالجهاد أي بمجاهدة النفس والهوى في سبيل اجتياز العقبة والوصول إلى درجة الإحسان.. من أجل ذلك اتَّجهتْ هِمَّة الصادقين إلى تزكية النفس من أوضارها ورعوناتها وربط العاطفة بحقائق الدين وأحكامه حباً وخوفاً وتعظيماً.

أمَّا أصحاب رسول الله ﷺ فقد كان جهادهم أقلَّ وعورةٍ بسبب رؤيتهم لرسول الله ﷺ وسماعهم لكلامه وعظاته ورؤيتهم لأحواله، فهذا كله غَرَسَ محبَّته في قلوبهم وأثَّر على نفوسهم، وهذا بالطبع يستوجب محبَّةَ كل ما يدعوهم إليه وإيثاره على ما يخالفه من الشهوات والأهواء، فانتقلوا طفرةً من الجاهلية إلى الالتزام الكامل بعزائم الدين وأحكامه وآدابه.

---

(١) أي بقوة دفع جاذبية المنحدر الذي تنحدر فيه، أو بقوة الدفع اليدوي الخلفي.

ولكنْ بعد وفاة النبي ﷺ أصبح الطريق إلى تزكية النفس أكثر وعورةً وصعوبة[١]، فانصرف كثيرٌ من علماء المسلمين إلى استنباط الأصول والمناهج التربوية من كتاب الله عز وجل وسنَّة نبيِّه ﷺ، مثل الجنيد البغدادي والحسن البصري وسفيان الثوري وعطاء بن أبي رباح، وما خرجوا في شيء من أصولهم التربوية عن ميزان الكتاب والسنَّة قط. ثم إما أن يكون دخولهم في هذا الميزان صريحاً واضحاً، وإما أن يكون اجتهاداً واستنباطاً.

وقد أجمع العلماء على أن السبل التربوية المخالفة للقرآن والسنة مرفوضة قطعاً.

أما السبل التربوية غير المنصوص عليها في القرآن ولا في السنة، أي المرسلة، فتأخذ حكم الغاية التي تتحقق من ورائها عملاً بقاعدة: (ما لا يتمُّ الواجب إلا به فهو واجب، وما لا يتمُّ المندوب إلا به فهو مندوب)[٢]. فإذا كانت هذه السبل التربوية غير المنصوص عليها في القرآن ولا في السنة، من الأمور التي تعين في تزكية النفس وتصعيد العاطفة والوجدان، فإنها تأخذ حكم الغاية، ولطالما كانت الغاية- وهي تزكية النفس- واجبةٌ على جميع الخلق باتفاق وهي من أعمال القلوب، فإنَّ هذه السبل التربوية تأخذ حكم الواجب أيضاً.

ولكن تسلل الكثير من البدع والانحرافات إلى التربية الوجدانية على أيدي المسلّكين أو المريدين، فكان من الواجب علينا محاربة هذه البدع والتحذير منها، مع الإبقاء على الأساس السليم والمحافظة على جوهر الاتباع. ذلك لأن التربية

---

(١) فنحن لم نعاينه ﷺ - وقد كان قرآناً متحركاً - وإنما وقفنا على نصوص الكتاب والسنة بأفهام سقيمة، نظراً لدخول العجمة على ألسنتنا، فابتعدنا عن جوهر الدين وبالتالي عن محبته وإيثاره على كل ما سواه. إضافةً إلى أنَّ الحال ينتقل بنظر العين، هذا ما نلمسه بالنظر إلى وجوه الصالحين، فكيف النظر إلى وجهه ﷺ؟

(٢) الأشباه والنظائر (ج٢/ ٨٨)، والقواعد الفقهية وتطبيقاتها للدكتور وهبة الزحيلي (ج٢/ ٨٩١).

الوجدانية أو أعمال القلوب هي من أصول الإيمان وقواعد الدين، وإلا فأيُّ خير يحقِّقه ذاك الذي يدمِّر بالسلاح الذي يحارب به البدعة، جوهرَ الدين وأساسه ! إنه أشبه ما يكون بذاك الذي أراد أن يقتلع الأعشاب الضارة التي تنمو تلقائياً وتخرج بين النباتات المفيدة، فأخذ منجله وأخذ يقطع به كلَّ النباتات، الضارة منها والمفيدة، بحجَّة أنه لا يريد أن يؤذي الناس بهذه النباتات الضارة، فكانت النتيجة أنه أوقعهم في أذى الجوع والحرمان ! وكان يكفيه أن يعمد إلى تلك الأعشاب الضارة فيقتلعها، ويُبقي على النباتات المفيدة فيسقيها ويتعهدها بالرعاية لتكون خير غذاء للإنسان(١).

والآن . . تحت هذا المبحث الثاني يندرج ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: كلمة عن الإرشاد وصفات المرشد.

المطلب الثاني: السبل التربوية للوصول إلى درجة الإحسان.

المطلب الثالث: لاستكمال الفائدة لابد من علاجات أربعة أخرى.

المطلب الأول: كلمة عن الإرشاد وصفات المرشد:

إنَّ مثلَ هذا السلوك التربوي الخطير كان ينبغي أن لا يتم إلا بإشراف مرشد ومُسَلِّك، ومن أحد الشروط التربوية في الإرشاد والتسليك، أن يكون المرشد كاملاً ليستطيع أن يكون مُكَمِّلاً، ثم أن يولِّيه المريد السمع والطاعة لكل ما يأمره به وينهاه عنه.

وما دام هذان الطرفان من الشرط متوافرين، فهو شرط سليم مفيد لا إشكال فيه، ولكنَّ فَقْدَ أحد هذين الطرفين يجعل وجود الآخر لغواً لا فائدة منه.

فإذا كان المرشد كاملاً حقاً - وهو الرجل الذي جمع بين العلم الغزير بأحكام

---

(١) كتاب الإسلام ملاذ كل المجتمعات الإنسانية (ص ٢٠٥ - ٢١٤).

الشريعة والعمل بها، ثم تزكّتْ نفسُه حتى لم يعد يبالي أأقبلتِ الدنيا إليه أم أعرضتْ عنه، انحطَّ الناس في قدحه أم اجتمعوا على مدحه - فلابد للمريد أن يكون طوع أمره، بل لا يُصلِحه إلا ذلك. ولكن إذا لم يكن المرشد قد أحرز درجة الكمال هذه، لم يكن ثمة موجب لِأنْ يخضع له مريده هذا الخضوع المطلق، بل الخضوع المطلق لمثله يصبح من أخطر المزالق إلى الانحراف عن جادة الاستقامة التي شرعها الله عز وجل، لأنَّ عَدْوى نقص المرشد سوف تسري إلى المريد حتماً.

ولقد تسلل إلى رتبة الإرشاد الكثيرُ ممن هم بأمسِّ الحاجة إلى مَنْ يرشدهم ويزكّي نفوسهم من غوائل الدنيا وشهواتها، دفعهم إلى ذلك حبُّ الزعامة والتعظيم وشهوةُ إصدار الأوامر المطاعة وجمعُ المال الكثير من أيسر الطرق.

ومن الناس من اندفعوا إلى رتبة الإرشاد دون أن يتزوَّدوا بزادٍ كافٍ من علوم الشريعة الإسلامية، فتفنَّنوا في ابتداع سبل تربوية لتزكية النفس وتصعيد الوجدان، ولكنهم غفلوا عن أن كثيراً من هذه السبل تتعارض مع ضوابط الشريعة الإسلامية ونصوص الكتاب والسنة، فللذِّكْر وسائر العبادات آداب وقيود لا يجوز الخروج عن شيء منها، ولا يجوز فيها إلا الاتباع دون زيادة ولا نقصان. . وللسبل التربوية إلى تهذيب النفس وترويضها قيود وشروط ثابتة في مصادر الشريعة الإسلامية ومعروفة، لا يجوز للمربّي تجاوزها أو الإعراض عنها.

فتجمّعتْ من جرَّاء ذلك، في هذا السبيل القدسي، طفيليات وأشواك وعقبات تُبعِدُ السالك عن الله بدلاً من أن تقرِّبه إليه، سواء شعر بذلك أم لم يشعر.

على أنَّ هذا السبيل بقيت فيه معالم خير واضحة، ولم تخلُ العصور من مرشدِين مخلصِين في توجيههم وإرشادهم، ملتزمين بقيود الكتاب والسنة، وإن كانوا يقلُّون مع الزمن، حتى أصبح العثور عليهم أمراً عسيراً يشبه العثور على كنز عظيم نادر.

ثم إن الإرشاد غير التعليم:

- فالإرشاد عملية تربوية تستهدف تقويم الوجدان الإنساني وتصعيده ليتحرر من أسر النفس ابتغاء تطويعه لمقتضيات العقل والشرع، وهو يتطلب قدرات فائقة من المرشد كما يتطلب قبل هذه القدرات أن يكون قدوةً تامَّة للمريد.

- أما التعليم فليس أكثر من نقل المعارف إلى الأذهان، وإنما يكفي لذلك توفُّر المادة العلمية ثم توفُّر الأداة التعبيرية السليمة، وقبل هذا وذاك توفُّر الإخلاص لله عز وجل.

نعم.. إنَّ مثل هذا السلوك التربوي الخطير، كان ينبغي أن لا يتمّ إلا بإشراف مرشد ومُسَلِّك، ولكن ماذا نصنع إذا لم نعثر على المرشد الذي يستأهل هذا الاسم عن جدارة؟!

نكتفي في هذه الحال بالعودة المباشرة إلى كتاب ربّنا وسنّة نبيّه ﷺ، فنستلهم منهما منهاج هذه التزكية النفسية والتربية الوجدانية، ثم نمارسها وظيفة مستمرة ثابتة على أساس هذا المنهج، فإنَّ ذلك خير عون على إشراق القلب وتطهير النفس من كلِّ الأمراض والرعونات، وهذا الأخذ المباشر من الكتاب والسنة، لا يصحُّ إلا لعالمٍ متمكّنٍ مجتهدٍ، وقد ذكر ابن حجر نقلاً عن بعض أهل العلم: أنَّ المسلم إذا فَقَدَ المرشد الكامل، فإنَّ الإكثار من الصلاة على رسول الله ﷺ يُعيضُه عن المرشد، وكأنَّه ﷺ يكون هو المرشد له من حيث لا يشعر(١).

المطلب الثاني: السُّبُل التربوية للوصول إلى درجة الإحسان

إن الشباب المسلم يظل يسأل تحت إلحاحٍ من فطرته الإسلامية الظامئة:

(١) كتاب الإسلام ملاذ كل المجتمعات الإسلامية (ص٢١١ - ٢١٩).

كيف السبيل إلى أن أسمو على نفسي وأهوائها في هذه الأزمنة العصيبة؟

كيف أشعر بلذة المناجاة للخالق إذا وقفتُ بين يديه في صلاةٍ، أو جلستُ أقرأ قرآناً؟

كيف أصنع لأرقى بمشاعري إلى الرتبة التي أعبد فيها الله كأني أراه؟

كيف أجعل محبة الله ملء كياني حتى لا أحبَّ مع الله غيره، وكيف أجعل المخافة منه ملء شعوري حتى لا يتسلل إلى قلبي أيُّ خوفٍ من سواه؟

وكيف أكون عبداً لله وحده حقاً حتى لا يستعبدني مال ولا جاه ولا غرض شخصي ولا شيء من آفات النفس؟

فيا أخي المسلم، ويا أختي المسلمة، إليكما هذه السبل التربوية في تزكية النفس وتربية الوجدان، نستعرضها الواحدة تلو الأخرى، وكلها مضبوطة بضوابط الشرع، فقد قال العلماء: (من تشرَّع ولم يتحقَّقْ - أي لم يطهِّر قلبه - فقد تفسَّق، ومن تحقَّق ولم يتشرَّع - أي كان خارجاً عن الشريعة وأحكامها - فقد تزندق)[(١)].

١ - الخلوات الجزئية من أجل التحقق بمعنى العبودية لله عز وجل:

وهي مأخوذة من فعل رسول الله ﷺ، فقد حُبِّبت له الخلوة، فكان يختلي في غار حراء الساعات الطوال قبل البعثة، ولكن بعد أن جاءه الوحي وأُنيطت في عنقه واجبات الدعوة إلى الله عز وجل، أصبحت خلوته في داره، فكان يسبغ الوضوء ويقف بين يدي الله متفكراً متأملاً متعبداً، خاصة في الهزيع الأخير من الليل.

عن هذه الخلوة يقول ابن عطاء الله: (ما نفع القلبَ شيءٌ مثلُ عزلةٍ يدخل بها ميدانَ فِكرة)[(٢)]. فالحكمة من الخلوة أنها المناخ الوحيد للفكر. والفكر هو حركة

---

(١) الدروس الصوتية لشرح الحكم العطائية لـ د. البوطي - رحمه الله - الدرس (٢)

(٢) الحكمة (١٢) من الحكم العطائية.

العقل، ومن دونه لا يغني العقل شيئاً. والفكر هو الذي يحرّر العقل من سلطان النفس وأهوائها وعقدها، ومن دونه لا يستبين الإنسانُ الفارقَ بين دلائله العقلية وإيحاءاته النفسية، لأجل ذلك ينبِّهنا الله عز وجل إلى أهمِّيَّته في كثير من آياته، فهو جل جلاله يقول: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾ [آل عمران: ١٩٠]، ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢١٩]، ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤]، ﴿لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

فإذا ما تفكَّر الإنسان في ذاته ومصيره وفي رقابة قيُّوم السماوات والأرض عليه، وفيما بثَّه من آيات كونية، فإن النتيجة تكون أدقَّ وأصدق في نجوةٍ عن الناس وضوضائهم.. ذلك لأن النفس الإنسانية تستقبل أصواتاً كثيرةً بالإضافة إلى صوت العقل والمنطق الصافي:

منها صوت الأهواء والشهوات، ومنها صوت العصبية والأنانية والكبر، ومنها صوت الضغائن والأحقاد، ومنها صوت مشاعر النقص. وليست البطولة أن يُحسِن الإنسان الإصغاء إلى هذه الأصوات كلها، ولكنَّ البطولة أن يحسن الإصغاء إلى صوت العقل وحده متميزاً عن هذه الأصوات كلها، وعندئذٍ سيسوقه العقل الصافي إلى معرفة عبوديته[1].

والعبودية قسمان:

- العبودية الفطرية الاضطرارية: وهي العبودية التي فطر اللهُ الناسَ جميعهم عليها منذ زمن خطابه القديم للأرواح قبل أن تنسكب في الأجساد، والذي أخبرنا به الله عز وجل بقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ

(١) باطن الإثم (ص ٥٥ - ٥٧) مع التصرف.

أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ [الأعراف: ١٧٢].

هذه العبودية عبارة عن شعور خفي بمنتهى الذل الناتج عن منتهى الضعف والعجز مع عدم المالكية لشيء من الأشياء، وهي موجودة في كيان الإنسان، سواء كان مؤمناً أم كافراً، مستقيماً أم فاجراً أم ملحداً، ولكنها تكون خفية وراقدة ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [آل عمران: ٨٣].

فالإنسان - أياً كان - إذا رجع إلى مرآة ذاته، يعلم في قرارة نفسه أنه عبد لسيِّدٍ ما، ولو لم يكن يعلم مَنْ هو سيده ومالكه، ويعلم أنه متَّصف بصفة العبودية. والذي يتَّصف بصفة العبودية لا بد أن يكون له معبود - كل الملوك والفراعنة يعلمون ذلك - فإذا ما أصغى إلى صوت العقل الصافي مجرداً عن الأصوات الأخرى، يعلم أن الله سبحانه وتعالى هو المعبود الأوحد بحق. وقد تحدثنا عن هذه العبودية تحت بند: كيف نصل إلى الإحسان من الناحية النظرية.

عندئذٍ تستيقظ هذه الحال- حال العبودية الفطرية- من رقادها، ليتفاعل معها ويدين لها ويعترف بها، وعندئذٍ يعيش في نعيم العبودية الاختيارية.

- والعبودية الاختيارية عبارة عن حالة من الافتقار الكلي يشعر به الإنسان تجاه ربِّه وخالقه سبحانه وتعالى، فتقوده إلى الدعاء والرجاء والاسترحام وطلب العون منه سبحانه، والانكسار على بابه، والتذلل على أعتابه، ويكون هذا شأنه وديدنه في الشدَّة والرخاء والمنع والعطاء والسراء والضراء. وهذا هو الذي عرف ربَّه، والذي وصفه ابن عطاء الله رحمه الله بقوله: (العارف لا يزول اضطراره ولا يكون مع غير الله قراره)[1].

(١) الحكمة (١٠٣).

فالإنسان فقير إلى الله سبحانه وتعالى في كل أحواله، في عافيته ومرضه، في غناه وفقره، في عزّه وذلّه، فهو لا يملك شيئاً من هذه النعم وإن كانت بين يديه، لأنَّ كل هذه النعم إنما تأتيه من الله عز وجل لحظةً فلحظةً، وفي اللحظة التي تنقطع حمايةُ الله عنه، يكون عُرضَةً ونُهْبَةً للمرض والخوف والفقر والضعف. عن هذا المعنى يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾﴾ [الملك: ١٦ - ١٧].

نحن في كثير من الأحيان بحاجة لأن نتعلّم من الأطفال: كيف تكون حال الطفل الصغير الذي حمله أبوه وأشرف به على واد، وهو يعلم أنَّ أباه يحبُّه ويحنو عليه؟

هل يقول في نفسه: إنَّ والدي يحبُّني وهو ممسكٌ بي، فيكون آمناً مطمئناً مترفِّهاً؟

لا.. بل نجد أن عينيه متجهتان بانكسار إلى أبيه وكأنه يقول له: يا أبتِ إياكَ أن تتركني.. يا أبت إياك أن تدركك مني حالةُ غضبٍ تنسى من خلالها عطفَك عليَّ ورحمتك بي. يكون وضعُ هذا الطفل وضعَ المضطر المنكسر اللائذ بأبيه، على الرغم من أنه في نعمة، فأبوه يمسك به ويحبُّه، فلماذا الانكسار؟

إنه يعلم أن أباه يمكن أن يتركه في كل لحظة، ولو كان احتمالاً بعيداً، فإنه ممكن[١]، فلماذا يدرك الطفلُ الصغير هذا في علاقته بأبيه، ما لا ندركه نحن عبادَ الله في علاقتنا مع مولانا وخالقنا؟!

إذا أدرك الإنسان وحدانية الله عز وجل ذاتاً وصفاتٍ وأفعالاً، كان من عباد الله العارفين، وكان دائماً في حالة اضطرارٍ وخوفٍ وانكسارٍ والتجاءٍ إلى الله عز وجل.

---

(١) فلو أن الله عز وجل نزع من قلبه الرحمة لفعل، لأجل ذلك فطر الله الطفل على اللوذ بأبيه والتشبث به.

وهذا هو سُلَّم القرب من الله عز وجل ومفتاح الوصول إلى مرضاته، وهي الغاية القصوى من تقلُّبات الإنسان في حياته الدنيا، ولا فائدة من العبادات السلوكية الظاهرة من دون التحقق بمشاعر العبودية الواجفة لله عز وجل، فمهما صام وصلى وتفنَّن في النسك والعبادات، لا يُقرِّبُه شيء من ذلك إلى الله عز وجل، إلا إذا كان مضمَّخاً بذلِّ الافتقار إليه وممزوجاً بمشاعر الانكسار بين يديه[١].

لذلك كانت العبودية روحَ العبادة وجذورها الخفيَّة الكامنة في طوايا النفس. يقول الله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾ [إبراهيم: ٢٤ - ٢٧].

فالكلمة الطيبة هي كلمة التوحيد (لا إله إلا الله محمد رسول الله) وبها يدخل الإنسانُ الإسلامَ وبها يوقن قلبُه.

والشجرة الطيبة هي النخلة، وهي تشبه المؤمن، قال ﷺ: (إن من الشجر شجرةً مَثَلُها كَمَثَل الرجل المسلم) فقال ابن عمر: فأردت أن أقول: هي النخلة، فنظرتُ فإذا أنا أصغر القوم فسكتُّ، فقال رسول الله ﷺ: (هي النخلة)[٢].

وفي رواية أنه ﷺ قال: (أخبروني بشجرة تشبه أو كالرجل المسلم لا يتحاتُّ ورقها ولا ولا ولا، تؤتي أكلها كل حين) قال ابن عمر: فوقع في نفسي أنها النخلة، ورأيت أبا بكر وعمر لا يتكلمان فكرهت أن أتكلم، فقال ﷺ: (هي النخلة)[٣].

---

(١) شرح الحكم العطائية الدرس (١٢٣)، والحب في القرآن (ص٦٧).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤٥٨٥) عن مجاهد عن ابن عمر.

(٣) أخرجه الشيخان، البخاري (٤٤٢١)، ومسلم (٢٨١١)، واللفظ للبخاري، وكلاهما عن ابن عمر.

وقد شبَّه الله المؤمن الذي دخل الإسلام بكلمة التوحيد وأيقن بها قلبه بالشجرة الطيبة لوجود تقابل بينهما:

الثمــار = الأخلاق الفاضلة
الإحسان
الأغصان = الشرائع
الإسلام
الجــذع = العبادات والمعاملات
الجــذور = العبودية = العقيدة
الإيمان

الشجرة الطيبة = الكلمة الطيبة (لا إله إلا الله)

وبها يدخل الإنسان الإسلام = المسلم في عقيدته وعباداته وأخلاقه

- أما جذور الشجرة الضاربة في أعماق الأرض فهي عبودية الإنسان لله عز وجل الكامنة في طوايا النفس.

والعبودية- كما علمنا- حالٌ فطر اللهُ جميعَ الناس عليها منذ عهد ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾، ولكنها في كثير من الأحيان تكون خفيَّةً وراقدةً، أما عندما تستيقظ بين جوانح الإنسان فإنها تثمر شجرة الإسلام بعباداته ومعاملاته وأخلاقه.

- وأما جذع الشجرة فهي الشرائع السلوكية المتمثلة بالعبادات والمعاملات المالية والاجتماعية. إذاً فالعبادات والمعاملات تتفرّع عن مشاعر العبودية الواجفة لله عز وجل، كتفرُّع جذع الشجرة عن الجذور الخفية. وعليه فكلُّ عبوديةٍ لا بد أن تثمر عبادة، وليس كل عبادة هي ثمرة للعبودية.

وكما أن جذع الشجرة المفصول عن الجذور يعتبر ميتاً وبالتالي لا يثمر، فكذلك العبادات والمعاملات المفصولة عن مشاعر العبودية لله عز وجل، هي كالجسد الذي لا روح فيه، لا يمكن أن تثمر أخلاقاً فاضلة.

وكما أن جذع الشجرة ظاهر فوق الأرض نراه عياناً، فكذلك العبادات والمعاملات، هي سلوك ظاهر، بخلاف العبودية التي هي حال باطن يختفي في طوايا النفس اختفاء الجذور في باطن الأرض.

- وأما ثمار الشجرة فعبارة عن الحضارة الإسلامية المتمثلة بالأخلاق الفاضلة، وما تحققه لأفرادها ومجتمعاتها من السعادة والرضا والظل الوارف الظليل، إن هي اتصلت بجذورها الخفية.

وكما أن الشجرة لا يزال يوجد منها ثمر في كل وقت وحين بإذن ربها، فكذلك المؤمن لا يزال يُرفع له عمل صالح آناء الليل وأطراف النهار وفي كل وقت وحين بتوفيق ربه جل جلاله[1].

- والكلمة الخبيثة هي كلمة الكفر، والشجرة الخبيثة هي شجرة الحنظل، فقد شبَّه الله الكافر الذي خالف فطرةَ الله التي فطره عليها، بالشجرة الخبيثة وهي شجرة الحنظل لوجود تقابل بينهما:

فالشجرة الخبيثة التي اقتُلعت من الأرضْ لعدم ثباتها، لا أصل لها ولا ثبات ولا فرع، وكذلك الكفر لا أصل له في أعماق النفس، ولا يصعد للكافر عملٌ إلى السماء ولا يُتَقبَّل منه شيء[2].

---

(١) دروس (العبادة والعبودية) الدرس (١).

(٢) تفسير ابن كثير (ج٢ / ٥٣٠)، وجاء في كتاب (الفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية الموضحة للكلم القرآنية والحكم الفرقانية) للشيخ علوان (ج ١/ ٤٠٥): الشجرة الخبيثة هي الحنظلة التي أخذت تنمو جثتها من فوق الأرض بلا استحكام عرقها وأصلها في الأرض وتعمقها فيها، لذلك ما لها من قرار ولا ثبات، إذ أدنى الرياح تقلبها.

وإذن.. لطالما كانت العبودية حالاً وشعوراً فياضاً داخل الإنسان، من أنه كتلة ضعف وعجز وفقر وفاقة على أعتاب الله عز وجل، فلا يمكن أن يشوبها نفاق أبداً. وكيف يشوبها نفاق أو رياء وهي صلة ما بين الإنسان وربِّه، يصطبغ بها الشعور الذي لا يعلمه إلا الله عز وجل. ولطالما كانت العبادة سلوكاً ظاهرياً يراه الناس، فيمكن أن تكون قائمة على النفاق.

لأجل ذلك كانت العبادة المقبولة عند الله، هي تلك النابعة من جذور العبودية الخفيَّة الكامنة في أعماق وأغوار النفس الإنسانية. ذلك لأنَّ هذه العبودية تقوم بدورين هامين:

١ - أنَّ العبودية إذا استيقظت في مشاعر الإنسان، تكون هي الضامنَ الوحيد لتطبيقه العبادات بأركانها وآدابها الظاهرة على النحو الذي يرضي الله، فهو لا يؤدِّيها من منطلق (أرحنا منها) كهذا الذي قال له رسول الله ﷺ: (ارجع فصلِّ فإنك لم تصل)[1]، وإنما يؤديها من منطلق: (أرحنا بها يا بلال)[2]، وهذا هو ظاهر الطاعة.

٢ - أنَّ هذه العبودية تمنع صاحبها من الرياء والنفاق واتخاذ العبادات مطايا لمغانم دنيوية، ذلك لأن العبودية لله وحده تنشل صاحبَها من العبودية لغير الله، وتمنعه من أن يكون تعامله مع الأغيار، وإنما تعامله مع خالقه وخالق الأغيار، ومَنْ ناصيتُه ونواصيهم جميعاً بيده، فالكل عبيد لله الواحد القهار.

كما تمنعه عبوديته لله من العجب ومن الشعور بأنه يستحقُّ الأجر من الله لقاء طاعته، ذلك لأنه يعلم أنَّ الفضل في طاعاته كلها إنما هو لله وحده، فهو الذي وفَّقه وأعانه وأعطاه القوة على أدائها مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ۝٩٦﴾ [الصافات: ٩٦]، وقوله: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَـٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ

---

(١) أخرجه البخاري (٧٦٠)، ومسلم (٣٩٧) كلاهما عن أبي هريرة.

(٢) المعجم الكبير للطبراني (٦٢١٥).

عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الحجرات: ١٧]، وقوله: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ﴾ [الحجرات: ٧]، لأجل ذلك نجد هذا الإنسان الذي اصطبغ بحقيقة العبودية لله، يعلم أنه كلما أدى طاعة من الطاعات، فإنَّ حقوق الله عليه تزداد، فيزداد هو شكراً لله على ما وفَّقه إليه من الطاعات والقربات، فالفضل كلُّه لله، ثم إنه جل جلاله يزيد هذا الفضلَ فضلاً بأنْ يدَّخر له على ذلك الأجر والثواب، وذلك هو منتهى إحسان الرب لعبده ومنتهى الرحمة منه سبحانه، فلله وحده الفضل والمنة من قبلُ ومن بعد. وهذا هو باطن الطاعة.

وإذا اجتمع ظاهر الطاعة مع باطنها، فذلك هو العمل المقبول عند الله عز وجل، والضامن لذلك إنما هو تحصُّن الإنسان بحصن العبودية لله عز وجل.

وقد روي عنه ﷺ أنه قال: (لا يبلغ أحدُكم ذُروةَ الإيمان حتى يكون الناسُ عنده أمثالَ الأباعر في جنب الله تعالى، ثم يرجع إلى نفسه فيكون لها أحقر حاقر)[1].

فهو لن يرائي الناس، لأنهم في جنب الله كالأباعر، فهل من عاقلٍ يرائي البعير في عباداته؟! وهو لن يقع في العجب لأنه يعود إلى نفسه فيراها أحقر حاقر.

لأجل ذلك يكرر الله عز وجل على مسامعنا ذكر العبودية في القرآن.

فقد أثنى سبحانه وتعالى على نُخبةٍ من عباده بقوله: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ وهذه كلها عبادات سلوكية، ثم قال: ﴿وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٣]، وهذا ليس تكراراً للكلام السابق، وإنما المعنى أنهم كانوا يصطبغون بصبغة العبودية لله عز وجل، أي أنهم يؤدُّون العبادات السلوكية انطلاقاً من شعورهم بذلِّ العبودية لله عز وجل، وتلك هي العبادة المقبولة عند الله عز وجل.

---

(١) نوادر الأصول في أحاديث الرسول ﷺ، لمحمد بن علي أبو عبد الله الحكيم الترمذي المتوفى سنة (٣٢٠هـ) المحقق عبد الرحمن عميرة (ج ٢/ ١٤٥).

كما أثنى سبحانه وتعالى على المسيح ابن مريم الذي خلقه بطريقة متميزة عن باقي الناس وميزه بالخوارق بقوله: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء: ١٧٢]، أي: لن يستكبر المسيح أن يدين بالعبودية لله عز وجل. فالعبودية عبارة عن الضعف الذي يحتاج صاحبُه إلى مَنْ ينتشله منه ويستبدل به القوة، وهذا هو حالنا جميعاً.

أما الطغاة فإنهم لم يدخلوا بابَ العبودية الطوعية - الاختيارية - لله عز وجل مع أن كياناتهم كلها من الفرق إلى القدم تُعلِمهم أنّهم عبيد مملوكون لله عز وجل، وعنهم يقول الله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [آل عمران: ٨٣]، إذاً فهم أسلموا لله كرهاً لا طوعاً، وعندما يُرجَعون إلى الله تزول عنهم عوارض الطغيان والبغي والقوة والاستكبار التي منعتهم من الاعتراف بعبوديتهم لله، كل ذلك يزول ويرحلون إلى الله عز وجل عرايا إلا من عبوديتهم لله سبحانه وتعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾ [مريم: ٩٣]، أي إلا آتي الرحمن مملوكاً ذليلاً لله(١).

قد يقول قائل: لو أنَّ إنساناً يعترف بعبوديته لله عز وجل كل يوم، ولكنه لا ينفِّذ أوامر الله عز وجل ولا يبتعد عن نواهيه، فهل تشفع له عبوديتُه لله هذه يوم القيامة؟

الجواب: عن هؤلاء الناس يقول الله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يوسف: ١٠٦]، هذا الإنسان لو ظل يعلن عن عبوديته لله عز وجل ويعترف بها طوال عمره، فلن تشفع له هذه العبودية يوم القيامة، لماذا؟

لأنَّ إبليس كان موقناً بعبوديته لله عز وجل ويعترف بأنه عبد لله بدليل قوله: ﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى﴾ [الحجر: ٣٩] يخاطبه بكلمة (ربِّ)، ويقين الإنسان بربوبية الله عز وجل

---

(١) (العبادة والعبودية) دروس صوتية الدرس (١-٢-٣).

تساوي يقينه بعبوديته لهذا الإله، فهل نفع إبليسَ إيمانُه بربوبية الله؟ ومن ثم هل نفع إبليسَ إيمانُه بعبوديته لله؟

لا لم ينفعه ذلك شيئاً، لأنه لم يتوّج هذه المعرفة بالتزام أوامر الله والابتعاد عن نواهيه، بل ركب الاستكبارُ رأسَه فلم يعد ينفعه إيمانه أبداً، وكلُّ مَنْ سار على منوال إبليس فمآله مآل إبليس[1].

وأخيراً، ونحن ندعو إلى الخلوات للتحقق بحقيقة العبودية لله عز وجل، لا ندعو إلى الانعزال عن المجتمع والعيش بعيداً عنه في كهوف الجبال، فهذا يتناقض مع فطرة الإنسان ومع وظيفته. ولكننا ندعو إلى أن تخلو إلى عقلك كلما رجعتَ إلى حساب صندوقك، تماماً كالتاجر يعيش عمره بين صخب الناس وضجيج الأصوات في الأسواق، ولكنَّ ذلك لا يمنعه من أن يخلو إلى نفسه بين الحين والآخر، في غرفةٍ من غرف داره، متجرِّداً حتى عن الأهل والولد، يعكف على دفاتره وأوراقه وحساباته، ولولا هذه الساعات لما قدَّم له متجره إلا الندامة والخسران.

أدعوك إلى أن تسلك هذا السبيل لكي تحرِّر فكرك مما يتسلَّل إليه من وحي العصبية أو دوافع المصالح الزائفة أو دواعي العقد النفسية المختلفة، حتى تملك الاطمئنان إلى أنك تسير وفق منهجٍ من التأمل العقلي الحر[2].

٢ - الإكثار من ذكر الله لتربية محبة الله عز وجل في القلب والخوف منه سبحانه

● - معنى الذكر الحقيقي وكيف نصل إليه:

المقصود بذكر الله عز وجل، تذكُّر القلب والعقل لله سبحانه وتعالى، وليس

---

(١) (العبادة والعبودية) دروس صوتية الدرس (٥).

(٢) باطن الإثم (ص ٥٧).

الذكر أن يمسك الإنسان سُبْحةً ويردِّد سبحان الله سبحان الله، بينما خياله مشغول بأهوائه وشهواته. إنما معنى الذكر يفسِّره قول الله عز وجل: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ۝٢٠٥﴾ [الأعراف: ٢٠٥]، أي اجعل مشاعرك مع الله، واجعل حديث نفسك وخواطرك مرتبطةً بالله عز وجل حتى ولو كان لسانك ساكتاً، ولْتَظهَرْ آثارُ تذكُّرك النفسيِّ لله عز وجل بالتضرع والانكسار والخشية لهذا الإله.

﴿وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ فليس المطلوب منك أن تجهر بالذكر.

﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ فالذكر هو تذكُّر القلب لله، وهو ضد الغفلة، وليس ضد سكوت اللسان، إذا لم يقل: ولا تكن من الساكتين.

مثال: تقول لصاحبك: ذكرتُك البارحة طوال النهار. فليس معنى كلامك أنك طوال النهار كنتَ تقول: فلان، فلان... ولكن المعنى أنك طوال النهار كنتَ في خاطري وفي نفسي. فكنت تتذكَّره بقلبك وإنْ لم تكن تذكُره بلسانك.

وإذن.. فالمقصود من ذكر الله هو الذكر القلبي لا اللساني.

والسؤال الوارد هنا: إذا كان الأمر كذلك، فما معنى قوله ﷺ: (لا يزال لسانك رطباً من ذكر الله)(١).

الجواب: اللسان وسيلة وخادم للوصول إلى الذكر القلبي لله، فالذكر اللساني مطلوب كوسيلة وإنما الهدف هو ذكر القلب.

والإنسان عندما يبدأ فيذكر الله يبدأ بذكر اللسان، ثم إنَّ ذكر اللسان يسري شيئاً

(١) أخرجه الترمذي (٣٣٧٥) وقال: حديث حسن غريب، وابن ماجه (٣٧٩٣)، وأحمد (١٧٢٢٧) جميعهم عن عبد الله بن بسر، وفي رواية أخرى لأحمد (١٧٢٤٥) بلفظ: (لا يزال لسانك رطباً بذكر الله) أيضاً عن عبد الله بن بسر.



فشيئاً إلى القلب، فإذا استيقظ القلب وانتعش بذكر الله عز وجل، فصاحب هذا القلب ذاكر لله سواء ذكر الله بلسانه أم لا، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ﴾.

ثم إنه عندما يزداد ويزداد ذكر القلب لله عز وجل، يعود أثره على اللسان الذي هو خادم للقلب، فيردِّد اللسانُ ذكر الله عز وجل بقصدٍ من صاحبه أو بدون قصد[1]، حتى في نومه ورقاده فاللسان يعلو ويهبط مردِّداً كلمة (الله)، لأنَّ الروح لا تنام وإن نام الجسد، وتلك هي نتيجة قوله ﷺ: (لا يزال لسانك رطباً بذكر الله).

وليس المطلوب من الإنسان فقط أن يذكر الله، وإنما المطلوب منه أن يكثر من ذكر الله عز وجل، هذا ما أكَّده المصطفى ﷺ بقوله: (سبق المفرِّدون)، قالوا: وما المفرِّدون؟ قال: (الذاكرون الله كثيراً والذاكرات)[2]، وهم الناس الذين لا تغفل أفئدتهم عن ذكر الله، ومن ثم يظلُّ لسانهم خادماً لأفئدتهم يردِّد ذكرَ الله عز وجل من توحيدٍ وتسبيح واستغفار وصلاة على الرسول ﷺ وتلاوة للقرآن.

ولم يقع خلاف بين المسلمين في أنَّ التقرب إلى الله تعالى بتلاوة كتابه يُعَدُّ من أفضل القُرَب إلى الله عز وجل، وأنه لا بد للمسلم أن يتَّخذ وِرداً دائماً من التسبيح والاستغفار وتلاوة القرآن، وأنَّ أفضل وقت لذلك هو البكور والآصال، لقوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ [غافر: ٥٥]، ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ [طه: ١٣٠][3].

---

(١) ذِكْر اللسان هنا هو أثر من آثار ذِكْر القلب، والإنسان عندها يكون ذاكراً لله عز وجل بقلبه ولسانه معاً، أما ذكر اللسان والقلب غافل، فلا يُدخِل صاحبَه في عداد الممتثلين لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ وسنذكر التفصيل (ص٢٣٣).

(٢) رواه مسلم (٢٦٧٦) عن أبي هريرة.

(٣) شرح رياض الصالحين الدرس (٨٣٧- ٨٤٥)، وكتاب باطن الإثم (ص ٦١ - ٦٢)، والتزكية قبل التقنية الدرس (٣).

وقد ربط الله عز وجل بين التزكية وذكر الله عز وجل بقوله: ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ۝١٥١ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥١ - ١٥٢]، أي: اذكروني بالتذلل والعبودية والانقياد لأوامري والابتعاد عما نهيتكم عنه.. اذكروني بمعرفة مظاهر ربوبيتي.. اذكروني بمعرفة صفاتي الحسنى وألطافي الظاهرة والخفية.. اذكروني بمعرفة النِّعم التي تتوالى عليكم ورسائل الحب والتكريم التي أرسلها لكم.

أذكركم بتزكية قلوبكم وتطهير نفوسكم من أدرانها.. أذكركم بالتوفيق والإسعاد والمزيد من الإنعام.. أذكركم بالوقاية من كل ما تتخوفون منه.

فالذكر هو روح الروح، فكما أن للجسد روحاً لا يحيا إلا بها، وبدونها يكون الجسد ميتاً، فكذلك للروح روح لا تحيا وتنتعش إلا به، وروح الروح هو ذكر الله سبحانه وتعالى.

وأفضل سبيل لأنْ أتذكَّر الله بقلبي وعقلي ونفسي ولا أكون من الغافلين، هو مراقبة الله سبحانه وتعالى. ومعنى المراقبة أن أربط كل نعمة في يومي وليلتي بالمنعم جل جلاله الذي أرسلها إلي، والنِّعم إنما تتوالى عليَّ من الصباح إلى المساء، ولا تكاد تخلو لحظة من لحظات حياتي من نعمة، بل من بحرٍ من النِّعم قد غُمِستُ فيه غمساً.

فإذا كنتُ دائماً أربط النعم بالمنعم فقد ذكرتُ الله حقَّ ذكره، لا سيما إذا استعنتُ بالأذكار والأدعية التي علَّمنا إياها رسول الله ﷺ عند كل نعمة أن نذكرها.

الله عز وجل يقول: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ﴾ [النحل: ٥٣] فهو جل جلاله ينبِّهنا أنَّ النعم التي نسبح في بحارها كلها منه سبحانه وتعالى، وهي قسمان:

١ - نِعَمٌ إيجابية: وتتمثل في العافية والأمن والطمأنينة والعقل والسمع والبصر والشم والذوق والقدرة على الحركة والرزق والأسرة والزوجة والأولاد. . . وغير ذلك، فكلها نِعَمٌ إيجابية تنضوي تحت قوله تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾، والتفكُّر المستمرُّ في هذه النِّعم يورِث القلبَ حبَّ الله عز وجل لأنه هو مصدر النعم كلها، فقد جاء في الأثر: (جبلت القلوبُ على حبِّ من أحسن إليها)[1]، وقال ﷺ: (أحبوا الله لما يغذوكم من نعمه)[2]، فما أمرنا به رسول الله ﷺ من محبَّة الله عز وجل، موافقٌ للفطرة التي فطرنا الله عليها من حبِّ المحسن، والمحسن الأوحد في الكون كله إنما هو الله جل جلاله.

٢ - نِعَمٌ سلبية: وتتمثَّل في كل ما يصرف الله عنك من الأسباب المؤذية والممرضة، وهي تلك التي إذا أصابك الضرُّ كشفه عنك، فإنه لا يكشف الضرَّ إلا الله، وهذه النعم تنضوي تحت قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾، والتفكُّر المستمر في هذه النعم يورث القلبَ الخوفَ من الله عز وجل، لأنه هو مصدر النِّقَم كلها.

وما من نعمة أنعمها الله عز وجل على الإنسان إلا وهي سلاح ذو حدَّين:

- فالماء الذي أكرمه الله به وجعله سببَ حياته ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠]، يمكن أن يقلبه الله إلى سبب هلاكٍ وغرق.

- والهواء الذي يستنشقه صباحاً، يمكن أن يقلبه الله ريحاً تكون سببَ دمار البلاد، وهكذا. . فتذكُّر الإنسان لصحته، يذكِّره بالمرض الذي يمكن أن يبتليه الله

(١) نوادر الأصول للترمذي (ج١ / ص١٤٩) عن ابن مسعود موقوفاً، وقال د. وهبة الزحيلي: رواه ابن عدي والبيهقي عن ابن مسعود وصححه، التفسير المنير (١٠ / ٢٧٩).

(٢) رواه الترمذي في سننه (٣٧٨٩)، وقال: حديث حسن غريب، وأخرجه الحاكم في المستدرك (٤٧٧٠)، وقال: صحيح الإسناد على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وكلاهما عن ابن عباس.

به، وتذكُّره لنعمة الأمان الذي متّعه الله به، يذكِّره بالمخاوف التي يمكن أن يسلِّطها الله عليه. وهكذا فتذكُّره للنعمة الواحدة يبعث في قلبه حبَّ الله عز وجل والخوفَ منه سبحانه وتعالى بآن واحد.

والإنسان مدعوٌّ إلى أن يرتبط بخالقه برباطين اثنين:

- رباط المحبة لله عز وجل، ويكون بواسطة التفكُّر بالنعم وربطها بالمنعم الأوحد سبحانه وتعالى.

- رباط الخوف من الله عز وجل، ويكون بواسطة التفكر بالمصائب التي أصابت أهلَ المعاصي، فيكون على وجل من أن يصيبه شيء من هذه المصائب، أو أن ينزع الله منه شيئاً من النعم.

فإذا ما تفكر الإنسان بذلك بشكل مستمر أصبح ذاكراً لله على كل حال، في السراء والضراء، إذ لا يديم عليه السراء إلا الله، ولا يدفع عنه الضراء إلا الله، وعندئذٍ يشتعل قلبه بهذين النارين، نار محبة الله، ونار الخوف من الله، فيكون ذلك بمثابة الوقود الذي يدفع المسلم دفعاً للوصول إلى الله عز وجل.

والمسلم بدون هذه النار اللاهبة من حبِّ الله والخوف منه، يُحمَّل أثقالاً كثيرةً من الشهوات وحب الدنيا بكل أشكالها، فكلها أثقال تجعله يلتصق بالأرض وتصدّه عن السير إلى الله عز وجل. فلا بد إذاً من وَقود يحرِّك في الإنسان قِوى الدفع والسير لكي يتغلَّب على هذه الأثقال، فلا تستطيع عندها أن تصدَّه عن السير إلى الله سبحانه وتعالى. هذا ما عبر عنه الربانيون عندما قالوا: (لا يوصِل العبدَ إلى الله إلا شوقٌ مُقلِقٌ أو خوفٌ مُشفِقٌ)[1]. [2]

---

(١) الحكمة (٢٠٢) من حكم ابن عطاء الله السكندري بلفظ قريب: (لا يخرج الشهوة من القلب إلا خوف مزعج أو شوق مقلق).

(٢) التزكية قبل التقنية الدرس٢، وشرح رياض الصالحين الدرس ٢١، وشرح فقه السيرة الدرس ٦.

وإذا ما اهتاج في قلب المسلم هذا الوقود من حبِّ الله عز وجل والخوف منه، فإنَّ هذا الوقود يؤدي في كيان المسلم دوراً عظيماً وهو:

١ - أنَّ حبَّ الله عز وجل إذا نما وازداد في قلب المؤمن - عن طريق الإكثار من ذكر الله - فإنه يقارع حبَّ الشهوات والأهواء وحبَّ الدنيا بكافة أشكالها، وتصبح محبة الله عز وجل هي الغالبة والمسيطرة على المحبوبات الأخرى عند التعارض، وبالتالي تتقلم أظافر الأخلاق الذميمة من حسدٍ وحقدٍ ورياءٍ وتكالبٍ على المال والزعامة والجاه والدنيا بكافة أشكالها، وتتطهَّر النفس من الرذائل، لأنَّ هذه الأخلاق إنما تنمو وتترعرع ضمن إطار التنافس على الدنيا وفي تربة القلب المشحون بحب الدنيا، ولطالما تغلَّب حبُّ الله على حبِّ الدنيا، فإن حبَّ الله يحرق هذه الأخلاق الذميمة كلها. وبذلك يترفَّع المؤمن- بحبِّه لله- على كل الرغبات والشهوات والمغريات مهما تراقصت من حوله، مع العلم أنَّ الرغبات التي فطر الله الإنسان عليها تبقى موجودة ولكنها تكون منضبطة بضوابط الشرع، وبذلك يسعد المؤمن بتطهير نفسه من أدرانها في الدنيا والآخرة ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٧﴾﴾ [الأعلى: ١٤- ١٧].

ألا فلنعلم أن القلب كالمرآة لا يخلو في لحظة من اللحظات من انطباع شيء ما عليه، فإذا كان فارغاً من تذكُّر الله، وبالتالي فارغاً من حبِّ الله - لما علمناه من العلاقة الحتمية بين الذكر الحقيقي لله وبين حبِّ الله - فلا بد إذن أن يكون فيَّاضاً بحبٍّ آخر هو حبُّ الدنيا والشهوات والأهواء، وهذا الحبُّ لا بد أن يقترن بالتنافس على هذه المحبوبات، فيترعرع الحسد والحقد والرياء والضغائن في تربة هذا القلب المريض بحبِّ الدنيا، وعندها يختنق في ضرام هذه الصفات المهلكات ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ [طه: ١٢٥] فيشقى في الدنيا وفي الآخرة.

وأما الخوف من الله فله درجتان:

- الدرجة الأدنى: هي الخوف من عذاب الله، وهي درجة ناقصة، لأنها تعني أنه لو لم يكن هنالك عذاب لما خاف العبدُ ربَّه. ولا نقول لا ينبغي للمؤمن أن يخاف عذاب الله، بل ينبغي له ذلك، ولكن ينبغي أن يشدَّ نفسه - إضافة إلى ذلك - إلى الدرجة الأعلى.

- والدرجة الأعلى: هي الخوف من ذات الله سبحانه وتعالى، وعن هذه الدرجة يقول تعالى: ﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، ويقول: ﴿وَإِيَّٰيَ فَٱرْهَبُونِ﴾ [البقرة: ٤٠]، بمعنى لو أنَّ الله عز وجل وعدك الوعد القاطع بأنه سيغفر لك الذنوب كلها وأكَّد لك أنه سيكرمك برضوانه وجنانه، فإنَّ ألوهية الله عز وجل، عندما تدركها بعقلك ومشاعرك، لا بد أن تزجَّك في مخافةِ الله عز وجل، بقطع النظر عن وعده ووعيده. فالخوف من الله إنما يكون إجلالاً له سبحانه وتعالى، بل إنَّ الدرجة التي ينبغي أن يطمح إليها المؤمن في صلته بربِّه هي أن ينسى الخوف من عذاب الله بالنسبة إلى الخوف من عظمة الله.

فإذا ما تذكرَّ العبدُ صفاتِ جلال الله ساوره من التعظيم والهيبة ما يُنسيه عذابَه الذي يتوعَّد به العاصين من عباده، فالله عز وجل يقول: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر: ٦٧]، وهذا الخوف يتعايش تعايشاً تاماً مع حب الله عز وجل، فالحب ينبع من معرفة صفات جمال الله مثل: (الرحمن، الرحيم، الودود، الغفور، الشكور، الكريم، الغني، المغني) والخوف منه سبحانه إنما ينبع من معرفة صفات جلال الله عز وجل مثل: (الجبار، القهار، القوي، المنتقم، شديد العقاب، القادر، العليم بكل شيء) ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ [ق: ١٦]، ثم هو - أي الخوف - ينبع أيضاً من حقِّ الله علينا وسلطان ربوبيته، ومن عجز الإنسان عن

أداء حقوق الربوبية. إنه باختصار خوف العبد أمام الرب، فالعبد يتَّصف بمنتهى الضآلة ومنتهى العجز ومنتهى اللاشيء، والربُّ يتَّصف بكل صفات الكمال. فانظر إلى عبوديتك التي هي لا شيء، أمام ربوبية الله عز وجل التي هي كل شيء. هذا هو الخوف الذي ينبغي أن يحجّ إليه الإنسان وأن يكون مطمح بصره وبصيرته. وهذه المهابة إنما تكون ابتداءً بين العبد وربه، ومن ثَمّ تتفجَّر المحبَّةُ لله عز وجل من ضرام هذه المهابة وهذا الخوف.

وإذا ما عاش الإنسان المسلم مع هذه الحقيقة وذكر الله كثيراً، ذابتْ مظاهر الخوف كلّها من كيانه، ولم يجد أمامه ما يستأهل الخوف إلا الله الواحد الأحد، ولم يرَ في الكون كله إلا عظمةَ الله، وأنَّ كلَّ ما في الكون جنودٌ لله لا يتحركون إلا بتحريك الله وبأمرٍ من الله، وهذا هو سرُّ الحصر في قوله تعالى: ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ [البقرة: ٤٠]، وكأنه تعالى يخاطبنا: يا أيها الناس إن كنتم ترون في دنياكم ما يستأهل الخوف لأيِّ سببٍ من الأسباب، منْ عدوٍّ أو جبَّارٍ أو حيوانٍ أو طاغيةٍ أو عاديةٍ من عوادي الطبيعة، فاعلموا أنَّ كلَّ ذلك جنودٌ بيد الله ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١] يسلِّطها على مَنْ يشاء مَنْ عباده ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الذاريات: ٥٠] ولوذوا ببابه من سائر المخاوف، فما هي إلا أسباب وإنما مُسبِّبها هو الله الواحد القهار، فلا تخدعنَّكُمُ الأسبابُ عن مُسبِّبها الذي بيده كل شيء والذي تنعكس سائر المخاوف من قدرته وسلطانه وجبروته.

الله عز وجل يقول لرسوله ﷺ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٢٨]، هذا القول لرسول الله ﷺ فكيف بالآخرين؟!

لا يوجد كائن في الكون يستطيع أن ينفعك أو يضرُّك إلا الله، وهذا هو التوحيد الذي إن اصطبغتَ به عقلاً وعاطفة وصلتَ إلى مرتبة وحدة الشهود.. ترى المكوَّنات ولكن لا تشهد فيها إلا المكوِّن.. ترى المخلوقات ولكن لا تشهد من خلالها إلا الخالقَ جل جلاله.

ومما يجسّد هذا المعنى قصّةُ سيدنا نوحٍ مع ابنه، عندما هاج هائج الطوفان، وأمر الله مياه السماء أن تنهمر ومياه الأرض أن تنفجر.. والتقى الماء على أمرٍ قد قُدر، نادى نوحٌ ابنه ﴿يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [هود: ٤٢]،فأجابه ابنُه ﴿سآوي إلى جبل يعصمني من الماء﴾ [هود: ٤٣].. رأى الجبل ونسب له العِصمةَ ولم يرَ الخالق، رأى الكونَ ولم يرَ المكوِّن. قال له أبوه الذي يعيش مع وحدة الشهود: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ﴾ [هود: ٤٣]، أي أنَّ المسألةَ ليست مسألةُ طبيعةٍ حتى تلتجئ من الطبيعة المتمثّلة بالطوفان، إلى الطبيعة المتمثّلة بالجبل، فالجبل جُنْدٌ من جُنْدِ الله لا يدفع عنك أمرَ الله.. لا يدفع عنك أمراً صدر من الله بإهلاك الكافرين ﴿وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ﴾ [هود: ٤٣].

فإن أردتَ- يا أخي المسلم- أن تنجوَ من مخاوف الدنيا وفِتَنِها فاركبْ سفينة التوحيد التي ركبها نوح عليه السلام، فتنجوَ كما نجا، وإياك أن تتخطّفك مخاوف الدنيا- وما أكثرها- فتُهرع من سببٍ إلى سبب وتنسى المسبِّب جلَّ جلاله، فتغرق في خِضَمِّها كما غرق ابنُ نوح[(١)].

٢ - أنَّ حبَّ العبد لربِّه جل جلاله يكون بمثابة الوَقود الذي يدفع المسلمَ إلى التضحية والفداء، ذلك لأنَّ الإيمان العقلي لا بدَّ منه، ولكنَّه وحده لا يكفي ولا يدفع صاحبَه إلى أيِّ تضحيةٍ وفداء، وإنما الذي يحمل الإنسانَ على التضحية والفداء هو الإيمانُ العقلي أولاً، وامتلاءُ القلب بمحبّة الله ورسوله ثانياً، والمسلم يحتاج إليهما معاً.

ذلك لأنَّ الله عز وجل غرس في الإنسان عقلاً وقلباً، أمّا الأول فلكي يفكّر به فيؤمن بما يجب الإيمان به، وأما الثاني فلكي يستعمله في محبّة الله ورسوله

---

(١) شرح فقه السيرة الدرس (١٨)، وشرح رياض الصالحين الدرس (٣٣) والدرس (٤٥٩).

والصالحين من عباده، وفي بُغْضِ أعداء الله ورسوله، وإذا لم يُشْغَلِ القلبُ بحبٍّ لله، وفي الله، وبُغضٍ في الله، فسيُشغَل بمحبَّة الشهوات والمحرَّمات والأهواء، وعندئذٍ هيهات أن يصبح الاعتقاد وحده حاملاً لصاحبه على أيِّ عملٍ من أعمال التضحية والفداء.

إنَّ الحقيقةَ العقلانية وحدها أضعفُ من أن تهيمن على صاحبها بالإصلاح والتخويف، إننا لم نجد عالماً في الرياضيات ضحّى بحياته في سبيل نظريةٍ علميَّةٍ، لكنَّ الذي يضحّي هو ذاك الذي تحرَّق قلبُه وانتقل الإيمان من عقله إلى حقيقةٍ وجدانيةٍ انسكبتْ في فؤاده فغيَّرت سلوكه وبدَّلت واقعه.

إنه الحبُّ.. هو ذاك الشعور الفيَّاض الذي يَغْمُرُ القلبَ فيصبح الصَّعب بسببه سهلاً والبعيد قريباً، هو ذاك الذي يعبِّر عنه إقبال بـ (لوعة القلب).

لوعة القلب هي السرُّ العجيب الذي يقلب حياة الإنسان، فيقرِّب له البعيد، ويليِّن له الحديد، ويجمع أهواء النفس من شتات، ويُنسيها طعم الدنيا وأهواءها بما يُذيقها من حلاوة مراقبة الله وشهوده، وهي إنَّما تأتي بإرهاق النفس بمزيد من العبادات، والمثولِ بضراعةٍ وانكسارٍ على أعتاب الله عز وجل بالأسحار.

إنَّ الإيمان العقلي بأنَّ الدنيا زائلةٌ والآخرةَ خيرٌ وأبقى، هذا الإيمان وحدَه لا يقاوِم حبَّ القلب للدنيا وشهواتها، وكم من إنسان يعاني من الازدواج، فهو يعتقد بأنَّ الدنيا زائلةٌ ومع ذلك يحبُّها، ويعتقد بأنَّ الآخرةَ باقيةٌ ومع ذلك فهو غير متعلِّقٍ بها. هذا الازدواج سببه أنَّ الإيمان قد وقف عند حدود العقل والتفكير ولم يسيطر على القلب، فالقلب تمكَّنتْ منه الأهواءُ والشهواتُ وحبُّ الدنيا، والذي يجعل حبَّ الدنيا يزول ويضمحلُّ إنما هو حبٌّ آخر أقوى منه، ألا وهو حبُّ الله ورسوله.

هذه المحبَّة إذا تربَّعتْ على عرش الفؤاد وتمكَّنتْ، ذابتْ في ضِرامها محبَّةُ

الدنيا، وضَعُفَتْ محبةُ الأهواء والشهوات. وعندئذٍ هذا المسلم لن يعاني من الازدواج، وسيصطلح العقل مع القلب، فالعقلُ آمن بالله ورسوله، والقلبُ أحبَّ الله ورسولَه. سار كلٌّ من العقل والقلب في طريقٍ واحد فلا ازدواج بعد ذلك أبداً.

فإن قال قائل: الحبُّ يدفع صاحبه إلى التضحية والفداء ولكنْ بماذا يضحّي المحبُّ لله؟ الجواب: لا شكَّ أنه يضحّي بحظوظ نفسه وآفاتها ومصالحها وعوائقها التي تعيق الإنسان عن الوصول إلى الله عز وجل.. والحمضُ الذي يذيب كلَّ هذه العوائق النفسية إنما هو الإخلاص لله عز وجل. فإذا استقرَّ الإخلاصُ لدين الله في القلب، استقرَّ حبُّ التضحية معه في النفس، وعندئذٍ يضحّي بحظوظه النفسية في سبيل الحقِّ الذي أخلص له بعد أن أحبَّه. فيزول الكبر من النفس ليحلَّ مكانه التواضع، ويحلُّ الودُّ والوئام مكانَ الأحقاد والبغضاء، ويحلُّ الولاءُ للإسلام حيث هو مكانَ العصبية للذات والجماعة، ويحلُّ التطلُّعُ إلى مرضاةِ الله عز وجل والنجاةِ من عقابه ووعيده مكانَ التطلُّع إلى الدنيا ومناصبها.

وعلى الذي يشكو من أنه لا يجد سبيلاً للتضحية بهذا كلِّه لشدَّة تعلُّقه بذاته وعُصبته أن يروِّض نفسه على التضحية باتباع ما ذكرناه.

إن مجرد وجود عيِّنةٍ من حبٍّ لله في قلب المؤمن لا يدفعه إلى أيِّ تضحيةٍ وفداء. ولكي يصل إلى هذه الدرجة من التضحية لا بدَّ أن يكون حبُّه لله عز وجل كبيراً، بحيث يتغلَّب على حبِّ الأغيار، وبالتالي يسهل عليه - عند التعارض - التضحيةُ بالحبِّ الأصغر وهو حبُّ الأغيار في سبيل الحبِّ الأكبر، وهو حبُّ الله الواحد القهار.

لأجل ذلك يحذرنا الله عز وجل من أن يكون حبُّ الأغيار أكبر من حبِّ الله في قلب المؤمن، لأنه عندئذٍ سيضحّي بأوامر الله وشرعه في سبيل حبِّه الأكبر وهو حبُّ الأغيار، فيقول: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ

اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة: ٢٤].

بينما يثني سبحانه وتعالى على عباده المؤمنين الذين تغلَّب حبُّهم له على حبِّهم للأغيار فيقول: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

ومن رحمة الله عز وجل بالإنسان أنْ رخَّص له أن يستبقيَ زاويةً من قلبه لمحبَّة رغائبه وأهوائه الدنيوية المباحة، على أن تكون الغَلَبَةُ لمحبَّة الله عليها عند التعارض. صحيحٌ أنَّها موجودة ولكنَّها مغلوبةٌ تحت سلطان محبَّة الله عز وجل، لذلك قال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾، ولم يقل: والذين آمنوا لا يحبون إلا الله، مع أن الإيمان الكامل يستلزم ذلك. لذلك إذا تكامل إيمان الإنسان بالله عز وجل، واصطبغ كيانه بصبغة العبودية الضارعة لله، نظَّف قلبه من التعلُّق بالأغيار أياً كانت، وتجاوز الرخصةَ في مشاعره وسلوكه إلى العزيمة، فلم يَعُدْ في قلبه مُتَّسَعٌ إلا لله سبحانه وتعالى[1].

٣ - أنَّ حبَّ العبد لربِّه جل جلاله يحمله على اتباع المحبوب، بتنفيذ أوامره والانتهاء عن نواهيه مصداقاً لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١]، أي إن كنتم تحبُّون الله فإنَّ ذلك لا يكون إلا بالاهتداء بكتاب الله عز وجل والتمسُّك بسنَّة رسول الله ﷺ، فإنكم إنْ فعلتم ذلك لم تُثبِتوا فقط الدليلَ على حبكم لله عز وجل، بل تُثبِتون أيضاً الدليلَ على حبِّ الله عز وجل لكم بدليل قوله: ﴿فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾.. هذا الكلام الرباني يدلُّنا على ثلاثة أمور هامة:

---

(١) الحب في القرآن (٩٥) إضافة إلى شرح فقه السيرة الدرس (١٨) إضافة إلى باطن الإثم (ص ٨٤ - ٨٥).

أ - أنَّ حبَّ العبد لله عز وجل حقيقةٌ وليس مَجازاً، فمَنْ أوَّلَ حبَّ العبد لله عز وجل بالطاعة والاتباع، وأخرجه عن معناه الحقيقي إلى التأويل نقول له: إنَّ حبَّ العبد لله عز وجل شيء، والاتباع شيء آخر، فالحبُّ هو الدافع للاتباع وبالتالي فوجود الحبِّ يستلزم وجود الاتباع والطاعة لله عز وجل في الجملة. ولكنَّ العكس غير صحيح، بمعنى أنَّ وجود الطاعة والاتباع ليس دليلاً حتمياً أن تكون صادرة عن حب العبد لله، إذ ربما تكون صادرة عن الخوف من عذاب الله بحيث لو علم أنَّ الله سيغفر له ويدخله الجنة لما أطاعه. أو ربما تكون صادرةً نفاقاً ورياءً كما هو حال المنافقين يفعلون الطاعات لا حباً لله، وإنما يجعلون من هذه الطاعات الظاهرة غطاءً لكفرهم الباطن.

إذن فحبُّ العبد لله عز وجل نفسِّره بمعناه الحقيقي وهو: تعلُّق القلب بالمحبوب على وجه الاستئناس بالقرب منه، والاستيحاش من البعد عنه.

أما حب الله عز وجل لعبده فلا يمكن تفسيره بالمعنى الحقيقي للحب، فهو عز وجل لا يُنسب إليه الاستئناس ولا الاستيحاش، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. ولكنَّ تَنَزُّه الله عز وجل عن ذلك لا يستدعي تأويل الحبِّ الذي أثبتَه الله عز وجل منه لعباده، بأيِّ معنىً من المعاني الأخرى، كالرضا والمغفرة والتكريم الذي أسبغه الله على جنس الإنسان. أي لا يجوز لأحدنا أن يقول: إنَّ حبَّ الله للإنسان هو كناية عن الرضا عنه أو المغفرة له أو التكريم له.

الله عز وجل وصف ذاته العلية بحبِّه لعباده المؤمنين ورضاه عنهم ومغفرته لهم، إذن فالحب شيء والرضا شيء آخر، والمغفرة أيضاً شيء آخر.

فإن قال قائل: فعرِّفْ لنا محبَّةَ الله عز وجل للإنسان بمعناها الصحيح، مستقلاً عن معاني الرحمة والمغفرة والرضا، بعيداً عن التشبيه.

نقول: إننا نُعرِّف محبةَ الله للإنسان بالطريقة ذاتها التي نعرِّف بها ما قد نسبه إلى ذاته العلية من اليد والعين والاستواء والمجيء، وهي الطريقة التي جنح إليها السلف فنقول: إنَّ لله عز وجل يداً كما قال: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠]، وله عيناً كما قال: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾ [طه: ٣٩]، وله استواء كما قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥]، وله محبَّةٌ لعباده كما قال: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤]، فنحن ننسب لله عز وجل ما نسبه هو لذاته، مع تنزيهنا له سبحانه في ذاته وصفاته عن الشبيه والنظير عملاً بقوله جل جلاله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، ودون أن نقتحم إليها بأي تأويل.

ثم إنَّه من ثمرات حبِّ الله لعباده عامَّةً ونتائجه أنه كرم بني آدم جميعاً مصداقاً لقوله: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠]، أما ثمرات حبِّ الله عز وجل لعباده المؤمنين به المطيعين له، أنه زادهم فوق هذا التكريم، بالرضا والهداية والمغفرة والرعاية لهم في الدنيا والآخرة مصداقاً لقوله: ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [المائدة: ١١٩]، وقوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٩٧﴾ [النحل: ٩٧][1].

ب - أنَّ حبَّ العبد لربه عز وجل لا يستلزم من المحبِّ العصمةَ من الذنوب والآثام، فقد قال العلماء: إنَّ محبَّة العبد لربِّه سبحانه وتعالى تستلزم أن يعزم المحبُّ بصدقٍ على الانقياد لأحكام محبوبه وأوامره والابتعاد عن نواهيه، ومن لم يعزم على ذلك فهذا دليل على أن حبَّه لله عز وجل زيف.

ولكن هل تستلزم هذه العزيمة الصادقة الانقياد الفعلي لسائر شرائع الله وأحكامه؟

---

(١) الحب في القرآن (ص ١٦ - ١٩).

الحق أنَّ العزيمة مهما كانت صادقة لا تستلزم كمال الانقياد الدائم لسائر شرائع الله، إذ لو استلزمتِ العزيمةُ ذلك لكان ذلك مخالفاً لما قرَّره الله من ضعف الإنسان حين قال: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨]، ومخالفاً لما بيَّنه رسول الله ﷺ بقوله: (كل بني آدم خطّاء وخير الخطائين التوابون)[١].

وإذن.. فالمحب يعزم على فعل الواجبات وترك المحرَّمات، ولكنَّه أثناء التنفيذ، وبدون أن يخطِّط، وبدون أن يكون متوقِّعاً، تتغلَّب عليه نفسه فيرتكب أمراً محرماً أو يقصِّر في أداء واجبٍ من الواجبات:

فإنْ وجد نفسَه بعد المعصية يبكي ويندم ويتألم ويضجر من نفسه ويخجل من الله عز وجل - وربما يفعل ذلك سراً بينه وبين الله عز وجل دون أن نراه - فلْيعلم أنَّ في قلبه حباً لله تعالى، سيجذبه هذا الحبُّ يوماً ما إلى النجاة. بدليل قصة نُعيمان الذي كان يؤتى به أكثر من مرة إلى النبيِّ ﷺ ليُقام عليه حدُّ شرب الخمر جلداً، فلعنه رجلٌ وقال: ما أكثر ما يؤتى به رسول الله ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: (لا تلعنوه، فوالله ما علمتُ إلا أنه يحبُّ الله ورسولَه)[٢].

فنعيمان لم يكن يضع نصب عينيه أنه يريد أن يعصي الله أبداً، بل كان يضع نصب عينيه أنه يريد أن يطيع الله عز وجل ويعزم على ذلك، لكنَّ نفسه تتغلَّب عليه.

أما إنْ وجد نفسَه يرتكب المعصية تلو المعصية، وهو ساهٍ لاهٍ عن هذه الجرائم، يرى المعصية كذبابةٍ انحطَّتْ على أنفه فأبعدها بيده، فإنَّ ذلك يدلُّ على أنَّ قلبه خاوٍ من محبَّة الله ورسوله.

---

(١) رواه الترمذي (٢٤٩٩) وقال: حديث غريب، وابن ماجه (٤٢٥١)، والحاكم (٧٦٩١) وقال: صحيح الإسناد، جميعهم عن أنس.

(٢) صحيح البخاري (٦٣٩٨) عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

إذن. . فأصل الحب موجود حتى بين جوانح العاصي، ولكن بمقدار، لأنَّ أوَّل ثمرةٍ من ثمرات الحبِّ هي الألمُ من ارتكاب المعصية والاستغفار بعد ارتكابها وهذا عمل جيد.

وبمقدار ما يحب الإنسانُ ربَّه فإنه يتألَّم من معصيته. ولكن إذا نما هذا الحبُّ ثم نما ونما فإنه يشتد ويقوى إلى أن يصل إلى درجة يترفَّع فيها عن المعصية، مع العلم بأن العصمة الدائمة إنما هي فقط للرسل والأنبياء.

وإذن. . فنحن نصدِّق من يقول: إنني على الرغم من المعاصي التي أرتكبها فإنني محبٌّ لله عز وجل. نقول له: أنت صادق، ولكنَّه حبٌّ بسيط وضعيف لا يقوى على أن يُنْهِضَك من أودية المعاصي والأوزار، وغداً عندما يتنامى هذا الحبُّ لله في قلبك - بواسطة الإكثار من ذكر الله عز وجل على النحو الذي شرحناه- ستجد أنَّ هذا الحب يرفعك إلى مستوى الترفُّع عن المعصية. فأنت مُحِبٌّ لله عز وجل بمقدار ما أنت متَّبعٌ لرسوله ﷺ، فإن وجدت نفسك أنك تتبع رسول الله ﷺ وأوامره بنسبة ٢٠ ٪ إذاً فحبُّك لله عز وجل يقف عند هذه النسبة.

ذلك لأن الحب بمقدار ما يتنامى في قلبك، فإنه يطرد حبَّ الأشياء الأخرى، وعندئذٍ تَخِفُّ لتطبيق أوامر الله عز وجل والسير على هَدْيِ رسوله ﷺ، وهذا مقياسٌ حقيقيٌّ ودقيق، سواء كانت المعاصي التي يقع فيها الإنسان معاصيَ ظاهرة أم باطنة.

إنَّ ثمَّة فريقاً من المسلمين دأبهم الحديث عن الإسلام وممارسة الأنشطة المختلفة في الدعوة إليه، فمظهرهم يدلُّ على أنهم يعشقون الله عز وجل. لكنْ ننظر فنراهم عندما يؤذِّن المؤذِّن للصلاة، لا يلتفتون إلى كلمات الأذان إطلاقاً، ويستمرُّون في أحاديثهم، فإذا انتهى الأذان نراهم لا يُلَبُّون ولا يقومون إلى صلاة الجماعة، فإنْ هم قاموا إلى الصلاة- في أحسن الأحوال- فشعورهم داخل الصلاة كشعورهم خارجها !

بل ربما كانت حركاتهم داخل الصلاة كحركاتهم خارجها !

هؤلاء اقتصر إسلامهم على الفكر، دون أن يمتدَّ بجذوره إلى القلب حباً لله وخوفاً منه وتعظيماً له سبحانه وتعالى. وأكثر المسلمين اليوم من هذا الفريق.. يتحدَّثون عن الله عز وجل بألسنتهم وعقولهم، أما عواطفهم فمشدودة إلى الدنيا، يعانقون رغائبهم الدنيوية وشهواتهم ويؤثرونها على مرضاة الله عز وجل، مع وضع المسوّغات، فأحدهم يأكل الربا مسوّغاً ذلك بقوله: إنَّ الربا المحرَّم هو عبارة عن القروض الاستهلاكية، أما القروض الإنتاجية التي يقترضها الإنسان لتجارة فلا مانع من الربا فيها ! متناسياً أنَّ النبي ﷺ قال يومَ حجِّ البيت: (وأول رباً أضع ربانا، ربا العباس بن عبد المطلب)[1]، ومعلومٌ أنَّ العباس كان يتاجر بأموال الناس، وأنَّ كل القروض التي كان يأخذها من الناس إنما هي قروض إنتاجية. فهو لا يكتفي بأكل الربا، إنما يدعو إليه ويُفتي به ! كلُّ ذلك تحت مُسمَّى النمو الاقتصادي.

والآخر استباح سفك دماء المسلمين وانتهاك أموالهم وأعراضهم، ولكنَّه قبل ذلك، ولكي يسوّغ فعله هذا، قام بتكفيرهم، فهو إنما يفعل بهم هذا لكونهم كفرة كل ذلك تحت مُسمَّى الجهاد في سبيل الله.

والثالث لا يكاد يدخل في الصلاة حتى يخرج منها، ولسان حاله يقول: أرحنا منها يا بلال، وهو في لحيظات الصلاة هذه يلتفت يمنةً ويسرةً ويعبث بيده في لحيته وثوبه، مع أنه يعلم أنَّ رسولَ الله ﷺ رأى رجلاً يصلي صلاتَه هذه فقال عنه: (لو خشع قلبه لخشعتْ جوارحه)[2]، ولذلك قالوا: (الظاهر عنوان الباطن)، وخشوع القلب إنما يأتي من الحبِّ، فالحبُّ لله والخوف منه وتعظيمه كلها أمور متلازمة.

---

(١) انظر حجة رسول الله ﷺ في صحيح مسلم برواية جابر (١٢١٨).

(٢) جامع الأحاديث لجلال الدين السيوطي (١٩٠١٩)، ورواه الحكيم الترمذي في نوادر الأصول (ج٣/ ص ٢١٠) عن أبي هريرة وهو ضعيف.

هؤلاء هم أصحاب الإسلام الفكري، فرغتْ قلوبهم من محبَّة الله عز وجل، فتخطَّفتْهم الدنيا بكل أشكالها ليقعوا في حبِّها وشباكها، فقذف الله عز وجل في قلوبهم الوهن الذي عبَّر عنه رسول الله ﷺ بـ: (حب الدنيا وكراهية الموت)[1]، ووصفه الله عز وجل بـ: (باطن الإثم).

ولو أنهم حاسبوا أنفسهم وجاهدوها على ترك هذا الحب الحقير الفاني، ليستبدلوه بالحب الأقدس الباقي - ألا وهو حبُّ الله ورسوله - إذاً لَتلقَّفَتْهم عنايةُ الله ورحمتُه مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩]، ولكنهم رضوا عن أنفسهم- والرضا عن النفس رأس كل خطيئة- ودغدغوا أهواءهم وآثروها على مرضاة ربِّهم، فوكلهم الله إلى أنفسهم، فَجَرَّهم باطنُ الإثم هذا شيئاً فشيئاً - بعد أن كانوا متلبِّسين بظاهر الطاعات ولكنها قشور مفصولة عن اللباب - إلى ظاهر الإثم، فسمعنا من أفواههم هذه الفتاوى الباطلة، فضلُّوا وأضلُّوا.

كل هذه المحرمات الظاهرة سببها القلب المريض بحب الدنيا، مصداقاً لقوله ﷺ: (ألا وإنَّ في الجسد مضغةً إذا صلَحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب)[2]. [3]

جـ - لماذا لا يجعل الله عز وجل من حبِّ عبده له حصناً يقيه من الوقوع في المعاصي والزلل؟

إنَّ لله عز وجل حكمة بالغة في كل ما قدَّره وقضاه، وصفوة القول في بيان هذه الحكمة أنَّ الإنسانَ لا يصل إلى مرضاة الله بالحبِّ وحدَه، بل لا بدَّ أن يقترن الحبُّ

---

(١) مر ذكره في الصفحة (٦٨).

(٢) مر ذكره في الصفحة (٤٩).

(٣) الحب في القرآن (ص٦٢-٦٣)، وشرح رياض الصالحين الدرس (٤٤٣).

الذي يهيمن على القلب بالعبودية الضارعة التي يصطبغ بها كيانه.

ومَعين محبة الله عز وجل في كيان الإنسان هو قلبه وما ينطوي عليه من العواطف، أما مَعين العبودية في كيان الإنسان فهو ضعفه وما قد يستلزمه من تعثُّرٍ أثناء سلوكه في طريق مرضاة الله عز وجل، فيَعجزُ عن بعض الواجبات، ويضعف عن القيام ببعض الالتزامات، ويقع في بعض المنزلقات. وقد عبَّر الله عز وجل عن ذلك بقوله: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨]. وهذا الضعف وإنْ كان من شأنه أن يوقِع المحبَّ لله في بعض أنواع التقصير تجاه محبوبه، ولكنَّه يرقى به عوضاً عن ذلك إلى مقام التذلل والانكسار والمسكنة والافتقار بين يدي الله عز وجل، وهذا المقام لا يصل الصِّدِّيقون من دونه إلى الله عز وجل.

إنَّ الله عز وجل متَّع الإنسان بطاقةٍ علويةٍ تتَّجه بالحبِّ والحنين إلى الملأ الأعلى، وتتمركز هذه الطاقة في الروح. فالروح منذ فجر وجودها، ومنذ عهد خطاب الله القديم لها ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، تحتضن محبَّةَ بارئها، وهذه الروح تعكس إيحاءاتها إلى القلب وبالتالي فهذا القلب يتَّسع لأقدس أنواع الحب.

ولكنه سبحانه وتعالى- في الوقت ذاته- ابتلى الإنسان بالضعف والعجز أمام عزم النهوض بحقوق هذا الحبِّ، وهذا الضعف آتٍ من تسلُّط العوامل الغريزية والشهوانية والوساوس الشيطانية عليه، ومن محدودية الطاقة الجسدية.

فما الذي ينشأ من قيام التناقض بين قوة الحبِّ الرباني المهيمن على الفؤاد، وبين ضعف الطاقة البشرية المهيمنة على الكيان الإنساني؟

ما الحكمة من هذا التناقض بين تسامي الروح والقلب إلى عالم الاستقامةِ والحبِّ وآمالِ الانقيادِ الدائم إلى أمر الله، وبين اتجاه الكيان البشري مثقلاً بالغرائز إلى حيث الشهوات والأهواء؟

الحكمة هي أن يرى العبد المؤمن بالله عز وجل من هذا التناقض مشكلةً لا مفرّ منها إلا بالالتجاء إلى الله سبحانه وتعالى والاستعانة به. وهنا يبرز دور العبودية لله عز وجل، إذ يشكو المحبُّ إلى محبوبه عجزَه وتقصيره، ويستنجده القدرةَ التي تمكّنه من أداء حقوق حبِّه له، ويفرُّ إلى الله من ضعفه، ويلوذ به من واقع غرائزه وضراوة شهواته، ويسأله أنْ لا يكله إلى نفسه، وأن لا يتركه لضعفه النفسي والجسدي، معترفاً بأنه ضعيف مَهين، لا يملك من دون الله حولاً ولا قوة.. فيكون الأجر الذي يدّخره الله له على تذلُّلِه ومسكنته، إذ يلتصق منكسراً بأعتاب الله وكرمه، مساوياً للأجر الذي يدَّخره له الله على صدق حبِّه له.

وهكذا يطير الإنسان إلى مرضاة الله بجناحَي حبِّه وعبوديَّتِه الضارعة له، وهيهات أن يُغني الواحد منهما عن الآخر.

وإذن.. فلا مناص للإنسان من الوقوع بين جاذبي الخطأ والصواب، والطاعة والعصيان - مع اختلاف وتفاوت الناس في ذلك بتفاوت قربهم من الله عز وجل - وصدق رسول الله ﷺ القائل: (كلُّ بني آدم خطّاء، وخير الخطّائين التوّابون)[1]، ذلك هو شأن المسلم في كل زمان ومكان، حاشا الرسل والأنبياء، فإنهم معصومون.

ولنفرض أنَّ الله عز وجل أكرم عبدَه الذي أحبَّه بقدراتٍ بشرية تتناسب ولواعج محبَّته لله عز وجل، ورغبته في الاستقامة على أوامره كلها من دون أي تقصير، إذاً لهيمنتْ عليه نشوة الشعور بالنصر، ولطاف به الزهوُّ، ولنال منه الإعجاب بقوته ونجاح جهوده كلَّ منال - وهذا وحده مُحبِطٌ للعمل ومُبعد عن المولى - ولزجَّه الحبُّ العاري عن مشاعر العبودية لله عز وجل، في الإعلان عن استعداده لتحمُّل كلِّ المرهقات وسائرِ الابتلاءات والآلام تعبيراً عن بالغ حبِّه الصادق لله عز وجل،

(١) مر ذكره صفحة (١١٦)

وفي ذلك من سوء الأدب مع الله ما فيه.

رُوي أنَّ رجلاً من الصالحين كان كثيراً ما يخاطب الله عز وجل تعبيراً عن حبِّه له قائلاً:

وليس لي في سواك قَصْدٌ فكيفما شِئتَ فامتحنّي

فابتلاه الله عز وجل بحصر البول، فصبر ثم صبر ثم كاد أن يَنْفُذَ صبره، فكان يخرج إلى السوق ويعطي الأطفال الحلوى قائلاً لهم: (ادعوا الله لعمِّكُمُ الكذّاب)[1].

نقول: إنّه لم يكن كاذباً في حبّه وفي عَزْمِه على الصمود والصبر أمام ابتلاءات الله عز وجل، ولكنَّ نشوةَ حبِّه لله أنْسَتْه ضَعْفَه وعجزَه، وهكذا فقد كان الرجل صادقاً في عزمه ولكنه كان ناسياً ضَعْفَهُ وعجزَه.

إذن فمظاهر الضعف التي ركَّبها الله في كيان الإنسان، هي ابتلاءٌ ومحنةٌ في الظاهر، ولكنَّها نعمةٌ من الله له في الحقيقة وباطن الأمر، تقوده، بل ترقى به إلى شدَّة العبودية لله، والتي بها سَمَتْ رُتبة الإنسان عند الله إلى أعلى من درجة الملائكة.

وأخيراً نذكر حديثاً صحيحاً لرسول الله ﷺ يقول فيه: (يا أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف)[2]. قال العلماء: مطلوبٌ من الإنسان- قبل أن تنزل المصيبة- أنْ لا يتمنّاها، وأن يسأل الله العفو والعافية، ولا شكَّ أن لقاء العدو هي مصيبة من المصائب، فإذا ما نزلت هذه المصيبة أو غيرها، فعليه عندئذٍ أن يصبر.

---

(١) الرسالة القشيرية (ج ١ / ٩١).

(٢) متفق عليه، البخاري (٢٨٠٤)، ومسلم (١٧٤٢)، كلاهما عن أبي النضر عن عبد الله بن أبي أوفى.

أما الإنسان الذي يتمنّى المصيبة بحُجَّة أنه يريد أن يُثبِت لله مدى صبره وثباته وجَلَده، فهذا الإنسان يكون قد قفز من ساحة العبودية لله عز وجل، إلى ساحة التحدِّي لله. والمطلوب من الإنسان أن يكون عبداً لله عز وجل لا متحدِّياً له.

ماذا يملك الإنسان من القوة حتى يُثْبِتَ لله عز وجل صبرَه في الشدائد؟

إنه لا يملك شيئاً، ولولا أنَّ الله يصبِّره فلن يصبر.. فأولى بهذا الإنسان - وهو العبد الضعيف- أنْ يعلن لله ضعفَه ويقول: يا ربِّ أنا ضعيف وعاجز فلا تَبْتَلِني. بل ليس فقط المطلوب منه ألا يتمنّى المصيبة، وإنما مطلوبٌ منه - علاوةً على ذلك - أن يسأل الله العافية. هذا ما علّمنا إياه رسول الله ﷺ بقوله: (واسألوا الله العافية)، ثم يقول: (فإذا لقيتموهم فاصبروا)، فدور الصبر يأتي بعد وقوع موجَبه - وهي المصيبة - ولا يأتي قبل وقوع موجبه. عندئذٍ يسأل العبدُ ربَّه أن يصبِّره عملاً بقوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [النحل: ١٢٧][1].

● - درجات محبة العبد لله عز وجل: وهي ثلاث درجات:

١ - **درجة بدايات تذوُّق المسلم طعم الإيمان:** هناك إسلام يمرُّ به الإنسان، وهو سائر في نهايته إلى الإيمان، وربما انعكس عن هذا الإسلام إيمان، ولكنَّه إيمان عقلاني محبوس في زاوية العقل، دون أن ينعكس عاطفةً على الوجدان ودون أن يحتلَّ مكانَه في القلب حباً وخوفاً وتعظيماً لله عز وجل. هؤلاء هم حديثو عهدٍ بالإيمان، وقد سمّاهم الله عز وجل (مسلمين) حين قال: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤].

هذا الصنف من الناس يتحمَّل مسؤوليات الإيمان وهو يشعر بثقَلٍ وبشدَّةِ ما يحمل، أي هو يشعر بغُرم هذا الإيمان ومشاقّه، أكثر من أن يشعر بغُنْمه ولذائذه.

---

(١) الحب في القرآن (ص٦٣ - ٦٨)، وشرح رياض الصالحين الدرس (٤٦) باب الصبر.

وأول ما يذوق المؤمن طعم الإيمان فإنَّه يتمتَّع بشيءٍ من الحبِّ لله سبحانه وتعالى، لكنَّ محبة الرغائب والشهوات أقوى من محبَّة الله عز وجل، لذلك كثيراً ما ينجرف وراءها واقعاً في معصية الله عز وجل، ولكنَّ حبَّه لله يدفعه إلى التوبة والإنابة والالتجاء إلى الله عز وجل.

وقد قلنا سابقاً إنَّ محبة العبد لربِّه سبحانه وتعالى لا تستلزم العصمة، فالعصمة فقط للرسل والأنبياء، وإنما تستلزم أن يعزم المحبُّ بصدقٍ على الانقياد لأوامر محبوبه والابتعاد عن نواهيه، ومنْ لم يعزِمْ على ذلك فهذا دليل على أنَّ حبَّه لله تعالى زَيْف.

وهذا العزم الذي نتحدث عنه هو واحد من ثلاثة شروط للتوبة النصوح. ولا مانع من أن نستفيض القول في التوبة وشروطها، لأنَّ كثيراً من المسلمين إذا وقع أحدُهم في معصيةٍ ما، تاب إلى الله عز وجل توبةً نصوحاً مستوفيةً كلَّ الشروط، ولكنه - بعد حين من الزمن - تتغلَّب عليه نفسه فيقع في المعصية، فإذا أراد أن يتوب خَيَّل له الشيطان أنَّ معصيتَه الأخيرة هذه قد نَقَضَتِ التوبةَ السابقة، وأنَّ توبتَه السابقة ليست توبةً نصوحاً، إذاً فلماذا التوبةُ وهو في كلِّ مرَّةٍ ينقُضُها؟ عندئذٍ ينغمس في المعاصي مُبْعِداً فكرةَ التوبة عن باله وخاطره.. كلُّ ذلك لأنه لا يعلم معنى التوبة وشروطها، فالعلم سلاح المؤمن ضدَّ شياطين الجن والإنس، لذلك قال ﷺ: (فضلُ العالِم على العابد كفضلي على أدناكم)[1].

قال العلماء: للتوبة ثلاثة شروط:

أ - أن يُقْلِع عن المعصية، وهو أمر مادي، فمثلاً إن كان يشرب خمراً وأراد أن يتوب، عليه أولاً أن يترك الكأس من يده.

---

(١) رواه الترمذي في سننه (٢٦٨٥) عن أبي أمامة الباهلي، وقال: هذا حديث حسن غريب صحيح.

ب - أن يندم على فعلها، وهو أمرٌ شعوريٌّ بالنسبة للماضي.

جـ - أن يعزم على أن لا يعود إليها أبداً طوال حياته، وهو أمرٌ شعوريٌّ وعزمٌ بالنسبة للمستقبل.

فإذا فُقِد أحدُ هذه الشروط الثلاثة، لم تعدْ توبتُه توبةً نصوحاً، وبالتالي لم تصحَّ.

هذا الذي قلناه يتعلَّق بالمعصية التي تكون بين العبد وربِّه، ولا تتعلَّق بحق آدمي. فإن كانت تتعلق بحقٍّ آدمي فشروطها أربعة: هذه الثلاثة، وأن يبرأ من حقِّ صاحبها. فإنْ كانت مالاً أو نحوه ردَّه إليه، وإن كان حدَّ قذفٍ (بأن يكون قد شتمه وسبَّه) مكَّنه منه أو طلب عفوَه، وإن كانت غِيبةً استحلَّه منها. ويجب أن يتوب من جميع الذنوب، فإنْ تاب من بعضها صحَّتْ توبته- عند أهل الحق- من ذلك الذنب وبقي عليه الباقي. وقد تظاهرت دلائل الكتاب والسنَّة وإجماع الأمة على وجوب التوبة.

أما إنْ لم يستسمح من ذاك الذي اغتابه أو قذفه أو ظلمه، إمَّا لكبرٍ في نفسه أو لأنه لم يستطع أن يراه أو يتَّصل به لسببٍ من الأسباب، فقد قال العلماء: إنَّ هذه المعصية تُجَزَّأ، فما يُقابِل منها حقَّ الله عز وجل غفر الله له ذلك، لأنه تاب توبةً صحيحةً بأركانها الثلاثة، وأما ما يقابل منها حقَّ العبد بقيتْ معلَّقةً في ذِمَّته إلى يوم القيامة.

وقال العلماء: التوبةُ النَّصوح هي التوبة التي استوفتْ شروطَها، والعبرة بساعة التوبة، فإن كان عازماً عزماً يقينياً على ألا يعود إلى هذه المعصية طوال عمره، فتوبته هذه توبة نصوح. أما ما يُفاجأ به بعد ذلك من وقوعٍ غير مقصود وغير مخطَّط له في المعصية، فهي معصية أخرى، وتحتاج إلى توبةٍ نصوح أخرى، دون أن تَجرح أو تنقض توبتَه السابقة.

والرسول ﷺ يقول: (المؤمن واهٍ راقع، فسعيد من هلك على رقعه)[1]، أي أنَّ المؤمن يمزِّق ثوبَ إيمانه بالمعصية، ويرقِّعه بالتوبة، والسعيد مَنْ مات على توبته لا على معصيته.

ولكن.. رُبَّ رجل يسمع هذا الكلام فيتوب ويقلع عن المعصية الآن، ولكنه- في خياله- يتصوَّر أنه سيرتكب هذه المعصية مرةً أخرى في وقت ما - والله أعلم بنفوس عباده وسرائرهم - فتوبةُ هذا الإنسان ليست توبةً نصوحاً، ومن ثَمَّ فإنها لا تُقبل لعدم توفُّر شرط العزم على ألا يعود إليها طوال عمره، وقد علمنا أنَّ مَنْ لم يعزِم على تَرْكِ المعصية وفِعْلِ الطاعة فحبُّه لله عز وجل زَيْفٌ، وبالتالي فلن يتوب إلى الله.

ولكن أن لا يتوب الإنسان فتلك مصيبة، أمَّا أنْ يستمرئ المعصية ويراها من كثرة تكراره لها أمراً طبيعياً ولا داعي للاشمئزاز منها، فتلك مصيبة أخرى أفدح من الأولى. فالمصيبة الأولى سلوكية، أمَّا الثانية فتصل إلى كَبِدِ العقيدة ونقطةِ الإيمان، ولعل استمراره على هذا الحال يكون سبباً في زلزلة إيمانه وارتداده عن دين الله - والعياذ بالله - وإنْ صام وإنْ صلَّى وإنْ دعا إلى الله.

مثال: إذا سمعنا مَنْ يغتاب الناس، فنهيناه عن ذلك مذكِّرين إياه بقوله تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ [الحجرات: ١٢]، وبقول رسول الله ﷺ: (كلُّ المسلم على المسلم حرام، دمه وماله وعرضه)[2]، فقال لنا معترفاً: نعم والله هذه غيبة، أسأل الله عز وجل أن يعافيني منها.. نقول: معصية هذا الإنسان هي معصيةٌ سلوكية، تحتاج

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (١٨٨٨)، والصغير (ج ١/ ص٦٦)، والبيهقي في الشعب (٦٧٢١)، كلاهما عن جابر بسند ضعيف، وقال الصنعاني عنه في كتاب توضيح الأفكار لمعاني تنقيح الأنظار (ج٢/ ص١٨٠): (وإن كان فيه ضعف فإنه يشهد له حديث: (لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون فيغفر لهم) وهو حديث صحيح رواه مسلم).

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٦٤) عن أبي هريرة.

إلى التوبة النصوح بشروطها الأربعة التي ذكرناها. أمَّا إنْ قال لنا مدافعاً عن عمله: هذه ليست غِيبة، وهذا إنسان لا غيبة له، وزاد من كلامه في حق أخيه.. نقول: هذا الإنسان ارتكب معصيتين:

الأولى: هي الغيبة، وهي كما قال العلماء كبيرة من الكبائر، مثلها مثل شرب الخمر تماماً، بل أشد.

والثانية: هي الإصرار على المعصية، ومعلومٌ أنَّ الإصرار على المعصية أكبر من المعصية، لأنه بهذا الإصرار إنما يحادّ الله ورسولَه وينكر عليه قوله عز وجل: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾.

والله عز وجل قيَّد توبتَه على عبده ومغفرتَه له بشرط عدم الإصرار على المعصية، فقال جل جلال: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ [آل عمران: ١٣٥].

كذلك المعاصي الأخرى، فالمشكلة في المعصية أنَّ استمراءها والدوامَ عليها يجعلُ هذا العمل متحولاً من السلوك إلى اليقين. فالتماثيل التي توضع في البيوت، من كثرة استعمال بعض الناس لها، نسوا أنها معصية كبيرة. فإن قلنا لأحدهم: هذه معصية بإجماع العلماء! نجده يستخف بهذا الكلام، فهو من كثرة تعوُّده عليها لم يَعُدْ عقلُه يقبل القولَ بأنَّ هذه معصية، بل سُرعان ما يقول: وما الذي يمنع من اقتنائها، هل سأقوم بعبادتها؟!

قوله هذا أخطر من معصيته، ولو قال: نعم والله أنا مغلوب على أمري وأسأل الله عز وجل أن يرزقنا التوبة، فهو عندئذٍ عاصٍ بسلوكه، لكنَّ إيمانه لم يُصِبْه أيُّ خلل.

كذلك فإنَّ اختلاط الأُسر، كأولاد العموم، وبنات الخؤولة، والسلايف، وأقارب الزوج والزوجة، وجلوسهم في غرفة واحدة وعلى مائدة واحدة هو أمر محرَّم. فإن قلنا لأحدهم: يا هذا إنَّ عملك هذا محرَّم فقد قال ﷺ: (إياكم والدخول على النساء) فقال رجل من الأنصار: يا رسول الله أفرأيت الحمو؟ قال: (الحمو الموت)[1] ! نجده يقول: منذ نعومة أظفارنا ونحن على هذه الحالة، أفيكون هذا محرَّماً؟!

فتلك المعاصي بأشكالها وألوانها، نمارس فيها نوعين من المعاصي: الأولى أننا لا نتوب منها، والثانية أننا نستمرؤها، ونستخفُّ بها، ونُصِرُّ عليها، ونحتقر الإنكار عليها. عافانا الله من ذلك.

٢ - درجة المؤمنين:

وهؤلاء هم الذين آمنوا بالله عز وجل فترسّخ الإيمان أولاً في عقولهم، ثم عن طريق الإكثار من ذكر الله عز وجل ومراقبته، احتلّ هذا الإيمان مكانه في القلب، وهو مَجْمَع العواطف بأنواعها: الدافعة وهي الحب، والرادعة وهي الخوف، والممجِّدة وهي التعظيم. ثم نما حبُّهم لله عز وجل ونما حتى وصل إلى درجة أنه إذا تعارضَتْ محبّتُهم لله عز وجل مع الرغائب والشهوات الدنيوية والأغيار، فإنَّ محبَّة الأغيار تتضاءل وتصغر وتتغلَّب عليها محبَّةُ الله عز وجل.

وقد بيَّن الله عز وجل ذلك بقوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، ولم يقل: والذين آمنوا لا يحبُّون إلا الله، فهذا صعب، ومن لُطفِ الله بنا أنه اكتفى منا بدرجة المؤمنين ﴿وَٱلَّذِينَ

---

(١) متفق عليه، البخاري (٤٩٣٤، ومسلم (٢١٧٢) كلاهما عن عقبة بن عامر. وجاء في صحيح مسلم (٢١٧٢) عن الليث بن سعد أنه قال: (الحمو أخ الزوج وما أشبهه من أقارب الزوج، كابن العم ونحوه).

ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ أي أنَّ قلوبهم تمتص محبَّةَ الزوجة والأولاد ومحبَّةَ الدرهم والدينار ومحبَّةَ الذات، ولكنْ عند التعارض يتغلَّب حبُّ الله على كل المحبوبات الأخرى.

٣ - درجة الصالحين:

وهؤلاء هم الذين تغلَّب ذكرهم لله عز وجل على عوارض الدنيا، فلم يعد يحجبهم عن ذكر الله عز وجل حديثٌ دنيوي، ولا صفقةُ بيعٍ وشراء. فهم في كل تقلُّباتهم يذكرون الله عز وجل. وعنهم قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ [آل عمران: ١٩١]، وقال رسول الله ﷺ: (سبق المفرِّدون)، قالوا: وما المفرِّدون؟ قال: (المستَهتَرون في ذكر الله عز وجل، يضع الذِّكر عنهم أثقالهم فيأتون يوم القيامة خِفافاً)(١).

فما المقصود بالاستهتار؟

الاستهتار هو الولع، يقال: فلان استُهتر بكذا، أي أولع بكذا، لا تقل: استَهتر بفتح التاء فهذا خطأ، والصحيح بضم التاء، فهو فعل مبني للمجهول دائماً.

ومعلومٌ أنَّ من أحبَّ شيئاً أُولع بذكره، هذا بين البشر، فكيف إذا كان محبوبُه هو الله جل جلاله.

يقول ابن الفارض رحمه الله:

أدِرْ ذكر من أهوى ولو بملامي ... فإنَّ أحاديث الحبيب مُدامي

---

(١) رواه الترمذي (٣٥٩٦) عن أبي هريرة وقال: حديث حسن غريب، ورواه أحمد (٨٠٩١)، والحاكم (١٨٦٦) كلاهما عن أبي هريرة بلفظ قريب، وقال الحاكم: حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

ويقول أحد العاشقين لله، وضمير الجمع هنا للتعظيم، والكلام راجع إلى الله عز وجل:

ومن عجبٍ أنّي أحنُّ إليهموا   وأسأل شوقاً عنهموا وهموا معي
وتبكيهموا عيني وهم في سوادها   ويشكو النوى قلبي وهم بين أضلعي

والاستهتار بذكر الله يدعو إلى التلذُّذ بذكر الله في الخلوات، لا سيما في الهزيع الأخير من الليل، يزعجه الشوق إلى مناجاة الله في منامه، ويوقظه من رقاده، فلا يرى في هذه الساعة مُتْعةً ألذَّ إليه من الوقوف بين يدي الله يذكره ويناجيه ويشكو إليه تباريح وَجْده.

هؤلاء ذاقوا لذَّةَ القرب من الله فاشتدَّتْ محبَّتهم له حتى ذابتْ محبَّةُ الأغيار، ولم يبقَ في قلوبهم إلا حبٌّ واحد، هو حبُّ الله جل جلاله الواحد القهار. وعندئذٍ تصبح الدنيا كلها عندهم من التفاهة بمكان. ولكنَّ الباري عز وجل- رحمةً بنا ولطفاً- لم يجعل درجة الصالحين هذه مقياساً لنا، واكتفى منا بدرجة المؤمنين، فالمؤمن يكفيه أن يكون حبُّه لخالقه وبارئه أكبر من حبِّ أيِّ شيءٍ آخر. وهذا من لطف الله عز وجل بنا إذ لم يكلِّفنا بهذه الدرجة. ولكن إذا تأملنا في أسباب وعوامل الحبِّ في حياة الإنسان، وجدناها ثلاثةً لا رابع لها:

العامل الأول: إحسانٌ يهيمن على كيان الإنسان، فيكون ذلك سبباً لحبِّ المحسن. وإذا تأملنا وجدنا أن الله عز وجل هو المحسن الأوحد، فكل ما يَفِدُ إليك من إحسان، إنما يفد إليك من مولاك الذي يرعاك ولا رعاية الأم لولدها. لا تحجبْ نفسَك وتسجنها في سجن الوسائط والأسباب، واعلم علم اليقين أنَّ الله هو الذي يُسخِّر لك الوسائطَ والأسباب، بدليل أن الله عز وجل متى شاء فصل بين الوسائط ونتائجها، فلا الطبيب يفيدك، ولا الذي يكرمك يفيدك، والمحسن الأوحد هو الله سبحانه وتعالى.

العامل الثاني: جمالٌ يأسر النفسَ والقلب، فيكون ذلك سبباً لحبِّ هذا الجميل، فَصُوَرُ الجمال منثورة في المكوَّنات، ومصدرها الأوحد هو الله جل جلاله، وبالتالي فهذا العامل ينبغي أن يمضي بك إلى محبة الله عز وجل.

العامل الثالث: العظمة والانبهار، وليس هنالك عظيم إلا واحد لا ثاني له، ألا وهو الله عز وجل، فهو قيُّوم السماوات والأرض، وهو مالك كل شيء، وخالق كل شيء، وكلُّ عظيمٍ في الكون يتصاغر أمام عظمته ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر: ٦٧]، فالذي ينبغي أن يعظِّمه قلبُك هو الله وحده.

إذن.. فمصادر الحب الثلاثة تتمثل في واحد لا ثاني له، ألا وهو الله سبحانه وتعالى.

وإذن فعلينا أن نشدَّ أنفسنا إلى هذه الدرجة العليا من محبة العبد لله، وهي درجة الصالحين، وينبغي أن يكون محبوبنا الأوحد الذي لا ثاني له، هو الله رب العالمين، المحسن الأوحد، والجميل الأوحد، والعظيم الأوحد.

يروى أن الفضيل بن عياض دخل على ابنةٍ له يعودها، وأثناء ذلك دخل عليه طفل له، فأمسك به وقبَّله وعانقه، فقالت له ابنته: يا أبت أتحبُّه؟! قال: نعم، قالت: ويحك يا أبتاه، لقد ظننتُ أنك لا تحبُّ أحداً مع الله! فقال: يا بنيَّة، ألا تحبين أطفالك؟ قالت: الرحمة للأطفال والناس، أما الحبُّ فلله سبحانه وحده[١].

وحبُّ العبد لسيِّده وخالقه ومالكه ليس له نهاية، وليس لتزايده حدّاً يقف عنده[٢].

(١) شرح الحكم العطائية لـ د. البوطي، الدرس (١١٨). فيه وردت هذه القصة.
(٢) شرح الحكم العطائية الدرس (١١٨-١٨٦)، وشرح رياض الصالحين الدرس (١٢-٤٣٣).

● **فماذا عن حب الله عز وجل للإنسان عامة، وللمؤمنين به خاصة؟**

إن الإنسان من حيث هو جنس، بقطع النظر عن انقسامه إلى أفراد ومذاهب وأقوام، مكرَّمٌ عند الله عز وجل بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠]، وهذا التكريم دليل على محبة الله عز وجل لجنس الإنسان، أي أنَّ الله عز وجل أحبَّ الإنسان فكرَّمه، كل ذلك قبل التكليف.

ومن مظاهر تكريم الله عز وجل للإنسان، وبالتالي من مظاهر حبِّ الله للإنسان:

١ - أنْ فطره بيده: ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥].

٢ - أن نفخ فيه من روحه: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الحجر: ٢٩].

٣ - أن أودع فيه فطرة إيمانية تحنُّ إلى بارئها وخالقها: ﴿فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله﴾ [الروم: ٣٠].

٤ - أن أسجد له الملائكة: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ﴾ [البقرة: ٣٤].

٥ - أن سخر له الكون من حوله: ﴿أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [لقمان: ٢٠].

٦ - أن أنزل عليه كتابه: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥].

٧ - أن خلقه في أحسن تقويم: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤].

٨ - أن جعله خليفته في أرضه: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، ووضع بين يديه ميزان العدالة الذي يمكن على أساسه أن يقام مجتمع رخيّ سعيد: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْاْ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُواْ ٱلْمِيزَانَ ﴿٩﴾﴾ [الرحمن: ٧ - ٩].

وقد جعلنا الله عز وجل مخيَّرين في تطبيق هذا الميزان، والميزان هو شرائع الله المختلفة من عبادات ومعاملات. فمن امتثل لأمر الله في تطبيق هذا الميزان وعده الله الجنة، ومن تمرّد ولم يمتثل توعَّده الله بالنار مصداقاً لقوله: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٨ - ٣٩].

إذن فمصير حب الله القديم للإنسان منوط باختيار الإنسان تجاه التكاليف التي شرَّفه الله عز وجل بها.. والناس بعد التكليف فريقان:

١ - فريق رعى فطرته الإيمانية التي متَّعه الله عز وجل بها منذ نشأته، عن طريق تغذيته لها بالتأمل في الدلائل الكونية والبراهين العلمية وحمايته لها بسياج العاطفة ومشاعر الحب والخوف والتعظيم، فبايع اللهَ على الاستجابة للتكاليف والأوامر التي أمره بها فكانت النتيجة أنْ تطوّر التكريم الذاتي الذي جاءهم ابتداءً من عند الله عز وجل، إلى تكريمٍ إضافي آخر نالوه جراء استجابتهم وخضوعهم له سبحانه، فازدادتْ محبّةُ الله لهم رسوخاً. وهذا هو الحب الكسبي من الله لعباده، لأنه متوقّف على كسب أسبابه، وبذلك ارتقوا إلى درجةٍ أعلى من درجة الملائكة المقربين.

عن هؤلاء يقول تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾[البقرة: ٢٢٢]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥]، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[آل عمران:٧٦]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَـٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٤]، ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[آل عمران: ٣١]، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤].

فالعبد الخاضع لسلطان الله وأوامره، يزداد نشوة وسعادة، لما يعلمه من خلال هذه الآيات من أن خِلعة الحبّ هذه ليست وقفاً على من تمتّعوا بالعصمة من

الذنوب، بل هي تشمل كلَّ من زلَّتْ قدمه في طريق العصيان، ثم تدارك أمرَه فتاب وآب إلى الله عز وجل. ومهما هوى في أودية العصيان ثم عاد تائباً إلى الله بصدق، فإنه يدخل في عموم من أخبر الله بحبِّه لهم.

وأخيراً نقول: إن درجة حب الله القديم لجنس الإنسان - قبل التكليف - هي درجة واحدة للجميع، أما الحبُّ الكسبي فيتفاوت من إنسان لآخر، فبمقدار ما يطبِّق الإنسان شرع الله عز وجل، وبمقدار ما يُخلص لله عز وجل في ذلك وتصفو سريرتُه عن التعلُّق بالأغيار، فإنه ينال درجةً أعلى من حبِّ الله عز وجل له.

فإن قال قائل: أفيتأتى للإنسان المسلم منا أن يعلم أنه ممَّن نال شرف هذا الحب الكسبي، فيجزم بأن الله عز وجل يحبه؟ وما العلامات الدالَّة على ذلك؟

الجواب: نعم يتأتَّى للإنسان ذلك، بل ما من مسلم صادق في إسلامه إلا وله حظٌّ من هذا الحبِّ الكسبي الوافد إليه من الله عز وجل، إذ إنَّ الهداية التي أكرمه الله بها إلى الإسلام، دليل على أن له حظاً - قلَّ أو كثر - من محبة الله عز وجل له.

ثم انظرْ إلى درجة إقبالك على الله، تعلمْ درجةَ محبة الله عز وجل لك. . ولكن إذا عرفتَ أنَّ الله يحبُّك فاعلم أنَّ المتفضِّل عليك بهذا الحبِّ إنما هو الله عز وجل. ولا يدفعنَّك يقينُك بأنَّ الله يحبُّك إلى أن تتباهى بنفسك وتتصوَّر أنك قد فعلتَ شيئاً عظيماً. . لا، فالمتفضِّل عليك هو الله، وهذه حقيقةٌ إذا علمتَها يقيناً ازداد حبُّك لله عز وجل، ونجوتَ من العُجب المهلك لصاحبه.

إنَّ مؤشِّراتِ حبِّ الله عز وجل لك تزداد صعوداً كلما ازددتَ تحقُّقاً بأداء حقوق عبوديتك لله عز وجل، بتطبيق الأوامر، والابتعاد عن النواهي، والإكثار من مراقبته سبحانه وتعالى وذكره، ثم بالتبرّؤ من أوهامِ حَولِك وقوَّتك، إذْ لا حول ولا قوة إلا بالله.

يروي الشيخ أحمد الرفاعي في كتابه (البرهان المؤيَّد) حديثاً قدسياً يقول فيه رب العالمين: (يا عبدي إذا أمرتُكَ بشيءٍ فاعلمْ بأنك موجودٌ فأطِعْ، فإذا فعلتَ فاعلمْ بأنك معدومٌ وأنا الموفق).

ويحدِّثنا رسول الله ﷺ عن هذا الحبِّ الكسبي وعن علاماته في الحديث القدسي الصحيح فيقول: (إنَّ الله تعالى قال: من عادى لي ولياً فقد آذنتُه بالحرب، وما تقرَّب إليَّ عبدي بشيءٍ أحبَّ إليَّ مما افترضتُ عليه، وما يزال عبدي يتقرَّب إليَّ بالنوافل حتى أحبَّه، فإذا أحببتُه كنتُ سمعَه الذي يسمع به وبصرَه الذي يبصر به، ويدَه التي يَبْطِش بها، ورجلَه التي يمشي بها، وإنْ سألني لأُعطِينَّه، ولئنِ استعاذني لأُعِيذَنَّه)[1].

معنى الحديث: أنَّ الله عز وجل إذا أحبَّ عبده الذي يتقرَّب إليه بالنوافل، بعد محافظته على الفرائض، فإنَّ حواسَّ هذا العبد كلَّها تصبح متَّجهةً إلى الله، لا تتعامل مع غير الله. أي ترتفع الحجب التي بينه وبين الله من خلال حواسِّه كلِّها، ومن ثَمَّ يعيش هذا الإنسان دائماً - بذكره - مع الله، فهو يرى المكوَّنات ويسمعها ويتعامل معها، ولكنَّه لا يرى من خلالها إلا المكوِّن سبحانه وتعالى، وتلك هي وحدة الشهود.

فإذا أحبك الله عز وجل، لا تسمع شيئاً إلا ويُذكِّرك بالله مهما كان، فأنت تسمع صوت البلبل وخرير الماء وحفيف الأشجار - كما يسمعه غيرك- ولكنه لا يبعث في ذهنك إلا صِفةً من صفات الخالق جلَّ جلاله، الخلَّاق، البديع، الجميل، القادر، المحسن. وإذا سمعتَ شَدْواً من إنسان ما، يتغنَّى غناء منبعثاً - ربما - من غريزته، فإنك لا تكاد تسمع هذا الكلام إلا وتُوجِّهه إلى الله. فقد سمع بعضُ الصالحين يوماً مَنْ يقول متغنِّياً وهو يخاطب فتاةً أحبَّها:

لي لذَّةٌ في ذِلَّتي وخضوعي ... وأحبُّ بين يديكِ سفك دموعي

---

(١) رواه البخاري (٦١٣٧) عن أبي هريرة.

قرضاً أساتُ فأين عفوك مهجتي عمَّن رجاك لقلبه المصدوع

فأحسَّ أن هذا الكلام لا يصلح خطابا لأحد، إلا خطاباً من مخلوق لخالقه فيقول مصححاً:

لي لذَّةٌ في ذِلَّتي وخضوعي وأحبُّ بين يديكَ سفك دموعي

إذا أحبَّك الله عز وجل جذبك إليه، وإذا جذبك إليه أبعدك عن الأغيار، وعندئذٍ فكل هذه الكلمات التي يتحبَّب بها الناس بعضهم إلى بعض، تسمعها، ولكنَّها تصبح تعبيراً عن مشاعرك المتجهة إلى الله سبحانه وتعالى.

وكذلك بصرك لا يقع على شيء - أياً كان - إلا ويذكِّرك بالله عز وجل، وبذلك تكون بعيداً كل البعد عن الغفلة عن الله.

فإذا كان سمعك لا يذكِّرك إلا بالله، وبصرك لا ينقلك إلا إلى شهود الله، فإنَّ نتيجة ذلك أنَّ يدك عندما تتحرك لتمارس أيَّ شيء، إنما تتحرَّك استجابةً لأمر الله، ولما يحبُّه الله سبحانه وتعالى. وعندما تسير مُشرِّقاً ومُغرِّباً، لا تتحرَّك إلا في رضا الله، ولا يمكن لرجلك أن تقودك إلى ما حرَّمه الله. لأنَّ الغافل عن الله هو الذي تقوده رجله إلى ما حرَّم الله، أما الذي يذكِّره بالله عز وجل سمعُه وبصرُه، فهو دائماً مع الله، متحرِّياً رضا الله وهذا هو الإحسان، وهذه هي وحدة الشهود.

فاجعلْ - يا أيها الإنسان - من يقينك بالله، سُلَّماً إلى بلوغ هذه الدرجة، وإذا عزَّ عليك ذلك فأكثِرْ من النوافل - بعد محافظتك التامَّة على الفرائض - تقرُّباً إلى الله، يحبُّكَ الله. فإذا أحبَّك الله كان سمعُك وبصرُك مملوكاً له، فلا تقعُ عينك وبصرك من الكون إلا على صفاتِ الله، ومن ثم تصبح يدك ورجلك خادمين لهذه الحالة من وحدة الشهود.

ولعلك تسأل: فلماذا كان الإقبال على النوافل هو مصدر حبِّ الله للمتنفِّل، مع أن الفرائض أهمّ منها، ولعل الأجر عليها أوفر؟

والجواب: أنَّ الحامل على أداء الفرائض كثيراً ما يكون الخوف من العقاب المترتِّب على تركها، أما الحامل على فعل النوافل والاستزادة منها فقطعاً ليس الخوف من العقاب، لأنَّ ترك النَّوافل لا يستلزم العقاب، وإنما هو التقرب بها إلى الله عز وجل، ونيل المزيد من حبِّه، فكان له من قصده هذا ما أراد. فما المانع إذن من أن يعلم المستزيد من النوافل متقرِّباً بها إلى الله، أنه سبحانه وتعالى يحبُّه؟ بل ما المانع من أن ينتشي بما يعلمه من هذا الحب؟

وقد روي أن امرأة صالحة كانت تخدم أسرةً في دار، وكان لها حظُّ من الصلاة في جوف الليل، فسمعها سيدها تخاطب اللهَ في سجودها قائلةً: اللهم إني أسألك بحبِّك لي أن تكرمني بمزيدٍ من التقوى.. فلما انتهت من صلاتها، قال لها سيِّدها: من أين لك أنَّ الله يحبُّك؟! هلا قلت له: اللهم إنِّي أسألك بحبِّي لك؟ فقالت له: يا سيدي لولا حبُّه لي ما أيقظني في هذه الساعة، ولولا حبُّه لي ما أوقفني بين يديه، ولولا حبُّه لي ما أنطقني بهذه النجوى.

نعم.. إنه يحبُّك ومن ثَمَّ تحبُّه، مصداقاً لقوله: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤]، فإذا كنت تشعر بشوقٍ إلى الله وحبٍّ له وحنينٍ إليه، وإذا كنت تشعر أنَّ بينك وبينه نسباً موصولاً من هذا الحب، فاعلمْ أنَّ الله يحبُّك، وعندها لا يمكن للمكوَّنات كلها أن تقصيك عنه سبحانه وتعالى.

وإذا ارتقى الإنسان إلى هذه الدرجة جاء دور الأجر: (وإنْ سألني لأُعطينَّه، ولئن استعاذني لأعيذنَّه).

هذا هو الفريق الأول من الناس الذي كَسَبَ الحبَّ القديم الذاتيَّ الأول، الذي شمله مع من شملهم من أفراد الجنس الإنساني، وكَسَبَ أيضاً الحبَّ الكسبي الثاني إذ عمل بأسباب اكتسابه.

٢ - وفريق آخر أهمل فطرته الإيمانية وأعرض عنها، واشتغل بتغذية ما ابتُلي به من الأهواء والرعونات والرغائب الغريزية، وأعرض عن المهمَّة القدسيَّة التي خُلق لأدائها، واستغرق في الملهيات والمنسيات، فكانت النتيجة أنْ ضيَّع المكرمة التي اختصَّه الله بها كإنسان، فخسر محبَّة الله له، وعرَّض نفسه لعقاب الله. وبذلك انحطَّ إلى ما هو أدنى من دركات الحيوانات، ثم رحل إلى الله عز وجل بفطرةٍ مختنقة.

عن هؤلاء يقول الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ [التين: ٥]، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣٢]، ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ [النحل: ٢٣]، ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ٥٧][١].

والآن انتهينا من الحديث عن السبيل التربوي الثاني للوصول إلى درجة الإحسان، وهو الإكثار من ذكر الله عز وجل لتربية محبة الله عز وجل في القلب، ولكن:

● **علينا أخيراً أن نعلم أن درجةَ الإحسان هي درجة عالية، فلا ينبغي في سبيل الوصول إليها أن نُزهق الدرجتين الأساسيتين وهما الإسلام والإيمان:**

فمثلاً لكي نصل إلى درجة الإحسان علينا أن نكثر من ذكر الله عز وجل، سواء كنا جماعات أو فرادى، ولكنْ إذا كانت مجالس الذكر تجمع بين الرجال والنساء، فإننا نكون قد خالفنا أساس الإسلام والإيمان من أجل الوصول إلى درجة الإحسان، وهذا مرفوض. فالله عز وجل يقول: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [آل عمران: ٣١]. أي إن كنتم تبحثون عن الحبِّ الذي يوصلكم إلى مرضاة الله، فاتَّخذوا من المبادئ الاعتقادية والأحكام

---

(١) الحب في القرآن (ص٢٢-٣٢)، وشرح رياض الصالحين الدرس (٤٤٥-٤٤٨).

والتشريعات السلوكية التي جاءكم بها محمد ﷺ من عندي، ضابطاً لحبِّكم وتُرجماناً لأشواقكم. وهكذا فقد جعل البيان الإلهي من العلم بعقائد الدين وشرائعه ضابطاً لسير الحب، ودالاًّ على توجهاته السليمة.

أما الاعتماد على وهج الحب وحدَه فإنه يحرِّك، ولكنَّه لا يهدي إلى الحقِّ، ويُسيِّر ولكن على غير هدىً. فقد استسلم أناس لمشاعر حبٍّ فطري لله تعالى اهتاج بين جوانحهم، من دون أن يلتفتوا بعقولهم إلى علوم العقيدة والشرائع الإسلامية، فانطلق بهم ذلك الحب على غير هدىً، واختلط حبُّهم الفطري لله عز وجل بحبِّهم الغريزي للرغائب والأهواء، فتخبَّطوا من ذلك في متاهات الضلال الاعتقادي والانحراف السلوكي، ولبَّس عليهم الشيطان الحق بالباطل، وخيَّل إليهم أنهم إنما يترقَّون من ضلالاتهم تلك في سُلَّم الصعود إلى مرضاة الله عز وجل. وما ذلك إلا لغياب نبراس العلم عن عقولهم، ذلك العلم الذي بيَّن لنا رسول الله ﷺ أهميَّتَه حين قال: (فضل العالِم على العابد كفضلي على أدناكم)[1]، وقال: (ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً، سهل الله له به طريقاً إلى الجنة)[2].

ما أكثر الناس الذين حدَّثَنا عنهم التاريخ، والذين ذهبوا ضحيَّة حبٍّ أعزل لله ورسوله، ولا يسعنا إلا أن نصدِّقهم في سلامة حبِّهم وصفاء قصدهم. ولكنهم لما افتقروا إلى العلم بكتاب الله وسنة رسوله، وأقاموا وهجَ حبِّهم لله على أساسٍ من الجهل، سرعان ما تحوَّل حبُّهم إلى جندٍ يتحكَّم به كلٌّ من الشيطان وكوامن الشهوات والأهواء الجانحة، دون علمٍ منهم في بادئ الأمر بذلك. فلمّا ذاقوا من ضلالهم ذاك ما لذَّ للنفس، وما استعذبته الرعوناتُ والأهواء، لم يَعُدْ يفيدهم العلمُ بعد الجهل، ولم تَعُدْ لديهم قابليةُ الالتفات إلى تذكرة الناصحين ولا إلى ما يحذِّرهم منه بيانُ رب

---

(١) رواه الترمذي (٢٦٨٥) عن أبي أمامة الباهلي، وقال: حديث حسن غريب صحيح.
(٢) رواه مسلم (٢٦٩٩) عن أبي هريرة.

العالمين، بل أصبحوا يرون في الرجوع إلى ضوابط العلم عدواً لهم، فأنت تراهم أينما وجدوا يمارسون عداوةً شرسةً لموازين العقل وضوابط العلم، لما يرون فيه من التهديد لمكاسبهم ومِنْ حرمانهم من مَعين نشوتهم ومصدر رزقهم، ومن زوال الهالة التي تحيط بهم، والمكانة التي يتبوؤونها بين الناس الجاهلين من أمثالهم. إنهم المرشدون الزائفون !!

كان الشيخ عبد القادر الجيلاني - رحمه الله - من كبار العلماء العاملين، الذين جمعوا بين الشريعة (أي الواجبات الظاهرة) والحقيقة (أي إتقان النية وإصلاح القلب)، وكان من أقواله: (كلُّ حقيقةٍ لا تشهد لها الشريعةُ فهي زندقةٌ، طِرْ إلى الحقّ عز وجل بجناحين من الكتاب والسنة).

وكان الشيخ عبد القادر رحمه الله، بعلمه الراسخ وبصيرته النافذة يميِّز بين الموارد الإلهية والطوارق الشيطانية. وقد تحدَّث عن المحنة التي عَرَضَتْ له فَثَبَتَ فيها على الحقِّ فقال: اشتد بي العطش فأظلتني سحابةٌ ونزل عليَّ منها شيء يشبه الندى فرويت، ثم رأيت نوراً أضاء به الأفق وبدت لي صورةٌ ونوديت منها: يا عبد القادر أنا ربُّك وقد أحللتُ لك المحرَّمات، فقلت: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم اخسأ يا لعين. فإذا ذلك النور ظلام، وإذا تلك الصورة دخان، ثم خاطبني وقال: يا عبد القادر نجوتَ مني بعلمك بأحكام ربك، وقوَّتك في أطول منازلاتك، ولقد أضللتُ بمثل هذه الواقعة سبعين من أهل الطريق. فقلت لله الفضل. فقيل له: كيف علمتَ أنه شيطان؟ قال: بقوله قد أحللتُ لك المحرَّمات، ونظرتُ فوجدتُ هذا الكلام يناقض بيان الله عز وجل القائل لرسوله ﷺ: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩]، وإنما اليقين فيما أجمع عليه العلماء هو الموت[١].

(١) شذرات الذهب في أخبار مَنْ ذهب، لابن العماد (ج٦ / ٣٣٤) المكتبة الشاملة، وردت فيه القصة بكاملها أما الفقرة الأخيرة منه وهي: (ونظرت فوجدت هذا الكلام يناقض بيان الله...) فأخذته من كتاب الحب في القرآن للدكتور البوطي (ص١٣٤).

وإن الشيطان يعبث في عصرنا اليوم بأناسٍ اتَّخذوا من الحبِّ والوجدان وحدَه، أساساً لعمل الإرشاد في حياتهم، وأداةً للسير إلى الله مع مريديهم. وإذا غابت ضوابط الشرع أمام السالكين، اتَّسعتْ آفاقُ الضلال أمامهم، وكَثُرتْ أسباب الخداع بينهم، وحادوا عن الشرع فوقعوا إما في إفراطٍ أو تفريط، ويَضيع الدينُ بين الغالي فيه والجافي عنه.

فالحمد لله عز وجل القائل: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩] وصلى الله على سيدنا محمد ﷺ القائل: (مَنْ يُرِدِ اللهُ به خيراً يُفقِّهْهُ في الدين)[١]، والقائل: (لن يشبَعَ المؤمنُ من خيرٍ يسمعه، حتى يكون منتهاه الجنة)[٢].

إنَّ وصول الإنسان إلى درجتي الإسلام والإيمان وارتقاءه فيهما إنما يكون عن طريق العلم. أما درجة الإحسان فيصل المسلم إليها بعد درجتي الإسلام والإيمان، لا قفزاً فوقهما، وسبيل ذلك هو الإكثار من ذكر الله - بالمعنى الذي عرفناه - والإكثار من الالتجاء إليه سبحانه، عندها يشعر المسلم بلذة الإيمان وبمعنى الإحسان في قوله ﷺ: (أن تعبد الله كأنك تراه) أي ألا تكون المكوَّنات - أياً كانت - حاجزاً بينك وبين الله عز وجل، بل تصبح كلُّ المكوَّنات كأنها ألواح زجاجية شفافة ترى من خلالها اللهَ وحدَه. هذا ما عبَّر عنه بعض الربانيين بقوله باللهجة العامية:

ألا يا أيها المحجوب عنّو … تأمَّلْ ما ترى فالكل منّو

أدِمْ ذكرَ الله عز وجل، وأكثِرْ من تذكُّرِه، وتَذكَّرْ صفاته وأسمائه وعِشْ معها، تجدْ أنَّ الأسباب قد ذابت ثم ذابت، وتجد أنك دائماً مع الله سبحانه وتعالى. عندها تتوجَّه مشاعرُ القلب وعواطفُه، من حبٍ وخوفٍ وتعظيمٍ، إلى مَنْ قد آمن به العقل وأيقن بوجوده ووحدانيته، بعد أن كانت - هذه العواطف - محجوبةً بالأسباب عن

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (٧١) عن معاوية بن أبي سفيان، ومسلم (١٠٣٧) عن معاوية أيضاً.
(٢) رواه الترمذي (٢٦٨٦) عن أبي سعيد الخدري، وقال: هذا حديث حسن غريب.

المسبِّب. فالحب يصبح جلُّه أو كله لله، والخوف يكون من الله، والتعظيم إنما هو لله سبحانه وتعالى، فالشريعة هي غطاء الحقيقة، والحقيقة هي لبُّ الشريعة، وكلاهما متلازمان للوصول إلى مرضاة الله عز وجل القائل: ﴿وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ﴾ [الأنعام: ١٢٠](١).

● فإن قلت: كيف يمكنني أن أعرف قلبي، أحيٌّ هو أم ميت؟ أسليم هو أم مريض؟

الجواب: يقول ابن عطاء الله مجيباً عن ذلك: (مِنْ علامات موت القلب عدمُ الحزن على ما فاتك من الموافِقات، وتركُ النَّدم على ما فعلتَ من وجود الزلات)(٢)، أي: من علامات موت القلب، عدمُ حزنك أيها المسلم على ما فاتك من الطاعات الموافقة للشرع، وتركُ ندمك على ما فعلتَه من المعاصي، مثال:

- قد ينقطع المسلم - لسبب من الأسباب - عن طاعة كان يؤدّيها أو وِرْدٍ كان يواظب عليه أو عبادة كقيام الليل، أو تفوته صلاة الفجر، لكنَّ المقياس الذي يدل على خطورة هذا الأمر أو عدم خطورته أن يرجع إلى قلبه:

- فإنْ وجده متألماً حزيناً، فبكى وشعر بالوحشة، وتذكَّر الأُنسَ الذي كان يتقلّب فيه يوم كان مواظباً على طاعة ربه، إذن فهذا الإنسان لا يزال مشدوداً بشكل ما إلى الله عز وجل، ولا يزال قلبُه حياً، ولا تزال تجلّيات الله متَّجهةً إلى فؤاده.

وما دام القلب حياً، أي أنَّ عواطفه متَّجهةٌ إلى الله عز وجل، حباً وخوفاً وتعظيماً، فلا ضرر ولا ضَيْر من فوات هذه الفُرص، ولسوف يكرمه الله عز وجل بالتعويض عنها، ولسوف يعود إليها.

- وإنْ وجد قلبه مُعْرِضاً عن هذه الطاعات، وإذا ذُكّر بها لم يتأثر ولم يحزن على

(١) الحب في القرآن (ص١٣٠) إضافة إلى شرح الحكم، الدروس الصوتية الدرس (١ - ٦٨).
(٢) الحكمة (٤٨).

فواتها، بل ربما ضحك واعتبرها تجربةً مرَّتْ وتجاوَزها غير مأسوفٍ عليها، فهذا الأمر خطير جداً، ودليل على أنَّ قلبه قد أُقفِل ومات ولم تعدْ تتسرَّب إليه عِظَةٌ، وعلى أنه يسير في انحدار ويُخشى عليه من سوء الخاتمة.

ذلك لأنَّ للإنسان عقلاً باطناً وعقلاً ظاهراً، فالعقل الباطن يكتنز في داخله الأشياء التي يتعلَّق بها قلبُه ويفكِّر فيها كثيراً، أما الأشياء السطحية فإنها تبقى في عقله الظاهر، ولكنها عند أقلِّ هزَّةٍ تبارحه وتذهب. وتلك حقيقة ثابتة، بدليل أنَّ الرجل إذا ارتفعت حرارته نجده يذهل عمَّا حوله ويلهج لسانه بذكر المحبوبات التي تعلَّق بها قلبه، من زوجةٍ أو مالٍ أو ولدٍ، دون أن يتنبَّه إليها عقله الظاهر. فهذه الأشياء إنما جاءت من مكتنزات عقله الباطن، أما الأمور السطحية في حياته فلا يذكرها.

وآلام الموت أشدُّ على الإنسان من آلام الحُمَّى ومن كافة الآلام، فعندما يعاني الإنسان آلام الموت تتطاير من ذهنه كلُّ الأفكار التي احتضنها عقله الظاهر وينساها، ولا يبقى إلا ما كان مكتَنزاً في أعماق نفسه ومشاعره الخفيَّة، وهو ما يسمُّونه بالعقل الباطن. فإن كان عقله الباطن متعلِّقاً بالمعاصي والمحرمات، بينما يقبع الإسلام في زاويةٍ من زوايا عقله الظاهر، عندها تتطاير كلُّ الأفكار الدينية من عقله، وتطفو مشاعر عقله الباطن على لسانه. وقد كانت الدنيا هواه، والمال محبوبه، أما الله فمطويٌّ حسابُه عن قلبه ومشاعره، وإذا بلسانه يلهج بذكر محبوبه من دنيا ومال وشهوات، ومهما ذكَّره الناس من حوله بشهادة لا إله إلا الله فإنه لا يعي، ويموت - والعياذ بالله - على سوء الخاتمة.. وهكذا فقد قضت سُنَّة الله عز وجل أنَّ المرء يموت على ما عاش عليه، ويُبعث على ما مات عليه، فهو سبحانه القائل: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ۝٧٢﴾ [الإسراء: ٧٢]، وقال ﷺ مؤكِّداً: (يُبعث كلُّ عبدٍ على ما مات عليه)[١].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٧٨) عن جابر.

وقد يرتكب المسلم محرَّماً من المحرَّمات، وكلنا معرضون لذلك، ولكنَّ مقياس بعده أو قربه من الله هو أن ينظر إلى حالة قلبه بعد المعصية:

- فإن فاض قلبه ندماً وخجلاً والتاع فؤاده ألماً وحسرة، وكأنَّ عقرباً قد لدغه، فهذا دليل على أنَّ قلبه حيٌّ، وعلى أنَّ عواطف قلبه متَّجهةٌ إلى الله عز وجل بالحب والخوف والتعظيم، بدليل قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ [آل عمران: ١٣٥].

- وإن فاض قلبه باللا مبالاة والزهوّ، وانتشى بالمحرَّم الذي كان قد ارتكبه، وتمنَّى أنْ تواتيه الفرصة ليعود إليه، وكان الأمر عنده كذبابةٍ انحطتْ على أنفه فأطارها هكذا بيده، فهذا دليل على موت قلبه، وعلى أنَّ مشاعره القلبية غير متَّجهةٍ إلى الله، إنما توازعَتْها الرغبات والشهوات الدنيوية. وهذا هو الران الذي قال الله عز وجل عنه: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المطففين: ١٤]، والذي يودي إلى سوء الخاتمة، إذا استمرَّ على الإصرار ولم يلتجئ إلى الله لينتشله من سوء حاله.

إذن.. فابن عطاء الله - رحمه الله - لم يجعل من الاستقامة الدائمة على الطاعات علامةً على حياة القلب، إذ ربما يدخل فيها العجب والرياء. وكذلك لم يجعل من ارتكاب المعاصي دليلاً على موت القلب، إذ ربما يعقبها الندم والبكاء؛ وإنما جعل عدم الحزن على فوات الطاعات، وعدم الندم على ارتكاب المعاصي هو الدليل على موت القلب. فمشاعر القلب هي الدليل على حياته أو موته، والله عز وجل يقول: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾﴾ [القيامة: ١٤ - ١٥][(١)]، والرسول ﷺ يقول في الحديث الصحيح: (فوالذي لا إله غيره إنَّ أحدكم

---

(١) شرح الحكم العطائية، الدروس الصوتية الدرس (٦٩ - ٧٠).

ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإنَّ أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها)(١).

وقد ورد هذا المعنى عند البخاري بلفظٍ شارح للحديث السابق وهو: (إنَّ الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس، وإنَّه لمن أهل النار، ويعمل بعمل أهل النار فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنة)(٢).

أي في الناس من تراه - في الظاهر - يعمل بعمل أهل الجنة من صيام وصلاة وحج وصدقة ودعوة إلى الله، فهذه في الظاهر طاعات، ولكنها في الباطن لا تنبع ابتغاء وجه الله، أي أنَّ شرطَ الإخلاص لله فيها غيرُ موجود، وإنما تنبع من جذورٍ خفيَّةٍ في طوايا النفس تتمثَّل بالنفاق والرياء والقصد الدنيوي، وبالتالي فإنَّ ثمرات هذه الطاعات هي الكبر والعجب والتباهي على الآخرين، فهي إذن ليست طاعات حقيقية وإنما هي طاعات شكلية.

وقد علمنا سابقاً أن الطاعة الحقيقية هي الطاعة التي تنبع من جذور العبودية لله عز وجل المستكنة في طوايا النفس، والآتية من تشبُّع الإنسان بمشاعر التوحيد لله عز وجل في ذاته وصفاته وأفعاله. أي بأن يتيقَّن أن لا نافع إلا الله، ولا ضارَّ إلا الله، ولا رازق إلا الله، ولا فعَّال في الكون كلِّه إلا الله. هذا التوحيد إذا تنامى وتنامى يكسبك العبودية لله، فلا تكون عبداً لسواه.

وعندما تكون موحِّداً لله وتُوفَّق للطاعة، تعلم أنَّ الفضل والمِنَّة لله الذي وفَّقك وهداك مصداقاً لقوله تعالى: ﴿قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ [الحجرات: ١٧]، وعندها تمارس العبادة والطاعة من منطلق العبودية لله عز

(١) متفق عليه، رواه مسلم (٢٦٤٣) عن عبد الله، والبخاري (٣٠٣٦) عن عبد الله، واللفظ لمسلم
(٢) رواه البخاري (٣٩٧٠) عن سهل.

وجل، فتشعر أنَّ قلبك مشدود إلى الله عز وجل بالحب والخوف والتعظيم، وإذا فاض القلب بهذه المشاعر، فإنَّ هذه المشاعر تثمر التواضعَ والسكينةَ والتذللَ والانكسارَ على أعتاب الله، كما تثمر الخوفَ من العاقبة، هل هو عند الله عز وجل من الصالحين أم من الطالحين، ولا يطمئن إلى النتيجة أبداً، ولذلك هو يجأر إلى الله عز وجل بالدعاء والشكوى، ويقف دائماً بين الخوف من سخط الله، والرجاء لعفو الله. كلُّ ذلك بسرِّ التوحيد لله والعبودية له سبحانه.

فهذه الطاعة إذن عبارة عن جسد حي، روحه العبودية لله، والعبودية التي تسربت إلى هذه الطاعة حصَّنتْها من كل الأمراض الباطنة. وهذه هي الطاعة الحقيقية التي توصِل صاحبَها - برحمة الله - إلى الجنة.

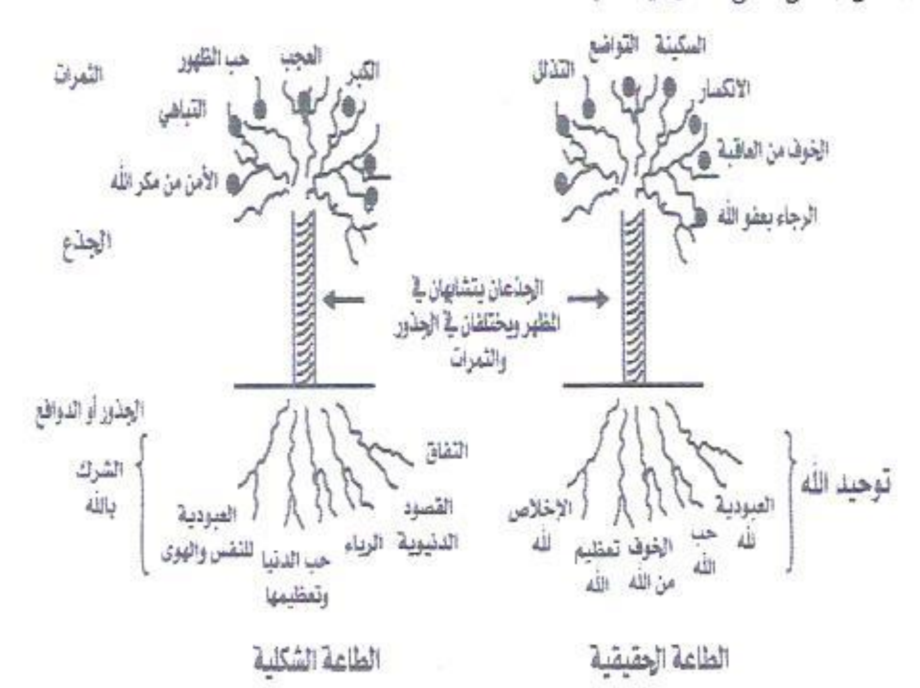
ولو مثَّلْنا الطاعةَ الحقيقية بجذع شجرة، لكانت جذورُها توحيداً لله، فعبوديةً له، فحباً لله وخوفاً من الله وتعظيماً لله، ولكانت ثمراتُها التواضعَ والسكينةَ والتذللَ والانكسارَ والخوفَ من العاقبة والرجاءَ بعفو الله.

وقد آلى الله عز وجل على نفسه ألا يهدر طاعةَ مثلِ هذا الإنسان، بشكل من الأشكال، فهو عز وجل القائل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾﴾ [الكهف: ٣٠].

أما الطاعة التي لم تتسرَّب إليها حقيقةُ العبودية لله، فهي كالجسد الميت الذي انفصلت عنه الروح، مصيره أن يُدفن في التراب، وتلك هي الطاعة الشكلية.

ولو مثَّلْنا الطاعةَ الشكلية أيضاً بجذع شجرة، لكانت جذورُها شركاً بالله، فعبوديةً للنفس والهوى والدنيا، فحباً لها وتعظيماً لشأنها، ومن ثم النفاقَ والرياءَ والقصودَ الدنيوية (لكي يقال عنه كذا)، ولكانت ثمراتُها الكبرَ والعُجبَ والتباهيَ على الآخرين وحبَّ الظهور والأمنَ من مكر الله. فمن تباهى بطاعاته فهو يعاني من بقايا

شرك، وطاعاتُه غير مقبولة عند الله، وهي ذاهبةٌ أدراج الرياح، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها.



أو قد يكون هذا الإنسان - الذي عمل بعمل أهل الجنة ثم سبق عليه الكتاب فعمل بعمل أهل النار- قد صلَّى كثيراً وصام كثيراً - هذا ما يبدو - ولكنَّه يأتي يوم القيامة وقد غشَّ هذا واغتاب هذا وسفك دم هذا، فتذهب هذه الحسنات كلها، إذ يُعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته حتى إذا نفذتْ طُرح عليه من سيئاتهم فيُطرح في النار.

وبالمقابل.. فمن الناس من نراه - في الظاهر - مسرفاً على نفسه، مرتكباً المعاصي والموبقات، تاركاً الصلاة والصوم والعبادات، ولكنه غير راضٍ عن نفسه، فهو عندما يرجع إلى بيته يرجع منكسراً حزيناً، يرى نفسه أحقر الناس، يرى نفسه شيطاناً، بينما يرى أن جميع الناس خير منه، ويراهم كالملائكة، ويحصل ما يشبه الماس الكهربائي بين المعاصي التي يرتكبها وبين مشاعر العبودية المستكنَّة في قلبه،

فيلتهب كيانه ندماً وألماً وبكاء وتضرعاً، ويجأر إلى الله عز وجل بالتبتُّل والنجوى والتضرع والدعاء والشكوى، يشكو إلى الله ضعفَه وفاقتَه وذُلَّه ومهانته، وربَّما عاد في اليوم الثاني إلى مثل ما كان عليه، ولكنَّ الأسى يحر ق قلبه.

هذا الحال الذي بينه وبين الله، نحن لا نراه، وهو من أكبر الطاعات، بل هو سيِّد القربات التي تُقرِّبُ العبدَ من ربِّه سبحانه وتعالى. فهناك طاعات خفيَّة لا توضع في ميزان الحسِّ ولا تبصرها العين، ولكنها توضع في ميزان الرقابة الإلهية، توضع في ميزان الله الذي يعلم السر وأخفى، والقائل: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾﴾ [الرعد: ١٠]، والقائل على لسان نبيِّه ﷺ في الحديث القدسي: (أنا عند المنكسرةِ قلوبُهم من أجلي)[١]، فإذا فوجئتَ بأنَّ الله عز وجل بعد فترةٍ هداه، وحبَّب له الطاعات وكرَّه إلى قلبه المعاصي فتركها، وضمَّه سبحانه بين ذراعي رحمته ومغفرته، فلا تتصور أنَّ المسألة عشوائية، فموازين الله عز وجل دقيقة جداً، تزن المشاعر والأحاسيس.

أو ربما كان هذا المسرف على نفسه ممَّن يسعى في خدمة الناس ورعايتهم، ويبذل ما يملك في سبيل إسعاد المرضى وقضاء حوائجهم وإزالة كربهم، ونحن لا نرى هذا العمل منه، وإن رأيناه ربما لا نضعه في إطار الطاعات، لأنه عمل إنساني عام، ولكنه عند الله عمل كبير، يتجلى الله عز وجل على قلب صاحبه بالتوبة والإنابة والهداية، أو ربما بالاجتباء.

---

(١) أخرجه السخاوي في المقاصد الحسنة (رقم ١٨٨)، وأحمد بن حنبل في الزهد (رقم ٣٩١) بلفظ: قال موسى بن عمران: (أي رب أين أبغيك؟ قال: ابغني عند المنكسرة قلوبهم، إني أدنو منهم كل يوم باعاً، ولولا ذلك لانهدموا)، ورواه البيهقي في الزهد الكبير (رقم ٣٦٧) بلفظ قريب، ومنه الحديث الصحيح: (يا ابن آدم مرضتُ فلم تعدني) قال: يا رب كيف أعودك وأنت رب العالمين؟ قال: (أما علمت أن عبدي فلاناً مرض فلم تعده، أما علمت أنك لو عُدْتَه لوجدتني عنده) رواه مسلم.

كشأن مالك بن دينار الذي كان مسرفاً على نفسه وكان شُرطياً، فرأى رجلاً قوياً ظالماً اغتصب من ضعيفٍ متاعَه، فقال له الضعيف: لقد اغتصبتَ متاعاً اشتريتُه لبناتٍ لي، وإنَّ الله سائلك عن هذا يوم القيامة. فانقذفتْ في قلب مالك بن دينار - رحمه الله - رحمةٌ بهذا الضعيف، فأخذ المتاع من الظالم وأعاده للمظلوم، وقال له: إذا أعطيت هذا المتاع لبناتك فقل لهنَّ أن يرفعن أيديهن بالدعاء لي، وقل لهن: (مالك بن دينار).

ومنذ هذه اللحظة انقلب من إنسانٍ مسرفٍ على نفسه إلى إنسانٍ متبتِّلٍ ربانيٍّ، متوجِّهٍ بكليته إلى الله عز وجل تاركاً المعاصي والشهوات وراء ظهره.

إذن فالعبودية لله عز وجل هي محور التقرُّب إلى الله سبحانه وتعالى، فمن لم يمتلك هذا المحور فمصيره البعدُ عن الله، وإنْ كان الناس يرون منه ظاهر طاعاته. ومن امتلك هذا المحور فمصيره القربُ من الله، وإنْ كان الناس يرون منه ظاهرَ شروره ومعاصيه.

وهكذا فإنَّ المسلم الذي يصطبغ بهذا الكلام النبوي الشريف يرقى إلى مستوى تربوي هام جداً وهو ألا يُعجب بنفسه لصلاحه، ولا يحتقر الآخرين لمعاصيهم، وإنما العبرة بالخاتمة - نسأل الله عز وجل حسن الختام - التي ارتعد منها الصِّدِّيقون خوفاً وفَرَقاً.

ورحم الله ابن عطاء الله القائل: (معصيةٌ أورثتْ ذلاً وانكساراً، خيرٌ من طاعةٍ أورثتْ عزاً واستكباراً)[١]، وبمقدار ما يتقرَّب العبد إلى الله بهذا الذلّ، بمقدار ما يبتعد عن الله بالعجب والاستكبار، فذلك يغفر الله له على الرغم من معاصيه، وهذا يطرده الله من رحمته على الرغم من طاعاته[٢].

(١) الحكمة (٩٤).

(٢) شرح رياض الصالحين الدرس (٤٦١) باب الخوف، وشرح الحكم العطائية الدرس (١١٦).

● فما الضمانة لكي أبقى على صراط الله عز وجل حتى يأتي الأجل؟

لا يوجد إلا ضمانة واحدة، هي التعلُّق برحمة الله عز وجل فقط، ولا أتعلق بالعمل الصالح أبداً. بل أعمل وأؤدي واجبي الذي أمرني به الله عز وجل، وابتعد عما نهاني عنه، ثم أُتوِّج ذلك كله بمنطق العبودية لله عز وجل، فأقول بيني وبين ربي: يا رب إني لم أؤدِّ مثقال ذرة من حقوقك علي، فأنا إنسان مقصِّر عاصٍ تائه، وليس لي إلا أمل واحد، هو أن ترحمني برحمتك وتدخلني الجنة بكرمك. عندئذٍ، عندما أتبرأ من أوهام حولي وقوتي، يكرمني الله عز وجل ويرحمني مصداقاً لقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ۝٦٠﴾ [المؤمنون: ٦٠]، فقد سألت السيدةُ عائشة رضي الله عنها رسولَ الله ﷺ عن هذه الآية فقالت: أهم الذين يشربون الخمر ويسرقون؟ قال: (لا يا بنت الصديق، ولكنهم الذين يصومون ويُصلُّون ويتصدَّقون، وهم يخافون ألا يُقبل منهم، أولئك الذين يسارعون في الخيرات)[(١)].

وكان من دعاء النبي ﷺ: (اللهم إنك إنْ تَكِلْني إلى نفسي تَكِلْني إلى ضَيعةٍ وعَورةٍ وذنبٍ وخطيئةٍ، وإنِّي لا أثق إلا برحمتك)[(٢)].

وكان رجل من كبار الصالحين والعارفين يقول:

إلهي لست للفردوس أهلاً ... ولا أقوى على نار الجحيم
فهب لي توبةً واغفر ذنوبي ... فإنك غافر الذنب العظيم

هذا الإنسان الذي ردَّد هذه الأبيات لم يكن شارداً عن صراط الله عز وجل، بل كان عالماً متعبداً يقوم الليل ويكثر من الأذكار والأوراد، لكنَّ التزامه الصادق لأوامر

---

(١) رواه الترمذي (٣١٧٥)، وابن ماجه (٤١٩٨)، وأحمد (٢٤٧٣٥)، والحاكم في المستدرك (٣٥٣٨)، وقال: حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، كلهم عن عائشة بألفاظ متقاربة، واللفظ هنا للترمذي.

(٢) رواه أحمد (٢١١٥٨) عن زيد بن ثابت.

الله عز وجل، فجَّر مشاعر عبوديته لله عز وجل، ومن منطلق هذه العبودية شعر أنه لا شيء، وأن كل ما يفعله من طاعات لا تؤدي إلا جزءاً يسيراً يسيراً من حقوق الله عليه.

إذاً فخير أحوال العبد طاعة تورثه ذلاً وافتقاراً وتضرعاً وانكساراً على أعتاب مولاه وخالقه، عندئذٍ تتوالى عليه الإمدادات الإلهية من عز ونصر وقوة في الدنيا والآخرة. يقول ابن عطاء الله في هذا الصدد: (تحقَّقْ بأوصافك يُمِدُّك بأوصافه، تحقَّقْ بذُلّك يُمِدُّك بعزّه، تحقَّقْ بعجزك يُمِدُّك بقدرته، تحقَّقْ بضعفك يُمِدُّك بحوله وقوَّته)[1]. [2]

٣ - الإكثار من الدعاء والتضرع لله عز وجل

● معنى الدعاء، ومعنى كل من الاضطرار والتذلل والافتقار:

الدعاء: هو إعلان المسلم عن حاجته إلى الله عز وجل والافتقار إليه، والتذلُّل على بابه، والانكسار على أعتابه، فيقول: يا رب أعطني، يا رب ارحمني، من منطلق الإحساس بفقره ولو كان غنياً. وسواء أعطاه الله أم منعه، وظيفته أن يبقى ملتصقاً بأعتاب الله عز وجل، يدعوه ويتذلل له ويعبِّر عن فقره وفاقته. لذلك قال العلماء: الدعاء مطلوب لذاته، فهو غاية وليس وسيلة، لأنَّ الحاجة إلى الله هي ديدن العبد وشأنه، وإذن فالسؤال هو ديدنه وشأنه، دون أن يشترط على الله، ودون أن يعترض، ودون أن يعكِّره المنع، ودون أن يصرفه عن باب الله العطاء.. لماذا؟

لأن الإنسان في واقعه وحقيقة أمره فقير إلى الله ولو كان بأوج الغنى، ضعيف ولو كان بأوج القوة، عاجز ولو كان بأوج القدرة والسلطان. ذلك لأنَّ الذي يمدُّه

---

(١) الحكمة (١٧٨).

(٢) شرح رياض الصالحين الدرس (٤٦٢)، وشرح الحكم العطائية الدرس (١١٠).

بالغنى والقوة والقدرة وكلُّ الملكات لحظةً فلحظةً إنما هو الله، ومتى شاء قطع عنه ذلك، فالله هو مالك القوى والقُدَر، والإنسان عبدٌ مملوك، والمملوك لا يملك شيئاً، ومملوكيته لله عز وجل لا تنفكُّ عنه أبداً. وبالتالي فالمطلوب من هذا المملوك أن يعبِّر عن هويته ومملوكيته لله عز وجل بلسان حاله ومقاله، فيرفع يديه ويقول: يا رب يا رب، بقلبٍ صادقٍ وشعورٍ مستيقظٍ خاضعٍ لعظمة الله سبحانه وتعالى.

إذن فالدعاء هو العبودية التي تُعتبر أرقى مراتب القرب من الله عز وجل، لأنه نابع من شعور الإنسان بالافتقار الكلي إلى الله عز وجل. وهذا الافتقار يقوده إلى التذلل والانكسار.

ولو أنَّ إنساناً وقف وِقفة الأبطال المستكبرين وأخذ يخاطب الله عز وجل، وكأنه يخاطب نداً له، ويطالبه بالصحة والغنى والعافية، فهذا لا يُسمَّى دعاء وإنما طلباً.

كما أن الدعاء هو عبادة، لأنه عبارة عن سلوك يتمثَّل ببسط اليدين إلى الله عز وجل وبترداد كلمات الدعاء على اللسان.

فالدعاء إذن عبادةٌ وعبوديةٌ بآن واحد، وهذا هو الدعاء الحقيقي الذي تكفَّل الله عز وجل باستجابته مصداقاً لقوله تعالى: ﴿أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أإله مع الله قليلاً ما تذكرون﴾ [النمل: ٦٢].

ويذهب العوامُّ من الناس إلى تفسير (المضطر) تفسيراً مزيَّفاً، فهم يتصوَّرون أنَّ المضطر هو ذاك الإنسان الذي يكون ابتداء معافىً قوياً غنياً، يعيش حياته العادية ولا يلتجئ إلى الله، ولكنه يحافظ على الفرائض وعلى الدعاء التقليدي بعد الصلاة، ولكن عندما تأتيه مصيبةٌ من المصائب - كالمرض مثلاً - فيذهب إلى الأطباء ولكن دون فائدة، وبعد أن ييأس من هذا وذاك؛ تسوقه عمليةُ الحصر والإسقاط إلى الالتجاء إلى الله عز وجل. قالوا: هذا هو المضطر!

نقول: لا، فهذا هو المضطر المزيَّف، والمضطر الحقيقي هو ذاك الذي تكون مشاعر الاضطرار ملازمةً له في أمنه وخوفه، ورخائه وشدته، وعافيته ومرضه، وغناه وفقره، وقوّته وضعفه، فهو مضطر إلى الله عز وجل في كل لحظة وفي كل نَفَسٍ من أنفاسه.

والاضطرار: هي الحالة التي يجزم فيها العبد أنه لا يملك من أمر نفسه حولاً ولا قوّةً ولا غنىً ولا عافيةً ولا مالاً ولا شيئاً، وأنَّ أحداً لا يستطيع أن يمدّه بشيء من ذلك إلا واحدٌ لا ثاني له، ألا وهو الله عز وجل، فهو يعيش معنى الكلمة القدسية (لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم)، ولو كان بأوج القوة والغنى والعافية والعطاء.

إذا وقر في نفسك هذا المعنى، فأنت إذاً اسمك (مضطر)، وهذا هو الوسيط الذي يستنزل حوائجك من عند الله عز وجل القائل: ﴿أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء﴾.

وعن هذا المعنى يقول ابن عطاء الله: (ما طَلَبَ لك شيءٌ مثلُ الاضطرار، ولا أسرع بالمواهب إليك مثلُ الذِّلَّة والافتقار)[1]، أي: ما استنزل حوائجَك من عند الله عز وجل شيءٌ مثلُ اضطرارك إلى الله عز وجل، ولا أسرع بالعطاءات الإلهية إليك مثلُ تذلُّلِك وافتقارِك على باب مولاك.

فما الفرق بين كلٍّ من الاضطرار والذِّلَّة والافتقار؟

أما الاضطرار- وقد عرفناه - فهو عبارة عن حالة كامنة وشعور يستولي على النفس، وقد يكون خفياً، ولكنَّ نتيجة هذا الشعور وثمرته هو التذلل والافتقار.

والتذلل هو نقيض التعالي والاستكبار الذي نهى الله عز وجل عنه بقوله: ﴿وَلَا

---

(١) الحكمة (١٢٩).

تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾﴾ [الإسراء: ٣٧]، وأكثر مظاهر التذلُّل السجودُ بين يدي الله عز وجل، قال تعالى: ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾﴾ [العلق: ١٩]. لذلك وقال ﷺ: (أقربُ ما يكون العبدُ من ربِّه وهو ساجد فأكثروا الدعاء)[1].

وإذا غاب الاضطرار عن شعور الإنسان، غاب معه التذلل لله عز وجل، فقد كان المشركون إذا رأوا رسولَ الله ﷺ ساجداً أمام الكعبة يشمئزون ويقول قائلهم: أنا أكره أن ترتفع أسافلي على رأسي.. ذلك لأن الاضطرار عندهم مفقود، أي هم لا يشعرون أنهم في قبضة مولاهم وخالقهم، لا يشعرون أنَّ حياتهم ورغد عيشهم وأمنهم وطمأنينتهم ومالهم وعافيتهم وعلمهم وكل شيء بيد مالك الملك والملكوت.

ولكن عندما دخل هؤلاء الإسلام، وتلا أحدهم كلام الله عز وجل: ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ [المزمل: ٨]، أي: انقطع إليه وتذلل له، صار هواه أن يكون ساجداً لله عز وجل طوال الليل، وأصبحت لذَّته أن يُعفِّر جبينه بتراب الأرض لله، لأنه عرف اضطراره فأورثه ذلك التذلل والانكسار.

وأما الافتقار: فهو أن تعلن عن اضطرارك بلسانك فتقول: يا ربِّ مالي سواك، عافني لا يعافي إلا أنت، وأكرمني فلا كرم إلا كرمك. أي أن تعلن عن حاجاتك الذاتية والعارضة، لله عز وجل.

● **كيف يدعو المسلمُ ربَّه إذا عرف عبوديتَه له واضطراره إليه؟**

إنَّ المسلم إذا عرف عبوديته لله عز وجل وعرف ربوبية الله عز وجل عليه، عَلِمَ عِلْمَ اليقين أنه في كل لحظةٍ هو مضطر إلى الله عز وجل، ولو كان في أوج الطمأنينة والعافية والنعمة والعطاء، ذلك لأنه يعلم أن الذي أعطاه هذا كله قادر على أن يسلبه

---

(١) رواه مسلم (٤٨٢) عن أبي هريرة.

ذلك كله بكلمة (كن) من لدنه، لذلك نراه دائم الالتجاء إلى الله عز وجل:

ففي حال النعمة، كي يديم الله عز وجل عليه نعمتَه.

وفي حال النقمة، كي يرفع الله عنه نقمته.

وفي حال الطاعة، كي يتقبَّل الله منه طاعته.

وفي حال المعصية، كي يغفر الله له زلَّته.

فهو دائماً مقيم على أعتاب الله، يدعوه ويتضرع إليه في كل أحواله.

ها هو سيدنا إبراهيم على نبيِّنا وعليه الصلاة والسلام، في كل أحواله عبدٌ لله عز وجل، يشعر باضطراره إلى الله عز وجل، سواء كان في المنجنيق أو في قصر من القصور، لأنه في كلا الحالين في قبضة مولاه وخالقه:

فعندما قضت محكمة النمرود بإحراقه، وأُضرمت النار، ووُضع في المنجنيق، جاءه سيدنا جبريل عليه السلام يقول له: (أليست لك حاجة)؟ قال: (أما إليك فلا)، قال جبريل: (فسل ربَّك)، قال: (حسبي الله ونعم الوكيل)[1]، أي هو كافيني منذ أن خلقني، وفي كل لحظة من لحظات حياتي ألتجئ إليه فيحميني، وفي كل أمر من أمور حياتي جعلتُه وكيلاً عني، فأنا متوكّل عليه في أمري هذا أيضاً، والمأمول أن يحميني ويرعاني كما حماني ورعاني من قبل. والله عز وجل يقول: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]، أي هو كافيه، فنطقتْ محكمةُ النمرود بقرار أنْ ﴿حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ﴾ [الأنبياء: ٦٨]، ونطقت محكمة الله بقرار أنْ ﴿يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩]، فكان قرار الله هو النافذ سبحانه وتعالى.

- كذلك قبل أن يوضع في المنجنيق كان الاضطرار هو حاله، وهذا واضح في

(١) تفسير ابن كثير (سورة الأنبياء)، وروى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: (كان آخر قول إبراهيم ﷺ حين أُلقي في النار: حسبي الله ونعم الوكيل) صحيح البخاري (٤٢٨٨).

حواره مع قومه وهو بأوج الطمأنينة والأمن ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [الشعراء: ٧٢ - ٨٣]، وهذا هو عين التوحيد، أي لا فعَّال في الكون إلا الله، وهذا هو الاضطرار.

- وفي حال الطاعة هذه هي حاله، يدعو ربه أن يتقبَّل منه طاعته، ويستغفره ويتوب إليه من تقصيره في أداء حقوق الربوبية، يقول تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ۖ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا ۖ إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧ - ١٢٨].

وكذلك المسلم الذي عرف عبوديتَّه لله عز وجل، ومن ثَمَّ اضطراره إليه، يدعو الله عز وجل في السراء والضراء، رغباً ورهباً، فذلك أدعى للاستجابة مصداقاً لقوله تعالى: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

ثم هو عندما يؤدي طاعةً من الطاعات سرعان ما يلجأ إلى الله عز وجل بذُلٍّ وانكسار داعياً الله عز وجل أن يتقبَّل منه، إذ ربما تُهدَر طاعتُه لرياءٍ أو عجبٍ تلبَّس به. وإن كانت - في أحسن الأحوال - خالصةً لله عز وجل، لم يخالِطْها رياءٌ ولا عجبٌ، فإنَّه يعلم أنَّ الذي وفَّقه لها وأعطاه القوة على فعلها وقذف في قلبه الإخلاص إنما هو الله سبحانه وتعالى، فيزداد لله انكساراً ولنفسه احتقاراً، لأنه مهما فعل من الطاعات يبقى مقصِّراً في أداء حقوق الربوبية.

وبذلك يكون قد جمع بين ظاهر الطاعة وباطنها، والذي أنجاه من باطن الإثم -

كالرياء والعجب - إنما هي عبوديته الضارعة لله عز وجل.

وإذا صدرت منه معصية فإنه يكتوي بنيرانها ألماً وحسرة، ثم هو يلتجئ إلى الله عز وجل لينتشله من معصيته، ويسأله الهداية والعون على الاستقامة. ويقول له الله عز وجل: لبيك عبدي، ويأخذ بيده ويسدّد خطاه ويقول: (أعلِم عبدي أنَّ له رباً يغفر الذنب ويأخذ به؟ غفرتُ لعبدي)(١).

وبذلك يتغلَّب باطنُ الطاعة، وهو التجاؤه إلى الله عز وجل وانكساره، على ظاهر الإثم. والذي أنجاه من ظاهر الإثم إنما هو أيضاً عبوديتُه لله عز وجل.

فانظر إلى روعة العبودية الضارعة لله، كيف تُنجي صاحبَها من باطن الإثم آناً ومن ظاهر الإثم آناً آخر.. فالعبودية إذن حِصنٌ للطاعات، وماحيةٌ للمعاصي والزلات.

كن - يا عبد الله - مصطبغاً بهذه الحالة من الاضطرار الدائم إلى الله عز وجل، وانظر كيف تأتيك النجدة تلو النجدة من لدنه تعالى.

فهل يحتاج الإنسان إلى أن يتكلَّف ليصل إلى هذه الحالة؟

لا أبداً، لأن الإنسان مفطور على هذه الحالة، ولو عاد إلى نفسه بموضوعيةٍ وبدون استكبار، لوجد أنه كتلةُ فاقةٍ يتحرك في قبضة مولاه وخالقه.

والفاقة تعني الفقر المتناهي والعجز المتناهي والضعف الكلي، وهي فاقةٌ ذاتيةٌ وليست عَرَضِيَّة ليزيحها عن نفسه، هذا ما أكده بيان الله عز وجل: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [فاطر: ١٥]، وقوله: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨]. أما الغنى والقوة والعافية وسائر النعم، فكلها عوارض، إذا

---

(١) متفق عليه، صحيح البخاري (٧٠٦٨)، وصحيح مسلم (٢٧٥٨) عن أبي هريرة، واللفظ للبخاري. وهو جزء من حديث: (إن عبداً أصاب ذنباً...).

استلّها الله منك يا ابن آدم رجعت إلى غاية الفقر والضعف والعجز. تماماً كالطفل الصغير الذي لا يقوى على النهوض، يمسكه والده بعضديه فيُخيَّل إليه أنه إنما يقف بذاته، ولكنه في الواقع كتلة ضعف، ووقوفه إنما هو بسندٍ من والده لحظةً فلحظة، بدليل أنه إذا تركه سقط.

ولله المثل الأعلى، فالإنسان في توقُّفه على المدد المستمر الآتي من عند الله عز وجل لحظة فلحظة مثل هذا الطفل، بل هو أشد فاقة، ولو تخلى الله عنك - يا ابن آدم - لحظة، لغابتْ عوارضُ الغنى والعافية والقوة وسائر النعم، ولرجعتَ إلى فاقتك الذاتية.

إذن فالمطلوب منك أن تمدَّ يدَ افتقارك إلى الله عز وجل بالدعاء الواجف النابع من نياط قلبك، والصادر من ذل العبودية لله عز وجل، دائماً في كل حالاتك، في الخلوات والجلوات، في المحن والمسرَّات.

عليك دائماً أن تشهد فقرك وفاقتك، وإياك أن تغيب عن هذه الفاقة في لحظة من اللحظات.. في صلاتك وأذكارك.. في طعامك وشرابك.. في متعتك وأنت مع أصحابك.. في سوقك ومتجرك.. في شدتك ورخائك.. في كل تقلباتك. فشأن العبد أن يدفعه إلى السؤال مناجاةُ ربِّه، هذا هو الهدف بحد ذاته. ثم إنه قد يناجيه بالثناء أو يناجيه بالسؤال أو يناجيه بالافتقار، المهم أن يناجيه.

كن فقيراً وأنت تتقلب في نعم الله، واطلب منه أن يُتِمَّ نعمته عليك، لا يحرمْك الله منها.

عليك أن تخترق - بفكرك ومشاعرك - عوارضَ القوة والسلطان والحكم والغنى والعافية وسائر النعم التي تتقلَّب فيها، إلى المنعم جل جلاله. لأنك غداً ستترك ذلك كله وسترحل إلى الله عز وجل خالياً إلا من ذُلِّكَ وافتقارك وفاقتك. إن استطعت أن

تكون كذلك فلسوف يجعل الله منك إنساناً ربانياً[(١)] .

● **والآن، كيف يدعو المسلم ربه إذا أعرض عن عبوديته لله ومن ثم عن اضطراره إليه؟**

إنَّ المسلم الذي لا يستشعر قلبه معنى العبودية لله عز وجل، ومن ثم فهو بعيد عن شعور اضطراره إلى الله عز وجل، في حال النعمة ينظر فيجد نفسه في بحبوحة من المال والصحة والقوة والعافية والطمأنينة، فيُخيَّل إليه أنه هو المالك لذلك كله، كما قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝﴾ [العلق: ٦- ٧]، أي: أن خُيِّل إليه أنه استغنى عن مولاه وخالقه، ولسان حاله وربما مقاله يقول مقالة قارون ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص: ٧٨].

هذا الإنسان لا يشعر أصلاً بالفقر إلى الله عز وجل والحاجة إليه، ومن ثم فليس ثمة ما يدعوه إلى أن يلتجئ إلى الله عز وجل بالتضرع والدعاء - وهذا هو حال أكثر الناس مع وجود التفاوت - قد يرفع يده ويدعو، ولكنَّ هذا لا يُسمَّى دعاءً، إنما هو صورة الدعاء. لأن الدعاء الحقيقيَّ ينبع من شعور عبودية الإنسان لربه وخالقه، وهذا الينبوع غير موجود، فهو إذن دعاء تقليدي، وهو أبعد ما يكون في مقياس الله عز وجل عن الدعاء الذي أَمَرَنا به بقوله: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥]. عن هذا الإنسان يقول تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ [فصلت: ٥١]، هذا الإنسان نراه يتقلَّب في حمأة المعاصي والآثام، فإذا أقبلنا عليه ننصحه بالرشد ونذكِّره بالله عز وجل وعقابه، رفع يده قائلاً: الله يهدينا ! إنه يدعو أمامنا بهذا الدعاء التقليدي، لكنَّ قلبه يردِّد في الوقت نفسه عكس هذا الدعاء تماماً، إذ هو يُشفِق في

(١) شرح رياض الصالحين باب الدعاء، إضافة إلى شرح الحكم العطائية من الدروس الصوتية الدرس (١٥٢).

الحقيقة على لهوه وعصيانه أن يُتخطَّف منه، ويودُّ لو أن السبيل إليه كان أعرض وأيسر.

هذا الإنسان جمع بين ظاهر الإثم وباطنه، لأنه في الظاهر يفعله، وفي الباطن هو مُصِرٌّ عليه، والإصرار على الذنب أكبر من الذنب نفسه، وهذا الإنسان إذا أراد الله به خيراً أرسل عليه من المصائب والمحن ما يجعله يصحو من سُكْره الذي يطوف برأسه، فإذا كانت بين جوانحه بقيَّةٌ من الفطرة الإيمانية فإنه يصحو إلى هويته عبداً مملوكاً لله عز وجل، ويعلم أنه كان مخدوعاً بمظاهر القوة والغنى والعافية والناس الذين من حوله. فلا هو يستطيع رفع الضيم عن نفسه، ولا أحد من الناس يملك ذلك، عندئذٍ تستيقظ مشاعر الفقر عنده، ويعلم أنه فقير إلى الله عز وجل في كل أحواله، وعندئذٍ يُطلِق الله لسانَه بالدعاء، ويقف وجهاً لوجه أمام قوله تعالى: ﴿۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [فاطر: ١٥]، وقد طأطأ رأسه وأيقن بفقره بعد طول إعراض، وعندئذٍ يدعو الله عز وجل الدعاء الحقيقي النابع من جذور العبودية لله عز وجل، لا الدعاء التقليدي الذي كان يدعوه، وعندئذٍ يعلم أنَّ هذه المصيبة هي في الظاهر مصيبة لكنها في الحقيقة نعمة من الله جرَّته إلى باب الله وعرَّفَتْه على هويته عبداً لله. وابن عطاء الله يقول: (من لم يُقْبِلْ على الله عز وجل بملاطفات الإحسان، قِيدَ إليه بسلاسل الامتحان)[١].

والشأن في الإنسان أنه لا يُساق إلى ساحة عبوديته لله عز وجل إلا بالعِصيّ، هذا هو شأن الإنسان، عدا الربانيين والمقربين، فإنهم دائماً مع الله عز وجل في السراء والضراء، عندئذٍ يتَّجه إلى الله عز وجل داعياً مناجياً، يعلن عن رضاه وفي الوقت نفسه يعلن عن ضعفه وعدم تحمُّله لهذا البلاء، يرفع يديه داعياً: اللهم أنا عبدك الضعيف ولا طاقة لي على التحمُّل، ولكنّي راضٍ بكل ما قضيتَه في حقي، فيا

---

(١) الحكمة (٦٣)

مَنْ عوَّدتّني العافية والعطاء، أعِذْ لي عافيتك ولا تقطع عني نعمك، واجعلني عبداً شكوراً، وأعوذ بك من الإعراض عنك بعد العطاء والرجوع إلى ما كنتُ عليه من الغفلة والبعد عنك.

هذا الكلام عندما يخرج من أعماق قلبه، وتفوح منه رائحةُ العبودية لله، عندئذٍ يشعر بصلة ما بينَه وبين الله، إنها صلة العبد بسيِّده ومولاه، وهذه هي الحكمة من المصائب، إنها عِصيٌّ تسوق العبد إلى ساحة عبوديته لله إذا ما شرد عنها.

والإنسان إذا ما ذاق لذة القرب من الله، هانت عليه المصائب والمحن، حتى تصبح لذَّة العبودية بمثابة المخدِّر الذي ينسيه وَقْعَها وألمها، إنها تبعث في كيان العبد نشوةً ما بعدها نشوة، إنها نشوة العبودية لله تعالى.

كم ينتشي الإنسان طرباً عندما يتعلَّق قلبُه بمحبوبٍ ويسمي نفسه عبداً لهذا المحبوب، يقول أحدهم:

يا قوم قلبي عند زهرائي ... يعرفها السامع والرائي
لا تدعُني إلا بيا عبدها ... فإنه أشرف أسمائي

تلك هي نشوة عبودية إنسانٍ لإنسانة مثله، فكيف هي نشوة عبودية العبد للربِّ؟!

إنَّ عبوديةَ الإنسان للإنسان ميسمُ ذلٍّ وسببُ هوان، أما عبودية العبد للرب فهي ميسمُ عزٍّ وسببُ فخار، وتلك هي العبودية الحقيقية التي تنشل الإنسان من شتى مظاهر العبودية الزائفة لغير الله، يقول أحدهم:

ومما زادني شرفاً وتيهاً ... وكدت بأخمصي أطأ الثريا
دخولي تحت قولك يا عبادي ... وأنْ صيَّرتَ أحمد لي نبياً

والإنسان في هذه الحياة الدنيا إنما يتقلَّب بين الشدة والرخاء، وبين المنع والعطاء، فإن هو صبر عند الشدة والمنع، وشكر عند الرخاء والعطاء، والتجأ

إلى الله، ثم التجأ إلى الله، وكان هذا هو ديدنه، عندئذٍ تنقدح عبوديته لله سبحانه وتعالى بين جوانحه. ثم إنَّ هذه العبودية تتحوّل إلى حبٍّ وتعظيمٍ لله سبحانه وتعالى، ومن خلال هذا الحب والتعظيم يذوب وَقْعُ المصيبة في كيانه، بل يذوب أيضاً وَقْعُ النِّعم في كيانه، أي تصبح نِعَمُ الله الدنيوية كلها لا قيمة لها أمام نعمة صلته وعلاقته بالله عز وجل.

أنت - يا أيها الإنسان - كالطفل، لا يملك من أمر نفسه شيئاً، يوقفه والده فيقف، ويَزُقُّ الطعام في فمه فيأكل، ويرعاه في كل حركة من حركاته، ومع أن عقل هذا الطفل فَجٌّ وإدراكه بسيط، نجده يتعلّق بأبيه أيّما تعلُّق، فهو يعلم أنَّ وجوده متوقّف على أبيه. إنْ لاح أمامه خطر فرَّ إليه، وإن احتاج إلى شيء اتجه إليه. هكذا في كل تقلُّباته.

وأنت - أيها الإنسان - إذا كنت تذكر حاجتك إلى الله عز وجل في كلا حالتي الرخاء والشدة، عند رقادك وعندما يتعذَّر عليك الرقاد، عند عافيتك ومرضك، عند غناك وفقرك، عند بسطك وقبضك، عند فرحك وحزنك، عند طعامك وشرابك، عند راحتك وتعبك، عند وقوفك أمام مرآتك، عند تقلبك في سائر شؤون حياتك، وأنَّ الله عز وجل لو تخلّى عنك لحظة لغابت عافيتك، ولغارت قوّتك، ولنضبت حيويتك. إذا كنت تعلم هذا كلَّه ألا تعشق الله ولا عِشْقَ الطفل لأبيه؟!

فما لنا - وعقولُنا ناضجة وتامة - لا نتعامل مع الله كتعامل هذا الطفل مع أبيه!

أتشدُّ هذا الطفلَ حاجتُه إلى أبيه، ولا تشدُّنا نحن حاجاتُنا وعبوديتُنا إلى الله عز وجل، ونحن نتقلَّب في كفّ نعمه، ونتحرك في قبضة سلطانه، ونخضع لعظيم قاهريته؟!

ومع ذلك، فإنَّ في الناس من لم تجرَّه حتى المصائب إلى ساحة عبوديته لله عز

وجل، فهو في حال النعمة والرخاء، سكرانٌ بها، محجوب بها عن المنعم، وفي حال الشدة والبلاء، متذمّر منها، محجوب عن الذي سلَّطها عليه وهو المنتقم. فمتى إذن يصحو إلى الله ويلجأ إليه؟!

هذا الإنسان الذي لم تجرّه لا النِّعم ولا النِّقم إلى ساحة عبوديته لله عز وجل، إذا رفع يده بالدعاء فهو دعاء نابع من رعونته لا من عبوديته، وكما يقول المثل العربي: (صاحب الحاجة أرعن لا يروم إلا قضاءها)، وبالتالي فهذا لا يسمى دعاء، لأن مشاعر التذلل والافتقار غير موجودة، وإنما هو طلب. وصاحبُه غير مَعْنِيٍّ بالرجوع إلى الله أبداً، ولكنه مَعْنِيٌّ بغرضه وحاجته الدنيوية كي تقضى، فهو إذا أخذ حاجته ولَّى ظهره لله وعاد إلى لهوه وعصيانه كما أخبرنا الله عز وجل: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾ [يونس: ١٢]، و (الـ) في (الإنسان) لبيان الشأن، وليس المعنى أن كل إنسان هكذا.

وإذا لم يتحقق له غرضه قال: دعوتُ فلم يُستَجَبْ لي، وولَّى ظهره أيضاً، وهذا هو اللؤم. الطلب ينبغي أن يكون من الإنسان لأخيه الإنسان، لأنَّ الطالب لا يشعر بالاضطرار والذِلَّة والافتقار، أما الدعاء فلا يكون إلا من العبد لخالقه، لأن التذلل لا يكون إلا لله عز وجل(١).

● **ما معنى حديث النبي ﷺ: (الدعاء هو العبادة)؟**

يقول الله عز وجل: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر: ٦]، وفيها إشارة إلى أن الدعاء هو العبادة.

---

(١) شرح رياض الصالحين الدرس (٤٤٩)، إضافة إلى شرح الحكم من الدروس الصوتية الدرس (١١٤-١٥١).

وقول الرسول ﷺ: (الدعاء هو العبادة)[١]، هذه الجملة فيها حَصْر، أي لا عبادةَ حقيقية إلا في الدعاء، ويقول ﷺ في حديث آخر: (الدعاء مُخُّ العبادة)[٢] أي لب العبادة.

فكيف تكون الصلاة والصوم وسائر العبادات دعاءً وهي بحسب الظاهر ليست دعاء؟

الجواب: الدعاء كما عرفنا، هو الإعلان عن حاجة الإنسان إلى الله عز وجل، والافتقار إليه، والتذلل على بابه، والانكسار على أعتابه. فهو يقول: يا ربِّ يا ربِّ، من منطلق الإحساس بفقره، ولو كان غنياً.

والعبادة أو الطاعة - كما أسلفنا - لا تكون طاعةً حقيقيةً إلا إذا كانت تحمل هذه المشاعر، لأنَّ جذورَ الطاعة الحقيقية هو توحيد العبد لله، هذا التوحيد يجعله يدين له وحدَه بالعبودية، ومن هذه العبودية تتفجَّر مشاعر الحب والخوف والتعظيم لله عز وجل.

إذن فطالما أنت في كل حالة من حالات الصلاة، من اعتدال وركوع وسجود وتشهُّد، تشعر أنك تتذلل لله عز وجل وتعبِّر عن فقرك إليه، وحاجتك وفاقتك بين يديه، فمعنى ذلك أنك تدعو الله. والإعلان عن الحاجة هو الذي يسمى دعاء، وتلك هي العبادة الموصولة بجذورها من العبودية لله عز وجل، والمقبولة عند الله.

إذن فمعنى الحديث: (الدعاء هو العبادة) أي: لا عبادة حقيقية في ميزان الله عز وجل إلا بالاصطباغ بشعور الحاجة والتذلل له سبحانه وتعالى، والذي هو الدعاء.

---

(١) رواه الترمذي (٣٢٤٧)، وقال: حديث حسن صحيح، وأبو داود (١٤٧٩)، وابن ماجه (٣٨٢٨)، والنسائي في السنن الكبرى (١١٤٠٠)، كلهم عن النعمان بن بشير.

(٢) رواه بهذا اللفظ الترمذي (٣٣٧١) من حديث أنس، وإسناده ضعيف.

أما العبادة الشكلية فحركات فارغة من هذه المشاعر، خالية من شعور الحاجة إلى الله والتذلل إليه، أي ليس فيها دعاء، وبالتالي فهي ليست عبادة حقيقية، لأنه يتحرك ويركع ويسجد ولكنه منصرف إلى أموره الدنيوية. تماماً كما يفعل من يمارس أعمالاً رياضية. وعن هذه الصلاة يقول المصطفى ﷺ: (إذا أحسن الرجل الصلاة، فأتمَّ ركوعَها وسجودها، قالت الصلاة: حفظك الله كما حفظتني، فترفع، وإذا أساء الصلاة فلم يتمَّ ركوعها وسجودها، قالت الصلاة: ضيَّعك الله كما ضيَّعتني، فتُلفُّ كما يُلَفُّ الثوب الخَلِقُ، فيُضرب بها وجهه)[١]، وقال ﷺ: (أسوأ الناس سرقةً الذي يسرق من صلاته)، قالوا: يا رسول الله، وكيف يسرق من صلاته؟ قال: (لا يتمُّ ركوعَها ولا سجودَها) أو قال: (لا يقيم صلبه في الركوع والسجود)[٢].

كذلك الصوم، فالصائم يُسمَّى متعبِّداً لأنه يمارس شيئاً خلاف غريزته وخلاف شهوته وهواه، لا لشيء إلا ابتغاء مرضاة الله عز وجل، فهو يشعر بالحاجة إلى الطعام والشراب ولكنه يمتنع، فهي حالةٌ من حالات الافتقار إلى الله عز وجل، ومعنى الافتقار هو أن يقول بلسان حاله: يا رب أنا في سبيل مرضاتك حبستُ نفسي عن رغباتها فارضَ عني.

وكذلك سائر العبادات، فلا نجد عبادة من العبادات التي شرعها الله عز وجل إلا ونجد سرَّها في الدعاء وإعلان الحاجة إلى الله عز وجل.

إذن فالدعاء فعلاً هو العبادة، وكل أنواع العبادة لو جرَّدْتَها من ظاهرة الافتقار

---

(١) أخرجه أبو داود الطيالسي في مسنده (٥٨٦) عن عبادة بن الصامت، وأخرجه الطبراني بلفظ قريب في الأوسط (٣١١٩) عن أنس بن مالك، والبيهقي في الشعب (٢٨٧١) عن عبادة بن الصامت.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٢١٣٦)، والحاكم في المستدرك (٨٦٧) بلفظ قريب، وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، كلاهما عن أبي قتادة.

إلى الله عز وجل لسقط منها معنى العبادة، سواء كانت صلاة أو صوماً أو حجاً أو أذكاراً أو قراءة قرآن أو دعاء، أي حتى الدعاء لو جرَّدْتَه من ظاهرة الافتقار إلى الله لأصبح اسمه طلباً.

وإذا عرفنا أنَّ سِرَّ العبادة كامِنٌ في أنَّ فيها دعاءً، أدركنا مدى ضرورة الدعاء بالنسبة للمسلم الصادق في إسلامه مع الله، فهو لا يكون صادقاً إلا إذا كان دائماً مِلحاحاً على باب الله، فدأبه أن يطرق باب مولاه وخالقه، سواء أعطاه الله سؤله أم لم يُعطِه، لأنه من خلال دعائه يعبِّر عن ضعفه واضطراره إلى الله عز وجل، فبمقدار ما يشعر المسلم بافتقاره إلى الله عز وجل بمقدار ما يمدُّ إليه يده بالدعاء.

وبغير هذه الحالة يكون المسلم كاذباً في إسلامه، فبمقدار ما يغيب عنه افتقارُه إلى الله بمقدار ما يغيب عنه معنى الدعاء.

إذن.. فمشاعر العبودية لله عز وجل حيثما وجدت، وُجد معها الخيرُ كله، من توحيدٍ لله عز وجل وإخلاصٍ له، ومن عباداتٍ حقيقية، ومعاملاتٍ شرعية، وأخلاقٍ ربانية، ورافقتْها سعادةُ الدنيا والآخرة كما قال ربنا جل جلاله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

وبالمقابل.. فمشاعر العبودية لله عز وجل حيثما نَضَبَتْ واختفت، وُجد باختفائها الشرُّ كله، من نفاقٍ، ورياءٍ، وعبادات شكليةٍ، ومعاملاتٍ غير شرعية، وأخلاقٍ شيطانية، وكان معها شقاء الدنيا والآخرة كما أخبرنا ربنا جل جلاله بقوله: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: ١٢٤][1].

---

(١) شرح رياض الصالحين لـ د. البوطي في مسجد الرفاعي باب الدعاء، ودروس العبادة والعبودية الدرس (٦).

● **شروط استجابة الله عز وجل للدعاء:**

يقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [البقرة: ١٨٦]. ولكن هنالك شروط لاستجابة الدعاء، بل هنالك شروط لتسمية الدعاء دعاء، وقد علمنا سابقاً الفرق بين الطلب والدعاء، وقد تكفَّل الله باستجابة الدعاء، ولم يتكفَّل باستجابة الطلب. هذه الشروط هي:

١ - حضور القلب مع اللسان مع قِسْطٍ كبير من الخشية:

أي أن تتمثَّل ذُلَّ عبوديتك لله عز وجل وعظيمَ ربوبية الله عز وجل، يقول تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥]، ويقول ابن عطاء الله رحمه الله: (ليكن طلبك لإظهار العبودية وقياماً بحقوق الربوبية)[١]، أي: ليكن قصدُك وأنت تبسط يدك إلى الله عز وجل بالدعاء، إظهارَ العبودية، أي إظهارَ كونك عبداً فقيراً لا غنىً لك عن سيدك ومولاك وإنْ أعطاك كل مطلب، والقيامَ بحقوق الربوبية من التذلل والخضوع.

إنَّ إظهار العبودية هو ذاته القيام بحقوق الربوبية، ليس بينهما من فرق، فمتى أظهرتَ عبوديتك لله عز وجل فقد قمتَ بحقِّ ربوبيته عليك. يقول الشاذلي رحمه الله: (لا يكن همُّك في دعائك الظفرَ بقضاء حاجتك فتكون محجوباً، وليكن همُّك مناجاةَ مولاك)[٢].

هذا يعني أنَّ الرجل الذي يحفظ دعاءً ما، وقد تمرَّن لسانُه عليه، بينما قلبه غافل معرض، فدعاؤه ليس دعاءً، وإنما هو صورة دعاء والذي هو (الطلب)، ولو صدر

---

(١) جزء من الحكمة (١٦٦)، ونصها الكامل: (لا يكن طلبك تسبباً إلى العطاء منه، فيقل فهمك عنه، وليكن طلبك لإظهار العبودية، وقياماً بحقوق الربوبية).

(٢) (شرح الحكم العطائية) لعبد المجيد الشرنوبي (ص١٢٠) شرح الحكمة (١٦٦).

ممن يتبوأ مركز الدعوة إلى الله عز وجل، لأنه يمارس حُرفةً لا عبوديةً لله عز وجل.

حتى بيننا - نحن البشر - نجد أنَّ الشاب إذا وقف أمام والده يطلب منه شيئاً، وشعر أبوه أنَّ ابنه يقول هذا الكلام وهو غافل، يطالبه بشيء ولكنَّ تفكيره منصرف إلى النافذة يبصر أمراً ما يشغله، فوالده لا يَعتبر هذا طلباً أبداً ولا يستجيب، لأن ابنه لم يطلب شيئاً بمعنى الحقيقة.. فكيف عندما ترفع يدك إلى مولاك وتقول: (اللهم، اللهم) وذهنك منصرف إلى شأنك ومشكلاتك الدنيوية المختلفة؟!

من أجل هذا الذي نقول، ألزم الله عز وجل ذاته باستجابة دعوة المظلوم، لأن الشأن في المظلوم عندما يدعو الله عز وجل في ساعة نزول الظلم به، أن يكون قلبه منكسراً ومشاعره كلها متجهةً إلى الله عز وجل. فكلامه دعاء وطلبه حقيقة. لذلك يقول ﷺ: (اتقوا دعوة المظلوم، فإنها تُحمل على الغمام، يقول الله: وعزتي وجلالي لأنصرنَّك ولو بعد حين)[1]، ويقول: (اتَّقِ دعوةَ المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب)[2]، فوضْعُ المظلوم جعل ضميره يستيقظ، وجعل وجداناته وعواطفه كلها تتجه إلى الله عز وجل بانكسار وضراعة.

فما الذي يجعل وضع الإنسان المسلم في دعائه وفي سائر تقلباته كوضع المظلوم؟

الجواب: الشيء الوحيد الذي يجعل وضْعَكَ كوضْع المظلوم، ومن ثَمَّ يستجيب الله لك كما يستجيب للمظلوم، هو أن تستيقن فقرك وأن تعلم أنك لا شيء، وأنه لا حول ولا قوة إلا بالله سبحانه وتعالى، فالعبرة بالشعور الداخلي. وكلما كان اعتمادك

---

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير (٣٧١٨) عن خزيمة بن ثابت، ورواه السيوطي في الجامع الصغير(٢٣٨).

(٢) أخرجه الشيخان، البخاري (٤٠٩٠)، ومسلم (١٩)، كلاهما عن ابن عباس عن معاذ، واللفظ لمسلم.

على الأسباب أكبر، كلما كنت أبعد عن الدعاء الحقيقي، وكان ما تمارسه هو صورة الدعاء أو (الطلب).

وكلما تعلَّقتْ آمالك بالله عز وجل وحدَه، مسبِّبِ الأسباب وخالقها، ولم تعد آمالك تمتدُّ إلى أحدٍ غير الله، كلما مارستَ حقيقة الدعاء، وهو دعاء المضطر الذي تكفَّل الله عز وجل باستجابته حين قال: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ . . .﴾ [النمل: ٦٢].

كن دائم الذكر لصفات الربوبية الكامنة في ذات الله سبحانه وتعالى، ولصفات العبودية الكامنة في شخصك، عندها تذوب مشاعر الغنى والعافية والقوة والعلم، وتعلم أنك معرَّض في كل لحظة لزوال هذه النعم، وبذلك تكون أكثر شعوراً بفقرك ولو كنت من أكبر الأثرياء.

والنتيجة أنك تكون مع الله دائماً، لا في حالة الدعاء فقط، وإنما في كل حالاتك وتقلباتك. فأنت عندما تدعو الله وهدفك هو ذات الدعاء، هدفك أن تبسط كفك إلى سماء الرحمة الإلهية وأن تناجيه بالذل والافتقار، عندئذٍ تكون حياتك كلها مصطبغة بهذا الوضع الربانيّ، وعندئذٍ تكون إنساناً ربانياً.

إنها عقيدة التوحيد التي علمنا إياها الله عز وجل بقوله: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩]، وعلمنا إياها رسول الله ﷺ بقوله: (احفظِ الله يحفظْك، احفظِ الله تجدْه تُجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أنَّ الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيءٍ قد كتبه الله لك. ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رُفِعَتِ الأقلام وجَفَّتِ الصحف)[١].

---

(١) رواه الترمذي (٢٥١٦) وقال: حديث حسن صحيح، ورواه أحمد (٢٦٦٤) كلاهما عن ابن عباس، واللفظ للترمذي.

إذن فعليَّ - وأنا عبدٌ لله وحده - ألا أسأل أحداً إلا الله عز وجل، وبذلك أحفظ ماء وجهي من أن أُريقه لغير الله، وبذلك أزداد اعتزازاً بالله سبحانه وتعالى.

ولكن هل يعني هذا ألا نطرق أبواب أصحاب الاختصاصات لأجل التعلُّم والاستفادة منهم؟

الجواب: لا، بل تطرق باب زيد وعَمرو، ولكنَّ الممنوع هو يقينك بأنَّ زيداً ينفعك أو عمراً يضرك، فهذا دليل بعدك عن الله. ومقياس ما نقول هو شعورك الداخلي وليس اللسان، بدليل أن النبي ﷺ كان يستعين بأصحاب الاختصاصات في أموره الخاصة والعامة، ولكنه ﷺ كان يعتقد اعتقاداً جازماً أنَّ هؤلاء لا يفيدونه شروى نقير، ولكنَّ الله عز وجل سخَّر الناس بعضهم لبعض. سخَّر الطبيب للمريض، وسخر المهندس للبناء، وهكذا.

فالمسلم يأخذ بالأسباب بجوارحه - واللسان أحد هذه الجوارح - أما قلبُه ويقينه وشعوره الداخلي فلا يعتمد إلا على الله النافع الضار الواحد القهار، ويعلم علم اليقين أنَّ أحداً من ذوي الاختصاصات لن ينفعه شيئاً إن لم يشأ الله نفعه.

وإذن فعليك أن تذهب إلى الطبيب، ولكن إياك أن تعتقد أن الطبيب يشفيك، وإنما الشافي هو الله.

إذن فما حكم التوسل بالصالحين؟

الجواب: إن القانون الذي ينطبق على ذوي الاختصاصات، هو ذاته ينطبق أيضاً على الصالحين. فالله عز وجل بعث محمداً ﷺ رحمة للعالمين، فإن قلتَ مخاطباً الله عز وجل: (اللهم إني أسألك بحبِّك لرسولك محمد ﷺ، وبجاهه عندك، وبرحمتك التي أرسلتها للعالمين، أن تغفر لي ذنبي) وأنت تعتقد أنَّ الذي يغفر الذنوب إنما هو الله عز وجل، فلا إشكال في ذلك إطلاقاً.

إنك في الحالين تعاملت مع الأسباب التي أقامها الله عز وجل في الكون، وهذا من حسن الأدب مع الله، فكما أنَّ الله عز وجل جعل الطبيبَ سبباً للشفاء، فكذلك جعل الرسولَ ﷺ سبباً لرحمة الله بعباده ومَظهراً لها، اليوم ويومَ القيامة، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء: ١٠٧]. وكما أنَّ التوسُّط بالطب للشفاء - وأنت تعلم أن الشافي هو الله - ليس شركاً، فكذلك التوسط أو التوسل برسول الله ﷺ لطلب المغفرة أو للشفاء - وأنت تعلم أنَّ الغفار وأنَّ الشافي إنما هو الله جل جلاله - ليس شركاً.

٢ - ألا يكون الداعي متلبساً بمعصية لم يتب منها: سواء كانت هذه المعصية متعلِّقةً بحق من حقوق الله أو متعلِّقةً بحقٍ من حقوق العباد، فهذا الإنسان لا يستجاب دعاؤه حتى يتوب إلى الله عز وجل توبةً نصوحاً، أي توبةً صادقة يعزم فيها على الاستقامة في مستقبل أيامه.

أما التوبة من المعصية التي بين العبد وربه فأمرها سهل، وأما التوبة من المعصية المتعلقة بحقٍ من حقوق العباد فلا تصحُّ إلا بأن يعيد الحقوق إلى أصحابها أو ينال مسامحتهم. وقد تكلمنا عن التوبة وشروطها سابقاً في حديثنا عن درجات محبة العبد لله عز وجل.

٣ - ألا يتغذى الإنسان من حرام: فإذا ترعرع جسده من مال حرام ضُرِبَ بينه وبين استجابة دعائه بحجاب، فهو يدعو الله عز وجل ولا يستجاب له إطلاقاً. فعن أبي هريرة رضي الله عنه: (أن رسول الله ﷺ ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمدُّ يديه إلى السماء: يا ربِّ يا ربِّ، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغُذِّي بالحرام فأنى يُستجاب لذلك)[1]. وسنتحدث لاحقاً عن ذلك تحت بند (فطم الفم عن المال الحرام).

---

(١) رواه مسلم (١٠١٥) عن أبي هريرة.

٤ - ألا يعجل ويقول: (دعوت الله فلم يَستجب لي): فقد ورد في الصحيح أنَّ رسول الله ﷺ قال: (يُستجاب لأحدكم ما لم يعجل فيقول: قد دعوت ربي فلم يَستجبْ لي)(١)، فهذا كلام يخالف الأدب مع الله عز وجل ويحجب الاستجابة. وينبغي إذا دعوتَ الله عز وجل أن تنتظر وأن تصبر، فقد قال ﷺ: (أفضل العبادة انتظار الفرج)(٢)، أي أنَّ انتظار الفرج كالوقوف في الصلاة، عبادةٌ تثاب عليها.

إنَّ شأنَ العبد ووظيفتَه أن يبسط يد افتقاره إلى مولاه الغني الكريم، ذلك هو شأنُه، أما الاستجابةُ فهي شأن ربِّ العالمين، وقد ضمِن الله عز وجل لك الاستجابة في الوقت الذي يريد، لا في الوقت الذي تريد.. لماذا؟

لأن الله عز وجل حكيم ورحيم، وحكمته ورحمته لا ينفكان عن بعضهما أبداً.

إنَّ الطبيب من البشر لا يُسئل عن توقيته للعملية الجراحية وعن تصرفاته مع المريض، اعتماداً على خبرته ودرايته، فكيف الله عز وجل خالق القُوى والقدر، العليم بما فيه مصلحة عباده، وهو القائل: ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

ينبغي للمسلم أن يكون صادقاً مع الله عز وجل، وينبغي عند التحديات أن يُؤثِرَ أمر الله على سائر المرغبات والمرهِّبات. فمهما لاحت له الرغائب، ومهما هدَّدتْه المخاطر والرهائب، كان أمر الله وشرعه عنده أعظم من كليهما. والله يستجيب له حتماً، ولكن ربما مرَّتْ به فترة عصيبة يمتحن الله بها صِدقَه وثباتَه، فإذا ثبت أعطاه الله ما يشاء ونصره وردَّ عنه كيد الكائدين.

---

(١) متفق عليه. البخاري (٥٩٨١)، ومسلم (٢٧٣٥) عن أبي هريرة، واللفظ لمسلم.

(٢) رواه الترمذي (٣٥٧١)، والطبراني في الكبير (ج١٠ / ص١٠٢ / رقم ١٠٠٨٨)، والأوسط (ج٦ / ص٧٩ رقم ٥١٦٥) كلها عن عبد الله.

كن - يا عبد الله - عبداً مطيعاً باراً بمولاك وخالقك ولا تكن عبد سوء، فالعبد المطيع هو ذاك الذي يصبر ويوطّن نفسه على الرضا عن الله عز وجل، وعندئذٍ يفتح الله له الأبواب من حيث لا يحتسب. أما عبد السوء فهو ذاك الذي إذا أُعطي تهلّل وجهه، وإذا حُرم ولو لفترة من الزمن، أظهر التمرُّد والشّقاق وعدم الرضا، وإذا سأل ربَّه وطالت فترة تحقُّق أمله قال: إلى متى أنتظر وَعْد الله؟! هذا قد يكون بين البشر، أما أن يكون بين العبد وربه الذي يملك عنقه، فهذا لا يكون أبداً. وما سبب هذه العجلة إلا ضعف الإيمان.

عبد السوء هذا عندما يقرأ قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧]، يكون كلُّ همّه أن يحيا هذه الحياة الطيبة في الدنيا فيجد الزوجة والسكن والأثاث، وينظر فيرى أنَّ هذا الطريق هو أقربُ الطرق للوصول إلى مبتغاهُ فيصلّي، ولكنَّ خيالَه وهو في الصلاة وراء المال والرزق، أما عبوديته لله عز وجل فلا تهمّه، والذي يهمُّه فقط هو أن يعلم أصحيحٌ أنه إذا التزم أمر الله عز وجل وسار أشواطاً في هذا الطريق تحققت أمانيه؟! هذا الإنسان لا يكاد يسير في هذا الطريق بضع خطوات إلا ويتلفَّت.. من أين سيأتي الرزق؟ من هنا أم من هناك؟ وكيف ومتى؟

هذا الإنسان أرعن، له حاجة، قيل له تأخذها ههنا، فتبع ذلك المكان، ولو قيل له: بل حاجتك هناك، لترك ههنا إلى هناك.. هذا الإنسان لن ينال بغيته، وعندما لا ينال بغيته يقول: إني جرَّبتُ فلم أجد أنَّ الوعد قد تحقق، أين ما تقولون؟! أين وعدُ الله؟!

كان عليه أن يعلم أن الله عز وجل لا يُجرَّب ولا يُخدع؛ فهو يرى ما تكنُّه النفوس وما تضمره السرائر، والرسول ﷺ يقول: (إن الله طيِّبٌ لا يقبل إلا طيِّباً)[1].

---

(١) رواه مسلم (١٠١٥) عن أبي هريرة.

وكان عليه - بدلاً أن يتَّهم ربَّه - أن يتَّهم نفسه بعدم الصدق في عبوديته لله عز وجل، بل هو عبد لدنياه، لذلك اتخذ من الدين وسيلةً للوصول إلى الدنيا التي يحلم بها، فالدين عنده مطيَّةٌ ذَلُولٌ - لا أكثر - يركبها للوصول إلى الدنيا.

وشتان بينه وبين من يجعل من الدنيا مطيَّةً ذلولاً للوصول إلى تحقيق الدين في حياته ومن ثم للوصول إلى مرضاة ربه.

إنها بوصلة (الوسيلة والغاية) التي عكسها رأساً على عقب، فوقع أرضاً من حيث توقَّع التحليق عالياً.

نقول له: مَحِّصْ عبوديتك لله عز وجل وأسقِطْ نفسك واتَّكِلْ على ربك، وقل بلسان الحال والمقال: يا رب أنا مِلكك كما تحب تحييني، وفي الوقت الذي تشاء تميتني، وسواء أحييتني حياة طيبة أو زججتني في الشقاء فأنا عبدك، ولا مفرَّ لي من أن أتجليب بجلباب العبودية لك، لا مفر لي منها إلى شرقٍ ولا إلى غرب، لأجل ذلك أسير على منهاجك. عندئذٍ يحقق الله عز وجل لك ما وعدك به، وهذا الذي وعدك به تفضُّلٌ منه سبحانه وليس حقاً لك، فكن عبداً شكوراً.

ثم إنَّ استجابة الله عز وجل للدعاء لا تعني الاستجابة الحرفية له، بل ربما استجاب الله دعاءك استجابةً دقيقةً بأن أعطاك الهدف الذي تصبو إليه في شيء آخر غير الأمر الذي طلبتَه، فهو عز وجل ضمن لك الإجابة فيما يختاره لك لا فيما تختاره أنت لنفسك.

قد يقول قائل: هذا ليس استجابةً لأنني طلبتُ شيئاً بعينه فلم يعطني إياه.

نقول: بل هذه هي الاستجابة. لأنك طلبتَ ما طلبت ظناً منك أنك ستجد فيه سعادتك، ولكنْ لو حقَّق الله لك ذلك لتفجَّر منه الشقاء، ولما حقَّق لك هدفاً، لكنَّ الله عز وجل العليم بك والرحيم بك، يعطيك ما هو أفضل لتحقيق هدفك.

ولله المثل الأعلى.. كالوالد الذي يأخذ بيد ابنه ويذهب به إلى السوق، فيجد الابن طعاماً يتلألأ أمام عينيه ويطلب من أبيه أن يشتريه له، ولكنَّ الأب يعلم أنَّ هذا الطعام لا يفيده، بل يضره، فيقول له: نعم سأشتري لك، ويشتري له شيئاً آخر يقوم مقام الأول، فيجمع له بين المتعة والفائدة، وهذه عين الاستجابة.

كم تهفو نفس الإنسان إلى أشياء فيدعو الله عز وجل أن تتحقق له، ولكنَّ الله عز وجل يحقق له شيئاً آخر بدل هذا الذي طلبه، وينظر بعد فترة من الزمن، وإذ به أمام هدفه الذي طلبه تماماً، فيعلم أنْ لوِ استجاب الله دعاءه لشقي من حيث تأمَّل السعادة.

إنَّ العبد لينـدلق إلى مهاوي الهلاك ظناً منه أنها السعادة، ولكن الباري عز وجل يأخذ بيده ويسيِّره إلى حيث يسعد وإلى حيث يتحقق أمله، بل ويحقِّق له من جنس الطلب ما هو أفضل بكثير، وقد يحقق له عينَ طلبه، وهذا هو معنى قوله تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـًٔا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـًٔا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦]. لذلك على العبد إذا دعا ألا يلحَّ على الشيء بحرفيَّته، ولكن ليقل: اللهمَّ إنْ كان فيه خير فحقِّقْه لي، وإلا فاصرفني عنه إلى ما هو خير، ثم رضني به. علماً بأن الله عز وجل قد يعطيه - في بعض الأحيان - ما يكون في الوهلة الأولى مُراً، لكنه يأتي فيما بعد بالحلاوة والسعادة التي يتأمَّلها ويطلبها.

فاليقين بأن الله عز وجل يستجيب دعاء عباده الذين أحبَّهم، أمرٌ يدخل في أسس الإيمان، ولو أنَّ الإنسان شكَّ في هذا لكفر وارتدَّ، لأنَّ الله عز وجل يقول: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾ [غافر: ٦٠]، والرسول ﷺ يقول: (ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة، واعلموا أن الله لا يستجيب دعاءً من قلبٍ غافلٍ لاهٍ)[1].

---

(١) رواه الترمذي (٣٤٧٩) عن أبي هريرة، وقال: حديث غريب، ورواه أحمد (٦٦١٧) عن عبد الله بن عمرو، واللفظ للترمذي.

فتلك هي شروط استجابة الله عز وجل للدعاء.

وعندما تتوفَّر هذه الشروط في شخص الداعي، فإنَّ الله عز وجل يستجيب دعاءه لخاصة نفسه، ولا يستجيب دعاءه لعامة المسلمين إذا لم تتوفَّر فيهم هذه الشروط، هذا ما أخبرنا عنه رسول الله ﷺ في حديثه عن علامات الساعة، فقال: (يأتي على الناس زمان يدعو الرجل للعامة، فيقول الله: ادعُ لخاصتك أستجبْ، وأما العامَّة فلا، فإني عليهم غضبان)[1]، فالرجل عندما يدعو لخاصة نفسه - أي لنفسه ولزوجته وأولاده - يستطيع أن يلزم نفسَه ويلزمهم بالتوبة وأكل المال الحلال والخشوع والخضوع في الدعاء، لأنهم قلة، وبالتالي فعندما يدعو الله لهم يُستجاب دعاؤه. ولكن عندما يدعو لعامة المسلمين، كأن يقول: اللهم انصر أُمَّةَ محمد ﷺ وفرِّجْ عنهم، ويكون عامَّة المسلمين منصرفين عن أوامر الله معرضين عنه، عاكفين على المعاصي وأكل الأموال المحرَّمة، فمهما دعا الله لهم فلن يُستجاب دعاؤه. قالت السيدة زينب زوجة رسول الله ﷺ: (يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون)؟ قال: (نعم إذا كثر الخبث)[2].[3].

٤ - مجالسة الصالحين

يقول رسول الله ﷺ: (إنما مَثَلُ الجليس الصالح وجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير، فحاملُ المسك إما أن يُحْذِيَكَ وإما أن تبتاع منه وإما أن تجد منه ريحاً طيبة، ونافخُ الكير إما أن يُحرِق ثيابك، وإما أن تجد منه ريحاً خبيثة)[4].

---

(١) رواه ابن المبارك في الزهد (١٠٨٦) عن أنس بن مالك مرفوعاً، ورواه الديلمي بلفظ قريب (٨٦٩٢).

(٢) متفق عليه، البخاري (٣٤٠٣)، ومسلم (٢٨٨٠) كلاهما عن زينب بنت جحش.

(٣) شرح الحكم العطائية من الدروس الصوتية الدرس (٨ - ٩) والدرس (٣٧).

(٤) متفق عليه، البخاري (٥٢١٤)، ومسلم (٢٦٢٨) كلاهما عن أبي موسى

لقد شبَّه رسول الله ﷺ الجليس الصالح ببائع المسك، فإنك إن دنوت منه فلا يمكن إلا أن تعود بفائدة من إحدى هذه الثلاث:

١ - (إما أن يُحْذِيَكَ) أي أن يعطيك شيئاً من الطيب الذي يتعامل معه، وهذا يشبه من الجليس الصالح أن تسمع منه نُصحاً دون توقُّعٍ منك، فهذا في عطائه كعطاء بائع الطيب لك طيباً.

٢ - (وإما أن تَبْتَاعَ منه) أي أن تشتري منه، وهذا يشبه من الجليس الصالح أن تسأله وتستنصحه فينصحك.

٣ - (وإما أن تجد منه ريحاً طيبة) أي إن لم ينصحك ولم تستنصحه، فاعلم أن أقلَّ الفوائد التي تعود بها من مجالسته أنَّ مَرآه يُدخِل في قلبك إشراقةَ نورٍ من سيما صلاحه، حتى ولو لم ينطق بكلمة وبقي في مجلسه صامتاً، فنظرك إليه، ووصول أشعة إلى عينيك من عينيه يسري بنور رباني إلى فؤادك.

وهذا تشبيه مطابق، سوى أن المثال يتعامل مع شيء مادي وهو الطِّيب، وأما الممثَّل له فيتعامل مع الفائدة المعنوية، وهي فائدة القرب من الله عز وجل.

كما شبَّه رسول الله ﷺ جليسَ السوء بنافخ الكير، أي الحدَّاد الذي دأبه أن ينفخ في الزقِّ من أجل أن يشعل النيران لإنجاز عمله. دنوُّك منه لا بد أن يُعقِب أحدَ الضررين:

١ - (إما أن يُحرق ثيابك) وذلك بشرر من ناره التي يشعلها، وهذا يقابله من جليس السوء أن يحرق ثوب إيمانك فيصيبك بسوء في عقيدتك أو في سلوكك.

٢ - (وإما أن تجد منه ريحاً منتنة) أي إن لم يحرق ثوب إيمانك فلا بد من أن يُزْخِمَ قلبك بنتن معصيته[(١)].

(١) شرح رياض الصالحين الدرس (٤٢٦).

● فمن هو القرين الصالح ومن هو قرين السوء؟

القرين الصالح: هو إنسان تحققت له صفتان اثنتان:

١ - صفة خفية تتمثل في حاله: وهي تأتي من طهارةِ قلبه من التعلق بما عدا الله عز وجل، وطهارةِ نفسه من الأدران المتمثِّلة بباطن الإثم، كالحقد والضغينة والكبر والعجب والعصبية والاعتداد بالذات وبالجماعة، حتى تحوَّلت من النفس الأمارة بالسوء إلى النفس المطمئنة. فإذا عالج الإنسانُ قلبَه حتى أصبح وعاءً لحب الله عز وجل فقط، وعالج نفسَه حتى طَهُرَتْ من الشوائب والأدران، فهذا يتمتع بحالٍ قاهرة. إذ بمجرد النظر إليه ووقوع عينيك على عينيه، يجعل حالَه هذه تسري بالعدوى إليك. فتشعر بأنس القرب منه وبرقَّة مجالسته، وتشعر بأنَّ خشيةً سرت إلى قلبك، وأنَّ روحانيةً تجلَّتْ على فؤادك وبين جوانحك، وبأنَّ حالاً من الندم على انحرافاتك هيمنت على كيانك، دون أن تسمع منه كلمة، فقط من نظراته إليك.

ذلك لأن من أخفى سريرةً ألبسه الله رداءها - هي قاعدة لا تشذّ - فالباطن دائماً تظهر صِبغتُه على الظاهر، فمن كان قلبه مع الله، وكان دائم الذكر لله، وكانت صلته بربه وخالقه دائماً عامرة، فإنَّ هذه الحال يصطبغ بها مظهره ووجهه، فتراه يتلألأ نوراً رغم سُمْرته. . إنه نور يشعر به الفؤاد، وتستأنس به الروح، ويطمئن إليه القلب.

إن نظرات الإنسان -أياً كان - أشبه ما تكون بنبعٍ تتجمَّع فيه كلُّ مشاعر النفس لتخرجَ من حدقتي العينين، لذلك يقولون: العين تكشف ما في طوايا النفس. فإذا كان قلب الإنسان عامراً بذكر الله عز وجل وبمحبته وتعظيمه والخشية منه، فإنَّ هذه المشاعر سوف تتجلَّى في كيانه كالأشعة لتخرجَ من حدقتي عينيه، ولتسريَ بالعدوى إلى الإنسان المقابل. هذا إلى جانب السَّمت الذي يضفيه الله عز وجل على ظاهره. وهذه الحال تحتاج إلى جهادٍ طويل من ذكرٍ لله عز وجل ومراقبةٍ له.

وكم سمعنا عن أناسٍ ضالين منحرفين جلسوا جِلسةً واحدة إلى أحد الصالحين، فكانت هذه الجِلسةُ الفيصلَ الفارق بين عهد الضلال السابق وبين ولادةٍ لهدايةٍ في السير إلى الله عز وجل.

كان الشيخ محمد الحامد - من أهل حماة - في شبابه نزّاعاً إلى بعض البدع، فسمع عن رجل من الصالحين وَفَدَ إلى حماة اسمه الشيخ أبو النصر خلف، وكان شيخاً مشهوراً بالصلاح، ولعله من أهل الولاية. فقرر زيارتَه، فدخل إلى بيته ونظر إليه. هذا المشهد الصامت الهادئ إلى وجهه ونظراتِ عينيه كان السببَ في أن تلين نفس الشيخ محمد الحامد.

ثم إن الشيخ أبو النصر طلب من بعض تلامذته أن ينشدوا أبياتاً هي:

كان لي ظِلُّ رسومٍ ... فاستوتْ شمسي فزال
عشتُ بالمحبوب حقاً ... بعدما كنتُ خيال

فصُعق الشيخ محمد الحامد وارتمى على الأرض وغاب عن وعيه، ولما عاد إليه وعيه أكبَّ على يديه وركبتيه يقبّلهما، وكانت توبته[1]. لذلك قالوا: (عاشِرْ من يُنهِضُك حالُه، ويدلُّك على الله مقالُه).

٢ - وصِفةٌ ظاهرة تتمثل في مقاله: فهو إنسان دأبُه أن يكون من الناصحين ومن الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر والمذكِّرين بالله عز وجل، وإذا رأى إنساناً على حالةٍ لا ترضي الله عز وجل ذكَّره وحذَّره ولم يجامِلْه إطلاقاً.

إنَّ الذي يفيدك هو الذي يبكيك، هو الذي إذا خلا بك ذكَّرك بانحرافاتك وعثراتك وحذَّرك منها، وحبَّب إليك الإيمان وكرَّه إليك المعاصي، فالمحبُّ ينصح، وللنصيحة آداب أهمها: أن تكون سراً، ثم لا يُفشي بها إلى أحدٍ بعد ذلك، كأن

---

(١) شرح الحكم العطائية الدرس (٦٣) من الدروس الصوتية.

يقول: لقد نصحتُ فلاناً وقلتُ له كذا وكذا، فإنه إن فعل ذلك يكون قد فضحه ولم ينصحه.

وأما قرين السوء: فهو ذاك الذي انطوى عقلُه على الكفر بالله عز وجل، أو كانت عقيدتُه سليمةً ولكنّه عاكفٌ على المعاصي، مستغرق في الملهيات. فهذا الواقع يتبدّى على ظاهره، لكن لا تراه العين، بل تشعر به النفس، فإذا جلستَ إليه سَرَتْ من ظاهره أشعةٌ تدخل في طوايا نفسك وتهيّج فيها أسبابَ الانحراف. ومن ثَمَّ فأنت تتأثر بدون أن تشعر وبدون أن تعلم. لذلك قالوا: مجالسة الفسقة تقسي القلب.

مصيبة المجتمع الإسلامي اليوم أنه مجتمع ملوّث، فأفرادُه قلوبُهم مريضة ونفوسهم أمّارة بالسوء، وهي أمراض مُعدِية. فعندما يفرح المسلم بتوبته وهدايته، يجد مَنْ يشدّه إلى الوراء من كل الجهات.. يجد من يجامله ولا ينصحه، فإذا به ينتفخ كبراً وعجباً فيهلك.

يقول ابن عطاء الله رحمه الله: (لا تصحبْ من لا يُنهِضك حالُه، ولا يدلُّك على الله مقالُه)[1]، وهذا المعنى مأخوذ من كتاب الله عز وجل القائل: ﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَلَا تَقۡعُدۡ بَعۡدَ ٱلذِّكۡرَىٰ مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨].

فالله عز وجل ينهى المسلم أن يجالس الظالمين والتائهين وقساةَ القلوب، فإذا نسيتَ ثم تذكَّرتَ فإياك أن تعود مرة أخرى فتجالس الظالمين. والسبب هو أنَّ قسوةَ قلوبهم ستسري إلى قلبك، وظلامَ نفوسهم سيسري إلى نفسك. هذا لا شك فيه ولا ريب.

هذا بالنسبة للمجتمعات الإسلامية، فكيف الحال بمن يقيمون السنوات الطوال في مجتمعات غير إسلامية؟!

---

(١) الحكمة (٤٣)

فالمسلم الذي يذهب إلى بلاد الغرب حيث الكفرُ والمعاصي جهاراً نهاراً، نجده في الأسبوع الأول من وجوده هناك يمارس عقلانيتَه وحالَه الإيماني، لذلك فهو يشمئز من المعاصي وينكرها. ولكنه فيما بعد ينساها وينسى مقياسَه الإيمانيَّ ويبرِّر لهم بقوله: إنها عادات وأعراف مرتبطة بمصالح !

وإذا وصل الإنسان إلى مرحلة تسويغ ما حرَّمه الله سبحانه وتعالى فإنه سيقع في مرحلة الشك الإيماني.. لماذا؟

لأن الرسول ﷺ يقول: (من رأى منكم منكراً فلْيُغَيِّرْه بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان)[1]، فأضعف الإيمان هو إنكار المنكر بالقلب. أما إذا رضي القلب بهذا المنكر فإنَّ اللسان يسارع إلى تبريره، وبذلك يهبط صاحبُه إلى درجةٍ هي أدنى من أضعف الإيمان.. إنها مرحلة الشك الإيماني[2].

ثم نقول إضافة إلى الذي قلناه:

إنَّ صحبة الإنسان لمن هم أسوأ حالاً منه يجعله يرى نفسه خيراً منهم جميعاً، فالمسألة نسبيَّة. وإذا ركن إلى هذا الوضع فإنه على خطر عظيم.. لماذا؟

أولاً: لأنه يرى نفسه خيراً منهم فيقع في العجب.

ثانياً: لأنه لا يجد فرصةً ليتبصَّر بعيوبه ويتنبَّه إلى نقائصه، ومن ثَمَّ يبقى في قاع تقصيره في جنب الله. بل لا بد أن يتراجع أيضاً لصحبته لمن هم أسوأ حالاً منه، فما العلاج؟

العلاج: هو ما علَّمنا إياه رسول الله ﷺ من أن نصاحب في أمور الدين مَنْ هم

---

(١) رواه مسلم (٤٩) من حديث أبي بكر.

(٢) شرح الحكم العطائية الدرس (٦٣ - ٦٤) من الدروس الصوتية.

أعلى منا، وفي أمور الدنيا مَنْ هم أدنى منا، لأنَّ مصاحبةَ مَنْ هم أعلى منا شأناً في أمور الدين يشدُّنا إلى أن نرتقيَ إلى مستواهم، فنلحظ من خلالهم عيوبنا وتقصيرنا، وهذا يشدُّنا لبذل الجهد في سبيل اللحاق بهم. وأما مصاحبة مَنْ هم أدنى منا في أمور الدنيا فهذا أدعى لأن نتذكَّر نعمة الله علينا فنشكره على ما قد غمرنا به من فضله وإحسانه.. وفي ذلك يقول ﷺ: (خصلتان مَنْ كانتا فيه كتبه الله شاكراً صابراً، ومَنْ لم تكونا فيه لم يكتُبْه الله شاكراً ولا صابراً. مَنْ نظر في دينه إلى مَنْ هو فوقه فاقتدى به، ومن نظر في دنياه إلى مَنْ هو دونه فحمد اللهَ على ما فضَّله به عليه كتبه الله شاكراً صابراً، ومن نظر في دينه إلى مَنْ هو دونه، ونظر في دنياه إلى مَنْ هو فوقه فأسِفَ على ما فاته منه لم يكتبْه الله شاكراً ولا صابراً)[1]، ويقول: (انظروا إلى مَنْ أسفل منكم ولا تنظروا إلى مَنْ هو فوقكم، فهو أجدر أن لا تزدروا نعمة الله)[2] [3].

● **فإن قال قائل: إنني أدعو إلى الله عز وجل من خلال مصاحبتي لهؤلاء** الشاردين، وذلك بأن أجعل نفسي صديقاً لهم، فأسكُنَ معهم وأمازحهم كما يمزحون حتى يستأنسوا بي، فإذا استأنسوا بي فإنني شيئاً فشيئاً أُدخِل النُصحَ في قلوبهم من حيث لا يشعرون.

نقول له: هذا البرنامج غير مشروع، وهو برنامج شيطاني. فنتيجة هذا البرنامج أنك تسكن وتركن إليهم، وشيئاً فشيئاً أنت الذي تنجرف إليهم بدلاً من أن تجذبهم إليك. وأكثر الذين ضلُّوا إنما ضلُّوا بهذه الطريقة. ولو أنك دخلتَ على هؤلاء الشاردين ساعةً مستنكراً ومعلِّماً ومذكِّراً بالله، ثم خرجتَ من عندهم، فلا ضير، وهو عمل جيد ولا يوقعك في الخطر الذي حذَّر منه اللهُ عز وجل ورسولُه ﷺ.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٥١٢) عن عبد الله بن عمرو، وقال: حديث حسن غريب.

(٢) رواه مسلم (٢٩٦٣) عن أبي هريرة.

(٣) شرح الحكم العطائية الدرس ٦٥.

فالمسألة لها ضوابط وقيود:

فإن كنت تريد أن تجعل العلاقةَ بينك وبينهم علاقةَ صحبةٍ وصداقةٍ ومجالساتٍ فإياك ثم إياك، والقاعدة تقول: (درء المفاسد أولى من جلب المصالح)[1]، إِحْمِ نفسَك أولاً وقبل كل شيء.

أما إن كنت تريد أن تُطِلَّ عليهم إطلالةَ المرشد الناصح المعلِّم - حتى وهم في ساعات لهوهم وفسقهم - فتدعوهم آمراً ناهياً مذكِّراً ناصحاً، ثم تنسحب بلطف، فياحبَّذا. وهذا ما علَّمنا إياه رسول الله ﷺ، وهذا هو أعلى أنواع الجهاد الذي سلكه الربانيون من بعده.

فَرْقٌ بين أن تدعوهم إلى الله عز وجل وتؤدي وظيفتك وتمضي، وبين أن تتخذَهم أصحاباً لك وأصدقاء، فهذا شيء وذاك شيء آخر.

ولو أنَّ أعلى مستوىً من الصالحين والمقرَّبين رَكَنَ إلى الفسقة وجالسهم وصاحبهم وقام وقعد معهم، فلا بد أن يتأثر بواقعهم وينحرف معهم. وكم سمعنا عن مشايخ كان الواحد منهم في بداية أمره على درجةٍ من التقوى والزهد في الدنيا، ولكنه لمَّا ركن إلى مريديه وخالطهم وقام وقعد معهم، استلَّ هذا شيئاً من شحنته الإيمانية، واستلَّ الآخر شيئاً منها، وشيئاً فشيئاً بدلاً من أن يرتقيَ بهم، هبطوا هم به إلى قاع حظوظهم الدنيوية، وأصبح لشدَّة تعلُّقه بهم وتعلُّقهم به يرعى لهم هذه الحظوظ ويبرِّرها ويغطِّيها بغطاءٍ ديني، ويجاملهم ويغضُّ الطرف عن الأحكام الشرعية القطعية التي تحرِّم هذه الحظوظ، خشية أن ينفروا منه ويتفرقوا عنه، فوقع ووقعوا في منحدرٍ

---

(١) الأشباه والنظائر للسبكي (١/ ١٠٥)، ويقول: ذلك لأن اعتناء الشارع بالمنهيات أشد من اعتنائه بالمأمورات، ولذلك قال ﷺ: (فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه) متفق عليه، البخاري (٦٨٥٨)، ومسلم (١٣٣٧) عن أبي هريرة، واللفظ لمسلم.

خطيرٍ من منحدرات البعد عن الشريعة الغراء، والتي لا يصل الواصلون إلى الله عز وجل إلا بها.

ولو أنه أطلَّ عليهم بين الفترة والفترة معلِّماً ومربِّياً، ثم يتركهم ويتركونه، ليجاهد هو نفسَه، وليجاهدوا هم أنفسَهم في طاعة الله، لكان خيراً له ولهم، فمن قال قد فرغتُ من جهاد نفسي فقد جهل وضَلَّ وأضلَّ، فإنَّ جهاد النفس لا آخر له إلا الموت.

ولو أنه علم - عِلْم اليقين - أنه يوماً ما سيتركهم ويتركونه إلى حيث الوقوف بين يدي جبار السماوات والأرض، وأنهم لن يُغنوا عنه يوم القيامة من الله شيئاً، إذن لما علَّق قلبَه إلا بالله الواحد القهار، ولما سمح لهم بالتعلُّق بشخصه الفاني، ولدلَّهم مباشرةً على المَعين الذي لا ينضب، ألا وهو مَعين عبوديتهم لله عز وجل، بدلاً من أن يكونوا عبيداً لسواه، ولأذكى في قلوبهم نارَ الحب لله عز وجل والخوف منه والتعظيم له سبحانه بدلاً من أن تتشتَّت قلوبهم بحب الأغيار. فإنَّ هذا القلب ما خلقه الله إلا ليتغلَّب فيه حبُّ الله على حبِّ الأغيار، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٥ - ١٦٧].

إنَّ ناصيةَ الإنسان وجبينَه ما خلقهما الله إلا ليُعَفَّرا بالانكسار على بابه والتذلل على أعتابه، ففي تذلُّله على باب الله عِزُّه، وفي الافتقار إليه غناه(١).

---

(١) شرح الحكم العطائية الدرس (٦٥).

إن الفقير لا يغني فقيراً، إنما الذي يغني الفقراء جميعاً هو الله الغني الحميد ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [فاطر: ١٥].

عندما يوقن المسلمون بهذه الحقيقة فلن يتنافسوا على أبوابٍ ضيّقةٍ لا تُسمن ولا تغني من جوع، وإنما سيتنافسون على بابٍ واسع يسعهم جميعاً، ولو وقفوا على صعيد واحد فسألوه لأعطاهم، لأنهم عبيدُه وهو مولاهم، أرحم بهم من آبائهم وأمهاتهم. هذا ما دلَّنا عليه رسول الله ﷺ بقوله: (لَلّه أرحم بعباده من هذه بولدها)[1].

وأنا[2] إن نسيتُ فأبداً لا أنسى يوماً التجأت فيه إلى الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي رحمه الله، وكنتُ في العشرينات من عمري، وكان إعجابي - ولا يزال - عظيماً بعلمه وإخلاصه وعبوديته الواجفة لله عز وجل، فأقبلتُ بوجهي عليه وقلت له: هلّا جعلت للنساء دروساً خاصةً بهنّ، ولو مرةً في الأسبوع، فإنَّ علمك أنار عقولَنا وقلوبَنا وأدخل حبَّ الله وحبَّ هذا الدين في طوايا أفئدتنا؟

فماذا كان ردُّ الفعل عنده؟

أشاح بوجهه عني وقال كلمتين لم يزد عليهما: لا داعي لذلك.

وقتَها أحسستُ أنه صَفَعَني في أعماق قلبي صفعةً مريرةً مؤلمةً، ولكنني بعد أشهرٍ قليلة علمت أنها صفعةٌ مُجدية، فَطَمَني من خلالها عن التعلُّق بشخصه منذ أوَّل طريقي في السير إلى الله عز وجل، وعلَّمني من خلالها أنَّ شخصه شيء، وإعجابي بعلمه شيء آخر، فلا خَلْطَ بينهما أبداً.

عانيتُ آلامَ الفطام ومرارتَه أشهراً قليلة، لكنّي بعد ذلك تلذَّذتُ وسُعِدتُ

---

(١) متفق عليه، البخاري (٥٦٥٣)، ومسلم (٢٧٥٤)، كلاهما عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٢) كاتبة هذه الرسالة.

بالالتجاء إلى جناب الله، والافتقار إلى غناه، والتذلل على بابه، والانكسار على أعتابه، فتابعتُ دروسه. ثم لما اشتدّ عودي دون تعلُّقٍ بشخصه الكريم، رفعتُ يدَ الضراعة والدعاء إلى الله عز وجل، أنْ يا ربِّ إنَّ عبدك محمد سعيد رمضان البوطي قد نصحني ودلَّني عليك، ولم يحجبْني بشخصه عنك، فاجزه عني خير ما جازيتَ عالماً عن أُمَّته.

لقد كنتُ - قبل ذلك - أتوهَّم أن بيني وبين باب الله عوائقَ كثيرة، وأنه لا يمكنني أن أصل إلى الله إلا من خلال ذلك العالم الجليل، فعلَّمني أنه عبد ضعيف فلْأتجاوز لأقف بين يدي القوي، وأنه عبد فقير فلْأتجاوزه إلى باب الغني المغني، وأنه عبد ذليل على باب مولاه وخالقه فلْأتجاوزه إلى باب العزيز المعِزّ.

وفعلاً فعلتُ ذلك، وبدأت بالأسحار ألتجئ إلى الله الواحد القهار، وأُكثر من الالتجاء والتضرع والبكاء على بابه، والانكسار على أعتابه، فأبدل ضعفي قوة، وفقري غنىً، وذُلِّي عزاً. ورحم الله ابن عطاء الله حين قال: (تحقَّقْ بأوصافك يُمدُّك بأوصافه، تحقَّقْ بذُلِّك يُمدُّك بعزِّه، تحقَّقْ بعجزك يُمدُّك بقدرته، تحقَّقْ بضعفك يُمدُّك بحوله وقوته)[1]، ويقول: (إذا أردتَ ورود المواهب عليك، صحِّحِ الفقر والفاقة لديك ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ﴾)[2].

ولو أنه - رحمه الله وجزاه عني كل خير - تركني ألتجئ إليه عند كل نائبة وشدة، ولم يدلَّني على الينبوع الأقدس، إذن لكنت كنباتٍ طفيليٍ، لا يقوى على الوقوف وحده، بل لا بد أن يتطفَّل على نباتٍ آخر قائمٍ بذاته.. وعندئذٍ ما أكثر ما أطرق باب الفقراء، وما أكثر ما أرجع منهم بخيبة أمل، وما أكثر ما أصاب بمشكلات نفسية،

---

(١) الحكمة (١٧٨) من حكم ابن عطاء الله السكندري.

(٢) الحكمة (١٧٧) من حكم ابن عطاء الله السكندري.

لأنني أتوقع منهم العطاء، بينما هم فقراء، لا يملكون لأنفسهم - فضلاً عن أن يملكوا لي - نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً.

ولكنه- رحمه الله- نشلني من مدِّ يد الافتقار على أبواب الفقراء- والناس كلهم فقراء وأبوابهم ضيقة، وفوق ذلك هي موصدة مغلقة- لأستبدل بها باباً واحداً لا ثاني له، ألا وهو باب الكريمِ الحنّانِ المنّانِ الواسعِ العطاء، والذي لا يرجع العبد منه إلا بالسعادة والطمأنينة والراحة النفسية ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الذاريات: ٥٠]، ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل: ٦٢]، إضافة إلى سعادة الآخرة.

وفي هذا الصدد يقول ابن عطاء الله رحمه الله: (ما صحبك إلا مَنْ صحبك وهو بعيبك عليم، وليس ذلك إلا مولاك الكريم، خير من تصحب من يطلبك لا لشيء يعود منك إليه)[1]، أي ليس الصاحب الحقيقي إلا من صحبك وأقبل عليك بإحسانه العميم مع علمه بعيوبك الكثيرة وإساآتك المتكررة، ومع ذلك فهو لا يقيم لعيوبك أيَّ وزن، ولا تتأثَّر صحبتُه لك بتقصيرك في رعاية أوامره. هذا الصاحب الذي يصحبك على هذا الأساس هو الجدير بأن تعتزَّ بصحبته وتستمر في معيته وتكون دائماً معه. فمن هو هذا الذي يصاحبك على هذا الأساس؟ لن تجد صاحباً لك على هذا المنوال في العالم الذي أنت فيه من الأناسيّ أبداً، وإنما هو واحد لا ثاني له ألا وهو الله سبحانه وتعالى.

تسيء وتقصِّر في أداء حقوقه، ومع ذلك يبقى وفياً لك، ويبقى أميناً على صحبته لك، فقط بشرطٍ واحد: هو أن تعرفه أولاً، وأن تتَّخذه لك صاحباً ثانياً.

---

(١) الحكمة (١٣٥).

خير من تصاحب في حياتك هو ذاك الذي يطلبك ويهتمّ بشأنك ويمدّ أواصر الصحبة إليك دون أن يطمع منك بشيءٍ أو بفائدةٍ تعود منك إليه، بل يصحبك للفائدة التي تعود منه إليك. هذا هو الذي ينبغي أن تلازم صحبته، إنه الله وليُّك، وهو معنى قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البقرة: ٢٥٧]، فولاية الله عز وجل لك أعلى درجات الصحبة لك، بشرط بأن:

- تعرفه أولاً: بأن تعرف أنه سبحانه وتعالى واجبُ الوجود، وأنَّ الوجود كله نابع من إبداعه وخلقه سبحانه منفردٌ به، وأنّه متَّصف بكل صفات الكمال ومنزَّه عن جميع صفات النقصان، وعليه فكل ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك. وسبيل الوصول إلى هذه المعرفة إنما هو العلم لا التقليد.

وفي ذلك يقول علماء التوحيد، ومنهم الإمام الباجوري في كتابه (جوهرة التوحيد): «فكل مكلَّف يجب عليه أن يعرف ما يجب لله عز وجل وما يجوز وما يستحيل»[(١)] . . ويقول:

فكل مَنْ قلَّد بالتوحيد ... إيمانه لم يخلُ من ترديد

أي كل من قلّد في علم العقائد من غير أن يعرف الدليل فإنّ إيمانه لم يخلُ من التردُّد والتحيرُّ، ويعتبر عاصياً بترك النظر إن كان فيه أهلية للنظر، وإلا فلا عصيان[(٢)] .

لقد أمدَّتْ دروس العقيدة للشهيد البوطي رحمه الله - من خلال شرحه لكتاب كبرى اليقينيات الكونية - عقلي بالغذاء المتكامل والتصوّر الصحيح عن الكون والإنسان والحياة، وأجابت عن كل الأسئلة التي كانت تجول في خاطري، بأجوبةٍ

---

(١) جوهرة التوحيد ص٤٣ .

(٢) جوهرة التوحيد ص٥٤- ٥٥ .

علميةٍ دقيقةٍ وشافيةٍ قائمةٍ على الأدلة القطعية، ونقلتني من إيمانٍ تقليديٍ لابدّ - كما يقول الباجوري - وأن يصحبه التردُّد والتحيرُ، إلى إيمانٍ يقيني قائم على الدليل والبرهان، وبذلك بدَّدتْ كلَّ حيرةٍ ورسَّختْ قدمي في بناء العقيدة الصحيحة.

قبل دراستي للعقيدة - أي قبل خمسةٍ وثلاثين عاماً - كنتُ كثيرة الالتجاء إلى الله عز وجل، أسأله بتضرّع وانكسار أن يزيل كلَّ حيرة في نفسي، وأن يعرّفني عليه، وأن لا يحرمني منه طرفة عين. ولقد عبرَّتُ عن ذلك صراحةً في جلسةٍ خلوتُ فيها مع إحدى الداعيات، ليس معنا فيها ثالث إلا الله عز وجل، قلتُ لها: «إنني أجد في نفسي ما لا أستطيع أن أتكلم به لأحدٍ من الناس، حتى لك»! فقالت لي: أكثري من التسبيح، ثم إنها ما لبثت أن اتهمتني في عقيدتي وأشاعت بين مريداتها أنني ما توجَّهتُ إلى دراسة العقيدة إلا لأجل شكٍ يطوف في رأسي، أما هي ومريداتها ففي غنىً عن دراستها!

لم يمنعني كلامها هذا من متابعة دروس العقيدة - حضوراً وكتابةً - فتابعتُها ووقفتُ من خلالها على حديثين صحيحين:

الأول: روى مسلم عن أبي هريرة ﷺ أنه قال: جاء ناس من أصحاب النبي ﷺ فسألوه فقالوا: إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلّم به، قال: «وقد وجدتموه»؟ قالوا: نعم، قال: «ذاك صريح الإيمان»[١].. يقول الإمام النووي في شرحه لهذا الحديث: إنّ استعظامكم الكلام به هو صريح الإيمان، فإنّ استعظام هذا وشدة الخوف منه ومن النطق به فضلاً عن اعتقاده إنما يكون لمن استكمل الإيمان استكمالاً محقَّقاً وانتفت عنه الريبةُ والشكوك[٢].

---

(١) صحيح مسلم ١٣٢.

(٢) شرح النووي على مسلم ج٢/ ص٣١٨.

الثاني: روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة ﷺ أنّ رسول الله ﷺ قال: «إنَّ الله تجاوز لأمتي عما وسوستْ أو حدَّثتْ به أنفُسَها ما لم تعملْ به أو تكلَّمْ»(١).

عندما علمتُ ذلك قمتُ فسجدتُ سجود الشكر لمولاي وخالقي أرحم الراحمين، وحمدتُه سبحانه أن لم يعطِ مفاتيح الإيمان والقلوب لأحدٍ من خلقه. إذاً لنضب الإيمان في القلوب ولحلَّ محلَّه الشكّ والكفران، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾﴾ [الإسراء: ١٠٠].

رحم الله الشهيد العلّامة البوطي الذي تعلَّمنا منه أنَّ من الطبيعي للعقل البشري أن يسأل ويستفسر ليرتقي من خلال ذلك إلى أعلى درجات اليقين. وأنّ هذا لا يكون إلا بحضور مجالس العلم، فبالعلم وحده يُبنى أساس العقيدة السليم مصداقاً لقوله تعالى ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد ١٩]، وهذا ما لاتفعله مجالس الوعظ أبداً.

- إنّ مجالس العلم أنهتْ حيرتي بما أوقفتني به على اليقينيات من عقائد الدين وثوابت الإيمان، وبما نقلتْه لي من قول سيِّد الأنام ﷺ: «ذاك صريح الإيمان».. إنها باختصار: علم + تشخيص صحيح + نصيحة. ساقتني من خلال ذلك إلى أن أقول من أعماق قلبي: الحمد لله أرحم الراحمين، وجزى الله مَنْ علَّمني الأجر العظيم.

- أما مجالس الوعظ منفردةً فزادتني حيرةً فوق حيرتي، ساعةَ رمتني في عقيدتي قائلةً: ذاك صريح الشك والكفران!.. إنها باختصار: وعظ + تشخيص خاطئ + فضيحة. ساقتني من خلال ذلك إلى أن أقول من سويداء فؤادي: حسبي الله ونعم الوكيل، ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور ١٥]؟!

وما كان لتلك الداعية من حُجّةٍ في استنكارها عليَّ حضور مجالس العقيدة إلا

(١) البخاري ٦٢٨٧، ومسلم ١٢٧ واللفظ للبخاري.

قصة الإمام فخر الدين الرازي، يوم دخل بغداد فخرج أهلها لاستقباله، فقالت امرأة عجوز: مَنْ هذا الذي خرج أهل بغداد كلهم لاستقباله؟ فقالوا: إنه الإمام فخر الدين الرازي الذي ألَّف الكتب الطوال وعرض فيها المئات من الدلائل المنطقية والعلمية على وجود الله عز وجل ووحدانيته، فاستضحكت وقالت: لولا وجود مئات الشُّبَه في رأسه لما احتاج أن يطردها بمئات الأدلة والبراهين! ووصل كلامها هذا للإمام فرفع يديه قائلاً: «اللهمّ إيماناً كإيمان العجائز». فما معنى هذا الكلام؟

إنّ معنى قوله: «اللهم إيماناً كإيمان العجائز» - حسب ما تعلّمناه من الشهيد البوطي رحمه الله - أنّ على الإنسان ابتداءً أن يبني عقيدته على أساس العلم لا على أساس التقليد، وأن يدرس الأدلة العلمية والعقلية على ذلك - إن كان فيه أهلية للنظر - ولكن عليه أن لا يكتفي بها ويقف عندها، وإنما عليه أن يتجاوزها إلى ما بعدها من المراحل، وهي مرحلة انسكاب هذه المعرفة العقلية في القلب، حباً وخوفاً وتعظيماً لله، وبذلك يكتمل الإيمان ويبسط شعاعه على كلٍ من العقل والقلب، فكان رحمه الله يقول: طلع الصباح فأطفئ القنديلا. فالمعرفة العقلية إذن شرط ضروري ولكنه غير كافٍ، تماماً كأساس البناء الذي يُغرس في باطن الأرض، لابدّ منه ولكنه وحده لا يكفي، بل لابد من استكمال الأدوار الفوقية ليصبح صالحاً للسكنى.. إذن:

هل يمكننا الاستغناء عن الأساس اكتفاءً بالأدوار الفوقية؟! أبداً لا، لأنها ستنهار وتتهاوى.

وهل يمكننا الاستغناء عن الأدوار الفوقية اكتفاءً بالأساس؟! أبداً لا، لعدم توفر ضروريات المأوى.

لابدّ من كليهما، ولكن الأساس أولاً، والأدوار الفوقية ثانياً.

كذلك من المحال أن تحبَّ الله الحبَّ الحقيقي من غير أن تعرفه، فالمعرفة العقلية أولاً، والحب توابعه ثانياً.. وإذن:

لا يمكننا الاستغناء عن المعرفة العقلية اكتفاءً بالحب وتوابعه، لأنه عند أقل شبهة سينهار ويتهاوى.

ولا يمكننا الاستغناء عن الحب وتوابعه اكتفاءً بالمعرفة العقلية، لأن الحب - كما علمنا - هو وقود السير إلى الله وإلى جنة المأوى.

أما تلك العجوز فليست من أهل النظر حتى تُكلَّف بالنظر، وإنما أوصلها إيمانها الفطري الصافي إلى النتيجة نفسها، فالمهم أنّ إيمانها ليس إيماناً تقليدياً بحيث لوكفر الناس من حولها لكفرت، لا، وإنما هو إيمان فطري راسخ في أعماق النفس، بحيث لو أنّ الدنيا من حولها كلها كفرت بالله لبقيت على إيمانها.

- تتخذه لك صاحباً ثانياً: بأن تكثر من ذكره ومراقبته، وتربية قلبك على محبَّته، والتعلُّق به وحده، وتكثر من التبتل والتضرع على بابه، والانكسار والتذلل على أعتابه، والالتجاء الدائم إلى جنابه، بأنْ يجدك حيث أمرك ويفقدك حيث نهاك.

فإن أنت عرفتَ الله أولاً، واتخذتَه لك صاحباً ثانياً، فإنه سبحانه وتعالى يرعاك ويحميك ويرأف بك، ويؤدي حقوق الصحبة لك. وهذه الصحبة تعود فوائدها كلها إليك، والله هو الغني الحميد. وكما قال الشيخ ملا رمضان البوطي في وصيَّته لابنه الوحيد الشيخ محمد سعيد رمضان البوطي رحمهما الله: (أَخْرجْ عن قلبك الغير، وليكن إلى الله السير، يدفعْ عنك كلَّ ضير، وترى منه كل خير)[1].

وليس معنى هذا الكلام أن يقول الإنسان: إذاً سأنقطع عن صحبة الناس ولن أصاحب إلا الله عز وجل. لا، ليس هذا هو المقصود، وإنما المقصود أن تستمر علاقتُك مع الناس، ولكن على أساس علاقتك مع الله، وتحت سلطان شرع الله، واسترضاءً لله، وتحبباً إلى الله سبحانه وتعالى.

---

(١) كتاب هذا والدي (ص ١٩٣).

فالموظف الأمين على الأوامر الصادرة إليه من مديره، يقوم من الصباح الباكر ليؤدي ما قد كُلِّف به، يخدم هذا، ويرعى ذاك، ولكنه إنما يفعل ذلك من أجل مديره الذي كلَّفه بذلك. وربما أثنى عليه بعض المراجعين من الناس أنه قد فعل ذلك لأجله، فيقول: لا ليس من أجلك، وإنما الذي كلَّفني هو المدير، فأنا أنقاد لأمر سيدي.

إذن فليس المقصود أن تحجز نفسك عن المجتمع - فالإنسان مدنيٌّ بطبعه - ولكن وأنت تدخل في علاقاتك المتنوعة الكثيرة مع الناس، وتخدم هذا وترعى ذاك، إياك أن تنتظر أجراً منهم، وانتظر أجرك من الله عز وجل، وكن فاعلاً لذلك على أساس الوِلاية التي تعتز بها، وهي وِلاية الله سبحانه وتعالى لك[1].

● **وأخيراً نقول: ما معنى قوله ﷺ: (الرجل على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل)[2]؟ وما مدى خطورته؟ وكذلك قوله ﷺ: (المرء مع من أحب)[3]؟**

الجواب: هذان الحديثان يدوران حول محورٍ واحد، وهو أنَّ الإنسان إذا أحبَّ الصالحين حشره الله عز وجل معهم، وإذا أحبَّ الفسقة والمنحرفين حشره الله عز وجل معهم.

فكيف يمكن لمجرد مشاعر قلبية تتمثل في محبة المسلم لشخص ما- مؤمناً كان أم فاسقاً أم كافراً - أن تجرَّه إلى أن يُحشر معه يوم القيامة؟!

نقول: يتحكم في سلوك الإنسان عواملُ ثلاثة:

١ - العامل العقلي أو عامل الوعي.

---

(١) شرح الحكم العطائية الدرس (١٥٨).

(٢) رواه الترمذي (٢٣٧٨) وقال: حديث حسن غريب، وأبو داود (٤٨٣٣)، وأحمد (٨٢١٢)، والحاكم (٧٣٩٩) جميعهم عن أبي هريرة.

(٣) متفق عليه: البخاري (٥٨١٦)، ومسلم (٢٦٤١)، كلاهما عن عبد الله.

٢ - العامل العاطفي، وهو عامل العواطف المتمثلة في الحب والخوف والتعظيم.

٣ - العامل المصلحي، وهو عامل خطير، إذ يدفع الإنسانَ للانصياع لمصلحةٍ عاجلةٍ كالغنى والزعامة. فكل ما يحقق له مصلحته فهو عنده حق، وإنْ قال العقل إنه باطل. وكل ما لا يحقق له مصلحةً فهو عنده باطل، وإن قال له العقل إنه حق.

والمفروض أن تكون الفاعلية الكبرى للعامل العقلي، أما العامل العاطفي فينبغي أن يكون خاضعاً ومنضوياً تحت سلطة العامل العقلي، وأما العامل المصلحي فينبغي أن يتحرر منه الإنسان وألا ينقاد في سلوكه إلا للعامل العقلي فقط. لذلك كثيراً ما يخاطب الله عز وجل في الإنسان عقلَه كقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٤]، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤].

ولكنَّ واقع الناس أنَّ أكثرهم- لا كلهم- إنما كانوا ولا زالوا ينقادون في سلوكهم للعامل العاطفي والمصلحي، لأنهم أسرى عواطفهم ومصالحهم، وأما العامل العقلي فهو ضعيف ولا يزيد عن ٣٠٪ من دوافع السلوك.. من هنا كانت الحاجة للتربية.

وعندما أوجِّه الطفل - طبق أساليب معينة - إلى أن أجعل عواطفه ورغائبه خاضعةً لعقله فتلك هي التربية الصحيحة، وأما أن أجعل عقله خاضعاً لعواطفه ومصلحته فتلك هي التربية الجانحة والخاطئة.

كثيرون هم الذين يهوَوْنَ الاستقامةَ وتخضع عقولهم للحقِّ كلَّ الخضوع، لكنَّ الواحد منهم كثيراً ما يشكو من أنه لا يستطيع الاستقامة على النهج القويم. وعند المناقشة يتبيَّن أنَّ له أصدقاء يركن إليهم ولا يستطيع أن يفارِقَهم، وأنهم من السوء بمكان. ونظراً لأن عاطفةً من المودة تشيع بينهم فإنه سُرعان ما يخضع لنصحهم

الكاذب وسخريتهم الظالمة، وهو يعلم أنهم مبطلون وأنه على حق، ولكنَّ العاطفة تهيمن على كيان الإنسان أكثر من العقل.

نقول لهذا الإنسان: هناك رافد من روافد السوء ينبغي أن تَقطع شرايينه عنك، فإنْ لم تفعل فلا فائدة من طاقاتك العقلية مهما كانت متيقِّظة. اقطعْ صلة ما بينك وبين جلساء السوء، واستبدلْ بهم الجليس الصالح، ثم انظر كيف تستقيم على صراط الله عز وجل دون أدنى صعوبة.

ذلك لأن العقل يدلُّ صاحبَه- أياً كان- على الحقِّ، لكنَّ عواطفَه المشدودة نحو أصحابه تشدُّه إلى نقيض ذلك، ويقع الصراع بين العقل والعواطف، وفي حَلْبة هذا الصراع تكون الغَلَبَةُ للعواطف، إلا إذا قطَّع نفسه عن أصدقاء السوء، فعندئذٍ يكرمه الله عز وجل إلى جانب عقله، برافدٍ ثانٍ ألا وهو الصديق المستقيم، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ [القصص: ٣٥]، أي بأخيك المستقيم.

وكلنا يعلم قصة ذينك المشركَين من قريش، واللَّذَين قامت بينهما علاقةٌ وطيدة من الصداقة والمودَّة، ولكنْ لا على أساسٍ من الإيمان والاستقامة، وإنما على أساس من الكفر ومعاداة النبي ﷺ، وهما عُقبة بن أبي معيط والوليد بن المغيرة.

فقد دعا عقبة بن أبي معيط جمعاً كبيراً من أهل مكة إلى وليمة، ومعهم رسول الله ﷺ، وكان صاحبه الوليد بن المغيرة مسافراً خارج مكة، فاستجاب رسولُ الله ﷺ الدعوةَ ودخل داره، ولما وُضع الطعام أبى ﷺ أن يَطعم طعامه إلا إذا دخل الإسلام. ولما رأى عقبةُ ثباتَ رسول الله ﷺ على هذا الأمر تشهَّد شهادة الإسلام وأعلن إسلامه، فقد كانت سُبَّةَ عارٍ أن يدخل الرجلُ دارَ عربيٍ ولا يطعم طعامه.. وما كان رسول الله ﷺ ليفعل ذلك إلا لأنه يعلم أنَّ كلَّ صناديد مكة يعلمون أنه صادق وأنه على حق وأنه رسولُ الله حقاً، لكنَّ الاستكبار هو الذي كان يمنعهم من الإقرار بذلك مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤]. وبعد

أيام عاد الوليد بن المغيرة إلى مكة وبلغه الخبر، فذهب إلى عقبة وقال له: بلغني أنك صبأتَ. وجهي من وجهك حرام إنْ لم تلقَ محمداً وتردَّ عليه دينَه وتبصق في وجهه.

واستجاب عقبةُ لعاطفة المودَّة والخُلَّة والصداقة التي بينه وبين الوليد، وذهب إلى رسول الله ﷺ وردَّ عليه دينه. ولما حاول أن يبصق ارتدَّ بصاقه على وجهه فأحرق خدَّيه، وبقي بصاقُه علامةً على خدَّيه حتى مات بعد ذلك كافراً، فأنزل الله عز وجل تعزيةً وتسليةً لرسوله ﷺ وتهديداً لهذين المشركين ولمن سلك مسلكهما قوله: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾ [الفرقان: ٢٧ - ٢٩][1].

والعجيب أن هذه الآيات نزلت على رسول الله ﷺ وسمع بها عقبة، وهو يعلم أنَّ محمداً ﷺ صادقٌ في نبوّته وأنَّ هذا الكلامَ كلامُ الله، وأنَّ هذا التهديد سيحيق به، ومع ذلك فقد كانت عاطفة الخُلَّة بينه وبين الوليد أقوى من هذا كله، إذ لم يُسلم ولم يُقرَّ بذلك، ولم يشأ أن يصيب علاقته بالوليد بثُلمة.. وهذا من الأدلة الكثيرة على إعجاز القرآن، إذ لو أسلم لنقض هذا الكلام القرآني الذي يتهدده، ولكنَّ الله عز وجل حال بينه وبين الإسلام لكِبْرٍ استقرَّ في قلبه مصداقاً لقوله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ [الأعراف: ١٤٦].

ولو تساءلنا: بأيِّ سُلْطةٍ وبأيِّ سلطانٍ يقول الوليد بن المغيرة لعقبة هذا الكلام؟

إنه سلطان الحب والصداقة والوداد الساري بينهما، فسلطانه وفاعليته أقوى من فاعلية العقل. ولو أننا سألنا عقبةَ: هل كنتَ منسجماً مع عقلك عندما استجبتَ

---

(١) انظر تفسير الطبري (١٩/ ٢٦٢).

لصاحبك الوليد؟ لقال إن كان صادقاً: أبداً ما كنتُ منسجماً مع عقلي، ولكنّني كنت منسجماً مع عاطفة الخُلّة بيني وبينه!

كثيرون هم الذين يعتذرون، يقول أحدهم: إنَّ الجوَّ الذي أعيش فيه سيئ، فأنا لا أملك بينهم أن أسلك مسلكاً مخالفاً لمسلكهم!

نقول له: إعملْ لوقفةٍ بين يدي جبّار السماوات والأرض، وقبل أن يتبرؤوا منك في الآخرة فتقولَ: لو أن لي كرَّةً وعودةً إلى الدنيا لأتبرأ منهم، وقد أخبرك الله عز وجل عن ذلك المشهد قائلاً: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٦ - ١٦٧]. قبل أن تصل إلى عين اليقين لهذا المشهد فتراه بأمِّ عينك وعندها لن يفيدك التراجعُ شيئاً، ليكن عندك علم اليقين به وأنت هنا في دار الدنيا، فتبرَّأ منهم منذ اليوم، بل منذ اللحظة، لأنك لا تدري متى ستنقطع أنفاسُك الصاعدة والهابطة فتنقطع عنك الأسباب. وإلا لَحاقَ بك حقُّ اليقين المتمثّل في وعيد الله عز وجل ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾.

ألم تسمعْ قول رسول الله ﷺ: (استعنْ بالله ولا تعجز)[1]؟! أي إذا استعنتَ بالله فلن تعجز.

كثيرون هم الذين انبتُّوا عن بيئاتهم الموبوءة، ونبتوا كما تنبت الزهرة الفواحة وسط أكوام من الشوك. لم تضرُّهم تلك الأشواك ولم تؤثّر على عبق تلك الزهرة الفواحة. وثمن ذلك الاستعانةُ بالله عز وجل والالتجاءُ إليه والإكثارُ من الدعاء والتضرعِ بين يديه

(١) رواه مسلم (٢٦٦٤) عن أبي هريرة، وهو جزء من حديث: (المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف...).

سبحانه. أما الإنسان الذي يركن إلى التيار، ويُسلِمُ نفسَه إلى الكسل والخمول فإنَّ الله يُسْلِمُه إلى الناس، كما يقول المثل: (المرء حيث يضع نفسه)[(١)].

كن فاعلاً ولا تكن منفعلاً لأصحاب السوء، واملك أنت زمام المبادرة في التأثير عليهم ولا تُعطِهم دور التأثير عليك. وقد علمنا سابقاً أن التأثير عليهم لا يكون بصحبتهم أبداً[(٢)].

٥ - فطم الفم عن المال الحرام

إنَّ الجسم الذي رُبِّي على المال الحرام يضمُّ - على الغالب - نفساً نزّاعةً إلى الانحراف والانفلات من حدود الله تعالى. وإذا انضبطت في الظاهر بأحكام الله، تجمَّعتْ منها في الباطن الأدواء والأمراض الخطيرة.

والمال الحرام يبدأ من سلب أموال الآخرين بدون رضاً منهم، ثم يتنوَّع إلى أنواعٍ وأشكال مختلفة، حتى ينتهي عند الشبهات التي هي مِظَنَّة الحرام. وإنَّ البعض من هذا المال الحرام يسري إلى الفم أكلاً ومذاقاً، وبعضه يأخذ مكانه في زوايا البيت ترفيهاً وتمتيعاً، وكلُّ ذلك في المصطلح الفقهي يسمى (أكل الحرام)، وكذلك هو في المصطلح القانوني.

وللتغذي بالمال الحرام نتائجُ خطيرة جداً في حياة المسلم، أهونُها ما يعانيه القلب من قسوة عجيبة لا تحركه معها موعظةُ واعظ، ولا ينفعه معها تحذير ولا ترغيب ولا ترهيب. إذ يقع الانفصال بين العقل والقلب، فيدرك العقل ويخضع دون أن يتأثر القلب أو يلين، وهيهات أن يملك العقل وحده قيادة السلوك في حياة الإنسان، ذلك لأنَّ الأثر الأعظم إنما هو للقلب الذي هو ينبوع الرغائب والعواطف كلها.

---

(١) الأمثال المولدة للخوارزمي (١/ ١١٥)، المثل رقم (١٨٥).

(٢) شرح رياض الصالحين الدرس (٤٢٦).

ومن شأن التهاون في أكل الحرام أن يجعل إسلامَ المسلم شعاراً يصطبغ به ظاهره فقط، أما الباطن الخفيُّ فمسوقٌ في سبلٍ أخرى تخطُّها دوافع الشهوات والأهواء ونوازع النفس والهوى. وإذا استمر المسلم في تهاونه وأقبل على المال الذي تطوله يداه كيفما اتفق، لم يعد يفيده شيءٌ من العلاجات السابقة، فلا تلاوة القرآن تنبِّهه من غفلة، ولا الأذكار والأوراد تصلح شيئاً من حاله، ولا دعاؤه يُسمع أو يُستجاب.

فعن أبي هريرة أنه ﷺ قال: (يا أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ٥١﴾ [المؤمنون: ٥٦]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾ [البقرة: ٢٧٣]، ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمدُّ يده إلى السماء: يا ربِّ يا ربِّ، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغُذِّي بالحرام، فأنَّى يُستجاب لذلك)[١].

بل إنَّ خطورة أكل المال الحرام تمتد لتشمل الفرائض أيضاً، فقد قال ﷺ: (يا سعد أطِبْ مطعمك تكنْ مستجابَ الدعوة، والذي نفس محمد بيده إنَّ العبد ليقذف اللقمةَ الحرام في جوفه ما يُتقبَّل منه عملُ أربعين يوماً، وأيما عبدٌ نَبَتَ لحمه من السُحت والربا فالنار أولى به)[٢]. قال العلماء: أي ما يُتقبَّل منه صلاة أربعين يوماً.

وما أكثر المسلمين اليوم بمقياس الصلاة والعبادات الظاهرة واستعمال المسابح في الأيدي وتعويد اللسان على المواعظ والكلمات الدينية المنمقة.

وما أقلَّ المسلمين اليوم بمقياس التعفُّف عن الوقوع في المال الحرام والتزام

(١) رواه مسلم (١٠١٥) عن أبي هريرة.

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط برقم (٦٤٩١) عن ابن عباس.

حدود الله في ذلك، وملاحظة مرضاة الله عز وجل حيال ما قد يدخل في الجيب!

وكم رأينا مسلمين يصوغون الكلامَ حلواً عذباً في الدعوة إلى الإسلام وهديه، حتى إذا لاحت لأحدهم سبيلُ تجارةٍ رابحةٍ تستوجب بعضَ الانحراف عن ميزان الإسلام وحكمه، أسرع يقتحم السبيل غير هيَّابٍ ولا وَجِلٍ، فإذا ما نبَّهه أخ له مسلم، تأوَّل ما لا يحتمل التأويل، وصاغ في سبيل ذلك فِقهاً جديداً لا أساس له ولا دليل عليه.

ولا فرق في المال الحرام بين قليله وكثيره، فكلُّه حرام، وكله يستوجبُ غضب الربِّ سبحانه وتعالى، ففي الحديث الصحيح الذي رواه مسلم أن رسول الله ﷺ قال: (من استعملناه منكم على عملٍ فَكَتَمَنَا مِخْيطاً فما فوقه كان غُلولاً يأتي به يوم القيامة)[1].

وروى مسلم في صحيحه أيضاً أن رسول الله ﷺ قال: (من اقتطع حقَّ امرئٍ مسلم بيمينه فقد أوجب الله له النار وحرم عليه الجنة)، فقال رجل: وإنْ كان شيئاً يسيراً يا رسول الله؟ فقال: (وإن قضيباً من أراك)[2].

إلى هنا نكون قد انتهينا من الحديث عن المطلب الثاني وهو السبل التربوية للوصول إلى درجة الإحسان والمتمثلة في العلاجات الخمس التي لا بد منها لإصلاح حال القلب وتخليصه من الأمراض الخفية التي سماها الله عز وجل (باطن الإثم)، ومن دون استعمال هذا العلاج والاهتمام بالأمراض الباطنة لا يصلح للمسلمين أمر ولا تقوم لهم قائمة، ويبقون كما وصفهم رسول الله ﷺ: (غثاء كغثاء السيل)، والغثاء لا يخيف أحداً[3].

---

(١) رواه مسلم (١٨٣٣) عن عدي بن عميرة الكندي.

(٢) رواه مسلم (١٣٧) عن أبي أمامة.

(٣) باطن الإثم (ص ٦٩ - ٧٢).

المطلب الثالث: وأخيراً لاستكمال الفائدة نقول: لا بد من علاجات أربعة أخرى إضافة إلى السابقة هي:

١ - على المسلم الصادق في إسلامه أن يتلمس ما يعانيه قلبه من الأمراض الخفية التي لا يطلع عليها إلا الله عز وجل ونفسُه التي بين جنبيه، فالله عز وجل يقول: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾﴾ [**القيامة**: ١٤ - ١٥]، وأن يستشعر خطورتها وأن يعلم أنها عقارب ولكنها لا تلدغ الجسد الفاني، وإنما تلدغ القلب الذي سيلقى به ربه يوم القيامة ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [**الشعراء**: ٨٨ - ٨٩]. من هذه المعرفة اليقينية تتفجَّر الإرادة الصادقة المتَّجهة إلى إصلاح النفس وتزكيتها، وبذلك يكون قد قطع نصف الطريق إلى الله عز وجل. أما الإنسان الراضي عن نفسه، المدغدغ لأهوائها فلا يمكنه أن يسير خطوةً واحدةً في تزكيتها.

يقول ابن عطاء الله رحمه الله: (أصل كلِّ معصيةٍ وغفلةٍ وشهوةٍ الرضا عن النفس، وأصل كلِّ طاعة ويقظةٍ وعِفَّةٍ عدمُ الرضا منك عنها. ولَأَنْ تصحب جاهلاً لا يرضى عن نفسه، خير لك من أن تصحب عالماً يرضى عن نفسه، فأيُّ علمٍ لعالم يرضى عن نفسه؟! وأيُّ جهلٍ لجاهل لا يرضى عن نفسه)[1].

فمن رضي عن نفسه استحسن حالها وغطَّى عيوبها حتى صار قبيحُها بنظره حَسَناً، فتستولي عليه الغفلة عن الله عز وجل، وينصرف قلبه عن مراقبة خواطره، فتثور عليه الشهوة، وتغلبه، لعدم وجود المراقبة القلبية التي تدفعها، فيقع في المعاصي لا محالة. وليت أنه يقع في المعاصي ثم يتوب، لا ولكنه يقع في المعاصي مع تسويغها واختلاقِ الغطاء الديني لها. وهذا هو الكبر الذي يحجب العبد عن الرب

---

(١) الحكمة (٣٥).

جل جلاله، وإنما كان الرضا عن النفس أصل كل معصية لأنها أمارة بالسوء ولأنها العدو الملازم كما قال ﷺ: (أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك)[١].

هذا الإنسان الذي هذه حاله لا يمكن أن يصدر منه عمل صالح، إنما يمكن أن يصدر منه صور الأعمال الصالحة، بعيدة عن روحانيتها، بما في ذلك العلم. فالعالم الذي يرضى عن نفسه هو خادم ذليل لها، لأجل ذلك يجعلُ علمَه خادماً لنفسه ولنزواته وشهواته، فيَخدعُ الناسَ بعلمه، وبالتالي فاصطحاب الناس لهذا العالم يوصلهم إلى الهلاك.

ها هو بلعام بنُ باعوراء، كان أعلم علماء بني إسرائيل، لكنَّ علمه لم يفده شيئاً عندما ابتُلي بحبِّ ذاته.. لماذا؟

لأنه رضي عن نفسه، ووجد أنه خير من كثير من الناس، فأصبح علمه سبيلاً لتغذية أنانيته وكبره، فعلمه بحسب الظاهر هو علم شرعي، لكنه في الباطن وفي حقيقة الأمر هو سُلَّمٌ للدنيا، أي يمتطي سُلَّم الدين بقدميه ليصل بواسطته إلى الدنيا. لذلك قالوا: (زيادة العلم في الرجل السوء كزيادة الماء في أصول الحنظل، كلما ازداد رِيّاً ازداد مرارةً)[٢]، وعن بلعام وأمثاله من علماء السوء يقول تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا﴾ - أي العلوم المختلفة - ﴿فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ﴾ [الأعراف: ١٧٥ - ١٧٦].

فالمرشد الذي يعتقد بنفسه أنه رجل صالح محبوب عند الله عز وجل، سيستكبر على مَنْ حوله لأنه يرى نفسه خيراً منهم، فهو في رُتبةٍ عاليةٍ وهم في الرتب الدنيا. هذه النظرة تُهلكه وتُهلك مَنْ يتلقَّى منه الإرشادَ يقيناً.

---

(١) مر ذكره في ص٤٦.

(٢) روح البيان للمولى أبي الفداء (١/ ١٩٦).

ولو أنه اتَّهم نفسه بالتقصير ولم يرضَ عنها، لساقَه ذلك إلى التفتيش عن دسائسها وآفاتها، بدوام الذكر والمراقبة والالتجاء إلى الله عز وجل خشية أن ينزلق في مزالقها، ولكان دائمَ اليقظة والتنبُّه إلى ما يُرضي الله عز وجل وما يُسخطه، وبذلك تعلو هِمَّتُه عن اتباع الشهوات وتلك هي العِفَّة، ويسعى جاهداً في فعل الطاعات.

لذلك كان الصالحون من الناس في حربٍ دائمةٍ عَوَانٍ مع نفوسهم، ومهما بحثتَ فلن تجد رجلاً من الصالحين المستقيمين - سواء في عصرنا أو في العصور السالفة - راضياً عن نفسه أبداً. بل ستجده دائم المجاهدة لها عملاً بقوله تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ [الحج: ٧٨]، وبهذا الجهاد يسمو على نفسه ويتحرر من أن يكون مُستعبَداً لها.

هذا الإنسان، إنْ سألتَه عن نفسه التي بين جنبيه، شكى لك منها الكثير والكثير، وأطلق الزفرات تلو الزفرات من معاناته في مجاهدتها.

فها هو الفضيل بن عياض، وهو رجل من كبار العلماء الربانيين، كان شديد الحذر من نفسه، ينظر إليها نظرَ العدوِّ إلى عدوِّه، وبقي على هذه الحال حتى نهاية حياته. لأنه يخشى في كل لحظةٍ أن يغفُلَ فتجره إلى السوء والانحراف، فهو يعلم أنه مهما استقام على أمر الله فليس معنى ذلك أنَّ نفسه قد ذابت وأُعدمت، وإنما هي موجودة، ولكنَّ شيئاً ما أقوى من نفسه قد استيقظ في كيانه، ألا وهو الخوف من الله والحب له والحياء منه سبحانه وتعالى. لذلك سمعه الناس يوم عرفة وهو في موسم الحج يقول: (واسوأتاه لي منك وإنْ غفرتَ لي)[1].

وهكذا فمقياس سير الإنسان إلى الله عز وجل وقُربه منه، شِدَّةُ بغضه لنفسه، وشِدَّةُ اتهامه لها. بينما مقياس بُعده عن الله عز وجل، إنما هو عنجهيته. والعنجهية هي حب الإنسان لنفسه وإعجابه بذاته واستكباره على غيره من الناس. إذن فحقاً ما

(١) ربيع الأبرار ونصوص الأخبار للزمخشري، رقم النص (٢٤٢) (ج٢/ ص٣٨٨).

يقول ابن عطاء الله: (أصل كل معصية الرضا عن النفس، وأصل كل طاعة عدم الرضا عن النفس).

والإنسان إنما يفيد الآخرين بحاله أكثر من مقاله، فصفاء نفسه وسلامة قلبه يؤثران في الآخرين. وإذا أكرمه الله عز وجل بعلوم الشريعة، فإنه يمارس علمه لله، ويرشد الناس بنفس متطامنة وهو يعتقد أن الناس الذين يرشدهم خير منه، وبذلك يستفيدون من حاله ومقاله[1].

٢ - أن يعلم الإنسان المسلم أنه لا يصل إلى الله إلا بتناسق وانسجام بين الظاهر والباطن وسيرهما معاً على المنهج الإلهي المتمثل بالكتاب والسنة، فإنْ تخلَّف أحدهما فإنَّ سير الآخر وحده لا يعبِّر عن أي حقيقةٍ إسلاميةٍ. إذ من المتفق عليه عند علماء الشريعة الإسلامية أنَّ أوامر الشريعة الإسلامية تنقسم في جملتها إلى:

- ما يتعلق بأقوالٍ وأفعالٍ ظاهرةٍ كالصلاة والصوم والحج...

- وما يتعلق بالنفس والقلب كالإخلاص والتواضع والحب في الله والبغض في الله والخوف من الله.

وكذلك النواهي تنقسم في جملتها إلى:

- ما يتعلق بظاهر الأقوال والأفعال كالنهي عن القتل والسرقة...

- وما يتعلق بالنفس والقلب كالنهي عن الكبر والعجب والرياء والحقد والضغائن والتعلق بالدنيا.

ومن المتفق عليه لدى المسلمين جميعاً أنَّ ما يتلبَّس به المسلم من الطاعات الظاهرة لا يُقبل عند الله ما لم يرتكز على تلك الطاعات المتعلقة بطوايا النفس والقلب، فإذا لم يتوفر الإخلاص لله عز وجل في القلب لم تثمر الطاعات الظاهرة

---

(١) شرح الحكم العطائية الدروس الصوتية الدرس (٥٢-٥٣).

على اختلافها أيَّ قرب من الله عز وجل، وإذا لم تتهذب النفس بالأخلاق الفاضلة لم يغنها أي غَناء ما قد يلبسه صاحبها على مرأى من الناس من ثوب الصلاح والتعبد.

والقلب الذي سيطرت عليه نوازع الكبر أو الضغائن والأحقاد أعجز من أن يمدَّ الطاعات والعبادات الظاهرة بشريان العبودية لله عز وجل. وإذا انقطعت روافد العبودية مما بين قلب المسلم وظاهر طاعاته، لم يعد في هذه الطاعات أيُّ قدرة على تقريب صاحبها إلى الله عز وجل، ولم يعد فيها أيُّ وقاية تحجزه عن مطارح الدنيا ومنزلقات الشياطين والأهواء، وعاد شأنها كالثمار التي ألصقت إلصاقاً بأشجار يابسة، هل ينتظر منها إلا الذبول والفساد؟!

إذن فهما ظاهر وباطن، ولا يصلح ظاهر بلا باطن، ولا باطن بلا ظاهر، فعندما تجتمع الشرائط الظاهرة التي يضبطها حكم القضاء الدنيوي، مع الشرائط الباطنة التي لا تضبطها إلا رقابة قيوم السماوات والأرض، فذلك هو العمل المقبول عند الله. أما إذا لم تتوفر شرائط أحد الجانبين فذلك هو العمل الباطل المردود عند الله عز وجل. ولقد نبَّهنا الله عز وجل إلى هذا المعنى بقوله: ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٠].

أما المعاصي الظاهرة التي تتمركز على الأعضاء وتبرز في سلوك الإنسان الظاهري فهي أخفُّ هذين القسمين وأيسرهما على صعيد المعالجة. وهذا هو القسم الذي يغلب ألا تكون له جذور خفية، وإنما مردُّه إلى ضعف الإنسان الذي وصفه الله عز وجل بقوله: ﴿وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨]، وما أيسر على الإنسان الذي انزلق في معصية من معاصي الحواس والأعضاء أن يستغفر الله ويتوب إليه فيتوب الله عليه، كيف لا وهو القائل: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾، ثم قال: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥]، وهنا عند هذا القول يأتي الحديث عن النوع الثاني من المعاصي.

وهي المعاصي الباطنة التي تتوضع في طوايا القلب، وهذا هو النوع الخطير الذي يصعب علاجه، بل يصعب التنبُّه إليه. والكبر هو ينبوع هذه المعاصي كلها، وعنه يتفرع الإصرار على المعصية، والاعتداد بالذات، والعجب، وعصبية الإنسان لآرائه التي تصبح جزءاً من ذاته، وحب الجاه والرئاسة والسمعة والمكانة والمال والدنيا بكافة أشكالها، وما ينتج عنه من الحقد والحسد والضغائن والرياء والغرور.

والكبر نقيض العبودية تماماً، وما حُجب إنسان عن الله بعصيان، ولكنَّ الإنسان يُحجب عن الله بالكبر الذي يسبِّب العصيان قطعاً. أما العصيان بدون كبر فما أيسر أن يذوب في ضرام رحمة الله عز وجل.

فإذا تخلَّى الإنسان عن كبره، وعوفي من تجبُّره فلن تضرَّه المعاصي أبداً. ذلك لأن الإنسان الذي لا يتكبر على الله وإنما هو مصطبغ بذُلِّ العبودية له سبحانه، عندما تصدر منه معصية، وتتلاقى معصيته بعبوديته لله عز وجل، سرعان ما تثور عبوديته لله بين جوانحه، فيتألم ويتحرَّق ويبكي ويندم ويستغفر ويتوب إلى الله عز وجل، والرسول ﷺ يقول: (التائب من الذنب كمن لا ذنب له)[1]. وهذا لا يعني أنه أصبح معصوماً، لا بل قد يقترف إثماً ثانياً وثالثاً ورابعاً، ولكن كلما اقترف إثماً جاءت عبوديته لله عز وجل تلتهب بين جوانحه ناراً، وتتحول إلى توبةٍ ضارعةٍ وذُلٍّ لله عز وجل. وإذا بهذه المعاصي كلِّها تذهب أدراج الرياح، فإذا رحل إلى الله عز وجل رحل طاهر القلب، فالله عز وجل يقول: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾﴾ [ق: ٣١ - ٣٢]، أي هذا ما توعدون لكل رجَّاعٍ إلى الله، ولم يقل: هذا ما توعدون لكلِّ معصومٍ عن الذنوب. ولن يكون المتكبر رجاعاً إلى الله أبداً.. هذا هو معنى أنَّ المتحرر من كبريائه لا تضرُّه المعصية قط، وإذا عرف

---

(١) رواه ابن ماجه في السنن (٤٢٥٠)، والطبراني في المعجم الكبير (١٠٢٨١)، والبيهقي في السنن الكبرى (٢٠٥٦١) كلهم عن عبد الله ﷺ.

عبوديته لله فلن يتوغل الكبر إلى قلبه أبداً فضلاً عن أن يتمكن منه . . إذن .

عصيان بدون كبر، أي: عصيان + عبودية لله عز وجل ← تذلل وانكسار وتوبة إلى الله عز وجل، ودوام الالتجاء إليه سبحانه ← المغفرة والرحمة والتوفيق، وهذا هو حال آدم عليه السلام والصالحين من أتباعه.

عصيان + كبر ← إصرار على المعصية إذ الكبر يمنع صاحبَه من الاعتراف بها والرجوع عنها ← الطرد من رحمة الله عز وجل، وهذا هو حال إبليس عليه لعنة الله وأتباعه، وعن هؤلاء يقول تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ [الأعراف: ١٤٦][(١)].

٣ - أن يعلم المسلم أن الذي يعينه على تزكية نفسه والسير على طريق الاستقامة إنما هو توفيق الله عز وجل، ويتم توفيق الله للمسلم بأمرين اثنين:

١ - صدق الإرادة المتجهة إلى الخير.

٢ - إخلاص الدعاء المتجه إلى الله عز وجل بالضراعة والتذلل والانكسار.

فإذا صدق المسلم في عزمه على الاستقامة واتباع سبيل مرضاة الله، ثم ابتهل إلى الله سبحانه وتعالى بقلبٍ واجف كسير وضراعة صادقة، وهو يتيقّن بأن الله عز وجل يستجيب دعاءه، فإن الله - بفضله وإحسانه - يقيه سوءَ النفس ومنزلقات شياطين الإنس والجن.

ذلك لأن الله عز وجل يحبُّ من عبده أن تفوح منه رائحةُ العبودية لله عز وجل، ورائحة العبودية لله عز وجل لا تفوح من المسلم وقد أسند ظهره إلى الجدران، ولم يرفع يده إلى الله عز وجل ليشكو إليه سوءَ حاله وخوفَه من نفسه الأمارة بالسوء ومن

---

(١) شرح رياض الصالحين الدرس (١٤)، وباطن الإثم (ص١٥-٢٣).

إغواء شياطين الإنس والجن، ولم يبكِ ولم يستغِثْ، وانتظر أن يهديه الله عز وجل جراً وسوقاً إلى الهداية. ينتظر عربةَ الهداية أن تأتيه مُنمَّقةً فيحمل فوقها حملاً، ثم يجلس آمناً مطمئناً لتسير به العربة إلى حيث رضا الله والسعادة الأبدية ! ! ليست هذه هي العبودية أبداً.

الله عز وجل رسم بينه وبين عبده طريقاً، هذا الطريق كلُّه تضاريس وأشواك، وقال له: هذا هو طريق العبودية لله عز وجل. ولا بد للمسلم الصادق أن يخوض هذه المخاضة لله عز وجل بالتذلل والشكوى والالتجاء إليه سبحانه من نفسه الأمارة بالسوء.. هكذا تفوح من العبد رائحةُ عبوديته لله عز وجل.

وإذا استمرَّ العبد على هذا المنوال واستمرَّ، فإنَّ الله عز وجل يقول له: لبيك عبدي. فيشرح صدره للطاعات، ويبغِّض إليه المعاصي والمنكرات، ويأخذ بيده إلى طريق الهدى والرشاد، فهو جل جلاله القائل: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢]. الله لا ينسى مخلوقاته ولكنَّ ذِكْرَه للعبد يتجلَّى ببسط الأنوار لتسري إلى قلب عبده، عندها تستيقظ الفطرة الإيمانية الكامنة في قلبه، والمتمثِّلة في حبِّ الله عز وجل والخوفِ منه سبحانه وتعظيمِه. والقاعدة تقول: (من أكثر من ذكر الشيء أحبَّه، ومن أحبَّ شيئاً أكثر من ذكره).

فما مصير حبِّ الدنيا والشهوات إذن؟

عندها يطوف حبُّ الدنيا وحبُّ الشهوات في قلبه، سواء كان حباً للزوجة أو الأولاد أو المال والتجارة، ولكن يصبح حب الله عز وجل هو الغالب وهو المسيطر على المحبوبات الأخرى مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

أما الذين سيطر على قلوبهم حبُّ الدنيا والشهوات فيصدق عليهم قوله تعالى: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾.

تلك هي ثمرات العبودية لله عز وجل، وذلك هو أقرب طريق بين العبد وربه، إنَّه التذلل المتناهي على أعتاب الله الواحد القهار.

ونقيض التذلل لله عز وجل هو الكبر الذي يحجب العبد عن ربه، وليس التذلل للناس هو نقيض الكبر، إنما نقيض الكبر هو التذلل للخالق جل جلاله لا للمخلوقين.

وقد علمنا أن الدعاء هو عبادة وعبودية بآن واحد، يبسط العبد من خلاله يد افتقاره وذله واستجدائه على باب الغني المغني الذي يقول: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦]، ويقول ﷺ: (أقرب ما يكون العبد من ربه جل جلاله وهو ساجد فأكثروا الدعاء)[١]، ويقول: (أقرب ما يكون الربُّ من العبد في جوف الليل الآخر، فإن استطعت أن تكون ممن يذكر الله تعالى في تلك الساعة فكن)[٢]. فإذا أردتَ أن تجمع بين القُربَيْن، قُربك من الله وقُربِه منك. فأكثِرْ من الدعاء وأنت ساجد في جوف الليل الآخر.

حاول جاهداً أن تمسح عن عينيك غشاوة النوم قبل الفجر، ثم قم فأسْبغِ الوضوء، وقف بين يدي قيوم السماوات والأرض مستغرقاً في ذلّ العبودية له، وابسط يدك إليه وأنت موقن أنه يرى ذُلَّكَ وضراعتك، ويسمع نجواك وبكاءك، ويراقب أنين نفسك من أسقامها. واسأله أن يطهِّر نفسك من أدرانها، ويخلِّصها من آفاتها، وأن يجنِّبك ظاهر الإثم وباطنه. وألحَّ وأنت ساجد في الدعاء، وأكثر من الرجاء والبكاء،

(١) رواه مسلم (٤٨٢) عن أبي هريرة.

(٢) رواه الترمذي (٣٥٧٩) وقال: حديث حسن صحيح غريب، والنسائي (٥٧٢)، والبيهقي في السنن الكبرى (٤٦٦٣)، والحاكم (١٢٠٣) وقال: حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، جميعهم رووه عن عمرو بن عبسة.

فإنك إن فعلتَ ذلك واستمر بك الأمر على هذا الحال، استجاب الله دعاءك، وتدارك أمرك، وطهَّر سريرتك، وأورثك طعمَ الصدق في العبادة ولذةَ الإخلاص في الدعاء.

٤ - أن يثبت على هذه الحال، إذ لا يكون الفرار إلى الله تعالى من آفات النفس إلا بواسطة ذلك، فهو السُّلَّم الذي ترقى به إلى الله عز وجل. وما دمت على قيد الحياة فلا بد لك من مواصلة الصعود على السلم - إذ لا آخر للصبر والمجاهدة إلا الموت - وإلا فيوشك أن تنزلق بك القدم في لحظة واحدة فترجع إلى حيث كنت. وكما قال علي كرم الله وجهه: (عند الصباح يَحْمَدُ القومُ السرى، وتذهب عنهم عِمايات الكرى)[1].[2]



(١) هذا القول ورد في إحياء علوم الدين (٣ / ٦٩)، وأصله مَثلٌ: انظر (المستقصى في أمثال العرب) للزمخشري (٢ / ١٦٨) رقم المثل (٥٧٠).

(٢) باطن الإثم (ص٦٥-٦٩)، وشرح رياض الصالحين الدرس (٣٥)، وشرح الحكم العطائية الدرس (٧٩).

الفصل الرابع

المراحل التي يمر بها المسلم في سلوكه إلى الله عز وجل

المرحلة الأولى: مرحلة اليقين العقلي.

المرحلة الثانية: مرحلة الفناء... وفيها مبحثان:

المبحث الأول: ما الفائدة من الوصول إلى مرتبة الفناء أو (وحدة الشهود)؟

المبحث الثاني: ما هي مخاطر الوصول إلى هذه المرتبة؟

المرحلة الثالثة: مرحلة البقاء.. وفيها مبحثان:

المبحث الأول: إذا كانت مرحلة البقاء هي وحدة الشهود مع بقاء التعامل مع الأسباب بخلاف مرحلة الفناء فلماذا لم يتعامل سيدنا إبراهيم على نبيّنا وعليه السلام مع الأسباب عند ما زُجَّ في النار؟

- فإن قلتَ: كيف السبيل للوصول إلى هذه الدرجة، فأنا خاضع لعالَم الأسباب مُسْتَرَقٌ لها؟

المبحث الثاني: مراحل انتقال المسلم وترقّيه أثناء الذكر، من ذكر مع وجود غفلة، إلى ذكر مع وجود يقظة، إلى ذكر مع وجود حضور، إلى ذكر مع وجود غَيبةٍ عما سوى المذكور.

الفصل الرابع

المراحل التي يمر بها المسلم في سلوكه إلى الله عز وجل

علمنا أن الحقيقة الإسلامية تتكون من ثلاثة أجزاء: (إسلام وإيمان وإحسان).

أما الإسلام والإيمان فيأتيان بالعلم، وأما الإحسان فيأتي بالإكثار من ذكر الله عز وجل وباقي السبل التربوية التي تحدثنا عنها. فكثرة الذكر هي التي توصل الإنسان إلى الدرجة التي يشعر فيها بلذة الإيمان وبمعنى الإحسان، وهو أن يعبد الله كأنه يراه، أي أن لا تحجزه المكوَّنات عن الله عز وجل، وإنما تتحول أمامه إلى ألواح زجاجية يرى من خلالها الله عز وجل.

إذن فبالعلم يصل الإنسان إلى درجة الإسلام والإيمان، وبالإكثار من ذكر الله عز وجل يصل إلى الإحسان. فمن صعد مباشرةً إلى درجة الإحسان دون أن يتعلَّم الإسلام والإيمان فقد فَقَدَ ضوابط الشريعة التي ينبغي أن تضبط سلوكه إلى درجة الإحسان، وعندها يقع في الزندقة، لذلك قالوا: (الشريعة هي غطاء الحقيقة، والحقيقة هي لب الشريعة).

وقالوا: (من تشرَّع ولم يتحقَّق فقد تفسَّق، ومن تحقَّق ولم يتشرَّع فقد تزندق)، أي إذا أخذ المسلم نفسَه بأحكام الشريعة، واكتفى بدرجة الإسلام والإيمان، ولم يطهِّر قلبه للوصول إلى درجة الإحسان، فقد وقع في الفسوق. ومَنْ ترك الشريعة أو كان جاهلاً بها، وسلك مسالك التربية ليطهر قلبه ويصل إلى درجة الإحسان، قفزاً فوق درجتي الإسلام والإيمان، فقد وقع في الزندقة. ولذلك يجب علينا أن نلجم التربية القلبية بلجام الشريعة الإسلامية، وبذلك يصل الإنسان إلى الله عز وجل.

إنَّ منهج التربية القلبية أو علم السلوك إلى الله، إذا سلكه الإنسان، عن طريقٍ ما

رسمه لنا علماء الشريعة الإسلامية، أخذاً من رسول الله ﷺ، فإنه يتجاوز ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: مرحلة اليقين العقلي

يبدأ الإنسان مسلماً بيقين أن الله موجود، وبأنه هو الفعال لما يريد. ولكنَّ هذا اليقين يكون مستقراً في العقل، ويكون صاحب هذا اليقين محجوباً عن حرارة هذا اليقين وحيويته بحجب المكوَّنات وما يراه ويتأثر به من فاعلية الأسباب التي يراها أمامه.

فهو يخرج إلى السوق ليجد أنَّ طعامه وشرابه يأتيان عن طريق تعبه وكدحه وتجارته، وأنَّ تعلُّمه يأتي عن طريق دراسته، وأن شفاءه يأتي عن طريق تطبيبه.

هذه الأسباب التي يراها تنسيه - بشكلٍ ما - توحيدَ الله عز وجل، وتجعله محجوباً بها عن يقينه بوحدانية الله عز وجل. مع العلم أنَّ اليقين بأنَّ الله هو خالق الأسباب وهو مسبِّبها، موجود بالعقل، ولكنه عندما يندمج بالمجتمع فإنه لا يستطيع أن يستند إلى إيمانه هذا، بل يستند إلى هذه الأسباب. تماماً كالرجل الذي تعلَّم السباحة نظرياً، هو يؤمن بنظرية السباحة العلمية وكيف أنَّ الأشياء تطفو على وجه الماء، ويؤمن بأنه إذا فعل كذا وكذا فإنه لا يغرق، لكنك عندما تدفعه إلى السباحة لا يندفع، لأنه مشدود عن هذه السباحة بعالمه الذي يعيش فيه، وهو عالم اليابسة، فهو متأقلم معه متأثر به، يحتاج إلى دورات تدريبية متكررة حتى يكسر حاجز الخوف ويصبح منسجماً مع عالم البحار.

هذه هي المرحلة الأولى التي يبدأ بها كل مسلم.. لكن هل يجوز لنا أن نقف عند هذه المرحلة؟ لا، بل ينبغي أن نصل إلى درجة أن نعبد الله كأننا نراه[1].

---

(١) شرح الحكم العطائية الدروس الصوتية الدرس (٢) والدرس (٦٨).

المرحلة الثانية: مرحلة الفناء

عندما نمارس الطرق التربوية التي ذكرناها مدة من الزمن، ويستمر بنا الحال على هذا، فإنَّ عالم المكوَّنات يشفّ شيئاً فشيئاً وتزول كثافته، وتصبح هذه الحجب الكونية شيئاً فشيئاً كطبقةٍ زجاجيةٍ مصقولةٍ، بعد أن تكاثف عليها الغبار والأقذار، وتصبح من كثرة الصَّقْل شفافةً، فأنت تنظر إلى الزجاج ولكنَّ عينيك ترى ما وراء الزجاج. وكذلك فالإنسان الذي وصل إلى درجة الفناء ينظر إلى المكوَّنات ولكنّه يرى من خلالها صنعةَ الصانع وقدرةَ القادر، أي يرى من خلالها صفاتِ الله سبحانه وتعالى. وشيئاً فشيئاً تذبل فاعلية الأسباب التي أمامه، لأنه يعلم أن الذي ربط الأسباب بمسبّباتها وأمدَّها لحظةً فلحظةً بالفاعلية إنما هو الله عز وجل. ومن ثم فلا يعود يرى أنَّ النار هي التي تحرق، ولا يعود يرى أنَّ السكين هي التي تذبح، ولا أنَّ الطعام بطبيعته هو الذي يُشبع، وإنما الفعَّال في الكون كله إنما هو الله عز وجل.

ويزداد هذا المعنى، وتزداد صور المكوَّنات شفافيةً أمامه، وتزداد الأسبابُ ذبولاً أمام بصيرته حتى يصل إلى وحدة الشهود أو درجة الفناء. وهي حالة طبيعية يصل إليها الإنسان أياً كان، إنْ هو سار في هذا الطريق. وربما سُمِّيت بالفناء لأنَّ الإنسان يفنى عن نفسه ويفنى عن الناس، ويعيش مع الخالق المكوِّن سبحانه وتعالى.

والإنسان في هذه المرحلة لا يستطيع أن يتعامل مع الناس، ولا يستطيع الناس أن يستفيدوا منه شيئاً، لأنه مشغولٌ عن الناس مِنْ حوله ذاهل عنهم، فهو دائماً مع الله عز وجل. والإنسان إذا وصل إلى هذه المرحلة، شعر بلذّةٍ ونعيمٍ لا يمكن أن يقارَن بملاذِّ الدنيا كلِّها إطلاقاً. وربما وصل الإنسان في مبادئ سلوكه إلى لمحاتٍ من تلك الدرجة ثم شُدَّ عنها.

فما سبب نعيم هذا الإنسان؟

فيما مضى كانت أهواؤه مفرَّقةً بين جوانحه، فجزء من حبِّه يذهب إلى هذا الذي أعطاه، لأنه هو سببُ النعيم الذي فيه، وجزء آخر من حبِّه يذهب إلى الطبيب، لأنه سببُ شفائه، وجزء ثالث من حبِّه يذهب إلى زوجته التي أنعمت عليه بالهدوء والسكينة، ورابع إلى أولاده، وخامس إلى أصدقائه، وسادس إلى ماله وتجارته.. وهكذا فقد كانت أهواؤه مفرَّقةً في هذه المكونات. فإذا ما رأى أنَّ مسبِّبَ الأسباب كلِّها إنما هو واحد لا ثاني له ألا وهو الله عز وجل، واصطبغ بهذا اليقين، فعلم يقيناً أنَّ الذي أعطاه إنما هو الله، وأنَّ الذي شفاه هو الله، وأنَّ الذي متَّعه بالسكن هو الله، والذي رزقه الأولاد وأدخل محبتهم في قلبه هو الله؛ وعاش وهو يضع هذه الحقيقة نُصْبَ عينيه وملءَ قلبه وعقله ومشاعره، عندها تجتمع أهواؤه المفرقة في حزمة واحدة وتتجه إلى العليم الخبير. فالحبُّ له لذَّةٌ عظيمة، وكانت هذه اللذة مفرَّقةً فتجمَّعتْ. من هنا تنبع السعادة ويأتي النعيم.. يقول أحدهم:

كانت لنفسي أهواء مفرَّقة ... فاستجمعتْ مذ رأتك العين أهوائي
وصار يَحسُدني من كنتُ أحسده ... وصِرتُ مولى الورى مذ صِرتَ مولائي
تركتُ للناس دنياهُم وشأنَهم ... شُغلاً بذكرك يا ديني ودنيائي

وبمقدار ما يهيمن الحبُّ على القلب، تهيمن وَحدةُ الشهود على المشاعر والعين، أياً كان المحبوب ونوعه، وإنما تتنوَّع وحدة الشهود تَبَعاً لتنوُّع المحبوب.. فالذي تولَّع بحبِّ فتاةٍ كمجنون بني عامر، لا يرى في مظهر منازلها إلا رسمَها وصورتَها، فهو يردد قائلاً:

أمرُّ على الديار ديار ليلى ... أقبِّل ذا الجدار وذا الجدارا
وما حبُّ الديار شَغَفْنَ قلبي ... ولكن حبُّ مَنْ سكن الديارا

والمرأة التي ذاب فؤادها شوقاً وتلهُّفاً على ابنها الغائب عنها، تضمُّ ثيابه إلى

صدرها وتستنشقها وتقبّلها، دون أن ترى فيها إلا صورة ابنها. فإذا اتَّجه القلب إلى محبَّة الله عز وجل - وهو أولى الكائنات كلّها بالحبِّ ولواعجه - فلا بدَّ أن يقع صاحبُ هذا القلب في المشاعر ذاتها، فهو لا يكاد يبصر الزهرةَ ويشمُّ عبيرها إلا ويذهل عنها برؤية جميل صنع الله، ولا يكاد يبصر الكواكب في هدأة الليل تتلألأ في سمائها، حتى يذهل عنها بالتأمل في عظمة الله، ولا يكاد يبصر الأطعمة المرصوفة أمامه، أو الماء النمير المتدفّق من حوله، بل لا يكاد يرجع إلى ذاته في المرآة ليتبيَّن مظهر العافية في شكله، حتى يذهل عن ذلك كلّه ويخترقه إلى وِقْفَةِ أدبٍ وشوقٍ وحبٍ يعيشها بكل مشاعره مع الله عز وجل، الذي أبدع بواسع رحمته وباهر حكمته ذلك كلَّه!

لكن هذه المرتبة - مرتبة الفناء - قاصرة، لأنَّ هذا الإنسان في هذه المرتبة لا يستطيع أن يفيد الآخرين شيئاً، فهو يعيش ذاهلاً لا يستطيع أن يكلّم أحداً. ويمكن أن نقول عنه إنه مجذوب، لأنه أشبه برجلٍ سكرانٍ، لم يشرب مُسكِراً، ولكنَّ حبَّ الله عز وجل وحده أسكره عن كل ما عدا الله سبحانه وتعالى.

وحالة الفناء هذه قد تأتي على الإنسان ثم تمرُّ، كما هو الحال بكثير من الصالحين من أمثال سهل التُّسْتَري وغيره. وقد تبقى، ففي الصالحين مَنْ عاش حياته كلها في حالة جَذْبٍ مثل الشيخ أحمد البدوي. فالقلوب أوعية، بعضها يسع ليتراً من الماء، وبعضها يسع آلاف الليترات، كقلوب الأنبياء[١].

(١) شرح الحكم العطائية الدروس الصوتية الدرس (٢) والدرس (٦٨)، إضافة إلى هذا والدي (ص ١١٧ - ١١٨).

المبحث الأول: فما الفائدة من الوصول إلى مرتبة الفناء أو (وحدة الشهود)؟

علمنا أنَّ وحدة الشهود تعني أن يرى الإنسان المكوَّنات، ولكنه لا يرى من خلالها إلا المكون سبحانه وتعالى. وهذا غير (وحدة الوجود) والتي هي كفر والعياذ بالله.

فالإنسان الذي وصل إلى وحدة الشهود يعلم أن الجبل موجود، والشجر موجود، والسماء موجودة، وأنها مخلوقات، وهي غير الخالق جل جلاله، لكنه لا يرى من خلالها إلا قُدرةَ الخالق وحكمته ولطفه وسائر صفاته.

والفائدة من الوصول إلى وحدة الشهود أن لا يتعلَّق قلبُ الإنسان إلا بالله، وتزول كلُّ مطامعه بالمال والرئاسة والشهوات والدنيا والأهواء والعصبيات، كلها تزول، لأنه لم يَعُدْ يرى شيئاً في الكون إلا اللهَ سبحانه وتعالى، والكلُّ عدم. لذلك فوحدة الشهود هذه تجعل الإنسانَ مرتاحَ الأعصاب، لا يقيم وزناً إلا للواحد الأحد جل جلاله. لا يقيم وزناً لمن يؤذونه من الناس لِعلْمه أنهم جنود بيد الله، ولا يقيم وزناً للأسباب إذا ما تعارضت مع شرع الله، ليقينه أنَّ الله هو وحده الفعَّال في الكون كله، فهو الرزاق، المعطي، المانع، الضار، النافع، وهذا هو التوحيد.

فالتوحيد هو منبع الإحسان. وكلما استغرق الإنسان في مشاعر التوحيد لله عز وجل، واستيقن أنَّ الموجود الحقيقي هو الله، وأنَّ وجودَ المكوَّنات كلِّها وجودٌ ظِلّيٌّ وتَبَعِيٌّ، وصل إلى درجة الإحسان، وعندها يعبد اللهَ كأنه يراه، وعندها يركل الأسبابَ بقدمه انصياعاً لأمر المسبِّب جل جلاله.

ولكن عندما لا يصل الإنسان إلى درجة وحدة الشهود، فإنَّ الأمر يكون خطيراً.. لماذا؟

لأنَّ الأسباب عندئذٍ تستذِلُّه فيصبح أسيراً لها، وعندها يتسرَّب إليه الشيطان

ويَعِدُه الفقرَ والحِرمانَ إنْ هو نفَّذ أوامر الله. فيخالف أوامر الله لأنه يقيم الأسبابَ مكانَ أوامر الله، ويؤلِّهها ويَدين لها بالعبودية بدلاً من العبودية لله.

مثال: إن ٩٠٪ من الناس لا يدفعون زكاة أموالهم، ذلك لأنَّ شبحَ الأسباب خوَّفَهم من دفع الزكاة، وبالتالي فهم يُصدِّقون وَعْدَ الشيطانِ ولا يُصدِّقون وعدَ الله القائل: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾﴾ [البقرة: ٢٦٨]. إنهم يَقْدِرون للأسباب قَدْرَها، ولا يَقْدِرون للمسبِّب جل جلاله قَدْرَه، فنسوا جرّاء ذلك أَمْرَ المسبِّب، متوهِّمين فاعليةَ الأسباب!

الرسول ﷺ يقول: (ما نقصتْ صدقةٌ من مال)[1]، وهم يقولون: بل ينقص المال إذا أخرجنا منه الزكاة! يقبضون أيديهم عن دفع الزكاة، فإن هم - في أحسن الأحوال - أخرجوها فإنهم يدفعونها بضاعةً كاسدةً عندهم، يمتنُّون بها على الله، آخذين بفتوى ضعيفةٍ جداً تتناسب وضَعْفَ إيمانهم.. وهذا مكر، والله لا يُمكر به.

مثال آخر: إذا عُرضت لإنسانٍ صفقةٌ مالية فيها شائبةُ رِباً، فإنَّ الشرع يقول له: هذه صفقة غير جائزة. فإنْ كان إيمانُه بالله عز وجل يقف عند حدود العقل، أما سلطان الأسباب فمهيمن عليه، فإنه لا يستطيع أنْ يتحرَّر من أسرها.. يفكِّر ويفكِّر، ثم يغمض العين متناسياً نهيَ الله مخترقاً إياه، لأنه يتصوَّر أنَّ السببَ هو مصدرُ رزقه.

أما إنْ كان ممَّن وصل إلى وحدة الشهود فإنه يتجاوز الأسباب إلى المسبِّب، يقيناً بما أخبره به المسبِّبُ جل جلاله حين قال: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟﴾ [البقرة: ٢٧٦]، ويعلم يقيناً وسلفاً أنها صفقةٌ خاسرةٌ ممحوقةٌ بركتُها، لذلك يقول: الله هو الرزاق، وعندما أُرضِيه وأقفز فوق هذه الصفقة إرضاءً له، فإنه يعوِّضني عنها خيراً ويبارك لي. وتلك هي مزية التوحيد، فعندما أعلِّق آمالي بالله عز وجل حقيقةً، فإنه سبحانه يجعل

---

(١) رواه مسلم (٢٥٨٨) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

أسبابَه خدماً لي، ولكنْ عندما أعلّق آمالي بالأسباب فإنه جل جلاله يَكِلُني إليها ويرفع عني يد اللطف والمعونة والتوفيق(١).

المبحث الثاني: وما هي مخاطر الوصول إلى مرتبة الفناء أو (وحدة الشهود)؟

إنَّ مخاطر الوصول إلى هذه الدرجة تكمن في أنَّ السالك إلى الله عز وجل عندما يصل إلى درجة الفناء، يشعر بلذة القرب من الله، يشعر بلذة العبادة ولذة الإقبال على الله، ويشعر بالأنوار الإلهية التي يخفق لها قلبه. فإذا شعر الإنسان بهذه اللذائذ، وشعر بفنائه عن الدنيا ومراقبته لله عز وجل، فإنه - في لحظاتٍ معينة - تستيقظ بشريَّته فيُعجب بنفسه ويظنُّ أنه قد وصل وقطع الأشواط كلها إلى الله، وكأنه قد أصبح ملكاً من الملائكة !

هذه هي نقطة الضعف التي يركّز عليها الشيطان، ومن نقطة الضعف هذه يُخرِجه من نطاق التكليف.. كيف؟

يقول له الشيطان في سره: لقد وصلتَ إلى مراتب الصديقين، والعبادةُ إنما هي من أجل أن يصل الإنسان إلى ربه، وقد وصلت. وما الأذكار والطاعات إلا من أجل صَقْل القلب، وقد صُقِل قلبُك. وما السر في الابتعاد عن المعاصي إلا من أجل ألا تنكت في قلبك نكتة سوداء، وقد ابيضَّ قلبك وأصبح مليئاً بالأنوار القدسية. فالمعاصي إذن لا تضرك، والطاعات لا تفيدك، لأنك قد وصلتَ إلى الله !

إذا أصغى السالك إلى هذا الوسواس، وترك الواجبات والطاعات، اعتقاداً منه أنه قد وصل، فإنه يهوي من المرتبة العليا إلى قاع الزندقة. وقد وقع هذا الوهم لكثيرٍ من الناس، وسببه الجهل، فقد بلغ النبيُّ ﷺ أعلى مراتب القرب إلى الله، ولكنَّ ذلك لم يترتَّب عليه رفعُ التكليف، بل ظلَّ ﷺ يؤدّي التكاليف حتى آخر لحظةٍ من حياته.

---

(١) شرح الحكم العطائية الدروس الصوتية الدرس (٥٥).

نعم. لقد كانت الصلاة هي آخر ما انتهت عليه حياته ﷺ، وأوصى بها أصحابَه قائلاً: (الصَّلاةَ الصَّلاةَ)[١]، والله عز وجل يقول له: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾ [الشرح: ٧]، أي لا تكاد تفرغ من أداء واجبٍ من الواجبات، إلا وعليك أن تعود مرة أخرى إلى الجهد والقيام بالواجب الذي كلَّفكَ الله به، فرحلة التكليف لا تنتهي إلا بالدخول في ساحة الموت.

وهناك خطر آخر، هو أنَّ الله عز وجل قد يكرم هذا السالك بنوعٍ من الخوارق والكرامات، وتلك فتنة أخرى. ذلك لأنَّ هذا السالكَ أمام هذه الخارقة التي أُكرم بها، يظنُّ نفسه من الأولياء الواصلين إلى الله عز وجل، وعندئذٍ يهوي من شاهقٍ ويقع وتندقُّ عنقه، ويرجع إلى شر الأحوال.

فماذا يقول الربانيون لمثل هذا السالك؟

يقول ابن عطاء الله رحمه الله لمثل هذا الإنسان محذِّراً: (ما أرادتْ هِمَّةُ سالكٍ أن تقفَ عندما كُشِف لها، إلا ونادته هواتفُ الحقيقة: الذي تطلب أمامك، ولا تبَرَّجتْ له ظواهرُ المكوَّنات إلا ونادته حقائقُها ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾)[٢].

أي ما أرادت هِمَّةُ سالكٍ أن تقف عندما كشف لها من الأنوار والتجليات والشعور بالقرب من الله عز وجل، ظناً منه أنه قد وصل، إلا ونادتْه هواتفُ الحقيقة، أي حقائقُ الشريعة التي ينبغي أن يُلجِم بها سلوكه إلى الله تقول له: إياك أن تقف، وإياك أن تصغي إلى هذا الوسواس. فما تطلبه من مرضاة الله أمامك بعد. وما تسعى إليه من تطهير قلبك من الرعونات لم يتم بعد. مهما سرت ومهما قطعت أشواطاً،

---

(١) حديث: (كان آخر كلام رسول الله ﷺ الصلاة الصلاة، اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم) أخرجه أبو داود في السنن (٥١٥٦)، وأحمد في المسند (٥٨٦)، كلاهما عن علي، ورواه ابن ماجه (١٦٢٥) عن أم سلمة بلفظ قريب.

(٢) الحكمة (٢٠).

هدفُك لا يزال أمامَك، ولا تصل إلى الهدف إلا بالدخول في ساحة الموت.

ولا تبرَّجتْ له ظواهر المكوَّنات، وتزيَّنتْ له بالخوارق والكرامات، إلا ونادتْه حقائقها: (إنما نحن فتنة فلا تكفر)، فإياك أن تقف عند هذه الخوارق التي قد تراها، بل مُرَّ عنها وتجاوزْها ولا تلتفت إليها، ولا تعتبرْها دليل قربٍ من الله أبداً، فلربما كانت استدراجاً. فإن أنت وقفت عندها فَتَنَتْكَ، وكان فعلها كفعل الخمرة في الرأس، فإياك وإياها!

فمن أين استقى ابن عطاء الله هذا الكلام؟

استقاه من قوله تعالى: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ۝٩٩﴾ [الحجر: ٩٩]، واليقين فيما قاله علماء التفسير هو الموت. هذه الآية القرآنية هي الكابح للإنسان مهما ارتقت درجته. والعبادة إنما هي فعل المأمورات وترك المحظورات.. إذن فالتكليف لا يرتفع، والواجبات لا تُنسخ، والمحرمات لا تباح، طالما كانت الروح تخفق وراء صدورنا. حتى إذا أخذ الله هذه الأمانة من بين جوانحنا ارتفع التكليف، فالتكليف لا يرتفع إلا بارتفاع العقل أو بارتفاع الحياة.

كذلك فالخوارق ليست دليل قربٍ إلى الله، وإنما مقياس قرب الإنسان من الله أو بُعدِه عنه شيء واحد، هو مدى انضباطه بأحكام الشرع. يقول الجنيد البغدادي: (الاستقامة عين الكرامة)، فأعظم لونٍ من ألوان الكرامة هي استقامة الإنسان على ما يُرضي الله عز وجل، أما الأشياء الأخرى فقد تكون استدراجاً.

وهذا هو السرُّ في أنَّ رجالاً كثيرين في التاريخ الإسلامي، لم يكونوا صالحين، ومع ذلك فقد جرت على أيديهم خوارق، وفُتِنَ الناس بهم. فهذه خوارق شيطانية، خوارق يُجريها الشيطان خدمةً لنفسه على يد شيخٍ من الشيوخ، فيسكر الشيخ بها، فيَضِلُّ ويُضِلُّ. وكم من فِرَقٍ ضالَّةٍ نجمت عن هذا.

إذن فينبغي للإنسان ألا يُفتَن - وهو يسير إلى الله عز وجل - لا بقُربٍ يشعر به من الله، ولا بكرامةٍ أو خارقةٍ يجريها الله على يديه.

كان عمر بن الخطاب ﷺ، إذا وقعت له بعض الخوارق، فإنه سرعان ما يفعل فعلاً يُشينه أمام الناس، حتى إنه ليغطّي تلك الخارقة التي تجعل له مكانةً في قلوب الناس، بشيء يُقلّل من مكانته في قلوبهم، أو أنه يتناساها فلا يذكرها. فقد أرسل جيشاً إلى نهاوند بالعراق وأمّر عليهم رجلاً اسمه (سارية). وبينما عمر ﷺ - بالمدينة - يخطب جعل يصيح على منبره ويقول: (يا سارية الجبلَ الجبلَ)، فلما فرغ من صلاته سأله عليٌّ ﷺ عن ذلك فقال: وهل كان ذلك مني؟ قال: نعم، وسمعه جميع أهل المسجد، قال: إنه وقع في خَلَدي أنَّ المشركين هزموا إخواننا فركبوا أكتافهم، وأنهم يمرُّون بجبل، فإن عدلوا إليه قاتلوا من جانب واحد فظفروا، وإن جاوزوه هلكوا، فخرج مني ما تزعم أنك سمعته. وجاء البشير بالفتح بعد شهر، فذكر أنه سمع في ذلك اليوم، في تلك الساعة، حين جاوزوا الجبل، صوتاً يشبه صوت عمر يقول: (يا سارية الجبلَ الجبلَ) قال فَعَدَلْنا إليه ففتح الله علينا. ويروى أن عمر ﷺ سئل فيما بعد عن كلامه هذا فلم يذكره[١].

وروى كثير من العلماء والمحدِّثين رواية الشيخ أحمد الرفاعي، الذي حجَّ إلى بيت الله الحرام، ثم توجّه لزيارة المصطفى ﷺ، ولما وقف على مثواه ﷺ قال:

في حالة البعد روحي كنت أرسلها   تُقبِّل الأرض عني وهْيَ نائبتي
وهذه دولة الأشباح قد حضرت   فامدُدْ يمينك كي تحظى بها شفتي

---

(١) انظر كتاب (أسد الغابة في معرفة الصحابة) لابن الأثير الجزري، ط دار الكتب العلمية (٢/ ٣٨٠) و (٤/ ١٣٧)، وانظر كتاب (تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام) للذهبي، ت بشار، (٢/ ١٣٧).

قالوا: فمُدَّت يدٌ من داخل الشباك، فهرع إليها سيدنا أحمد الرفاعي فقبَّلها[(١)]، ثم مضى إلى باب الحرم النبوي واضطجع ووضع خده على الأرض، وأصرَّ ألا يرفعه حتى يمرَّ الناسُ كلُّهم واضعين قدمهم على خدِّه، سحقاً لنفسه كي لا يُداخلها شيء من المباهاة بذلك الأمر[(٢)].

ورحم الله القائل: (أعظم الكرامة لزوم الاستقامة).

إذاً.. لا يوجد تصوُّفٌ يقفز فوق الشريعة، وإنما التصوف هو ذاك الذي يجمع بين الشريعة- أي الواجبات الظاهرة- والحقيقة- أي إتقان النية وإصلاح القلب- إنه التصوف الذي يترعرع على أرضية الإسلام.

وإننا عندما نتكلم عن التصوف، فعن هذا التصوف نتكلم. وإلا ففي الهند يوجد تصوف، وكذلك عند الملاحدة يوجد نوع من التصوف، والوجوديون أيضاً لهم تصوف، وما أكثر التصوفات البوهيمية واللاأدرية والهبِّية التي تنتشر في العالم. ولكننا عندما نتكلم عن التصوف ونحن ضمن دائرة الإسلام، فإننا نتكلم عن ذلك التصوف الذي يضبطه كتابُ الله وسنّةُ رسوله. وهو التصوف الذي يعني العكوف على إصلاح القلب ورفع الإنسان نفسَه إلى درجة الإحسان، أي إلى درجة أن يعامل الله وكأنه يراه[(٣)].

المرحلة الثالثة: مرحلة البقاء

إذا داوم الإنسان على هذا المنوال، يذكر الله ويأخذ نفسه بالسُّبُل التربوية ذاتها، فإنه يعود من الفناء إلى البقاء. يعود مرةً ثانيةً ولكن إلى درجةٍ أرقى، فيرى المكوِّناتِ

---

(١) كتاب (بيان المعاني) لعبد القادر العاني (٤/ ٨٠) قال: وهي واقعة مشهورة متواترة.

(٢) هذه القصة ذكرها الدكتور البوطي رحمه الله في شرحه للحكم من خلال الدروس الصوتية الدرس (١٥١).

(٣) شرح الحكم العطائية الدروس الصوتية الدرس (٣٤).

والناسَ والأسبابَ فيتفاعل معها ويتعاون معها، ولكن هذه المكوَّنات والأسباب لا تحجبه عن الله سبحانه وتعالى شروى نقير. فهو لله يعيش، ومع الله يعيش، وبالله يعيش، وفي الوقت ذاته يكون متفاعلاً مع الدنيا والناس، يأخذ منهم ويعطي، ويتعامل ويتاجر ويَدْرُس ويُدَرِّس، ويُفيد ويستفيد. وهذه هي مرتبة الأنبياء والصِّدِّيقين. وقد عبَّر الإمام فخر الدين الرازي عن هذه الدرجة بقوله: (كن ظاهراً مع الخلق، باطناً مع الحق)، أي عِشْ مع الناس فيما يعيشون، ولكن اجعلْ قلبك دائماً مع الله عز وجل.

وهذه الدرجةُ صعبةُ الممارسة، لأنَّ الإنسان إمَّا أنْ ينزلق فينسى اللهَ مسبِّبَ الأسباب، بسبب عيشه مع دنيا الأسباب والناس، وإما أن لا يتسع قلبه، فيفيض قلبه بالوحدانية ويذهل عن الدنيا. فهذا نقصان وذلك نقصان أخطر.

كل الرسل والأنبياء كانوا يعيشون في هذه المرتبة، وكذلك الصحابة وكبار التابعين وتابعيهم كالحسن البصري والجنيد البغدادي ومالك بن دينار، مع وجود التفاوت بينهم. وعندما يصل الإنسان في إيمانه بالله عز وجل إلى هذه المرتبة فإنه يكون قد بلغ رتبة الصِّدِّيقين.

عندما وُضع إبراهيم عليه السلام في المنجنيق ليُقذَف في النار، ضجَّتِ الملائكة وطلبت من الله العون، فأمرهم الله عز وجل أن يذهبوا ويقدِّموا لإبراهيم عليه السلام ما يشاء. وجاء إسرافيل وملك الرياح وملك الجبال يعرضون على إبراهيم عليه السلام خدماتهم، يقولون: (أمَا لك من حاجة)؟ فيقول عليه الصلاة والسلام: (أمَّا إليك فلا). أي أنت لا شيء، والأسبابُ كلُّها لا شيء، فماذا عسى تفيدني! وإن أردتَ أن تفيدني، ففائدتي منك تأتي من عند الله عز وجل. فقال جبريل عليه السلام: (فَسَلْ ربَّك)، قال إبراهيم: (حسبي الله ونعم الوكيل). أي لا أعلم في الكون أحداً هو الفعَّال إلا الله، إذن فهو حسبي وإليه فوَّضتُ أمري وهو يفعل بي ما يشاء.

لم يُبالِ إبراهيم عليه السلام بهذه النار التي تضطرم أمامه، لأنه لم يكن يراها، بل كان يرى الفعَّالَ وحدَه سبحانه وتعالى. فالذي يحرق هو الله سبحانه وتعالى وليست النار، وإذا شاء ألا تحرق فلن تحرق. وإذاً فأمرُ سيدنا إبراهيم عليه السلام عائد إلى الله عز وجل، لا إلى النار ولا إلى النمرود، لذلك لم يكن إبراهيم عليه السلام يرى قيمةً لهذه الموجودات كلِّها، ولم يكن يرى في الكون كله إلا المكوِّن جل جلاله، فقال: (حسبي الله ونعم الوكيل).

إنَّ الضوءَ الساطع عندما يظهر، تختفي إثره أضواءُ الشموع!

وإنَّ النجوم التي نراها في الظلام، تختفي في رابعة النهار، حيث الشمس الوضّاءة المشرقة تنشر أشعتها في الربوع!

وإنَّ القلبَ الذي تتلألأ فيه وحدةُ شهودِ المكوِّنِ جل جلاله، تنكسف فيه صورُ المكوَّنات، وتَبرز أمامَه قيّوميّةُ الله عز وجل في كل شيء، فهو جل جلاله القائم بأمر الكون كله وما الأسباب إلا جنودٌ مجنَّدة لسلطان الله عز وجل، وهو جل جلاله لحظة فلحظة يربط الأسباب بمسبِّباتها، ومتى شاء فَصَلَ بينها، فلا النّار تُحرِق، ولا السكِّين تَقطع، ولا الطعام يُشبع، ولا الماء يُرْوِي(١).

المبحث الأول: إذا كانت مرحلة البقاء هي وحدة الشهود مع بقاء التعامل مع الأسباب، بخلاف مرحلة الفناء، فلماذا إذاً لم يتعاملْ سيدُنا إبراهيم عليه السلام مع الأسباب عندما زُجَّ في النار؟

الجواب: إنَّ إبراهيم على نبيِّنا وعليه الصلاة والسلام في أوقات رخائه وفي حياته العادية، كان يتعامل مع الأسباب ويحترمُها، ولم يكن يعرِّض نفسَه للهلاك. إنه عليه الصلاة والسلام ما كان يَمُدُّ أُصبُعَهُ إلى النار الحامية ثم يقول: الله قادر على عدم

---

(١) شرح الحكم العطائية الدروس الصوتية الدرس (٢).

إحراقي! أبداً ما كان يفعل ذلك. لأنه يعلم أنَّ النار قد جعلها الله عز وجل مُحرِقةً، وأنه لا ينبغي له أنْ يعرِّض نفسَه لهذا السبب من الهلاك، فكان عليه الصلاة والسلام يحترم الأسبابَ لأنَّ الله عز وجل أقامه فيها، فإرادتُه التجريدَ - وقد أقامه الله في الأسباب - شيء لا يتفق مع آداب الإسلام.

ولكنْ لمَّا أقامه الله عز وجل في التجريد - وهو انقطاع الأسباب - وذلك عندما حطَّم الأصنامَ وحكمتْ محكمةُ النمرود عليه بالحرق؛ هنا نَقَلَ اللهُ عز وجل سيدنا إبراهيمَ عليه السلام من عالم الأسباب إلى عالم التجريد. لم يتكلَّفْ إبراهيم عليه الصلاة والسلام هذا، ولكنه زُجَّ في هذا الوضع، فينبغي عليه الآن أن يرحِّبَ بما زجَّه الله فيه، ويطرحَ الأسبابَ جانباً. وهذا ما حصل، فقد استغرق إبراهيم عليه السلام في عالم التجريد، ولم يَعُدْ يرى أمامه إلا الله سبحانه وتعالى. حتى الملائكةَ لم يَرَهَا. ولما قال له جبريل عليه السلام: (فَسَلْ ربَّكَ)، قال: (حسبي الله ونعم الوكيل). وهذه الكلمة تنطوي على دعاءٍ عظيمٍ ينسجم والحالةَ التجريديةَ التي زُجَّ فيها، فهو عليه الصلاة السلام يرمُقُ بعينه الآمِلةِ فرجَ الله ونصره وكرمه، وكأنه يقول: الله عز وجل وحده يكفيني عن كل شيء، وهو وحده أرحم بي من نفسي ومن كل شيء، لذلك اتخذتُه وكيلاً لي عن كل شيء، فهو وحده الذي يتولى شأني، وهو وحده يكفيني.

فكانت النتيجة أنْ ردَّ الله عنه محكمةَ النمرود التي قضت بـ: ﴿حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٦٨]، بمحكمته التي قضت بـ: ﴿يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩].

فمحكمة الله عز وجل هي النافذة، لأنه جلَّ جلاله هو ربُّ النمرود وربُّ النار ومالكُها وخالقُها الذي أعطاها صفةَ الإحراق، ومتى شاء سلبها هذه الخاصية؛ فالكلُّ جُنْدُه ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١].

فهما إذن حالتان:

- حالة الأسباب والأخذ بها، وهي تتنافى مع التجريد.

- وحالة التجريد بأن يتعالى عن الأسباب ولا يتعامل إلا مع المسبِّب الحقيقي، وهو الله عز وجل.

فأي الحالتين خير؟ وفي أيِّ الحالتين ينبغي للمؤمن أن يكون؟ هل ينبغي أن يكون متجرِّداً عن الأسباب نظراً إلى إيمانه بأن الله سبحانه وتعالى هو المسبِّب؟ أم ينبغي أن يكون متفاعلاً مع الأسباب نظراً إلى أنَّ الله عز وجل أقام كونَه عليها؟

يجيبنا عن هذا السؤال ابنُ عطاء الله السكندري - العالم العبقري الحكيم - في هذه الحكمة المكثَّفة الدقيقة فيقول: (إرادتُك التجريدَ مع إقامته إياك في الأسباب مِنَ الشهوة الخفيَّة، وإرادتُك الأسبابَ مع إقامته إياك في التجريد انحطاطٌ عن الهِمَّة العليَّة)(١).

أي إذا نظرتَ فوجدتَ أنَّ الله عز وجل أقامك في عالم الأسباب - وهذا هو الأصل - فتعاملْ معها ولا تتجاهَلْها ولا تحاولْ أنْ تقفز فوقها. فإنْ أنت حاولتَ ذلك وقلتَ: الله هو الفعَّال وهو المسبِّب لكل شيء، فأنا لا أريد أن أرتوي بالماء وأريد أن أرتوي بقدرة الله، وأريد أن أكون عالماً ولكنْ متجاوزاً الأسباب، فالله عز وجل قادر على تعليمي من غير الأخذ بالأسباب!

إنْ أنت تكلَّفْتَ لنفسك السير في طريق التجرُّد عن الأسباب، مع أنَّ الله عز وجل أقامك في عالم الأسباب، فهذه شهوةٌ خفيَّةٌ - قد لا تشعر بها - تريد من خلالها أن تجعلَ من نفسك إنساناً يعيش فوق ما يعيشه الناس، لأنك - فيما تظن - من المقرَّبين إلى الله عز وجل، وأنَّ الله يعاملك معاملةً خاصَّةً.. ففي الوقت الذي لا يرتوي فيه

---

(١) الحكمة (٢).

الناس إلا بواسطة الماء، فإنَّ الله يُرويكَ بدون ماء. وفي الوقت الذي لا يتعلَّم فيه الناس إلا بِطَرْقِ باب التعلُّم والأَخْذِ بأسباب الدراسة وطلب العلم، فإنَّ الله يعلِّمك بدون الأخذ بهذه الأسباب.

فإن أنت تكلَّفتَ لنفسك السير في هذا الطريق، مع أنَّ الله عز وجل أقامك في عالم الأسباب، فهذه عبارة عن شهوة ولكنها مُقنَّعةٌ بالدين، مُقنَّعةٌ بالقرب من الله عز وجل. وهذا سوء أدب مع الله سبحانه وتعالى.

على الإنسان أنْ يستسلم لنظام الله عز وجل الذي أقامه عليه، وهو نظام الأسباب، وألا يتجاهله ولا يقفز فوقه، ولو جاز لأحدٍ أن يطرح الأسباب جانباً استجابةً لمشاعر شهود الله عز وجل، لكان أوَّلَ من ينبغي أنْ يفعل ذلك هو رسولُ الله ﷺ. ولكنَّ حياتَه كلَّها قائمةٌ على الأخذ بالأسباب واحترامها، مع شهوده لله عز وجل من خلال ذلك. وهكذا ربَّى ﷺ أصحابه، فكانوا على اختلاف مشاربهم يحترمون الأسباب ويتفاعلون معها، ولا يتكلَّفون إطلاقاً تجاهلَها. هذا ما أكَّده لنا رسول الله ﷺ بقوله: (أنا وأتقياء أمتي بُرآء من التكلُّف)[١]. ومِنَ التكلُّف أنْ تتقعَّر في حياتك وتتكلَّف لها نظاماً غير نظام الله السائد العام، فهذا من التكلف الممجوج الذي ينهى عنه رسول الله ﷺ.

ثم يقول ابن عطاء الله رحمه الله: (وإرادتُك الأسبابَ مع إقامته إياك في التجريد انحطاطٌ عن الهِمَّة العليَّة)، فعندما يقيم اللهُ عبدَه بعيداً عن الأسباب، ويزجُّه في

---

(١) قال النووي عنه: ليس بثابت، وأخرجه الدارقطني في الإفراد بسند ضعيف عن الزبير بن العوام مرفوعاً: (ألا إني بريء من التكلف وصالحو أمتي)، وذُكر في إحياء علوم الدين: (أنا وأتقياء أمتي برآء من التكلف)، وأخرجه ابن عساكر بلفظ: (اللهم إني وصالحي أمتي برآء من كل متكلف)، ويؤيده ما أخرجه البخاري عن أنس عن عمر ﷺ قوله: (نُهينا عن التكلف) صحيح البخاري (٦٨٦٣).

التجريد، فمن الأدب حينئذٍ أنْ يتعلّق بالمسبِّب وينسى الأسباب. أمَّا إنْ طرق الأسباب وحنَّ إليها، وقد أقامه الله عز وجل في التجريد، فهذا انحطاطٌ عن الهمَّة العليَّة التي ينبغي أنْ يرفعَه إيمانُه إليها.

عندما يريد الله عز وجل منا أن نتجرَّد عن الأسباب، فإنه يريد ذلك منا في سبيلِ ما هو أهمُّ من الأسباب، ألا وهو تطبيقُ وتنفيذُ أوامر الله عز وجل. في هذه الحالة ينبغي ألا نرى الأسباب، وينبغي أن نتفوَّق عليها ونعتمد على المسبِّب جل جلاله.

أمثلة:

- إذا دعا الداعي إلى الجهاد، وسيِّدُ الجهاد - بعد جهاد النفس - الدعوةُ إلى الله عز وجل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والنوع الثاني من الجهاد هو الجهاد بالسلاح، وهو من أحكام الإمامة، أي ينصاع الأفراد إلى هذا الجهاد عندما يقوم بالمبادرة والدعوةِ إليه أئمَّةُ المسلمين - أي حُكّام المسلمين - دون غيرهم؛ عندها على المسلم أن يستجيب ويلبِّي هذه الدعوة. وعندها سيجد المسلمُ نفسَه بعيداً عن الأسباب، فأسبابُ الرعاية للحياة تقتضيه أن يكون آمناً في سربه مع أهله وأولاده، يرعى حياته ضدَّ ما يهدِّدها من المخاطر. ولكنَّ الله عز وجل قد زجَّ عبده في التجريد.. هنا على العبد أن يتناسى الأسباب معتمداً على المسبِّب، ويقول: الأجلُ بيد الله، وخروجي إلى القتال في سبيل الله عز وجل لا يقرِّب أجلي لحظة، وعدم خروجي لا يزيد من أجلي لحظة، فعليَّ إذن تطبيقُ أمرِ الله متوكِّلاً على الله وحده.

- إذا كان البابُ المفتوح لك للرزق يأتي منه الرزق الحرام الذي يتنافى مع تعاليم الشرع الحنيف، وليس أمامك بابٌ آخر للرزق الحلال، هنا ينبغي أن تغامر وتُغلق هذا الباب من الرزق وتنسى الأسبابَ، وتتذكَّر المسبِّبَ جل جلاله. فإنْ قال لك قائل: ما ينبغي أن تغلق هذا الباب من الرزق، وإلا فما مصير زوجتك وأولادك؟! ويُذكِّرك بالأسباب وبأنَّ عليك أن تحترمها! فقل له: لا، هنا في هذه

الجزئية من حياتي أقامني الله عز وجل في التجريد، فينبغي أن أتفاعل مع ما أقامني الله به، وما ينبغي أن أتمسَّك بالأسباب وأضحّي بما أمر به الله عز وجل.

وقد اجتمعت هاتان الحالتان - الأسباب والتجريد - معاً في مشهدٍ واحد، وهو هجرة النبي ﷺ من مكة إلى المدينة:

- ففي المرحلة الأولى من هجرته كان ﷺ محفوفاً بعالَمِ الأسباب، وكان يتفاعل معها كأي إنسان آخر. ومن هذه الأسباب:

١ - أنه ﷺ أنام علياً ﷺ في فراشه، حتى يتوهَّم المشركون أنه ما زال في بيته، فلا يرسلوا في طلبه والبحث عنه.

٢ - أن أسماء ﷺ هيأت له جراباً من الطعام والزاد.

٣ - أنه ﷺ سلك طريقاً مخالفاً للطريق المعتاد، حتى وصل وصاحبُه إلى غار ثور، ويقع جنوب مكة باتجاه اليمن، بغية تضليل المطاردين، ومكث فيه ثلاث ليال.

٤ - كان عامر بن فهيرة مولى أبي بكر ﷺ، يرعى غنمه بمكة. وكان عبد الله بن أبي بكر ﷺ يبيت عند رسول الله ﷺ وصاحبِه في الغار، ويخرج من عندهما بسَحَرٍ، فيصبح مع قريش بمكة كبائت، ثم يرجع إلى الغار بعد حلول الظلام ليأتيهما بخبر قريش. أما عامر بن أبي فهيرة فكان يَتْبَعُ أثرَه بالغنم حتى يُمحى أثرُه، يفعل ذلك في كلِّ ليلةٍ من تلك الليالي الثلاث.

ولكن لما نَفَضَ رسولُ الله ﷺ يدَه من الأسباب وتابع سيره إلى المدينة بعد أن أدّى كلَّ ما ينبغي عليه من أسباب الحِيطة والحذر، ولحِق به سراقة وأصبح منه على مرمى سهمٍ أو أقلَّ، وسراقة على فرس، أما رسول الله ﷺ فعلى ناقة؛ هنا نقل اللهُ رسولَه ﷺ من الأسباب إلى التجريد، فالأسباب كلها قد أداها وانتهى. وننظر فنجد رسولَ الله ﷺ وكأنه شخص جديد، غير الذي مارس تلك الأسباب كلها.

ونجد أبا بكر ﵁ يلتفت خائفاً وهو يسمع وَقْعَ فرس سراقة. أما رسول الله ﷺ فيتابع السير في الطريق ولا يلتفت أبداً، وهو يقرأ كتاب الله عز وجل، ولا يعير لما يسمع أيَّ اهتمامٍ إطلاقاً. ودنا منه سراقةُ أكثر، ورسولُ الله ﷺ لا يلتفت أبداً. فقد انتهى زمن الأخذ بالأسباب ولم يبقَ إلا التعلُّقُ بربِّ الأسباب وخالقها، ربِّ العالمين. هنا في مرحلة التجريد يظهر علوُّ الهِمَّة، وعلوُّ الهِمَّة من الإيمان.

في الماضي احترم الأسبابَ وأخذ بها عبوديةً لله عز وجل واحتراماً لنظام الله عز وجل في كونه. والآن وقد زالت الأسباب من عينيه، وقف وجهاً لوجهٍ أمام شهودِ الله عز وجل وعظمتِه وقدرته، فكانتِ النتيجةُ أنْ ساختْ قوائم فرسِ سراقةَ في الرمال - كما ورد في الصحيح - ولم تزل تسيخ مرةً إثر مرةٍ حتى أيقن أنه ممنوع عن رسول الله ﷺ. فنزل عن فرسه وناداهم بالأمان، فوقف رسولُ الله ﷺ وصاحبُه، وركب سراقة فرسه حتى وصل إليهما. قال سراقة: يا نبيَّ الله مُرني بما شئت. قال ﷺ: فقِفْ مكانك لا تتركَنَّ أحداً يلحق بنا. فجعل سراقةُ لا يلقى أحداً من الناس يلتمس رسولَ الله ﷺ إلا ردَّه قائلاً: قد كفيتك ههنا، فيرجع عنه(١) (٢).

فكن - يا عبد الله - حيث أقامك الله ذو الفضل العظيم، وعلامةُ الإقامةِ حصولُ الاستقامة وتيسيرُ الأسباب من الكريم الوهاب.

- فإن قلتَ: كيف السبيل للوصول إلى هذه الدرجة، فأنا خاضع لعالم الأسباب مُسْتَرَقٌ لها؟

الجواب: أَدِمْ ذِكرَ الله، أكثِرْ مِنْ تَذَكُّرِ الله، أَدِمْ تَذَكُّرَ أسماء الله الحسنى وعِشْ معها، تجد أنَّ الأسبابَ قد ذابت ثم ذابتْ، وتجد أنك دائماً مع الله عز وجل.

---

(١) انظر قصة هجرة النبي ﷺ إلى المدينة في صحيح البخاري (٣٦٩٢).
(٢) شرح الحكم العطائية الدروس الصوتية الدرس (٤ - ٥).

وقد علمنا سابقاً أنَّ المقصود بالذكر هو تَذَكُّرِ الله جل جلاله عملاً بقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ۝٢٠٥﴾ [الأعراف: ٢٠٥]. فالمراد هو التذكُّر وعدمُ الغفلة عن الله عز وجل، والتذكُّرُ حالٌ من أحوال القلب لا اللسان، وقد شرحنا ذلك سابقاً. ولكن نضيف ههنا نقطةً جديدة هي:

المبحث الثاني: قد يقول قائل: لطالما أنَّ المطلوب هو إحياءُ القلب بتذكُّر الله عز وجل إذن فما جدوى ذكري لله باللسان وقلبي مشغول.. أليس هو ذكر لا فائدة منه؟!

نقول له: لا تترك الذكر بسبب انفراد اللسان به، ولو كان القلب غافلاً، لأنَّ غفلتك بأن لا تذكر الله لا بلسانك ولا بقلبك، أخطر من غفلتك بأنْ تذكر الله بلسانك وقلبك غافل، أي إنَّ غفلتك عن الذكر كلياً، أخطر من غفلتك أثناء الذكر.

استمرَّ على ذكرك لله عز وجل بلسانك وإنْ كان قلبك مشغولاً بالأمور الدنيوية، فصحيح أنَّ اللسانَ هنا منفصل عن القلب، ولكنْ مع الاستمرار والاستمرار يرتبط اللسانُ بالقلب وتصبح ذاكراً لله عز وجل بقلبك ولسانك معاً. كشأن الأداة المسمَّاة (ما ناويل) التي كانت تستعمل لتحريك السيارة، تُستعمل بشكلٍ متكررٍ ومن ثم ينطلق المحرِّك.

المهم أن تستمر على ذكر الله عز وجل، وتجاهدَ نفسك على ذلك مستعيناً بالله عز وجل بكثرة الالتجاء إليه والدعاء والتضرع، عندها ينقلك الله عز وجل:

١ - من ذكر مع وجود غفلةٍ، إلى ذكرٍ مع وجود يقظة: أي ينقُلُك ويرفَعُك من ذكر اللسان لله عز وجل والقلبُ غافل، إلى ذكر اللسان لله عز وجل والقلبُ متيقِّظ. فاليقظةُ هي أن يدرك القلبُ معنى الكلام الذي يردِّده اللسانُ، حين يقول مثلاً: أستغفر الله العظيم وأسأله التوبة، سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم.

٢ - ومن ذكرٍ مع وجود يقظةٍ، إلى ذكرٍ مع وجود حضور: ومعنى الحضور، حضور القلب مع الله، وهي درجة أعلى من يقظة القلب. إذ يشعر العبدُ أنه في حضرة الربِّ جل جلاله، وأنه ضئيل وضعيف أمام عظمة الخالق جل جلاله. في هذه المرحلة - مرحلة الحضور - تبدأ لذَّةُ الذكر، وهي أعلى من اللذائذ كلها، ومهما ناجيتَ الله، ومهما كانت كلماتك، فكلُّها تصبُّ في ذكر الله عز وجل. ربما كنت تبجِّله، ربما كنتَ تعظِّمه، ربما كنتَ تشكره على نعمه، ربما كنت تشكو إليه، ربما كنتَ تسأله وتطلب منه. المهم أنَّ قلبك منصرفٌ إلى الله عز وجل، وهذا ما يُعبَّر عنه بالخشية أو الخشوع والشعور بأن الله يراك.

٣ - ومن ذكرٍ مع وجود حضورٍ، إلى ذكرٍ مع غَيبةٍ عما سوى المذكور: وهذه أعلى الحالات. فعندما تذكر الله عز وجل وأنت حاضر مع الله، ويستمرُّ بك الحال، تصل إلى درجةٍ تنسى الدنيا وتنسى الناس الذين مِنْ حولك. تغيب بشعورك ووجدانك عن المكوَّنات إلى المكوِّن، تغيب عن كل شيء إلا عن المذكور وهو الله جل جلاله. هذه الحالة تشبه حالة الفناء التي تحدثنا عنها، وهي فناء الإنسان في الله عما سوى الله سبحانه وتعالى. فكيف يكون هذا الإنسان غائباً عن الدنيا وهو موجود فيها؟

معنى ذلك أنَّ هذا الإنسان لا يشعر أنه يتعامل مع المخلوقات، وإنما يشعر أنه يتعامل مع الخالق. إنه فيما تراه عيناك يتعامل مع الناس، ولكنه في واقعه ويقينه وفكره إنما يتعامل مع الله سبحانه وتعالى.

فلسانه - إنْ تحرَّك - إنما يتحرك لله وبالله ومن أجل مرضاة الله.

ويدُه، ورجلُه، وسمعُه، وبصرُه، كلُّ ذلك يمارس عملَه لله وبالله ومن أجل طاعة الله. إنه يتحرَّك مع الناس ولكنه غائب إلا عن الله عز وجل، وإذا عامله الناس وأقبلوا إليه، فإنه لا يراهم، ولكنه يرى الله من خلالهم. فهو لا يرى الآخذَ منه ولا المعطيَ له، ولا الذي كان سببَ مصيبةٍ نزلتْ به، ولا الذي كان سببَ فرحةٍ حلَّتْ به، وإنما

يرى اللهَ عز وجل من خلال كل هؤلاء، أي يصبح حالُه كما قال ذلك العالم الرباني: (ما رأيتُ شيئاً إلا ورأيتُ اللهَ قبله ومعه وبعده)، أما (قبله) فالمسبِّب هو الله، وأما (معه) فالفاعل هو الله، وأما (بعده) فالنتائج من حكم الله جل جلاله.

وهذه الدرجة هي أعلى الدرجات التي يتبوَّؤها الربانيون، وهي درجة الرسل والأنبياء والأولياء، وعنها يقول: ﷺ: (إنَّ الله تعالى قال: من عادى لي ولياً فقد آذنتُه بالحرب، وما تقرَّبَ إليَّ عبدي بشيءٍ أحبَّ إليَّ مما افترضتُ عليه، وما يزال عبدي يتقرَّب إليَّ بالنوافل حتى أحبَّه، فإذا أحببتُه كنتُ سمعَه الذي يسمع به، وبصرَه الذي يبصر به، ويدَه التي يَبْطِش بها، ورجلَه التي يمشي بها، وإنْ سألني لأُعطِيَنَّه، ولَئِنِ استعاذني لأُعِيذَنَّه)[١] وقد شرحنا هذا الحديث سابقاً.

هذه هي نتيجة الاستمرار على ذكر الله عز وجل. وهذا هو المسلم الذي يكون مع الشريعة ومع الحقيقة بآنٍ واحد، ويكون عرشياً وفرشياً بآن واحد. قلبه معلَّق بالله، وجسمه مع الناس.

وقد ذكر ابن عطاء الله هذه المراحل التي يمرُّ بها المسلم باستمراره على ذكر الله عز وجل، في حكمة رائعة يقول فيها: (لا تتركِ الذكرَ لعدم حضورِكَ مع الله فيه، لأنَّ غفلتَك عن وجود ذِكْرِه أشدُّ مِن غفلتِك في وجودِ ذِكْرِه. فعسى أنْ يرفعك من ذِكْرٍ مع وجود غفلةٍ، إلى ذكر مع وجود يَقَظَةٍ، ومن ذكرٍ مع وجود يقظةٍ إلى ذكرٍ مع وجود حضور، ومن ذكرٍ مع وجود حضورٍ إلى ذكرٍ مع وجود غَيْبَةٍ عمّا سوى المذكور ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ۝٢٠﴾ [إبراهيم: ٢٠])[٢].

القلوب كلها - سواء كانت لمؤمن أو كافر أو ملحد - مهيّأة لهذا العطاء الرباني، باستثناء المستكبر، ولكن الإنسان هو الذي يجعل من قلبه أحد شيئين:

---

(١) رواه البخاري (٦١٣٧) عن أبي هريرة، وقد تم شرحه سابقاً (ص ١٣٥).

(٢) الحكمة (٤٧).

- إما أطلالاً لدار خَرِبة بسبب كثرة المحرمات الآتية من الغفلة عن الله عز وجل.

- وإما أن ينظِّفه بمجالس الذكر، فتتلألأ فيه الفطرةُ الإيمانية، حتى إنَّ وجود الإنسان وجوداً عارضاً بمجلسٍ من هذه المجالس يجعل نفحاتِ هذه المجالس تسري إلى قلبه.

هذا ما بيَّنه لنا رسول الله ﷺ بقوله: (إن لله ملائكةً يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر، فإذا وجدوا قوماً يذكرون الله تنادوا، هَلُمُّوا إلى حاجتكم، قال: فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا، فيسألهم ربهم وهو أعلم بهم، ما يقول عبادي؟ يقولون: يسبِّحونك ويكبِّرونك ويحمدونك ويمجِّدونك، فيقول: هل رأوني؟ فيقولون: لا والله ما رأوك، فيقول: وكيف لو رأوني؟ يقولون: لو رأوك كانوا أشدَّ لك عبادةً وأشدَّ لك تمجيداً وأكثر لك تسبيحاً، يقول: فما يسألوني؟ يقولون: يسألونك الجنة، يقول: وهل رأوها؟ يقولون: لا والله يا ربِّ ما رأوها، يقول: فكيف لو أنهم رأوها؟ يقولون: لو أنهم رأوها كانوا أشدَّ عليها حِرصاً، وأشدَّ لها طلباً، وأعظمَ فيها رغبةً، قال: فبم يتعوَّذون؟ يقولون: من النار، يقول: وهل رأوها؟ يقولون: لا والله يا رب ما رأوها، يقول: فكيف لو رأوها؟ يقولون: لو رأوها كانوا أشدَّ منها فراراً، وأشدَّ لها مخافةً، فيقول: فأُشهدكم أنّي قد غفرت لهم، يقول ملك من الملائكة: فيهم فلان ليس منهم، إنما جاء لحاجة، قال: هم الجلساء لا يشقى بهم جليسهم)[1]، ويقول ﷺ: (مَثَلُ الذي يذكر ربَّه والذي لا يذكر ربَّه مَثَلُ الحيِّ والميِّت)[2].

---

(١) رواه البخاري (٦٠٤٥) عن أبي هريرة.

(٢) رواه البخاري (٦٠٤٤) عن أبي موسى.

كلُّ شيءٍ يتمتَّع بالحياة يحتاج إلى غذاء، وقلبُك النابض بالإيمان يحتاج إلى غذائه من ذكر الله عز وجل. فإذا لم تقدِّم له غذاءه باستمرار، فإنَّ نبضات الإيمان في قلبك تضعف ثم تذوب حتى تزول نهائياً وتنقطع علاقتك بالله عز وجل. تماماً كأي كائن حي إذا لم تقدم له غذاءه فإنه يهزل ثم يهزل ثم يضعف ثم يموت.

غذاءُ الإيمان ذِكْرُ الله عز وجل، ولا يَصْلُح عملُ الإنسان الظاهري إلا بمقدار ذكره الباطني لله عز وجل. يقول العارفون: (حُسْنُ الأعمال ثَمَرةٌ لحُسنِ الأحوال)(١).

كلُّ المشكلات التي نعاني منها اليوم سببُها باختصار انفصالُ الظاهر عن الباطن، فالكلُّ يُهرع إلى الحج والتراويح والدعوة إلى الله وسائر الأعمال الإسلامية الظاهرة، أما الباطن فبعيدٌ عن الذكر الحقيقي لله، بعيد عن تذكُّرِ الله، لذلك فالمحصلة لا شيء!

تذكُّرك لله عز وجل دائماً يجعل قلبَك هو القائد لعملك، وعندها تصبح الأعمال صافية عن شوائب حظوظ النفس الدنيوية والرياء والعجب، وتذوب أسبابُ الشقاق الذي لا يأتي إلا من حظوظ النفس والعصبية للذات والمذهب والانتماء(٢).



(١) الحكمة (٤٦) التي يقول فيها ابن عطاء الله رحمه الله: (حُسْنُ الأعمال نتائجُ حُسْنِ الأحوال، وحُسْنُ الأحوالِ من التحقُّق في مقامات الإنزال).

(٢) شرح الحكم العطائية الدروس الصوتية الدرس (٦٧ - ٦٨).

الفصل الخامس

ثمرات التزكية

الثمرة الأولى: السعادة الحقيقية في الدنيا والآخرة.. وفيه سبعة مباحث:

المبحث الأول: الإيمان الحقيقي بالله عز وجل - أي عقلاً وعاطفة - ومنبعه الإكثار من ذكر الله عز وجل، لا بد أن يثمر الطاعة الحقيقية، ومن هنا تنبع السعادة.

المبحث الثاني: الإيمان التقليدي بالله عز وجل - أي عقلاً فقط أما العواطف فمشدودة للدنيا - ومنبعه الغفلة عن الله عز وجل، لا بد أن يثمر الطاعة الشكلية أو اللا طاعة، ومن هنا ينبع العيش الضنك.

المبحث الثالث: ما معنى الحياة الطيبة في قوله تعالى: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾؟

المبحث الرابع: قد يقول قائل: إنني مؤمن بالله وأنفِّذ أوامره، ولكنني أعيش في غصص دائمة !

المبحث الخامس: ما معنى قوله ﷺ: (عجباً لأمر المؤمن إنَّ أمره كله له خير...)؟

المبحث السادس: قد يقول قائل: (أمن رحمة الله بعباده أن يبتليهم بالمصائب)؟

المبحث السابع: لماذا يُحجب الإنسانُ عن التوحيد الذي هو سر سعادته؟

الثمرة الثانية: التمييز بين حنين الروح وأشواقها، ورغبات النفس ورعوناتها.

الثمرة الثالثة: الانتصار لدين الله عز وجل والترفع عن الانتصار للنفس.. وفيه خمسة مباحث:

المبحث الأول: معنى الجهاد وأنواعه.

المبحث الثاني: كيف نفرق بين الانتصار لله عز وجل والانتصار للنفس؟ وما هو دور الحب في الله والبغض في الله؟

المبحث الثالث: ما هو حال من قفز فوق مجاهدة نفسه، ليجاهد (في سبيل الله) بلسانه؟ وما الفرق بين الإسلام والمذاهب الأخرى؟

المبحث الرابع: وما هو حال من قفز فوق مجاهدة نفسه، ليجاهد (في سبيل الله) بيده وسلاحه؟

المبحث الخامس: ما الفرق بين العالم الرباني وعالم السوء؟ وفيه سبعة مطالب

المطلب الأول: ما معنى الحكم بغير ما أنزل الله؟

المطلب الثاني: ما هي موجبات الكفر وفق القاعدة المجمع عليها؟

المطلب الثالث: فهل الذي يحكم بغير ما أنزل الله- بموجب هذه القاعدة - يُعدُّ كافراً؟

المطلب الرابع: ما الحكمة من القاعدة الفقهية: (لنا الظاهر والله يتولى السرائر)؟

المطلب الخامس: ما معنى قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾؟

المطلب السادس: خلاصة هديه ﷺ في طاعة أولي الأمر وحدود هذه الطاعة، من خلال حديثين صحيحين.. وتحت هذا المطلب ستة بنود.

المطلب السابع: هذا هو هديه ﷺ في هذه المسألة، فما موقفنا نحن المسلمين منه؟ وتحت هذا المطلب سبعة بنود.

الثمرة الرابعة: استعمال الصفات التي سمَّاها الله عز وجل بـــ (الأمانة) من حدِّها المفيد فقط، والوصول إلى حقيقة التقوى، ومن ثمَّ تحقُّق الأخوَّة الإنسانية. وفيه خمسة مباحث:

المبحث الأول: ما معنى الأمانة في قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾؟

المبحث الثاني: ماذا عسى أن تكون هذه القوة التي تسيطر على شِرَّة تلك الصفات وتدفعها في طريق الصلاح وحده؟

المبحث الثالث: ماذا تفعل العبودية لله حتى يكون لها هذا الأثر السحري؟ وماذا تفعل التقوى؟

المبحث الرابع: درجات التقوى.. وهي ثلاث درجات:

١ – تقوى الإيمان.

٢ – تقوى الشريعة.

٣ – تقوى الحقيقة.

المبحث الخامس: ثمرات التقوى، والتي تُعدُّ ثمرات فرعية للتزكية:

١ – دخول المتقي في معيَّة الله عز وجل ومحبته وولايته.

٢ – عدم استحواذ الشيطان على قلبه.

٣ – عدم التباس الحق عليه بالباطل.

٤ – يجعل الله له من كل ضيق فرجاً، ومن كل همٍّ مخرجاً، ويكرمه بسعة الرزق من حيث لا يحتسب.

٥ - يوفِّقه الله عز وجل للقول السديد.

٦ - ثمرات التقوى في الآخرة.

الثمرة الخامسة: حسن الخاتمة. وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: لماذا سمَّى الله عز وجل لحظات الموت بـــ (السكرة)؟

المبحث الثاني: فإن قال قائل: أوليس الإنسان الذي آمن عقله بالله عز وجل يُعتبر قضائياً مسلماً ولو انصرف قلبُه إلى حبِّ الدنيا والشهوات؟ فما الحاجة إذاً إلى التربية أو التزكية ليتطابق كل من العقل والوجدان؟

المبحث الثالث: الموت بوابة للقاء الله سبحانه وتعالى.

الفصل الخامس

ثمرات التزكية

الثمرة الأولى: السعادة الحقيقية في الدنيا والآخرة وفيه سبعة مباحث

المبحث الأول: الإيمان الحقيقي بالله عز وجل - أي عقلاً وعاطفة - لا بد وأن يثمر الطاعة الحقيقية، ومن هنا تنبع السعادة: هذا ما أكده الله عز وجل بقوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: ٩٧].

أي أن السعادة تنبع من انسجام كل من العقل والوجدان (أي القلب)، وتوجُّهِهما معاً إلى الله عز وجل، إيماناً به وحباً له وخوفاً منه وتعظيماً له سبحانه.

فعواطف القلب من حبٍّ وخوفٍ وتعظيمٍ ترتبط - بالتزكية - بما آمن به العقل، بعد أن كانت أسيرةً بيد النفس والهوى.

وأما النفس فتصبح بعد التزكية مُنْضويةً تحت سلطان العقل وخادمةً له.

فالعبد الذي وصل بالعلم إلى الإيمان بالله عز وجل عملاً بقوله: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩]، وحمل في عقيدته التصوُّرَ الصحيحَ عن الكون والإنسان والحياة، ثم عمد إلى غَرْسة الإيمان هذه التي زرعها في عقله فقام برعايتها وسِقايتها بسُقيا العبودية الضارعة لله عز وجل والإكثار من ذكره تعالى- واستمر وثابر على ذلك -؛ لا بد أن ينتقل وهجُ هذا الإيمان إلى القلب مكمنِ العواطف والوجدان. وأسهل طريقة للإكثار من ذكر الله عز وجل هي ربطُ النِّعمِ بالمنعم، والنِّقمةِ بالمنتقم، والصَّنْعةِ بالصانع.

فإنك عندما تربط النِّعم بالمنعم.. كلما تقلبت في نعمةٍ ذكرتَ المنعم فشكرتَه عليها، وما أطول سلسلة النعم التي من حولك، وثابرتَ على ذلك؛ فإنَّ عاطفة الحب في قلبك تنمو وتزداد، حتى يصبح حبُّ الله عز وجل أحبَّ إليك من المحبوبات كلِّها.

وعندما تربط النقمةَ والمصائب على اختلافها بالمنتقم جل جلاله، فتلجأ إليه مستغفراً آيباً متذللاً ضارعاً إليه سبحانه كي يكشف عنك المصيبة، فإنَّ عاطفة الخوف في قلبك تنمو وتزداد، وشيئاً فشيئاً يصبح الخوفُ من الله عز وجل أخوفَ عندك من المخاوف كلِّها.

وعندما تربط الصَّنعةَ بالصانع - والكونُ مليء بصور الجمال والإعجاز والإبهار - وتثبتُ على ذلك، فإنَّ عاطفة التعظيم والتمجيد لله عز وجل تنمو وتزداد في قلبك حتى يتضاءل أمام عظمته سبحانه كلُّ عظيم، أو كلُّ من تظنُّه عظيماً.

وهذا هو التوحيد الحقيقي لله عز وجل، بكلٍ من العقل والقلب.. وهذا التوحيد هو سِرُّ السعادة وترياقها.

افعلْ ذلك بدون أنْ تحرِّك فمك، فهذا العمل يبدأ عقلانياً، ولكنه بعد ذلك يصبُّ في العاطفة. وإنْ ثابرتَ على ذلك فسيتفجَّر حبٌّ عميق وكبير منك لمولاك، بشرط أنْ تداوم على ذلك.

والإنسان مفطور على محبة الله عز وجل، إذ جُبلتِ القلوب على حبِّ مَنْ أحسن إليها. لكنْ إما أن تكون هذه العاطفةُ راقدةً بسبب اتجاه هذه العواطف للأدنى حيث الشهواتَ والأهواء، وإما أن تستيقظ بهذه الطريقة: ربطُ النِّعمِ بالمُنعمَ، والنِّقمةِ بالمنتقم، والصَّنعةِ بالصانع، أي لا تغفل عن الله بشكلٍ من الأشكال، عندها فقط تصل إلى حقيقة التوحيد.

وحقيقةُ التوحيد تعني أن تتيقَّن بأنَّ الله عز وجل واحد في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله، أي لا فعَّال في الكون كلِّه إلا الله وحده، فلا خالق، ولا رازق، ولا معطٍ ولا مانع، ولا ضار ولا نافع، ولا مُعِزَّ ولا مُذِلَّ، ولا غنيَّ ولا مُغني، ولا موجود في الكون كلِّه إلا الله الواحد الأحد، فهو صاحب الوجود المطلق، وكل ما عدا الله سبحانه وتعالى وجوده ظِلِّي، أي موجودٌ بإيجادِ الله عز وجل له لحظةً فلحظةً، هذا ما عبَّر عنه ابنُ العربي رحمه الله حين قال:

وجدتُ وجوداً لم أجد ثانياً له ... وشاهدتُ ذاك الحقَّ في كل صَنْعة
وطالبُ غير الله في الأرض كلها ... كطالب ماءٍ من سرابٍ بقيعة

إذن.. فأنت بالله تعقل، وبالله ترى، وبالله تسمع، وبالله تتكلم، وبالله تتحرك، وبالله ترقد، وبالله تستيقظ. إذن فمن أنت؟

أنت لا شيء بدون الله عز وجل. فإذا تنبَّهتَ لهذه الحقيقة وجعلتَها ماثلةً في ذهنك وقلبك دائماً، فإنَّ حُجُبَ الوسائل والأسباب والمكوِّنات تذوب ثم تشفُّ ثم تضمحلُّ وتصبح أشباحاً لا قيمة لها، ولا ترى من خلالها جميعاً إلا اللهَ عز وجل.

إذا نظرتَ إلى السماء ترى فيها الآياتِ الناطقة بوجود الله ورحمته وقدرته وألطافه. وإذا نظرتَ إلى الأرض ترى فيها جُودَه وكرمه ولطفه وإبداعه.

وهكذا بالنسبة لكل المكوِّنات من نباتاتٍ ورياحين وسحب وبحار ورياح وطيور وأنهار، عندما تنظر إليها تجدها صحفاً تنطق بوجود الله وصفاته. عندما تستيقظ من غفلاتك وتصل إلى النَّعيم الذي هو سِرُّ وترياقُ السعادة كلِّها، ألا وهو حبُّ الله تعالى.

وما هي السعادة؟

السعادةُ هي أن تحبَّ من يحبُّك، ولن تحبَّ اللهَ إلا لأنه أحبَّك، فإذا شعرتَ

أنك منجذبٌ إلى محبة الله عز وجل، فاعلم أنَّ الله سبحانه وتعالى هو الذي جذبك إليه بالحب.

وعندما يتعانق الحبُّ مع الحبِّ، حبُّك لله مع حبِّه لك، فتلك هي السعادة التي لا تعلوها سعادةٌ أبداً، لا سعادة الجنة ولا سعادة النعيم، فكل ذلك وسائل، وإنما الغاية هي محبَّة الله عز وجل ورؤيته. ورحم الله ابنَ الفارض حين قال:

ولقد أقول لمن تحرَّش بالهوى ... عرَّضْتَ نفسَك للبلى فاستَهدِفِ

أنت القتيل بأيِّ مَنْ أحببتَه ... فاخترْ لنفسك في الهوى من تصطفي

أي ينبغي أنْ تعلم أنَّ الحبَّ الحقيقيَّ هو قاتلُك، فانظر مَنْ هو الجدير أن يقتلك حبُّه؟!

إنه واحد لا ثاني له ألا وهو الله جل جلاله، هو الجدير أن يقتلك حبُّه. وقَتْلُ حبِّه لك هو الحياة، فالصورة صورة موت، والحقيقة هي الحياة:

إنَّ الغرامَ هو الحياةُ فمتْ به ... شوقاً فحقُّك أنْ تموتَ وتُعذَرا

علينا أن نتخلَّص من غفلاتنا المهلكة، ولا يُهلك الإنسانَ شيءٌ في حياته مثلُ الغفلة عن الله عز وجل، ولا يحيي قلبَ الإنسان شيءٌ مثلُ الإكثار من ذكر الله عز وجل مصداقاً لقوله تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]. ولطالما كان السلوك تابعاً للعواطف، وقد توجَّهتِ العواطفُ إلى الله عز وجل حباً وخوفاً وتعظيماً، فلا بد أن تثمر الطاعة الحقيقية التي تُدخِل صاحبَها في عداد مَنْ وعدهم الله بالحياة الطيبة حين قال: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: ٩٧].

إذن: فالإيمان الحقيقي ← الطاعة الحقيقية ← الحياة الطيبة[١].

---

(١) شرح الحكم العطائية. الدروس الصوتية الدرس (١٨٧).

المبحث الثاني: الإيمان التقليدي بالله عز وجل - أي عقلاً فقط أما العواطف فمشدودة إلى الدنيا - ومنبعه الغفلة عن الله عز وجل، لا بد أن يثمر الطاعة الشكلية أو اللا طاعة، ومن هنا ينبع العيش الضنك.

وهذا هو شأن الغافل عن الله عز وجل، إذ تبقى عواطفه مشدودة إلى الدنيا وشهواتها، أسيرة بيد النفس وأهوائها، فهذا لا يمكن أن تصدر منه طاعة حقيقية، وإنما طاعاته شكلية تقليدية.. لماذا؟

لأنَّ السلوك- كما علمنا سابقاً- يتبع العاطفة، والعاطفة هنا متوجِّهة إلى الأدنى حيث الدنيا والشهوات والأهواء، فلا بد للسلوك أن يلحق بها، وبالتالي إما أن لا يصدر عن صاحبها طاعة مطلقاً، أو- إنْ صدر- فإنما يصدر عنه طاعة شكلية ليس لها جذور من العبودية لله، ومن حبِّ الله والخوفِ منه وتعظيمِه، وإنما جذورها- كما علمنا- النفاق والرياء والقصود الدنيوية التي توجَّهتِ العاطفةُ لها. وبالتالي فهذا لا يدخل في عِداد من وعدهم الله عز وجل بالحياة الطيبة، وإنما هو يدخل- بغفلته عن الله عز وجل- في عِداد من توعَّدهم الله عز وجل بالمعيشة الضنك، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: ١٢٤]، وهذا ينطبق على غير المؤمن بالله عز وجل أيضاً.

أكثر المسلمين اليوم تائهون عن أوامر الله عز وجل.. لماذا؟

لأنهم غافلون عن الله الذي هم به مؤمنون، ولمَّا غفلوا عن الله عز وجل، فَرَغَتْ قلوبُهم من حبِّه سبحانه وتعالى، فكان السلطانُ الذي يحرِّكهم هو سلطانُ النَّفْس وأهوائها، وحبُّ الدنيا وشهواتها، فاستبدلوا بالمحور الواحد الجامع والموحِّد، محاورَ الشهوات المتفرِّقة والمفرِّقة، فتشتَّتَ شملُهم، وتفرَّقتْ كلمتُهم، وقامتْ بينهم الخصوماتُ ولم تقعد.. كل ذلك بسبب الغفلات!

فإنْ قلتَ: كيف أتخلَّص من الغفلة عن الله سبحانه وتعالى؟

نقول لك: يا هذا! اذكرْ مَنِ الذي يُحرِّكُكَ في غدوِّك ورواحك؟ مَنِ الذي يُنْطِقُك ويُسمِعُك، مَنِ الذي يُنيمُك ويُوقِظك، مَنِ الذي يبسُطُك ويَقْبِضُك، من الذي يُشقِيك ويُسعِدُك؟ إنه الله الواحد الأحد. فاربطِ النِّعَمَ بالمنعم، والنِّقَمَ بالمنتقم، والصَّنْعَةَ بالصانع، عندها تتخلَّص من غفلاتك، ويتفجَّر حبُّ الله في قلبك وبين جوانحك، وتنقادُ بزمام هذا الحبِّ إلى السلوك الذي يُرضي من أحببت.

ولا تُحجب بالنعمة ولا بنفسك عن المنعم، كما فعل قارون حين قال: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص: ٧٨]، فيُخْسَفُ بك كما خُسِفَ به، وتشقى في الدنيا والآخرة.

وما سبب مرض الكآبة الذي يعاني منه الغرب، والأمراض النفسية، والإقبال على الانتحارات، إلا لأنَّ أصحابَها قدَّموا للجسد وللغرائز الحيوانية غذاءهما حتى التُّخْمة، وتركوا الروح ظمأى خاوية دون غِذاء، فحصل من جرَّاء ذلك خلل وأيُّ خلل!.. كيف؟

لقد ركَّب الله عز وجل كيانَ الإنسان مِنْ عناصِرَ ثلاث:

١ - الجسد.

٢ - النَّفْس، ويُعبَّر عنها بالغريزة الحيوانية.

٣ - الروح العلوية[1]، وهي تُشْرِق على الدماغ فتكوِّن وعياً وعقلاً، وتُشْرِق على العضلة القلبية فتكوِّن عواطفَ ووجداناً، وتشرق على الخلايا فتكوِّن شعوراً وإحساساً. والروح غريبةٌ عن الجسد وحبيسةٌ فيه، لأنها أُهبِطت من الملأ الأعلى،

---

(١) أقصد بـ (الروح العلوية)، الإشارة إلى مصدرها الذي تحنُّ إليه، تماماً كما نقول: (الجسد الترابي)، إشارةً إلى ما يتطلع إليه من الأرض وزينتها. هذا ما وصف به الله عز وجل بلعام بن باعوراء وأمثاله بقوله: ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ [الأعراف: ١٧٦]. وليس المعنى أنّ هنالك روح علوية وروح سفلية.

لذلك فهي تَظلُّ تَحِنُّ إلى بارئها وخالقها والملأ الأعلى الذي انفصلت عنه. من هنا كان غذاؤها في ذكر من تَحِنُّ إليه، بل في الإكثار من ذكره سبحانه وتعالى.

فإذا ما قام الإنسان بتغذية روحه بالإكثار من ذكر الله عز وجل - وهو من أهم السُّبُل التربوية لتزكية النفس - فإنَّ هذا الغذاء ينعكس على ما تشرق عليه الروحُ من عقلٍ وقلبٍ وإحساسٍ:

- أما العقل فيزداد إيماناً ويقيناً وتوحيداً لخالقه جل جلاله، كما يزداد جلاء ووعياً.

- وأما القلب فيزداد حباً وخوفاً وتعظيماً لله سبحانه وتعالى، كما يزداد رحمةً بعباد الله.

- وأما الإحساس فينتشي ويطرب من انسجام العقل مع القلب وتوجههما معاً إلى الله عز وجل، ويسبح من جرّاء ذلك في بحار السعادة الحقيقية. وهذه هي الحياة الطيبة التي وعد الله عز وجل بها المتقين، موصولة بنعيم الآخرة.

ولكن إذا أعرضَ الإنسان عن ذكر الله خالقِه وبارئه، فإنَّ الروح تفقد غذاءها، ويختنق حنينُها الفطري إلى خالقها، وهذا ينعكس سلباً على العقل والقلب والإحساس، فالكلُّ يفقد غذاءه، ومن ثَمَّ يضعُف ويَضْوي.. أما النَّفْس فتشتدُّ ضراوتُها حتى تستولي على قرارات العقل وعواطف القلب وينعكس ذلك على الإحساس:

- فالعقل يُدلي بقرار الحق الذي يعلمه، ولكنَّه قرار خجولٌ مقهورٌ تحت إمرة النفس وسلطانها.

- وأما القلب فتَشْرُدُ عواطفُه عن الله تائهةً بين رعوناتِ النفس وأهوائها وشهواتها.

- وأما الإحساس فضِيْقٌ وكآبةٌ وضنكٌ وتخبُّطٌ بين ما يستيقنه العقل وترفضه النفس، وما تحنُّ إليه الروح وتصادره النفس لحسابها. وهذا هو العيش الضنك الذي توعَّد الله به المعرضين عنه، موصولاً بعذاب الآخرة.

فأيُّ أحمقٍ هو ذاك الذي يبيع سعادةَ الدنيا والآخرة، ليشتري بهما شقاءَ الدنيا والآخرة؟!

أما السعادتان فيوضحهما البيان الإلهي بقوله: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]، وأما الشّقوتان فهما: ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: ١٢٤].

إننا إذا مثَّلْنا الفِطرةَ الإنسانيةَ بالجسد، فإنَّ الثوب الذي يأتي على مقاس هذا الجسد تماماً ويستره ويسعده إنما هو الإسلام. فالإسلام فقط هو الذي يضمن للفطرة الإنسانية سعادتَها في الدنيا والآخرة.

إنَّ مَثَلَ المؤمن وغير المؤمن، كَمَثَلِ رجلين قُضي عليهما أن يسيرا في نفقٍ مظلمٍ باتجاهٍ واحدٍ نحو الأمام، ولا عودةَ إلى الخلف أبداً.

- أما الأول فهو موقن بقرارٍ عقلي جازم أنَّ هذا النفق ينتهي أخيراً إلى واحةٍ وارفةِ الظلال وجنةٍ فينانة، مهما طال هذا النفق، ومهما كانت غُصَصُه مؤلمة.

- وأما الآخر فهو موقن - في تصوُّره - بأنَّ هذا النفق مسدود.

فما هو حال كلٍّ منهما؟

أما الأول فكلما أوغل السير في هذا النفق المظلم كلما ازداد انتعاشاً وسعادة، لأنَّ يقينه أصبح أقربَ إلى قلبه وعينه، فهو لا يرى في هذا الظلام الحالك إلا صورةَ الأمل الذي أيقن به.

وأما الآخر فهو يسير مع الأول في النَّفَقِ ذاتِه، ولكنه كلما أوغل السير كلما

اشتدَّ عليه الكربُ وأطبق على صدره الهمُّ والقلق، وشعر بأنَّ دقائق الاختناق تدنو إلى حلقه رويداً رويداً، لأنه يتصور أن النفق مسدود.

الحديث عن النفق هو ذاته الحديث عن سير الإنسان في هذه الحياة الدنيا:

فالمؤمنُ بالله عز وجل إيماناً حقيقياً - أي عقلاً ووجداناً - يحيا بالأمل والرضا والشوق إلى لقاء الله.

بينما المؤمن بالله عز وجل إيماناً تقليدياً - أي بالعقل فقط - ومِثْله غير المؤمن، فإنه يَعيش الغُصَّةَ تلو الغُصَّة، والضَّنْكَ إثر الضَّنْك، حتى ينتهي به الحال إلى الانتحار.

وعلاج ذلك لا يكمن عند أطباء النفس، ولا في الملاهي وفنون الإباحية، بل كلُّ ذلك أداة لمزيدٍ من الكرب الخانق. وإنما العلاج هو أن يعلم قِصَّةَ الحياة.. من أين انطلق؟ وإلى أين سينتهي؟ إنْ علم ذلك وأيقن به، انتعش ورضي وتنفس الصُّعَداء. وإلا فسيبقى في كربٍ خانق ورُعبٍ قاتل، لأنَّ المشهد أمام عينيه هو: أرحامٌ تدفع، وأرضٌ تبلع، ولا شيء غير ذلك ! ! مشهدٌ مرعب لمن لا يعرف قصة الحياة.

إنَّ رجلاً مثل إبراهيم بن أدهم، ذاك الذي ترك الملك وزهد فيه وكان من الربانيين يقول: (لو علم الملوكُ وأبناءُ الملوكِ ما نحن فيه من النعيم والسرور لجالدونا عليه بالسيوف أيام الحياة)[١].

بينما رجلٌ مثل سارتر، أحد الملاحدة الوجوديين، يقول: (إنَّ طبيعةَ الحياة وطبيعة الإنسان أن يعيش قلقاً، فينبغي بالإنسان أن يرحِّب بالقلق والاضطراب، لأنَّ هذا هو قدرُه، وهذا من مقوِّمات حياة الإنسان).. إنه يقول هذا الكلام والدنيا ترقص

(١) (صفة الصفوة) لأبي الفرج الجوزي (٢/ ٣٣٥).

من حوله، وأبوابُ الشهوات والأهواء مفتوحة كلُّها على مصراعيها. ولكنْ كلُّها لن تجلبَ سعادةً ولن تفعل شيئاً أمام قرار الله عز وجل القائل: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: ١٢٤].

هذا القلق الذي يتحدَّث عنه الوجوديون هو نتيجة أنهم عصبوا أعينَهم ووضعوا أصابعهم في آذانهم كي لا يسمعوا قِصَّةَ هذه الحياة من خالقها، وكيف أنَّ هذه الدنيا فصلٌ ومقدِّمةٌ بين يدي حياة أخرى. والشيء المضحك أنهم يريدون أن يجعلوا من مرضهم هذا قانوناً إنسانياً يفرضونه على البشر جميعاً.

ولكن عندما ينتهي الواحدُ من هؤلاء الملاحدة والكفرة - بعد رحلة مضنية - إلى محراب العبودية لله عز وجل، فإنه يرى في هذا المحراب ذاتَه، ويذوق نشوةَ الإقبال على الله ولذَّةَ الاصطلاح معه بعد طول شرود. ويكون حاله كحال الظمآن التائه الذي ابتُلي من الدنيا بسرابٍ إثر سرابٍ إثر سراب، وقاده الظمأ القتَّال من خداعٍ إلى خداعٍ مثله، ثم وقف فجأة على يد حانية رفعتْ إلى فمه وأسقتْه أبردَ شرابٍ وأعذبَه؛ لا بد أن يعشق هذه اليدَ وصاحبَها.

كان ينتقل من تجربةٍ مضنيةٍ إلى أخرى، ويتجاوز الكؤوسَ إلى الشذوذ، ثم إلى أفانين المخدِّرات، دون أن يجد من يتولَّى أمره ويشرح صدره ويُسَرِّي عنه همَّه، حتى إذا رأى الله بعين بصيرته ومشاعر قلبه، سمع النداء الإلهي يجذبه إليه قائلاً: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]. لا جرم أنَّ هذا النداء سيجذبه إلى أعلى درجات الأنس بالله وإلى أصفى مشاعر الحب له، ولسوف يزداد هذا الشعور مع الزمن كلما ازداد ابتعاداً عن مرارة أيامه السابقة، وانغماساً في مشاعر نشوة قربه من الله عز وجل وممارسة العبودية له.

ها هو شاب أمريكي يُدَرِّس في إحدى جامعات الولايات المتحدة الأمريكية، اعتنق الإسلام بعد طول شرود، ثم ذهب معتمراً إلى بيت الله، فكان يُلْصِق نفسه

بالملتزم من بيت الله العتيق ثم يبقى كذلك. كالطفل الشارد الخائف الذي اهتدى بعد طول شرود إلى أمه، فالتصق بمأمَنِه من صدرها، لا يريد أن يفارقَه ولا ينفكَّ عنه. ولما انتهى من أعمال العمرة، اكتفى الجميع بالتقصير، أما هو فقد آثر أن يحلق شعره عن آخره، وكان يتمتع بشعر ذهبي رائع!

هكذا يفعل الإيمان بالله عز وجل إذا هيمن على العقل والوجدان.. إنه يصنع المعجزات. ذلك لأنَّ صاحبَ هذا الإيمان قدَّم للروح غذاءها الذي به تنتعش وتطرب. وطربُ الروح وانتعاشُها ينعكس على صاحبها وعلى مشاعره، ومن هنا تأتي النشوة الربانية التي يشعر بها الإنسان عندما يُضيء قلبُه بذكر الله. وعندئذٍ يصبح في كلِّ الأوقات يتذكَّر اللهَ عز وجل، ويشعر بصلةٍ عجيبةٍ بينه وبين هذا الخالق جل جلاله. هذه الصِّلَةُ هي صِلَةُ حبٍّ أولاً، وصِلَةُ إجلالٍ وتعظيمٍ ثانياً.

والحب مع الإجلال والتعظيم، هما تِرياقُ السعادة وحقيقةُ النشوة التي يبحث عنها الإنسان في حياته[(١)].

وفي ذلك يقول ابن عطاء الله: (النعيمُ وإنْ تنوَّعتْ مظاهرُه إنما هو بشهوده واقترابه، والعذاب وإن تنوعت مظاهره إنما هو بوجود حجابه، فسبب العذاب وجودُ الحجاب، وإتمام النعيم بالنظر إلى وجهه الكريم)[(٢)]، أي أن النعيم وإنْ تنوَّعتْ مظاهره في الدنيا والآخرة، إنما هو بسبب شهود الله عز وجل، في الدنيا بالبصيرة، وفي الآخرة بالبصر. وإنَّ العذاب وإنْ تنوَّعتْ مظاهره في الدنيا والآخرة، إنما هو بسبب احتجاب العبد عن ربه جل جلاله، لذلك لم تكن النار عذاباً على الملائكة

(١) شرح الحكم العطائية، الدروس الصوتية الدرس (١٨٧)، إضافة إلى شرح رياض الصالحين الدرس (٣١) والدرس (٥٣).

(٢) الحكمة (٢٢٣).

الموكَّلين بها، وإنما هي عذابٌ على مَنْ حُجِبوا عن ربِّهم: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾﴾ [المطففين: ١٥ - ١٦].

وإذا ما غابت في الدنيا أسبابُ متعة الجسد، كأنْ يكون صاحبُه فقيراً مريضاً، بينما كانت أسبابُ متعة الروح حاضرة، بأن يكون دائم الذكر لله عز وجل، فإنَّ حال نعيم الروح ونشوتها هي التي تتغلَّب على آلام الجسد، فالجسد لا سلطان له على الروح، أما الروح فلها سلطان على الجسد سلباً وإيجاباً لذلك يقول أحدهم:

وما نعيمي إلا وِصالي ... وما عذابي إلا حجابي

ويقول آخر:

فَهَجْرُهُ أعظمُ من ناره ... وَوَصْلُهُ أطيبُ من جنته[1]

المبحث الثالث: ما معنى الحياة الطيبة في قوله تعالى: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾؟

هناك نوعان من الأجور على الطاعات التي يؤديها الإنسان لربه جل جلاله:

١ - نوعٌ ميقاتُه يومَ القيامة، والأجر هو جنَّةُ الخلد مصداقاً لقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

٢- نوعٌ إضافي يتكرَّم به الله عز وجل على عبده في الحياة الدنيا، وهو الحياةُ الطيبة مصداقاً لقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧]. والفاء في ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ﴾ هي فاء الجزاء، وتدلُّ على التعقيب المباشر. وهي مؤكدة بلام القَسَم في أوّل الفعل، وبنون التوكيد في آخر الفعل. فهذا الالتزام من الله جل جلاله لعبده محصورٌ بين مؤكِّدين، لامِ القَسَم أولاً، ونونِ التوكيد ثانياً.

وقد بيَّن الله عز وجل لنا نماذجَ من هذه الحياة الطيبة فقال:

---

(١) شرح الحكم العطائية لعبد المجيد الشرنوبي (ص ١٤٧ - ١٤٨).

- ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥]، فالفاء في ﴿فَيُضَاعِفَهُ﴾ أيضاً للتعقيب، أي أن هذه الأضعاف الكثيرة تكون في دار الدنيا، لمن أخلص عمله هذا لله.

- ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨)﴾ [الرعد: ٢٨]، وطمأنينةُ القلب ثوابٌ عاجل من الله لعبده الذي يذكره.

- ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]، أي لئن استعملتم نعمتي عليكم في طاعتي لأزيدنكم منها في الحياة الدنيا.

- ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ [النور: ٥٥]، فالاستخلاف في الأرض والتمكين والأمن، كلُّ ذلك ثوابٌ عاجل من الله عز وجل لمن آمن وعمل صالحاً.

- ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ (١٣) وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ (١٤)﴾ [إبراهيم: ١٣ - ١٤].

فهذا كلُّه أجر عاجل على الطاعات، والله لا يُخلف الميعاد، والآيات في ذلك كثيرة.

وقد أكّد رسول الله ﷺ هذا المعنى بقوله: (صنائعُ المعروف تقي مصارعَ السوء)[1]، وكلمة (صنائع المعروف) تَشمَلُ كلَّ الأعمال الإنسانية التي يقوم بها الإنسان ابتغاء مرضاة الله عز وجل، كإغاثة ملهوف، وردِّ الظلم عن مظلوم، وجبران خاطر مكسور، وإدخال السرور على قلب مسلم.. هذا كله له أجر عاجل في الحياة

(١) المعجم الكبير للطبراني (٨ / ٢٦١ رقم ٨٠١٤) عن أبي أمامة وإسناده حسن.

الدنيا، وهو أنَّ الله عز وجل يَرُدُّ عن فاعلها المصائبَ ويحصِّنُه ضِدّها.

وما الحياة الطيبة إلا مجموعُ هذه الأمور من طُمأنينةِ القلب، ورغد العيش، والأمن، والتمكين في الأرض، والنصر على الأعداء، والحماية الإلهية، والكلاءة الربانية، والشعور بالسعادة والرضا، والاستغناء عن الآخرين. أي إنَّ الله عز وجل يرزقه ما يجد نفسَه به مستغنياً عن الآخرين، بحيث لا تشرد عيناه يميناً وشمالاً طمعاً في أرزاق الناس وأموالهم.

يعطيه الدارَ والمتاعَ ويكرمه بالزوجة والسعادة وطمأنينة النفس والبال، فإذا أكرمك الله عز وجل بهذا فأنت من أغنى الأغنياء.. هذا ما بيّنه لنا رسول الله ﷺ بقوله: (مَنْ أصبح منكم آمِناً في سِرْبِه، معافىً في جسده، عنده قوتُ يومه، فكأنما حِيْزَتْ له الدنيا بحذافيرها)[1]، وليس المهم أن تنظر إلى الأرقام المالية التي في صندوقك.

وفي هذا المعنى يقول أحدهم:

غَنِيْتُ بلا مالٍ عن الناس كلهم ... وليس الغنى إلا عن الشيء لا به

أما أنْ يهبك الله المالَ الوفير ثم تشردَ عيناك - على الرغم من هذا - يميناً وشمالاً، وتنظرَ طامعاً في جيوب الناس وأموالهم، فأنت أفقر الناس ولو كنتَ مليارديراً.

كان من دعاء النبي ﷺ قوله: (اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى)[2]. الغنى الحقيقي هو غنى النفس، هو شعور الإنسان بالاكتفاء بما رزقه الله

---

(١) رواه الترمذي (٢٣٤٦)، وابن ماجه (٤١٤١)، والبخاري في الأدب المفرد (٣٠٠)، جميعهم عن سلمة بن عبيد الله بن محصن الخطمي عن أبيه. كل هذه الروايات بدون (بحذافيرها)، وجاءت هذه اللفظة في كتاب (جامع الأصول) (٧٦١٢) للجزري ابن الأثير، عن الراوي السابق نفسه.

(٢) رواه مسلم (٢٧٢١) عن عبد الله.

عز وجل، وأنَّ هذا الرزق الذي قدَّره الله عز وجل له، هو كافٍ وافٍ، وأنه ليس بحاجة إلى أحد من المخلوقين، وبالتالي فهو لا يبالي بما في أيدي الناس، ولا يلتفت إليه. وهذه نعمة تأتي من عند الله سبحانه وتعالى.. هذا هو الغني حقاً!

أما الفقير حقاً فهو ذاك الذي يشعر بأنه غير مكفي وأنه بحاجة إلى غيره، لذلك يظل لعابه يسيل على ما في أيدي الغير.. هذا هو الفقير حقاً ولو ملك المليارات!

إنَّ السعادةَ لا تنبع من رنين الذهب والفضة، ولا من الزينة والزخرف، ولا من الموائد العامرة والحلي الفاخرة، فما أكثر ما أشقى المالُ أناساً وزجَّهم في الآلام والغصص والمتاهات.

وإنما تنبع السعادة من القلب، وهي تُصنع صُنعاً في أعماق الفؤاد بيد الله، فإن كنتَ تريد السعادةَ فاطرقْ بابَ الله عز وجل واطلبْها منه تجدْها.

وإذا كان المؤمن يتعامل مع الدنيا بكافة أشكالها، فإنما يتعامل معها كجسد، والجسد لا يحيا بدون روح، وروحُ جسدِ نعيمِ الدنيا إنما هو استرضاءُ الله سبحانه وتعالى، وأن تكون الصلة عامرة بين العبد وربه، عندها يقول الله عز وجل للدنيا: يا دنيا من خَدَمَني فاخْدُميه، ومن خَدَمَكِ فاستَخْدِميه.

وشتَّان بين من يخدم اللهَ عز وجل ويُقبِل بوجْهِ قلبه عليه متعلِّقاً به طالباً رضاه، واضعاً الدنيا وراء ظهره، فتركض الدنيا وراءه خادمةً له، فيملكها بيده أما قلبُه فلله، فيحيا حياةً طيبةً لأنه عبدٌ لله؛ وبين من يخدم الدنيا ويُقبِل بوجهه عليها، مستدبراً اللهَ وأوامرَه وراءه ظِهرِيّاً، فيركض هو وراء الدنيا خادماً لها، وتركض هي فارَّةً منه مستخدِمةً له، فتملكه ولا يملكها، ويتمزَّق قلبُه في شِعابها، فيعيش عيشةً ضنكاً، ويشقى في الدنيا والآخرة لأنه عبد لدنياه.

وصدق رسول الله ﷺ القائل: (تَعِسَ عبدُ الدينار والدرهم والقطيفة والخميصة)[1].

إذن فالعبودية لله عز وجل هي محور الخير كلّه، وهي التي تنشل الإنسان من العبودية لغير الله.

فالعبودية لله ← الإكثار من ذكر الله ← حب الله وتعظيمه وخشيته ← الطاعة الحقيقية ← الحياة الطيبة.

والعبودية لغير الله ← الغفلة عن الله ← حب غير الله وتعظيمه وخشيته ← الطاعة الشكلية أو عدم الطاعة ← المعيشة الضنك.

هذا هو المفتاحُ الضائع الذي لم نعثر عليه بعد، لذلك فكل المحاضرات والمؤتمرات لا تفيد شيئاً لأنها شكل بدون مضمون، إذ ليس لها جذور من العبودية لله عز وجل، ومن ثَمَّ فنحن نعيش في غفلةٍ عن الله سبحانه وتعالى، ولسوف نظل نراوح في أماكننا وننتقل من هزيمةٍ إلى هزيمةٍ أشد، ومن تمزُّقٍ إلى تمزُّقٍ أكبر بسبب أننا محجوبون عن الله عز وجل[2].

هذا هو سرُّ قوله ﷺ: (ألا أنبئكم بخير أعمالكم، وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إنفاق الذهب والوَرِق، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم)؟ قالوا: بلى، قال: (ذكر الله تعالى)[3].

---

(١) رواه البخاري (٢٧٣٠) عن أبي هريرة.

(٢) شرح الحكم العطائية الدروس الصوتية الدرس (١٠٩)، إضافة إلى شرح رياض الصالحين الدرس (٢٧) والدرس (٢٩).

(٣) رواه الترمذي (٣٣٧٧)، وابن ماجه (٣٧٩٠)، وأحمد (٢١١٩٥)، والحاكم (١٨٦٨)، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. جميعهم رووه عن أبي الدرداء واللفظ للترمذي.

فكيف يكون ذكر الله تعالى خيراً من إنفاق الذهب والفضة، ومن الجهاد في سبيل الله؟

الجواب: علمنا سابقاً أن الإكثار من ذكر الله تعالى - الذكر الحقيقي - يُربّي محبَّةَ الله عز وجل في القلب، ولا تزال محبةُ العبدِ لربه تزداد حتى تتغلَّب على كلِّ المحبوبات الأخرى، ويصل إلى مرتبة وحدة الشهود، أي التوحيد، فهو يرى المكوَّنات ولكنَّه لا يرى من خلالها إلا المكوِّنَ جل جلاله. عندئذٍ لا يتعلَّق قلبه إلا بمحبوبه الذي عرفه وآمن به وهو الله سبحانه وتعالى، وتزولُ كلُّ مطامعه بالمال والرئاسة والدنيا والأهواء والشهوات.. كلُّها تزول لأنه لم يَعُدْ يرى شيئاً في الكون إلا الله عز وجل، وهذا هو القلب السليم.

والقلب السليم هو الأساس الذي تقوم عليه أدوار الأعمال الصالحة من نفقةٍ وجهادٍ وغير ذلك. وإنك إذا وضعتَ هذا الأساس ثم قمتَ ببناء الأدوار من فوقه، والمتمثِّلة في شتى الأعمال الصالحة، فلن يدخل في أعمالك هذه رياءٌ ولا عُجبٌ، لأنهما يضادّان التوحيد الذي اصطبغتَ به. فالرياء هو أن تُشرِكَ غيرَكَ مع الله، والعجب هو أن تُشرِكَ نفسَكَ مع الله، وهذان لا يجتمعان مع التوحيد في قلب واحد، لأنهما نقيضان، والنقيضان لا يجتمعان. وإذن ستكون أعمالك الصالحة كلُّها خالصةً لله عز وجل، وهذا هو العمل المقبول عند الله سبحانه وتعالى والذي وعدك عليه بالثواب العاجل وهو الحياة الطيبة. لأجل ذلك كان التوحيد هو سر السعادة وترياقها ومنبعها.

أما إن أعرضتَ عن تذكُّر الله وكنتَ من الغافلين عنه، فلن يمتلئ قلبك بحبِّ الله - للعلاقة الحتمية بين الذكر الحقيقي والحبِّ - وبالتالي فسيمتلئ بحب الشهوات والأهواء والأغيار والدنيا بكافة أشكالها، وسيغيب التوحيدُ عن قلبك. وإذا ما قمتَ لأداء الطاعات من صدقةٍ أو جهادٍ أو غير ذلك، فسيدخل في عملك الرياءُ والعجبُ

والغرورُ، وهي صفات تترعرع في تربة القلب المريض بحبِّ الدنيا، وهي مُحبِطةٌ للعمل أياً كان ومهما كان.

لأجل ذلك دلَّكَ رسول الله ﷺ على السبيل الذي إنْ سلكتَه وصلتَ إلى التوحيد، ومن ثَمَّ إلى العمل المقبول عند الله سبحانه وتعالى، ألا وهو الإكثار من ذكر الله عز وجل. هذا كما لو قلتُ لك: ألا أدلُّك على ما هو خير لك من أن تصلي ألف ركعةٍ بدون أن تتطهر؟ اذهبْ فتطهَّر وتوضأ ثم صل ما تشاء، عندها ستكون صلاتك مقبولة عند الله.

هذا تماماً معنى ما يقوله ﷺ: ألا أنبئكم بأفضل أعمالكم؟ أنْ تطهروا قلوبكم من حبِّ الدنيا بكل أشكالها، عن طريق الإكثار من ذكر الله سبحانه وتعالى أولاً. بهذا تَصِلُون إلى التوحيد والإخلاص لله عز وجل، وبعدها ستكون كلُّ طاعاتكم ومبراتكم خالصةً لله مقبولةً عنده سبحانه، ومن ثَمَّ أضمن لكمُ الحياةَ الطيبة التي وعدكم الله بها بقوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧]، وستزول الغصص من حياتكم، وستحيَون بالرضا والسعادة ولو في أحلك الظروف والمصائب والمحن[١]!

المبحث الرابع: قد يقول قائل: إنني مؤمن بالله سبحانه وتعالى وأُنفذ أوامره، ولكنني أعيش في غصص دائمة!

الجواب: إنَّ سبب الغصص الدائمة التي عبر عنها الباري عز وجل بـ (المعيشة الضنك) عند المؤمن بالله عز وجل، يرجع إلى وجود عاملٍ أو أكثر، من هذه العوامل الثلاث:

١ - إما لأن إيمانك بالله عز وجل هو إيمان تقليدي مغروس في زاوية من زوايا

(١) شرح رياض الصالحين، الدرس (٨٤٥).

العقل فقط، أما عواطف القلب فمشدودة إلى الدنيا بكل أشكالها. وما ذلك إلا بسبب غفلتك عن الله وانشغالك بالدنيا، ولذلك فطاعاتك التي تصدر منك طاعات تقليدية شكلية ليس لها جذور من العبودية لله عز وجلّ، ومن ثَمَّ فليس لها جذور من حبِّ الله عز وجل وخشيتِه وتعظيمه. والنتيجة هي المعيشة الضنك، لأنَّ الحياة الطيبة مرتبطة - كما ذكرنا - بالإيمان الحقيقي - أي عقلاً وعاطفة - الذي يثمر الطاعة الحقيقية. والعلاج بالدرجة الأولى هو الفِكر، ومناخه الخلوة الجزئية.

فالإنسان الذي يبتعد عن المجتمع، ولو ساعة كل ٢٤ ساعة، فيخلو بنفسه ويفكّر، فإنَّ هذه الساعة تكون بمثابة الخميرة التي تدعم العقل، فيقوى العقل وتصبح القيادة له.

ذلك لأنَّ الخلوات الجزئية - وليس الكلية - تمنح العقلَ المعرفةَ، ثم إنَّ الاستمرار عليها يؤدي إلى سكب هذه المعرفة العقلية في المشاعر الوجدانية، فيصطبغ وجدانه بحب الله والخوف منه والتعظيم له. إذاً فالفكر يسوق العبدَ إلى الذكر، وهذا هو رأس الخير كله، ومن بعده ستأتي الحياة الطيبة قطعاً.

وموضوع الخلوة: من أنا؟ فإذا علمتَ أنك لا تملك نفسَك ولا قدراتِك، وأنك منفعل بها ولست فاعلاً لها، فابحثْ عن منبع الطاقة التي أشرقتْ إليك، وما أيسرَ أنْ تعلم أنه ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [النور: ٣٥]، وما أيسرَ أنْ تتذكَّر هذا الإله الذي يمدُّك بالطاقات والقدرات والنِّعم لحظةً فلحظة، وما أيسرَ أنْ تحبَّ هذا الإله الذي تسبح في بحار نعمه وكرمه، عندها ستتمتَّع بإيمانٍ يهيمن على العقل إدراكاً، ويهيمن على القلب حباً لما يحبُّه الله، وكراهيةً لما يكرهه الله سبحانه وتعالى - بشرط أن تثبت على ذلك - وعندها سيسوقك هذا الحب إلى طاعة مَنْ أحببتَ - وهو الله جل جلاله - الطاعةَ الحقيقية، موصولةً بجذورها من الحبِّ والعبودية، وعندها فقط يضمن الله لك الحياة الطيبة.

ولكن إذا غرس الإنسان فكره في تربة المجتمع وصخبه، نتج عن ذلك نبات مخلوط، الخير فيه قليل، والرديء فيه كثير، وتصبح القيادة عندئذٍ لأمواج المجتمع متآمرةً مع النفس على العقل، ويصبح العامل العقلاني خادماً للعوامل النفسية والعصبية، ومن هنا تنبع المعيشة الضنك[١].

٢ - أو أنك حديث عهد بالتوبة، فقد أقبلتَ على الله بعد طول شرودٍ عن صراطه، فالله عز وجل يؤجّل ثوابَك وأجرَك الدنيوي على ما تقوم به من الأعمال الصالحة، لكي يستبينَ صدقُك وثباتُك. بل قد يزيد عليك الابتلاءاتِ والشدائدَ مصداقاً لقوله تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣﴾ [العنكبوت: ٢ - ٣]. فإذا ما صَمَدتَ أمام هذه الابتلاءات والشدائد، وبقيتَ ثابتاً متمسكاً بأوامر الله عز وجل مبتعداً عن نواهيه، فإنَّ الله عز وجل يُنْهِي مرحلةَ الابتلاء هذه، ويكرمك بما قد ادَّخره لك من الأجر عن الماضي واللاحق. أي يرفع عنك الشدائد، ويكرمك عوضاً عما فاتك أيضاً بالحياة الطيبة. وينطبق عليك قوله تعالى: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾. المهم أن تُعامِلَ ربَّك على أنك عبدُه في السراء والضراء على حدٍ سواء.

عامِلْ ربَّك من خلال عبوديتك له وانظر كيف تكون النتيجة. كن صادقاً معه تجد منه كل خير.

ولا تعامِلْ ربَّك من خلال عبوديتك لأطماعك، فتجعل من تطبيقك لأوامر الله واسطةً للوصول إلى رغباتك الدنيوية، حتى إذا أمسك الله عنك العطاء انقلبتَ إلى شرٍّ مما كنتَ عليه، وصَدَقَ فيك قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةَ﴾ [الحج: ١١]، أي

(١) شرح الحكم العطائية الدرس (١٤).

خسر ثوابَ الدنيا وهي الحياة الطيبة، وخسر ثوابَ الآخرة من جناتٍ ونعيمٍ مقيم[(١)].

٣ - أو أنك تقيم شرع الله حقاً في نفسك، أما أهل بيتك من زوجةٍ وأولاد فلا يقيمون شرع الله في أنفسهم. هنا القاعدة القائلة: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧]، لن تتحقق، بل ستكون هنالك غصص.. لماذا؟

لأنَّ الأسرة عبارة عن شخصية اعتبارية تتكون من عدة أشخاص، والمسؤولية بينهم واحدة. فإذا كان أعضاء الأسرة قائمين بشكر الله عز وجل - والعمل الصالح معنىً من معاني الشكر - ينفِّذون أوامره وينتهون عن نواهيه، فإنَّ الله عز وجل يحييهم حياةً طيبةً، بل ويزيدهم من نعمه وكرمه. وهذه قاعدة لا شذوذ فيها إطلاقاً مصداقاً لقوله تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧].

أما إن استعملوا نِعَمَ الله عز وجل عليهم في معصيته، فذلك هو كفران النعمة، وهو غير كفران الملة، عندها يحيق بهم قانونُ الله المتمثل في قوله: ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧]، وقوله: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [النحل: ١١٢]. فهذا كلُّه عقاب من الله على المعاصي، وهو شكل من أشكال المعيشة الضنك التي توعَّد الله عز وجل بها المعرضين عن تذكُّرِ الله عز وجل، الغافلين عنه، بقوله: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: ١٢٤].

فالحياةُ الطيِّبةُ ثمرةٌ من ثمرات الإيمان الحقيقي بالله عز وجل، والمعيشةُ الضنكُ ثمرةٌ من ثمرات اللا إيمان أو الإيمان التقليدي بالله عز وجل[(٢)].

---

(١) شرح الحكم العطائية الدرس (١١٠).

(٢) شرح الحكم العطائية الدرس (٨٦).

المبحث الخامس: ما معنى قوله ﷺ: (عجباً لأمر المؤمن إنّ أمرَه كلّه له خير - وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن - إنْ أصابته سرّاءُ شكر فكان خيراً له، وإنْ أصابته ضرّاءُ صبر فكان خيراً له)[1]؟

أي انظروا تجدوا عجباً في خَصِيصةٍ امتاز بها المؤمن دون غيره من الناس – وقد علمنا أنَّ كلمة الإيمان لا يتحقق معناها إلا بيقين العقل واصطباغ الوجدان – هذا الإيمان هو الذي يُفجّر في صاحبه طاقة عجيبة لا تُحَدّ، وتحشوه بالخوارق والمعجزات.

إنَّ الأحوال التي يتقلب بها الإنسان -أياً كان -هما حالتان لا ثالث لهما، السراء والضراء، فسنتكلم أولاً عن المؤمن بالله عز وجل إيماناً حقيقياً، ثم عن غير المؤمن أو المؤمن بالله إيماناً تقليدياً:

فالمؤمن في السراء وعند النعمة والرخاء، يعلم علم اليقين أنَّ هذه النعمة إنما جاءته من عند المنعم جل جلاله، الذي آمن به وأحبَّه، وأنه سبحانه وتعالى جعلها عنده وديعةً يستردُّها متى شاء. لذلك نجده لا يتباهى ولا يتجبَّر، وكيف يتباهى بما لا يملكه، وإنما الملك كله لله. وبذلك لا يقع في خطر هذه النعمة، وإنما هو يُضيف إلى فائدتها الدنيوية فائدةً أخروية، بأن يستعملها في مرضاة الله الذي أنعم بها عليه. ورأسُ مالِ ذلك كله إنما هو الإيمان!

هذه النعمة مثل البَذْر الذي صادف أرضاً خِصبة، فنما وتصاعد واخضرَّ، وتحوَّلت البذرة الواحدة إلى حبوبٍ وفواكه ونِعَمٍ كثيرةٍ شتى. كذلك عندما تسقط النعمة من قِبل الله عز وجل على هذا الإنسان الذي أيقن عقلُه بالله سبحانه وتعالى، واصطبغتْ عواطفُه بهذا الإيمان حباً وخوفاً وتعظيماً لله عز وجل، فإنها تنمو وتترعرع

(١) رواه مسلم (٢٩٩٩) عن صهيب.

كنموّ ذلك البذر إذ يُلقى في التربة الخصبة، فتزيده فوق حبّه لله عز وجل حباً، وتزيده فوق إجلاله له إجلالاً، وتزيد إيمانَه العقلاني إيماناً، فيزداد هذا الإيمان في كيانه ويتضاعف، ويزداد شعوراً بأنَّ الله لا يتخلى عنه بل يكرمه ويحوطه بالرعاية والحماية والعناية، ويزداد يقيناً بفضل الله وثقةً بكرمه ورحمته، ومن ثَمَّ يزداد تذللاً له سبحانه وتعالى. ونتيجة هذا أنه لا يستخدم هذه النعمة إلا فيما يرضي الخالقَ جل جلاله.. وهذا هو الشكر الذي قال الله عز وجل عنه: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]، فيزيده الله عز وجل من نعمه الظاهرة والباطنة، وبذلك تصبح هذه النعمة خيراً له في دنياه وآخرته، ويتجلى الله على هذا المؤمن بأن يعرّفه على ذاته - جلّ جلاله - لطيفاً رحيماً باراً كريماً معطياً غنياً مُغنياً، وبذلك تكون هذه النعمةُ نعمةً ظاهراً وباطناً.

وأما المصيبة أو الضراء إذا ما نزلت بالمؤمن فقد تسبِّب له ألماً في الجسم، وهو ألم يثيبه الله عز وجل عليه لأنه متوّج بالرضا عن الله، ثم إنه ألمٌ خفيف يمرُّ ويمضي، لمعرفته بأنَّ هذه الدنيا ممرٌّ وليست مقراً. ولكنها لا يمكن أن تسبب له ألماً نفسياً أبداً.. كيف؟

إنَّ المؤمن عندما تصيبه مصيبة ما، فإنه يلجأ إلى الله عز وجل، لأنه يعلم أنها آتية من عنده سبحانه وتعالى. ولا يزال يلجأ إلى الله عز وجل ويكثر الالتجاء، حتى تنقدح عبوديتُه لله عز وجل بين جوانحه، ثم إنَّ هذه العبودية تتحول إلى حبٍّ وخوف وتعظيم لله سبحانه وتعالى. وهي مشاعر كانت موجودة في قلبه قبل نزول المصيبة، ولكنها بعد نزول المصيبة تزداد بازدياد التجائه إلى الله عز وجل، ومن خلال هذا الحب والخوف والتعظيم يذوب وَقْعُ المصيبة في كيانه، بل يذوبُ أيضاً وَقْعُ النِّعم، وتصبح هذه المصيبة لا قيمة لها أمام نِعمة علاقته بالله عز وجل. وتلك هي السعادة الكبرى، أنْ يشعر بولاية الله عز وجل له، القائل: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة: ٢٥٧]. ولا توجد صِلةٌ بين العبد وربِّه أجلُّ وأسمى من صفة العبودية لله عز وجل.

فإذا ما ذاق العبد لذَّة عبوديته لله عن طريق صلته بالله سبحانه وتعالى - وأجلُّ وأبرز مظاهر هذه الصِّلة هو التذللُ والافتقارُ إلى الله -تهون عليه المصائب، حتى تصبح لذَّة العبودية بمثابة المخدِّر الذي يُنسيه ألمَ المصائب والمحن. . إنها تبعث في كيان العبد نشوةً ما بعدها نشوة، فيصبح راضياً منتشياً مطمئناً هادئَ النفس معلناً عن رضاه عن الله عز وجل. والله عز وجل يقول: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠]، والرسول ﷺ يقول: (إنَّ عِظَمَ الجزاء مع عِظَمِ البلاء، وإنَّ الله تعالى إذا أحبَّ قوماً ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سَخِطَ فله السُّخْط)[١].

إن الصبر والرضا بقضاء الله عز وجل يحوِّلان المصيبةَ إلى نعمةٍ مقنَّعةٍ بقشرة من المصائب، وسرعان ما تزول هذه القشرة من المصائب ويتجلى الله على قلب هذا الإنسان بسعادةٍ غامرة ورحمة واسعة، ويسكب في قلبه بَرْدَ الرضا والطمأنينة، ويرسل على مشاعره نشوةً عجيبةً تتغلَّب على آلام الجسد، فتذهب المصيبةُ ويبقى أثرُها من السعادة والرضا واللطف. وبذلك تكون هذه المصيبةُ مصيبةً في الظاهر، بينما هي نِعمةٌ في الباطن.

وأما الإنسان غير المؤمن بالله عز وجل، ومِثْلُه ذاك الذي آمن بالله سبحانه وتعالى إيماناً تقليدياً محصوراً في تجاويف الدماغ، أما قلبه فبعيد في مشاعره عما آمن به عقله، فهذا الإنسان:

- إنْ أصابتْه نعمةٌ سَكِر بها وطغى، لأنه لم يعتَدْ أن يربط النعم بالمنعم جل جلاله، وإنما اعتاد أن يربطها بنفسه وبقُدُراته. تلك النفس التي طالما كبرتْ وكبرتْ حتى استولتْ على قرارات عقله وعواطف قلبه، وإذا به يخضع لقرارها القائل مقولةَ

(١) رواه الترمذي (٢٣٩٦) وقال: حديث حسن غريب، وابن ماجه (٤٠٣١)، كلاهما عن أنس.

قارون: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾ [القصص: ٧٨].. هذا هو الشرك المناقض للتوحيد، والذي عبّر عنه البيان الإلهي بقوله: ﴿وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦]. ولطالما كان محور العبودية لله عز وجل غائباً عن قلب هذا الإنسان ومشاعره، فلسوف يُخيَّل إليه أنه هو المالك حقاً لهذه النعمة، وأنه مُستغنٍ عن الله عز وجل، وهذا هو معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ۝٧﴾ [العلق: ٦ - ٧]، أي إنَّ الشأن في الإنسان - وليس كل إنسان كذلك - أنه يطغى عند النعمة، والغنى لونٌ من أبرز مظاهر وألوان النعمة، لذلك لم يقل الله عز وجل: أن استغنى، وإنما قال: ﴿أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ۝٧﴾، أي خُيِّل إليه أنه استغنى، ولذا فهو يتباهى بهذه النعمة ويتجبَّر. وهذا هو باطن الإثم، وهو سببٌ من أسباب بعده عن الله عز وجل.

ثم إنه يزداد بعداً عن الله عز وجل فوق بُعده هذا لأنه لن يستعمل هذه النعمة تعبيراً عن عبوديته لله، ومن ثم في طاعته، وإنما سيستعملها تعبيراً عن عبوديته لهواه ودنياه، ومن ثم فسيستعملها في معصية الله. وهذا هو ظاهر الإثم.

فيزداد هذا الإنسان بهذه النعمة بعداً فوق بُعدٍ فوق بُعدٍ عن الله عز وجل.. كيف لا وقد جرَّته هذه النعمة إلى باطن الإثم وظاهره؟!

وعندئذٍ فهذه النعمة لن تُسعده في الدنيا لانقطاع صلته بالله، وستكون في الآخرة نكالاً عليه، وسيحيق به وعيد الله عز وجل القائل: ﴿وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ﴾ [إبراهيم: ٧]. هذا هو عقاب كُفران النعمة، أي استعمالها في غير طاعة الله عز وجل، وبذلك تكون هذه النعمة نعمةً في الظاهر ولكنها نقمةٌ من الله في الباطن.

فماذا تقتضي التربية الربانية لكل منهما؟

- أما غير المؤمن المستكبر بكفره، فإنَّ الله عز وجل يُغْدِقُ عليه بالنعم

استدراجاً، حتى إذا أخذه لم يُفلِته مصداقاً لقوله تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾﴾ [القلم: ٤٤ - ٤٥].

ولكنْ إنْ كان كفره لسببٍ آخر غير الاستكبار، كأن لم يُتَحْ له أن يعرف هذا الدين من مصادره الصافية، ولكنه كان إنساناً موضوعياً وطّن نفسه على أن يتّبع الحقَّ أياً كان، واضعاً حظوظَ نفسه ومصالحه ورغباته وراء ظهره، فهو يبحث عن الحق ويفكر، ولكنه لم يصل إلى الإسلام بعد؛ فهذا الإنسان لا بد أن تدلَّه النعمةُ على المنعم، والصَّنعةُ على الصانع جل جلاله، ولا بد أن ينتشله الله من وحل الكفر إلى رحاب الإسلام، طال الزمان أم قَصُر. لأنَّ حاجز الاستكبار الذي يحجزه عن رحمة الله عز وجل وهدايته غير موجود، وبالتالي فما أيسرَ أنْ يهتديَ إلى عبوديته لله، ويستجيب لنداء الفطرة الإيمانية التي فطر اللهُ الناسَ جميعاً عليها.

- وأما المؤمن بالله عز وجل إيماناً تقليدياً، إنْ كان مستكبراً ومصراً على المعاصي والآثام، فإنَّ الله عز وجل يرسل له من يذكّره بالله وعقابه المرة تلو المرة تلو المرة، حتى إذا ركب رأسه وعاند وكابر، فإنَّ الله عز وجل يُدخِله أيضاً في مرحلة الاستدراج مصداقاً لقوله: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنعام: ٤٤].

وأما إنْ كان غير مستكبرٍ على الله، فإنَّ الله عز وجل يحرمه من هذه النعمة التي أسكرتْه، تربيةً له ورحمةً به، ويعرِّفه على ذاته العلية جباراً قهاراً مانعاً ضاراً، ليدلَّه على بابه، وليسوقه إلى محراب عبوديته لله عز وجل، فمن لم يُقبِل على الله عز وجل بلطائف الإحسان، سيق إليه بسلاسل الامتحان. ولطالما كان غير مستكبر، فلا بد أن يرجع ويتوب إلى الله عز وجل، ويعلم أن الله الذي أعطاه النعمة، هو الذي سلبه إياها لأنه لم يؤدِّ حقَّ الله فيها. وما أسرع ما يتوب الله عليه، ويتجلى عليه بصفته الغفور الرحيم التواب الكريم، ويعيد إليه النعمة التي سلبه إياها، فإنها بعد هذه التربية

الربانية لن تسكره ولن تنسيه مولاه وخالقه. فإن عاد إلى النسيان واستعمال نعمة الله في غير طاعة الله، جرَّه الله إليه من جديد بسلاسل الامتحان ﴿وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ﴾ [الأنفال: ١٩].

- أما المصيبة: فإنها تسبب عند كليهما - الكافر والمؤمن إيماناً تقليدياً - ألماً في الجسم، تماماً كالذي تسببه عند المؤمن إيماناً حقيقياً، لأنَّ طبيعة الجسم عند الجميع واحدة، والله عز وجل يقول: ﴿إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤]. ولكن الكافر وكذلك المؤمن إيماناً تقليدياً، يضيف إلى ألم الجسم ألم النفس الناتج عن ثورانها وتمردها، وربما أعلن عن استنكاره على الله سبحانه وتعالى. عندها تتحول هذه الشدة من مصيبةٍ في الظاهر إلى مصيبةٍ في الظاهر والباطن، أي إلى مصيبةٍ في الدنيا والدين معاً، وينطبق عليه قوله ﷺ: (ومَنْ سَخِطَ فله السُّخْط)[1]، فيتجلَّى الله على قلب هذا الإنسان بالغضب والسخط، وهذا هو منبع العيش الضنك، وهذا هو عين الشقاء في الدنيا والآخرة. ولو أن الله عز وجل أعطاه مالَ قارون ومُلكَ فرعون فلن يسعد به، لأنَّ منبع السعادة هو صلة الإنسان بربه، ومنبع الشقاء هو انقطاع الإنسان عن ربه سبحانه وتعالى[2].

المبحث السادس: قد يقول قائل: أمِنْ رحمة الله بعباده أن يبتليهم بالمصائب؟

الجواب: إنَّ هذه الدنيا دارُ فناء لا دار خلود وبقاء، فكلنا يدخل إليها من باب الولادة ويخرج منها من باب الموت.. فلو أنَّ الله عز وجل جعل هذه الدنيا دار نعيمٍ ليس فيها شائبةُ آلامٍ ولا مُنغِّصات، وليس فيها تراجُعٌ أبداً، لا في مالٍ ولا صحةٍ ولا

(١) مر ذكره ص٢٦٦.

(٢) شرح رياض الصالحين الدرس (٢٨ - ٢٩)، إضافة إلى شرح الحكم العطائية الدروس الصوتية الدرس (١١٤).

قوة، فما هو حال الإنسان إذا طرق ملكُ الموت بابَه بعد خمسين أو ستين سنة وقال له: آن لك أن تخرج من هذه الحياة !

كيف سيكون خروجه من دار النعيم هذه؟

إنه سيُقتلع منها كما تُقتلع خيطان الحرير من بين الأشواك، هكذا سيكون خروجه من هذه الحياة الدنيا التي تعشَّقها لأنَّ فيها كل ألوان النعيم، ورحم الله القائل:

فما حال مَنْ كان له واحد غُيِّب عنه ذلك الواحد

فهل هذا من مظاهر رحمة الله عز وجل بالإنسان؟!

إنَّ الحكمة والرحمة الربانية تقتضيان - وقد أقامك الله عز وجل في دار ممرٍّ لا في دار مقرٍّ - بأنْ لا يجعلك تتعلَّق بهذه الحياة الدنيا. فشاء الله عز وجل أن يُريك منها آلاماً وغُصصاً تبعث في نفسك الاشمئزاز منها، إضافةً إلى نعيم تتذوَّقه من أجل أن تؤدي وظيفتك فيها، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥]، فإذا جاء ملك الموت لينهي حياتك، تنظر إلى الدنيا شَزْراً بازدراء وتقول باللهجة العامية: (شو بدّي اتذكَّر منَّك يا سفرجل، كل عضَّة بغصَّة)، وتقول: (مرحباً بلقاء الله).

هكذا يفعل الإيمان الحقيقي بالله عز وجل - أي عقلاً وعاطفة - يجعله بخير حتى وهو في أحلك الظروف، أي حتى وهو يعاني سكرات الموت هو بخير. لا نقول هو مستريح الجسم، بل هو مستريح البال، يقول بلسان حاله أو مقاله: مرحباً بلقاء الله الذي طالما آمنتُ به وأحببته وتلذَّذتُ بذكره، فكيف لا أشتاق للذة لقائه؟!

والشرط في هذا الذي نقول، أنْ يكون هذا الإنسان قد عرف اللهَ وسار على صراطه قَدْر الاستطاعة، فإذا انحرف تاب ورجع إلى الصراط. فالموت بالنسبة لهذا الإنسان نعمةٌ وليس مصيبةً، وإنما هو مصيبةٌ لأهله وذويه الذين كانوا يستأنسون به.

ثم هناك قاعدة لا شذوذ لها إطلاقاً، هي أنه ما من إنسانٍ سار على صراط الله عز وجل جُهْدَ استطاعته والتزم أوامره، إلا وبشَّره الله عز وجل قُبيل موته، وأراه ما هو مُقبل عليه من النعيم، بحيث تهفو نفسُه إليه، ويشمئز من الدنيا التي يرحل عنها، ويتمنى سرعة خروجه منها، بشرط أن يكون قد خُتِم له بخاتمةٍ حسنة، هذا ما بينه الله عز وجل بقوله: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [يونس: ٦٢ - ٦٤]، قال علماء التفسير: البشرى تكون عند الموت.

فإن قال قائل: هذه البشرى للأولياء؟

نقول: الأولياء كما وصفهم الله عز وجل هم: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾، أي هم الذين آمنوا بالله عز وجل إيماناً عقلانياً مدعوماً بحقائق العلم، ثم حوّلوا هذا الإيمان إلى مكان العاطفة في قلوبهم، حباً لله وخوفاً منه وتعظيماً له، ثم بشكل تلقائي - كما علمنا - فإنَّ السلوك يتبع العواطف، فينقاد الإنسان بعواطفه هذه إلى ما يحبُّ اللهُ ويرضى من السلوك، فيفعل ما أُمر به، وينتهي عما نُهي عنه، وبذلك يكون ولياً لله عز وجل.

وللأولياء رُتَبٌ ودرجات، وهذه هي أول درجةٍ من درجات الولاية، وقد عبَّر عنها المصطفى ﷺ بقوله: (اتَّقِ اللهَ حيثما كنتَ، وأتْبِعِ السيئة الحسنةَ تَمْحُها)[1] [2].

---

(١) رواه الترمذي (١٩٨٧) وقال: حديث حسن صحيح، وأحمد (٢٠٨٤٧)، والحاكم (١٨٣) جميعهم عن أبي ذر.

(٢) شرح الحكم العطائية، الدروس الصوتية الدرس (٤١).

المبحث السابع: وأخيراً نقول: لماذا يُحجَب الإنسانُ عن التوحيد الذي هو سرُّ سعادته؟

الجواب: إنَّ نقطة الضعف عند الإنسان والتي تجعله ينسى حقيقة التوحيد، إنما هي الوسائطُ والأسباب. هذه الوسائط والأسباب تجعله ينسى الأصل ويحبس نَفْسَه عندها، وهذا خطأ كبير.

إن العاقل ينسى ساعي البريد الذي جاءه يحمل له حِوالةً ماليةً، وكأنه لم يره، بينما يتَّجه عقله وخياله وشعوره وحبُّه مباشرة إلى الذي أرسلها، مع أنه لا يراه.. نعم يشكر الواسطة، ولكنَّ شكره للواسطة لا يبلغ معشار شكره للأصل، وهذا معنى قوله ﷺ: (لا يَشكُرُ اللهَ من لا يَشكُرُ الناسَ)[1]، فشكر الله عز وجل هو الأصل، وشكر الناس هو الفرع.

الله عز وجل - وهو الحكيم الرحيم - يرسل ابتلاءاته إلينا بوسائط، ويرسل مِنَحه ونِعَمه إلينا أيضاً بوسائط، فلا تسجن عقلك وشعورك بهذه الوسائط، وتنسى الإله الذي خلق هذه الوسائط أولاً، ثم سخَّرها لك أو عليك ثانياً.

مثال: رجل فقير جائع، عضَّ الجوع على أمعائه وكادَ أن يهلك. مرَّ به رجل غني كريم مِعطاء رحيم، فأشفق عليه وجاءه بقصعةٍ من طعام وملعقة، وجلس إليه يطعمه لقمةً فلقمةً لشدة ضعف الرجل، وهكذا إلى أن شبع.

هذا الفقير كان شديد الجوع، لكنَّ غباءه كان أشدَّ من جوعه.. رأى ملعقةً

---

(١) رواه البخاري في صحيح الأدب المفرد (٢١٨)، وأبو داود (٤٨١١)، وأحمد (٧٨٧٩) جميعهم عن أبي هريرة بهذا اللفظ، ورواه الترمذي (١٩٥٤) عن أبي هريرة بلفظ: (من لا يشكرُ الناسَ لا يشكرُ الله)، و(١٩٥٥) عن أبي سعيد بلفظ: (من لم يشكرِ الناسَ لم يشكرِ الله)، وقال: حديث حسن صحيح، ورواه أحمد (١١٣٠٦) باللفظ الأول للترمذي، و(٧٤٥٢) باللفظ الثاني للترمذي.

تدخل فمه مليئةً وتخرج فارغة لتعود مليئةً إلى أن شبع، فأخذ بعد شبعه يتغزَّل بالملعقة ويقول: أنا مَدِينٌ لعطاء الملعقة ولولاها لهلكت.

لا ندري.. أنشفق عليه لجوعه الشديد أم لغبائه الأشد؟

يا هذا! الملعقة أمرٌ جامد لا حراك فيه ولا إدراك، وإنما من وراء الملعقة هنالك يد تدسُّها في فمك، ومن وراء هذه اليد صاحبُ اليد!!

عندما تعلم أنَّ جميع الوسائط والأسباب من سماء وأرض وغيوم ومجرات وبحار وأفلاك هي ملعقة بيد خالقها وبارئها، فلن تحجبك الملعقةُ عن الكريم الوهاب، ولن تحجبك الصنعة عن الصانع جل جلاله. بل كلما وقعتْ عيناك على صنعةٍ من شجر أو طير أو جبل أو سهل أو بحر أو نهر، أو فاكهة متدلية على أغصانها، أو سمعتْ أذنك شدوَ بلبلٍ أو تغريدَ طيرٍ أو حفيفَ أشجارٍ أو خريرَ أنهارٍ، أو شمَّ أنفُك عبيرَ زهرةٍ أو عليلَ نسمةٍ؛ لا بد وأن تربطها بالصانع جل جلاله. والنتيجة هي أنَّ مشاعرِ التعظيم لله عز وجل ستتفجر في قلبك.

وعندما تعلم أنَّ كل ما يَفِدُ إليك من النعم والمكرمات والخير والمسرات، إنما هي عارية - لا هبة - من الله عز وجل لك، وأنك مجرَّدٌ إلا من عبوديتك لله عز وجل، وتعيش هذه الحقيقة، فالنتيجة أنَّ قلبك يصبح وِعاءً عجيباً لحبِّ الله سبحانه وتعالى.

وعندما تعلم أنَّ كل ما يصيبك من المصائب والآلام، من مرضٍ أو فقرٍ أو خذلانٍ أو فَقْدٍ لما تحبُّ، إنما مصدرُه الله عز وجل، فالنتيجة أنَّ نارَ الخوف من الله ستشتعل في قلبك، لتذوب في ضِرامها المخاوف كلُّها، فتزداد التجاءً إليه، وتذللاً وانكساراً بين يديه سبحانه وتعالى.

إذن.. فتوحيدك لله عز وجل هو الذي فجَّر في قلبك مشاعر التعظيم والحب

والخوف من الله عز وجل. وهذه المشاعر هي الوقود الذي يدفعك للسير على صراط الله عز وجل مع التلذّذ. عندها لن تجد سعادةً وصل إليها الإنسان كهذه السعادة.

عندما تذوب صور الناس والمكوَّنات من ناظريك، ولا ترى من خلالها إلا المكوِّن جل جلاله، لن تبالي بالناس، مدحوك أم قدحوك، ولن ترى في مدح المادحين لك إلا مَظهراً من سَتْر الله عز وجل لك، ولن ترى في قدح القادحين لك إلا مَظهراً من تربية الله عز وجل لك.

وإذن فلن تقع في العجب والغرور عند المدح، كما لن تقع باليأس والقنوط عند القدح، فأنت في كلا الحالين مقيم على أعتاب الله، متجلبب بجلباب العبودية لله. كل ذلك بسر التوحيد، فهو الحصن الحصين ضد هذه المهلكات كلها.

اِعلمْ وتيقَّنْ أنَّ كلَّ شيءٍ في الدنيا عبارة عن آثارٍ وظلالٍ لله عز وجل، فما ينبغي لهذه الآثار والظلال أن تقطعك عن السير إلى الله عز وجل، فإنَّ ظلال الأشجار في الأنهار لا تعوق السفن عن التسيار.

إذا علمتَ ذلك فلا تعلِّق آمالك ولا آلامك ولا رغباتِك إلا بالله عز وجل، فإنه هو وحده الفعَّال في الكون كلِّه، وكل ما دونه عبارة عن أشباح تتحرك بقدرته وتخضع لإرادته مصداقاً لقوله تعالى ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٧٨]. ورحم الله القائل:

لا تعلَّقْ بسواه أملاً ... إنما يسقيك مَنْ قد زرعك

إذا أعطاك مَنْ ذا يمنعه ... ثم مَنْ يعطي إذا ما منعك

فمن وجد اللهَ وجد كلَّ شيء وعاش سعيداً رَضِيّاً، ومن فَقَدَ الله فَقَدَ كلَّ شيء وعاش طريداً شقياً.

ومعلومٌ أنَّ التعلُّق بالله مكانُه القلب، وهو لا يتنافى مع الأخذ بالأسباب التي مكانُها الجوارح. خذ بالأسباب بجوارحك، ولكن لا تعلَّق بها قلبك، بل اجعلها من

قلبك كالصِّفر على يسار العدد لا يقدِّم ولا يؤخِّر[١].

الثمرة الثانية: التمييز بين حنين الروح وأشواقها، ورغبات النفس ورعوناتها

هناك نوعان من حب الإنسان لله عز وجل:

- حب كسبي عارض: يأتي من التوجهات القلبية والالتزامات السلوكية، كالإكثار من ذكر الله عز وجل ومراقبته، عن طريق ربط النعم بالمنعم. وقد تحدثنا سابقاً عن هذا النوع من الحب.

- وحب قديم كامن في طوايا الروح الإنسانية قبل أن تتوازعها الأجساد، وهو حب منبثق من نسبة الأرواح إلى بارئها عز وجل القائل: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الحجر: ٢٩]. وهي نسبة تتسامى على تصوّر التجزئة والاتصال والانفصال، وتتنزّه عن مقاييس القرب المكاني وأبعاده. وحسبنا أنّ مضمون الروح العلمي كامن ومستقر في علم الله عز وجل القائل: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ [الإسراء: ٨٥]، فالروح أهبطت من العالم العلوي وحُبست في قفص الجسد، ومن شأنها أنها تحبُّ الانطلاق، وتشتاق إلى مصدرها، وتحنُّ إلى خالقها وبارئها، أيّاً كان صاحب هذه الروح، ملحداً كان أم مؤمناً أم فاسقاً، فالروح إذن تحبُّ وتحنُّ وتشتاق إلى بارئها قولاً واحداً.

ثم إنَّ الله عز وجل خاطب الروح الإنسانية إذ كانت حقيقةً كلّيةً واحدةً لم تنفصل بعدُ عن عالمها العلوي، خطاباً أخبرنا الله عز وجل عنه بقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، فكان هذا الخطاب

---

(١) شرح الحكم العطائية، الدروس الصوتية الدرس (٥٨).

الحلوُ الرائع مصدراً ومنبعاً آخر للحب والحنين والشوق من الروح الإنسانية لربِّها وخالقها. فكل ما تعانية الروح الإنسانية اليوم من حنينٍ وأشواق وكل ما يستبدُّ بها من مشاعر النشوة والشجو عندما تهبّ من حولها رياحُه، إنما هو من ذكرى ذلك الخطاب الذي توجَّه به إليها خالقُها سبحانه وتعالى، يوم لم تكن محجوبةً عنه بَعد، داخل هياكل الأجساد.

وما ظنك ما يحدثه هذا السؤال التقريري الحلو الموجَّه من الله مباشرةً إلى الروح الإنسانية مباشرةً، والتي ستغدو فيما بعد أرواحاً متناثرة في أجساد هذه الخليقة من عباد الله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾؟

إن الروح لتظل تُحدِّث الإنسانَ عن ذلك الخطاب، والأثر الذي تركه فيها، والحنين الذي يستبدُّ بها على أعقابه.

ألا تشعر داخل كيانك بالشوق إلى المجهول؟

ألا تشعر بالحنين إلى شيء ما بعيد عنك؟

ألا تشعر بالرغبة في التذلل لكائنٍ ما، تبحث عنه في كوامن احتياجاتك وضعفك، وتستكشفه في كل ما يتراءى لك أنه ملجأ وقويٌّ في عالم الأكوان؟

إنَّ ذلك كلَّه ليس إلا من حديث الروح لك، تُنْبِئُك من خلاله عن معاناتها، وتستعيد لك من ذكرياتها، وتحدِّثك عن ماضي نشوتها وعن ليالي أنسها وعهود تغريدها يوم كانت في الملأ الأعلى لم تنفصل عنه بعد.

وإلا فما مصدر وسرُّ الشجو أو الطرب الروحي الذي ينبعث في كيانك لدى الإصغاء إلى ألحانٍ ترتِّلها أصواتٌ متناسقة عذبة، تزجُّك في مزيج من مشاعر الشوق والحنين والفرح والحزن، لا تدري من أين جاءت، ولا تعلم إلى أين تتجه؟!

إنه يقظة الروح إلى ذلك العهد القديم، عهد الخطاب الرباني القائل: ﴿أَلَسْتُ

بِرَبِّكُمْ﴾؟ وإنَّ الروح لتظلُّ في حنينٍ إلى ذلك العهد، وتأثُّرٍ من ذلك الخطاب، وإنَّ الشجن ليظلُّ يستبدُّ بها شوقاً إلى ذلك العهد القديم وإلى ذلك العالم العلوي الذي أُهبطت منه. غير أنها لم تجد في اللغة وألفاظها، ما يترجم مشاعر حنينها وأشواقها، لما هو معروفٌ من ضِيْق اللغة وعجز ألفاظها عن استيعاب مشاعر الروح. لذلك لمَّا سَرَتْ إليها تلك الألحان المنبعثة من أصواتٍ شجية عذبة، والمعبِّرة عما عجزت اللغة عن ترجمته والتعبير عنه، لامست تلك الألحان عمق المشاعر المهيمنة عليها، وصافحتْ كلَّ ما هو مخزون لديها من الشوق والحنين وبرحاء ذكريات العهد القديم، فهبَّتْ من جرّاء ذلك رياحُ نشوةٍ عاتيةٍ، انبعثت من قدرة تلك الأنغام والألحان على التعبيرِ عن مكنون مشاعرها وترجمة حنينها وأشواقها. في حين أنَّ اللغة بكل وسائلها البيانية، لم تستطع أن تصل إلى شيء من عمق أحاسيسها ووهج مشاعرها.

مثال: عندما أشمُّ الأزهار المتنوعة الفوّاحة بالروائح المختلفة، والتي قد تبلغ أكثر من عشرين رائحة، لا أملك حيال كل واحدةٍ منها أن أعبِّر عنها إلا بتعبيرٍ لغوي واحدٍ هو: إنها رائحة زكية.

وكذلك الطُّعومات المختلفة التي نأكلها ونستلذُّ بها، إنما نعبر عنها بـ: طعم لذيذ.

ومِثْلها المناظر المختلفة الجميلة والكثيرة التي نراها على صفحات الكون، كلها نعبِّر عنها بـ: منظر جميل. في حين أنَّ الجمال يختلف كلَّ الاختلاف من منظر لآخر.

إذن فمشاعر الإنسان أوسع بكثير من اللغة والكلمات المعبِّرة عنها، وهذه المشاعر إنما تنبع من روحه حنيناً وطرباً وشوقاً وحباً. وعندما تشعر الروح بهذه المشاعر فإنَّ اللغة لا تُسعف صاحبَ هذه الروح للتعبير عنها، لذلك يلجأ إلى الآه.. يلجأ إلى النغمة الشجية. ومعلوم أن الذي دفع الإنسانَ القديم إلى النغمة لكي

يبتدعها، إنما هو شعورُه بإطلاق لفظة الآه، وهذه الآه أصبحت فيما بعد ألحاناً مختلفة.

وإذن فسبب الطرب هو التعبير عن مشاعر الروح بلغةٍ تعجز عنها لغةُ الكلام، وبالتالي فإن الروح تَسْعَدُ بالطرب لأنَّ فيه مُتَنَفَّساً لها. تلك هي حقيقة الطرب الذي تتأثر به الروح.

ولكن في الناس مَنْ يقول: نعم، إنَّ الطرب يأتي من قدرة الألحان على الوصول إلى شغاف المشاعر الروحية، ومن ثم ترجمتها والتعبير عنها. غير أنَّ أشواق الروح إنما هي في الراجح ترتبط بعلاقاتٍ مع أشخاصٍ أو أشكال أو أماكن وديار، تمكَّنتْ فانبعثتْ منها مشاعر الحب، وربما تجرَّعتْه ابتعاداً وسهداً ولم تذقْه وصالاً ورحيقاً. فتكون الألحان التي يسمعها صاحبُ هذه الروح، مَبْعَثَ شَجْوٍ ومَثَارَ نَشْوَةٍ، لما يشعر به من التوافق بين طبيعة تلك الألحان، والأشجان المتجمعة في طوايا روحه. وليس شوقاً إلى ذلك العهد القديم كما تقول!

الجواب: قلنا سابقاً إنَّ الله عز وجل ركَّب كيانَ الإنسان من عناصر ثلاث:

١ - الجسد.

٢ - النفس، ويُعبَّر عنها بالغريزة الحيوانية المتمثِّلة في حبِّ الأنا وحبِّ التنافس وحبِّ المال والجنس الآخر، فهي تبحث عن ملاذِّها في هذا المناخ الدنيوي الأرضي.

٣ - الروح التي تنسكب في الجسد، فهي تنعكس على الدماغ فيتكوَّن منها الفكر والإدراك، وتنعكس على القلبَ فيتكوَّن منها العواطف الرادعة (الخوف)، والعواطف الدافعة (الحب)، والعواطف الممجدة (التعظيم)، وتنعكس على الجسد فيتكوَّن منها الإحساس. هذه الروح إنما تهفو إلى محبوبٍ وجميلٍ واحدٍ لا ثاني له، هو الله جل

جلاله. ذلك لأنَّ نَسَبَ ما بينها وبين الله عز وجل قائم ومستمر، وهيهات أن نعلم لذلك أيَّ كيفية أو تحليل. أما الصور والأشكال ومظاهر الجمال المبثوثةُ في رحاب هذه الدنيا، فهي غريبة عن الروح، طارئة عليها، بعيدة عن متطلَّباتها ومطمح آمالها.

إذن فالروح تتوجَّه إلى شيء، والغرائز الحيوانية تتوجَّه إلى شيء آخر.

فالروح تظل نزاعةً في مشاعرها العلوية إلى خالقها، فهي في اشتياقٍ وحنينٍ دائمٍ إليه. والغرائز الحيوانية تظل نزاعةً في عالمها الأرضي إلى رغباتها ورعوناتها، باحثةً عن مشتهياتها فيه.

وإنَّ من شأن هذه الغرائز الحيوانية - إن لم تتلقَّ التربيةَ الكافية - أنْ تصادر أشواق الروح وحنينها، وتترجمها لحسابها. وبذلك يُحجب الإنسان عن تلك المشاعر العلوية، بالغرائز الحيوانية التي شاء الله أن يَبتليَ الإنسانَ بها.

فالروح تحنُّ متشوِّقةً إلى الجمال العلوي الخالد، لكنَّ الغريزة الحيوانية تقف بالإنسان على صور الجمال الفاني، وتقطع الطريق المتَّجهَ بالروح صُعُداً إلى الجمال العلوي.

والروح تُحِبُّ المحسنَ الأوحد الذي لا ثاني له ولا تعرف سواه، ولكنَّ الغريزة الحيوانية تقطع عنها الطريق بصور وأشكال المحسنين الزائفين.

والروح تبحث عن العظيم الأوحد الذي ما زالت تعرفه منذ عهدها القديم، ولكنَّ الغريزة الحيوانية تصادر مشاعرها لتضعها أما هياكل العظماء المزيّفين.

ولا بد أن يقوم من جراء ذلك صراع بين الروح الصاعدة إلى العالم العلوي، والغرائز الحيوانية الهابطة إلى العالم الترابي. فإن لم تصادف الغرائز الحيوانية تربيةً دائمةً تلاحقها بالتزكية، فلا بد أن تكون الغلبة للغرائز على الروح في هذا الصراع.

ومن آثار هذا التغلُّب - تغلُّب النفس بغرائزها على الروح - أنَّ الإنسان لا يشعر

عندئذٍ بشيء من تطلُّعات الروح وأشواقها، وإنما يشعر بما تمليه عليه غرائزه من الأهواء والشهوات. فتراه مأخوذاً بالصور والأشكال، واقفاً عندها، متوهِّماً أنَّ إليها حنينَ روحه، مع أنَّ الروح مغلوبٌ على أمرها، ضائعٌ صوتها وسط ضجيج أصوات الغرائز. وبذلك لا يستطيع التمييز بين حنين الروح إلى خالقها، ورغبات الغرائز إلى شهواتها.

إذا سمع ألحاناً شجية يقول: لقد طربتُ لأنني تذكَّرتُ فلانةً التي هيمنت على قلبي.

وإن لم تكن له قِصَّةُ حبٍّ مع أحد من الناس يقول: لقد أحسستُ في أعماق كياني بشوق إلى مجهول.. ما هو هذا المجهول؟ لا أدري[1].

ولكن إن استطاع الإنسان أن يأخذ نفسَه بالتزكية - وهي فرض عينٍ على كل مكلَّف - وثابر على ذلك بالوسائل والطرق التربوية المذكورة سابقاً، عندها تقوى الروح، لما تتلقَّاه من غذائها الدائم من ذكر الله عز وجل، وتنشط من عقالها، وتنطلق في سماء أُنسها وفرحها وحنينها إلى خالقها، وتزداد مع الأيام قوةً وانتعاشاً، وتتراجع ضراوةُ الغرائز ويخمد أُوارها، فتتغلب الروح أخيراً في حَلْبة هذا الصراع، وتتحرر من أسر الغرائز الحيوانية التي كانت تقطع عنها الطريق إلى الله عز وجل.

ويتخطى الإنسان حواجز الأسباب الوهمية ليصل إلى رؤية مسبِّب الأسباب كلها - ببصيرته لا ببصره - وعندئذٍ:

---

(١) ها هي إحدى المغنيات (فيروز) تقول - باللغة العامية - في أغنية لها:

أنا عندي حنين ... ما بعرف لمين
ليلية بيخطفني ... من بين السهرانين
بيصير يوديني ... لبعيد يوديني
وما بعرف لوين ... ما بعرف لوين

تتجاوز الروحُ بصاحبها صورَ الجمال الزائف لتنتهي به إلى المعين، مَعين الجمال كلّه والجميل الأوحد !

وتتجاوز صورَ الإحسان الصادر ممَّن كان يتوهَّم أنهم محسنون، لتوصله إلى المحسن الأوحد !

وتتجاوز صور العظمة الخادعة لتوصله إلى العظيم الأوحد !

وقد علمنا سابقاً أن الجمال والإحسان والعظمة هي أسبابُ وعوامل الحب عند الإنسان، وقد تجمعت هذه الأسباب في واحدٍ لا ثاني له، ألا وهو الله سبحانه وتعالى. عندها يتوجَّه القلب إلى ربِّه وخالقه، ليمنحه كاملَ حبِّه وصادقَ حنينِه وكثيرَ شوقِه وعظيمَ ولائه.

هذا المعنى يدركه الذين ساروا في طريق التزكية - تزكية النفس وترويضها - أشواطاً. وها هي أبيات أحدهم تقول:

كانت لنفسيَ أهواء مفرَّقة ... فاستجمعتْ مذ رأتكَ العينُ أهوائي
وصار يحسدني مَنْ كنتُ أحسُدُه ... وصرتُ مولى الورى مُذْ صِرتَ مولائي
تركتُ للناس دنياهم وشغلهم ... شغلاً بذكرك يا ديني ودنيائي

لم يكن يتأتَّى له قبل التزكية أن يترك للناس دنياهم وشأنهم، ولكن لمَّا سار في طريق التزكية وتخلَّصتْ نفسُه من الأهواء والشوائب والأخلاق الذميمة، عندها سمع صوتَ حنين الروح متميزاً عن صوت الشهوات والأهواء، فاستجمعت أهواؤه لتصبَّ في المحسن الأوحد والجميل الأوحد والعظيم الأوحد، ألا وهو الله سبحانه وتعالى.

وكذلك عندما يكون الإنسان شاباً يكون صوت غرائزه قوياً، ولكن ما أنْ يصل

إلى الشيخوخة إلا وتتراجع هذه الغرائز حتى تخفَّ أو تزول، في هذه الحالة يظهر حنين الروح بعد أن كان مُصادَراً لحساب الغرائز.

ها هو بيرم التونسي الذي أمضى حياته في شبابه مغذِّياً غرائزه البشرية، غير ملتفتٍ إلى نداء الروح، ولكن ما أنْ وصل إلى الشيخوخة، حتى بدأ يشعر بمشاعر الروح في كيانه نتيجةَ ضعف غرائزه. ودفعتْه أشواقُ الروح إلى أن يذهب إلى بيت الله الحرام، فحجَّ وطاف واعتمر وتاب، وأخذ يشكو حنينَ روحه إلى العالم الذي أهبِطت منه، وصاغ قصيدته باللغة العامية:

كنت ابتعد عنه و كان يناديني ويقول مصيرك يوم تخضعلي وتجيلي

طاوعني يا عبدي طاوعني أنا وحدي

مالك حبيب غيري قبلي ولا بعدي

أنا اللي أعطيتك من غير ما تتكلم أنا اللي علمتك من غير ما تتعلم

بتشوف جمايلي عليك من كل شي أعظم سلِّمْ لنا سلِّمْ لنا سلم لنا تسلم

دعاني لبَّيْته لحدِّ باب بيْتُه

لما تجلالي بالدمع ناديته بالدمع ناجيته

هذا كلام الروح المتشوِّقة المحترقة إلى عالمها الذي أُهبطت منه، وليس كلامَ الفنِّ الذي عاش له.

وقد عبَّر أبو علي ابن سينا عن حالة الروح بعد انفصالها عن العالم العلوي فقال:

هبطتْ إليك من المكان الأرفع ورقاءُ ذاتُ تدلُّل وتمنُّع

محجوبةً عن كل مُقلةِ عارفٍ وهي التي سفَرَتْ ولم تتبرقعِ

وصلتْ على كُرهٍ إليك وربما كَرِهتْ فراقك وهي ذاتُ تفجُّعِ

أَنِفَتْ وما أَلِفَتْ فلمَّا واصلتْ أَلفَتْ مجاورةَ الخرابِ البلقعِ

وأظنها نسيتْ عهوداً بالحمى ومنازلاً بفراقها لم تقنعِ
تبكي وقد ذكرتْ عهوداً للحمى بمدامعٍ تهمي ولما تُقْلِعِ
حتى إذا قرب الرجوع إلى الحمى ودنا الرحيل إلى الفضاء الأوسع
أخذتْ تغرِّد فوق ذُروة شاهقٍ والعلم يرفع كلَّ من لم يُرفَعِ
قد كان أهبطَها الإله لحكمةٍ خفيتْ عن الفطن اللبيب الألمع

تلك هي حقيقةُ الحبِّ القديم من الإنسان لله عز وجل، وهذا هو مصدره. ولن يَحْجُبَ الإنسانَ عن شعوره بهذا الحب إلا ضجيجُ أهوائه وصياحُ غرائزه، وإنما يُسكِتُ صياحَ هذه وضجيجَ تلك، ما سمّاه الله عز وجل بـ: (التزكية)، فمن أخذ نفسه بها دون انقطاع، تجلَّتْ أمامه لواعجُ الروح صافيةً عن شوائب الغرائز والأهواء. ولا بد أن ينقاد شيئاً فشيئاً لرغائب روحه، عن طريق الإكثار من ذكر الله عز وجل ومراقبته، والمداومة على العبادات، والبعد عن المحرَّمات. وعندئذٍ يَنْبَثِقُ الحبُّ الكسبيُّ الجديد، عن الحب الروحاني القديم، ثم يزداد هذا الحب الكسبي مع ازدياد الإقبال على التزكية بالسبل التربوية السابقة الذكر.

على أنَّ الغرائز الحيوانية تبقى موجودة داخل النفس، وتظلُّ متجهةً إلى رغائبها، ولكنْ في اعتدالٍ وضمن شرع الله عز وجل، بعيداً عن التشويش على حديث الروح ونهجه والقصد المقبل عليه.

هناك رجل أمريكي اسمه (جيفري لانك)، وهو من ألمع أساتذة الرياضيات في الولايات المتحدة الأمريكية، دخل الإسلام منذ سنوات، وكان حريصاً على أن يصلِّي مع الجماعة في المسجد، لا سيما الصلوات الجهرية، وهو لم يتعلَّمِ العربيةَ بعد. فسأله أحد الناس: لماذا تُصرُّ على أن تصلي الصلوات الجهرية خلف الإمام وأنت لا تعرف اللغة العربية؟

قال له جيفري: لماذا يركن الطفل الرضيع إلى صوت أمّه وهو لم يتعلّمِ اللغة بعد؟!

إنني أشعر أنَّ بيني وبين كلام الله عز وجل نسباً كنسب الطفل الرضيع لأمه، فأحِنُّ إليه وأستأنس به وأركنُ إليه، كما يركن الطفل إلى صوت أمه وإلى حديثها وهو لا يعلم اللغة بعد، هكذا يكون حبُّ العبد للرب جل جلاله[1].

الثمرة الثالثة: الانتصار لدين الله عز وجل والترفُّع عن الانتصار للنفس وفيها خمسة مباحث

المبحث الأول: معنى الجهاد وأنواعه:

الجهاد لغةً: مأخوذ من بَذْلِ الجُهد، فكل عملٍ تبذل فيه جُهداً يُسمَّى جهاداً.

والجهاد شرعاً: كلمةٌ تُطلق على مجموعةِ أعمالٍ يُبتغى منها الدعوةُ إلى الله عز وجل ورفعُ كلمته في الأرض. هذه الأعمال تسير على مراحل هي:

١ - مجاهدة النفس في سبيل إخضاعها لقرارات العقل: وهذه هي التزكيةَ التي تحدثنا عنها مطولاً، وهي فرض عين على كل مكلَّفٍ، وتشكِّل حجر الأساس في بناء الدعوة إلى الله عز وجل. وعنها يقول تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ [الشمس: ٧ - ١٠].

وجهاد النفس مقدَّم على جهاد الكفار وأصلٌ له. فالمسلم إذا لم يجاهد نفسه أولاً لتفعل ما أُمرتْ به وتنتهي عما نُهيتْ عنه ويحاربها في الله، لن يتمكَّن من جهاد عدوِّه في الخارج ابتغاءَ مرضاة الله عز وجل وانتصاراً له. بل إن نفسه ستقطع عليه الطريق لتحوِّل انتصارَه لله إلى انتصارٍ لها، وغضبَه لله إلى غضبٍ لها، إنْ خُدش كبرياؤها. وسنتحدث عن ذلك مفصلاً.

---

(١) الحب في القرآن (ص ٣٣ - ٤٣)، إضافة إلى الدروس الصوتية المسماة (التزكية قبل التقنية) الدرس (٨).

٢ - الجهاد باللسان: عن طريق الدعوة إلى الله عز وجل، بالحُجَّة والبيان والتعليم والإرشاد، وإماطة الشبهات والمشكلات والشكوك والوساوس التي قد تطوف بأذهان الناس، استجابةً لأمر الله عز وجل: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [النحل: ١٢٥].

وهي مرحلة بدأها رسول الله ﷺ بمكة طيلة ثلاثة عشر عاماً، لقي مع أصحابه خلالها كلَّ أنواع الأذى من الكافرين، دون أن يؤذَن لهم بردِّ الأذى بمثله، وإنما أُمروا بالصبر واحتمال الأذى. ولم يُشرع لهم جهاد الكافرين بالقتال إلا بعد الهجرة إلى المدينة، فكل آيات الجهاد التي نزلت بمكة إنما تتحدث عن هذين النوعين من الجهاد، جهاد النفس، وجهاد الكافرين بالدعوة إلى الله عز وجل باللسان. وفي ذلك يقول تعالى في سورة العنكبوت وهي مكية: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾ مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت: ١ - ٦]، ويقول في آخر هذه السورة: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [العنكبوت: ٦٩]، أي: والذين جاهدوا النفس والشيطان والكافرين، بدعوتهم إلى الله عز وجل باللسان فقط، ابتغاء مرضاة الله، لنهدينَّهم طريقَ السير إلينا، ونهايةُ طريقِ المجاهدة والتزكية، الوصولُ إلى درجة الإحسان. والإحسان هو أن تُحسن إلى مَنْ أساء إليك، لا أن تحسن إلى مَنْ أحسن إليك فحسب.

٣ - الجهاد بالسلاح: وهذا النوع من الجهاد لم يُشرع إلا بعد مضي ثلاثة عشر عاماً من بدء الدعوة، تمَّ خلالها زجُّ المسلمين في دورةٍ تدريبيةٍ على جهاد النفس

وتمحيصها، حتى إذا ما استطاع المسلمون أن يكبحوا جماح نفوسهم، رغم كل ما يَلقَون من الأذى والسخرية والتعذيب والمقاطعة، وفرّقوا بين الانتصار لله والانتصار للنفس، نزلتْ آيةُ القتال التي أذِنَ الله عز وجل فيها للمسلمين أن يدافعوا عن أنفسهم ويقاتلوا مَنْ يقاتلهم والتي يقول الله عز وجل فيها: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٣٩ -٤٠].

إذن فموضوع الدعوة إلى الله عز وجل باللسان أساس لا مناص منه ولا غنىً عنه، إذ يمكن بكل سهولة أن يُستغنى عن القتال بهذه الدعوة اللسانية، ولكن لا يمكن إطلاقاً أن يُستغنى بالقتال عن الدعوة. فإذا لم يؤدِّ المسلمون هذا الواجب فإن الجهاد بالسلاح لا يجوز. أي لا يجوز أن نبيِّت دولةً من الدول الكافرة بغارة، بحجة الدعوة إلى الله عز وجل جهاداً بالسلاح، قبل أن ندعوهم إلى الإسلام ونبصِّرهم بحقيقة الدين، فإذا دعوناهم وبصَّرناهم، فهم بعد ذلك أحرار في الدخول في الإسلام أو البقاء على ماهم عليه. ولا يجوز لنا مقاتلتهم ما لم يقاتلونا ويمنعونا من الدعوة إلى الله عز وجل بالحكمة والموعظة الحسنة. هذا ما أجمع عليه العلماء مأخوذاً من قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ﴾ أي أنّ هنالك من يقاتلهم، ومن قوله تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾ أي لا يتأتى الدين بالإكراه أبداً.

وهذا النوع من الجهاد القتالي شُرع بعد هجرة النبي ﷺ إلى المدينة، إعلاءً لكلمة الله عز وجل. والرسول ﷺ علَّم أصحابه وعلَّمنا أنه ليس المقصود من الجهاد أن نشفي غليلنا من الملحدين أو المشركين أو حتى من الذين يتربَّصون بنا شراً، وإنما المقصود هو أن نُدخِل الهدايةَ في قلوب عباد الله عز وجل جميعاً، وبما أنَّ هذا هو الهدف، فعلى المسلمين أن يسلكوا بادئ ذي بدء الطريق السلمي لا الطريق القتالي،

وأن ينشروا الدينَ علماً ووعياً وتثقيفاً وفهماً، بكل معاني اللطف والإيثار، وهذا هو الأساس العريض والقاعدة الصلبة للجهاد.

فإذا قمنا لننشر دينَ الله عز وجل بالتعليم والتثقيف والأمن والطمأنينة - مع العلم أننا لا نُجبر أحداً على الدخول في الإسلام - فوجدنا أنَّ فئةً من الناس تُهدِّدنا بالقتل وتمنعنا من أنْ نَدخل بلادها لإبلاغ دين الله، فالقتال في هذه الحالة إنما يُشرع من أجل ردِّ غائلة الحِرابة، لا من أجل ذات الكفر، أي لا بسبب الكفر من حيث إنه كفر. وهذا هو رأي جمهور الفقهاء.

إذا كان الأمر كذلك فعلينا ألا نتمنى لقاءَ العدو، عملاً بقوله ﷺ: (لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا اللهَ العافيةَ، فإذا لقيتموهم فاصبروا...)[1]، وعلينا أن نسأل الله عز وجل الهداية والعافية لنا ولهم، فيكونوا إخوة لنا في الإسلام. فإذا سألنا الله العافية، وحقَّق اللهُ عز وجل لنا ذلك فعافاهم من كفرهم وجحودهم، أوْ من منعهم إيانا إبلاغَ كلمة الله، فهل من داعٍ إلى لقاء العدو؟ وهل يوجد عدو بالأصل؟!

ولكن إنْ لم يتحقق ذلك، وأبَوا إلا منعَنا عن الدعوة باللسان، فالجهاد عندئذٍ بالقتال مشروع بسبب الحرابة لا بسبب الكفر.

هذا ما فعله ﷺ عندما حاصر الطائف أكثر من عشرين يوماً، فلما استعصت على المسلمين، أمر النبيُّ ﷺ أصحابَه بالرحيل، فقيل له: يا رسول الله، ادعُ الله على ثقيف (أي أهل الطائف)، فرفع رسول الله ﷺ يديه قائلاً: (اللهم اهدِ ثقيفاً وائتِ بهم)[2]. هذا مع العلم أنَّ ثقيفاً هذه هي التي طردته عندما هاجر إليها، وسلَّطتْ عليه

---

(١) متفق عليه، البخاري (٢٨٠٤)، ومسلم (١٧٤٢)، كلاهما عن عبد الله بن أبي أوفى، واللفظ لمسلم.

(٢) السيرة النبوية لابن كثير (٣/ ٦٦٧) بهذا اللفظ، وأخرجه بلفظ: (اللهم اهد ثقيفاً) الترمذي (٣٩٤٢) وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب، وأحمد (١٤٢٩٢) كلاهما عن جابر.

الصِّبية يرمونه بالحجارة حتى أدموا قدميه الشريفتين. وكان ﷺ باستطاعته أن ينتصر لنفسه فيدعو الله عليهم بالهلاك، ولكنه - وهو الذي قال عنه ربه وخالقه ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم: ٤] - آثر أن ينتصر لربّه فيدعو الله لهم بالهداية !

بل حتى عندما كان ﷺ يجاهد في سبيل الله عز وجل بالغزو والقتال، لم يكن يمارس هذا النوع من الجهاد انتقاماً. لا، بل كان الجهاد بمثابة العملية الجراحية التي يُجريها الطبيب لمريضه، عندما يجد أنه لا بد من بتر عضو في سبيل أن يبقى مجموعُ الجسم سليماً صحيحاً. وكذلك هنا، لا بد من بتر فئةٍ من الناس يبغون في الأرض، ويمنعوننا من إبلاغ رسالة ربنا بالحكمة والموعظة الحسنة؛ من أجل أن يبقى مجموع جسم الأمة سليماً صحيحاً في العقيدة والسلوك[١].

لقد سُئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعةً ويقاتل حميَّةً ويقاتل رياءً، أيُّ ذلك في سبيل الله؟ فقال ﷺ: (مَنْ قاتل لتكونَ كلمةُ الله هي العليا فهو في سبيل الله)[٢].

أي في الناس من يقاتل شجاعةً واستبسالاً، فهو رجل يحبُّ المغامرة واقتحامَ المخاطر، ولا هدف له من وراء قتاله هذا إلا أن يمارس هوايته، شأنه شأن من يهوى تسلُّقَ الجبال الوعرة. فهذا قتاله ليس في سبيل الله.

وفي الناس من يقاتل حَمِيَّةً، أي أَنَفَةً وغَيرةً على ذاته وجماعته، واعتداداً بشخصيته، ودفاعاً عن كينونته، وانتقاماً لكرامته. وهذا أيضاً قتاله ليس في سبيل الله.

وفي الناس من يقاتل رياءً، أي من أجل أن يكتسب سُمعةً حسنةً عند الناس.

---

(١) شرح فقه السيرة الدرس (١٦) بيعة العقبة الثانية، إضافة إلى شرح رياض الصالحين الدرس (٤٦).

(٢) متفق عليه. البخاري (٢٩٥٨)، و مسلم (١٩٠٤) كلاهما عن أبي موسى الأشعري، واللفظ لمسلم.

فلئن كانت هواية الصنف الأول اقتحام المخاطر، فهذا الصنف هوايته أن يصغي إلى ما يقوله الناس عنه فيطرب لمديحهم. وهذا أيضاً قتاله ليس في سبيل الله.

فمن هو الذي يقاتل في سبيل الله عز وجل إذن؟

إنه ذاك الذي جاهد نفسه وزكّاها، ولا زال يجاهدها ويزكّيها، حتى انتقلتْ طاعاته من الطاعة الشكلية إلى الطاعة الحقيقية. وقد علمنا سابقاً أنَّ الطاعة الحقيقية - والجهادُ في سبيل الله عز وجل من أعظم الطاعات والقربات - هي تلك التي لها جذور من العبودية لله عز وجل، وبالتالي لها جذور من حب العبد لله عز وجل والخوف منه وتعظيمه سبحانه وتعالى. وهذا إنما يأتي من أخذ النفس بالتزكية والاستمرار على ذلك مدى الحياة، حتى تنتقل من النفس الأمارة بالسوء إلى اللوامة فالمطمئنة التي أصبح هواها في استرضاء الله عز وجل وحده لا غير، وينتقل القلب من القلب المريض بحبِّ الأغيار والتعلُّق بها، إلى القلب السليم بحبِّ الله الواحد القهار والتعلُّق به وحده سبحانه حتى يلقاه.

ولطالما كان السلوك تابعاً للعواطف الكامنة في القلب، وقد اتجهت هذه العواطف - بالتزكية - إلى الله عز وجل، فإنه ما أيسر أن يلحق السلوك بالعواطف ليعبِّر عنها بفعل ما أَمَرَ اللهُ به، وتَرْكِ ما نهى عنه، ابتغاء وجهه سبحانه.. كيف لا وقد ذابت محبةُ الأغيار، ولم يبقَ في القلب إلا حبُّ الله الواحد القهار! وهذا هو مصداق قوله ﷺ: (ألا وإنَّ في الجسد مضغةً إذا صَلَحَتْ صَلَحَ الجسد كلُّه، وإذا فَسَدَتْ فسد الجسد كلُّه، ألا وهي القلب)[1].

ولطالما كان صاحب هذا القلب ينطلق في جهاده في سبيل الله، إنْ بالكلمة أو بالسلاح، من منطلق العبودية لله عز وجل، فمهما رأى في طريقه هذا مَنْ يؤذيه

---

(١) متفق عليه، البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩) كلاهما عن النعمان بن بشير.

ويسخر منه وينتقص من شخصه، فإنَّ نفسه التي اعتاد أن يجاهدها لن تحدثه بالانتصار لها، وإنْ حدَّثته فإنه سُرعان ما يجاهدها كما اعتاد من قبل أن يجاهدها، ويكبح هواها بشعور أنه ماثل في محراب العبودية لله عز وجل، وأنه لا يبتغي من سعيه هذا إلا بلوغَ مرضاته سبحانه وتعالى. فما هي إلا أن تختفي نزعاتُها وراء طمأنينة القلب وسكينة النفس، ويصفو عندئذٍ سبيل الدعوة إلى الله عز وجل والجهاد في سبيله، عن الحواجز الشخصية وحجب الأنانية وحب الذات والانتصار لها.

ومن شأن هذا المسلم أن يلتجئ إلى العلاجات الواقية كلما شعر بغوائل النفس ودسائس الأنانية تتسلل إلى مكمن القيادة القلبية. كالإكثار من ذكر الله عز وجل، والالتجاء إليه بالدعاء الضارع أن يَقِيَه من حظوظ نفسه.

معنى ذلك أن غوائل النفس وحظوظ الشيطان لن تموت في شعور الإنسان، لكنها تقبع في زاوية من كيانه، بعيداً عن التأثير عليه، كلما كان الإنسان مراقباً لها متحفزاً لمقاومتها بالعلاجات الواقية. وينطبق عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١]. وعندئذٍ سيكون جهاده في سبيل الله، لا في سبيل هوى النفس ورعوناتها، وسيكون انتصاره لله لا لها.

كيف لا، وهو من منطلق عبوديته لله عز وجل يُصغي إلى أوامر مالكه وخالقه، الذي يوجِّهه إلى ما فيه خيرُ الدنيا والآخرة. فهو جل جلاله في معرض الأمر بالانتصار لله عز وجل يقول:

- ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧].
- ﴿وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ [الحج: ٣٠].
- ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢].

وفي معرض الأمر بالترفُّع عن الانتصار للنفس، والدعوة إلى الإحسان إلى المسيء يقول:

- ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

- ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾ [فصلت: ٣٥].

- ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢].

وها هو ذا رسول الله ﷺ يجسِّد هذا المعنى خير تجسيد، فهو ﷺ لم ينتقم لنفسه قط. تقول السيدة عائشة رضي الله عنها: (ما ضرب رسول الله ﷺ شيئاً قطُّ بيده، ولا امرأةً ولا خادماً، إلا أن يجاهدَ في سبيل الله، وما نِيْلَ منه شيءٌ قطُّ فينتقِمَ مِنْ صاحبه إلا أن يُنْتَهك شيءٌ من محارم الله تعالى فينتقمَ لله عز وجل)[1].

وعن أنس رضي الله عنه قال: (كنت أمشي مع رسول الله ﷺ وعليه بُرْدٌ نجرانيٌّ غليظُ الحاشية، فأدركه أعرابيٌّ فَجَبَذَه بردائه جَبْذَةً شديدةً حتى نظرتُ إلى صفحة عاتقه ﷺ قد أثَّرتْ بها حاشيةُ البُرْد من شدة جبذته، ثم قال: يا محمد مُرْ لي من مال الله الذي عندك. فالتفتَ إليه رسول الله ﷺ ثم ضحك ثم أمر له بعطاء)[2].

أما عندما تُنتهك حرماتُ الله فإنه ﷺ كان يغضب حتى لا يقوم لغضبه شيء، وكأنه مُنْذِرُ جيشٍ صبَّحه ومسَّاه، فعن عائشة رضي الله عنها أن قريشاً أهمهم شأن المرأة

(١) رواه مسلم (٢٣٢٨) عن عائشة رضي الله عنها.

(٢) متفق عليه، البخاري (٥٤٧٢)، ومسلم (١٠٥٧) كلاهما عن أنس، واللفظ للبخاري.

المخزومية التي سرقت فقالوا: مَنْ يكلِّم فيها رسولَ الله ﷺ؟ فقالوا: من يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد حِبُّ رسول الله ﷺ؟ فكلَّمه أسامة فقال رسول الله ﷺ: (أتشفع في حد من حدود الله تعالى)؟ ثم قام فاختطب، ثم قال: (إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريفُ تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيفُ أقاموا عليه الحدَّ! وايمُ الله، لو أنَّ فاطمةَ بنتَ محمدٍ سرقَتْ لقطعتُ يدها)[١] [٢].

المبحث الثاني: كيف نفرّق بين الانتصار لله عز وجل والانتصار للنفس؟

قال العلماء: مما يفرِّق بين الانتصار لدين الله عز وجل والانتصار للنفس، أنْ ينظر المسلم إلى نفسه وهو في غِمار الجهاد، وقد أُصيبَ في شتى أطراف جسده ونُكب، فإنْ كان يفضِّل أن يهدي اللهُ عز وجل هؤلاء الذين أوذي على أيديهم إلى الحق، فيُعرِضَ عن قتالهم ويصبحَ أخاً لهم في الله، ويرغبُ في ذلك رغبةً أكيدة؛ فلْيعلم أنَّ جهاده هذا في سبيل الله سبحانه وتعالى.. أما إنْ كان يفضِّل أن يُسحقوا ويُقتلوا، وعلى يده بالذات، وأن يُمزَّقوا شرَّ ممزَّقٍ، فلْيعلم أنَّ عمله هذا انتصارٌ للنفس وحَمِيَّةٌ للذَّاتِ وانتقامٌ للأنا، وليس في سبيل الله سبحانه وتعالى.

ومن الأدلة الساطعة على ذلك الدعاء لهم أو عليهم:

فإذا ذُكر مَنْ ساروا في طريق الغِواية والانحراف، فاندفع من أعماق قلبه للدعاء لهم بالهداية والرشد، فلْيعلم أنَّ غيرتَه لله، واندفاعَه يوماً ما لقتالهم، في سبيل الله. هذا ما علَّمنا إياه رسولُ الله ﷺ يوم قال: (اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون)[٣]، وقال: (اللهم اهد ثقيفاً وائت بهم)[٤].

---

(١) متفق عليه، البخاري (٣٢٨٨)، ومسلم (١٦٨٨) كلاهما عن عائشة، واللفظ للبخاري.

(٢) شرح رياض الصالحين الدرس (٨)، إضافة إلى كتاب (هكذا فلندع إلى الإسلام) (ص ٢٩ - ٣٠).

(٣) رواه البخاري (٣٢٩٠)، ورواه مسلم (١٧٩٢) بلفظ: (رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون).

(٤) مر ذكره ص٢٨٧.

أما إنْ سمع مَنْ يدعو لهم بالهداية والرشد، فردَّ عليه - ربما - قائلاً: إنهم ليسوا أهلاً للدعاء لهم بالهداية والرشد، وإنما هم أهل للدعاء عليهم بالمحق والسحق، فلْيعلم أنَّ قوله هذا إشفاء لغليل نفسه وغيظ قلبه، لا غَيرة على دين الله عز وجل، وهو بهذا إنما يخالف نهجَ رسول الله ﷺ.

فالمسألة إذن خطيرة، وبين الخطَّين فارق دقيق جداً جداً، وكثيراً ما يلتبس على الإنسان. وقد ربّى رسول الله ﷺ أصحابه أن يضعوا أَنَفَتَهم وحظوظَ نفوسهم تحت أقدامهم، وأن يخرجوا إلى الجهاد بدافعٍ من الغيرة على دين الله والشفقة على عباد الله عز وجل جميعاً، حتى على الفُسَّاق والكفرة والجاحدين[1].

فإن قال قائل: فأين إذن دور الحب في الله والبغض في الله؟

ألـم يقل رسول الله ﷺ: (أوثقُ عُرى الإيمان الحبُّ في الله والبغضُ في الله)[2]، فكيف تجتمع الشفقة على الكفرة مع البغض لهم في الله؟

الجواب: لا يوجد أيُّ تعارضٍ بين الشعور بالشفقة على الكفرة ومرتكبي المعاصي والأوزار، والشعور في الوقت ذاته ببغضهم في الله. ذلك لأن معنى البغض في الله هو بغضك للمعصية التي تلبَّس بها العاصي، لا بغضك لشخص العاصي، وهو بغضك لكفر الكافر لا لشخص الكافر. فإن تاب من معصيته ورجع عن كفره فهو أخوك في الله.

---

(١) شرح رياض الصالحين الدرس (٨).

(٢) رواه الطبراني في الكبير (١١٥٣٧) عن ابن عباس، ورواه بلفظ قريب الحاكم (٣٨٤٢) عن ابن مسعود، وأحمد (١٨٠٥٣) عن البراء، ويؤيده: (لا يجد أحد حلاوة الإيمان حتى يحب المرء لا يحبه إلا لله) البخاري (٥٦٩٤) عن أنس، و(إن أحب الأعمال إلى الله عز وجل الحب في الله والبغض في الله) مسند أحمد (٢٠٧٩٦) عن أبي ذر، و(أفضل الأعمال الحب في الله والبغض في الله) سنن أبي داود (٤٥٩٩) عن أبي ذر وغيرها.

ها هو سيدنا لوط عليه السلام يُبغض من قومه عملَهم ويقول لهم: ﴿إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٨]، ولم يقل لهم: إني لأشخاصكم من المبغضين.

هذا هو معنى البغض في الله، والذي من نتائجه أنه إذا تاب العاصي من معصيته، ورجع الكافر عن كفره، انتقلتَ من بغضه في الله إلى حبِّه في الله. لأنك في الأصل لم تبغضه لشخصه، وإنما أبغضتَ معصيتَه وكفره، فإذا زال سبب البغض زال البغض، وحل محله الحب والوئام. وقد تجسَّد هذا المعنى عملياً في سيرة الرسول ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم، فقد كان الرجل من الكافرين إذا ما اعتنَقَ الإسلامَ، يصبح أحبَّ إليهم من بعض أبنائهم، وإنْ كان قد أوجع ضرباً بالمسلمين، فكانوا يبتدرونه بالمصافحة والتقبيل والمعانقة، فرحين به أخاً لهم في الإسلام، ولو كان قد قتل آباءهم وإخوانهم وفَلَذَاتِ أكبادهم!

أما إذا لم يكن بغضك له في الله، فسيكون إذن بغضك لشخصه، وعندئذٍ مهما رجع عن كفره وتاب من معصيته، فلن ترجع عن بغضك له، لأن المبغوض هو شخصه لا عمله. وهذا ما نهانا عنه الله ورسوله ﷺ، فالتائب من الذنب حبيبُ الرحمن، كيف لا وهو القائل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، والقائل: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ [التوبة: ١١]، وورد في الأثر: (تخلَّقوا بأخلاق الله)[١]، ومن أخلاق الله الرحمة، فالراحمون يرحمهم الرحمن.

---

(١) جاء في كتاب (مختصر التحفة الإثني عشرية) للإمام الدهلوي أن حديث: (تخلقوا بأخلاق الله) ورد في كتاب (بحار الأنوار) (٥٨/ ١٣٠)، وقال عنه بعض أهل العلم: هذا اللفظ لا يُعرف عن النبي ﷺ في شيء من كتب الحديث، ولا هو معروف عن أحد من أهل العلم، بل هو من باب الموضوعات عندهم، وإن كان قد يُفسَّر بمعنى صحيح يوافق الكتاب والسنة. فإن الشارع ذكر أنه يجب اتصاف العبد بمعاني أسماء الله تعالى، كقول النبي ﷺ: (إن الله جميل يحب =

إذن لا يوجد أيُّ تعارض بين الرحمة والشفقة على شخص العاصي أو الكافر، والبغض لمعصيته أو كفره، بل بينهما تلازم تام. أما الغِلظة والانتقام فمتلازمان مع البغض لشخص العاصي انتصاراً للنفس. وما أكثر أولئك الذين لا يفرّقون بين البغض في الله، والبغض انتصاراً للنفس والهوى، فهم ينالون حظوظَهم تحت لائحة (البغض في الله)، والتي ما أيسر أن تخفي وراءها ألواناً من الأحقاد الشخصية ودوافع الأنانية والانتصار للذات، والتي تتمثل آناً في الفرد وآناً في الجماعة، ثم يحاولون أن يعطوها صفةَ الشرعية، فيُسدِلون عليها لائحةَ (البغض في الله)، فإذا كنا مخلصين لربنا وصادقين مع أنفسنا في أمر الدعوة إلى الإسلام، فلنعترف جميعاً أن الذي تناله نفوسُنا واستكبارُنا مما نسميه (البغض في الله). أو (الغضب لله)، أكثر كثيراً مما نقدِّمه إلى الله تعالى نيةً صافيةً لوجهه تعالى، ولْنعترف بأنَّ هذه هي الآفة الكبرى في حياة الداعين إلى الله تعالى.

فإذا طرحنا أنفسَنا من الغضب على العاصين، وبقي الغضب الذي لا سبب له إلا التلبُّس بالمعصية، وهو الغضب لله، أمكننا أن نعلم كيف تتلاقى الشفقةُ على العاصي والرحمةُ به، مع الغضب مِنْ تلبُّسه بالمعصية، بل أمكننا أن نعلم أنهما متلازمان لا يفترقان.

وإذا ما فرَّق الداعي إلى الله بين الغضب لله والغضب للنفس، فإنَّ النتيجة الهامة

= الجمال) رواه مسلم، وقوله: (إن الله وتر يحب الوتر) رواه البخاري، و(إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً) رواه مسلم.

وورد في (تفسير الرازي) لفخر الدين الرازي (٩/٤٠٨): إن كمال حال العبد ليس إلا في أن يتخلق بأخلاق الله تعالى، قال ﷺ: (تخلقوا بأخلاق الله). وورد في كتاب (تفسير الشعراوي) (٦/ ٣٥٥٠): يقول ﷺ: (حسن الخُلُق خُلُق الله الأعظم) رواه الطبراني في المعجم الأوسط عن أبي هريرة، وروي (تخلقوا بأخلاق الله)، ويؤيده قوله تعالى: ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ و ﴿وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾.

لذلك، أنه يستهين بكل ما قد يناله من أذىً أو إهانة تتعلّق بشخصه وحقوقه الخاصة به، ويتجاوزُه بالصفح ويقابلُه باللطف والإحسان، فإذا وجد الأذى أو الإهانة قد اتجهت إلى حقوق الله عز وجل أو إلى شيء من شعائره وأحكامه، لم يبال بكل ما يملكه من نَفْسٍ ومالٍ وجاه، في سبيل الانتصار لدين الله عز وجل وحراسة حقوقه وشعائره أن ينالها أيُّ إساءة أو خدش، على أن يسلك سبيلَ الحكمة في ذلك.

ودليل ذلك أن رسول الله ﷺ - كما علمنا - ما انتصر لنفسه في حياته كلها قط من مشرك أو مجرم مهما بلغ أذاه وضره لشخصه ﷺ[١].

ولعل أبرز ما نسوقه من سيرته العطرة ﷺ كشاهدٍ على هذا الذي نقول، الحديث المتفق عليه برواية جابر رضي الله عنه أنه غزا مع رسول الله ﷺ قِبَل نجد، فلما قَفَلَ رسولُ الله ﷺ قفل معه، فأدركتهم القائلة في وادٍ كثير العضاه، فنزل رسول الله ﷺ وتفرّق الناس يستظلون بالشجر، ونزل رسول الله ﷺ تحت سَمُرة، فعلّق بها سيفه ونمنا نومة، فإذا رسول الله ﷺ يدعونا وإذا عنده أعرابي، فقال: (إنَّ هذا اخترط عليَّ سيفي وأنا نائم فاستيقظت وهو في يده صَلْتاً، قال: من يمنعك مني؟ قلتُ: الله - ثلاثاً - ولم يعاقبه وجلس)[٢].

وفي رواية أبي بكر الإسماعيلي في صحيحه: (فقال: من يمنعك مني؟ قال الله. فسقط السيف من يده، فأخذ رسولُ الله ﷺ السيف، فقال: من يمنعك مني؟ فقال: كن خير آخذ. فقال: تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله؟ قال: لا ولكني أعاهدك ألا أقاتلك ولا أكون مع قوم يقاتلونك. فخلى سبيله، فأتى أصحابه فقال: جئتكم من عند خير الناس).

---

(١) كتاب هكذا فلندع إلى الإسلام (ص ٣٩ - ٤٠).

(٢) متفق عليه، البخاري (٢٧٥٣)، ومسلم (٨٤٣) كلاهما عن جابر، واللفظ للبخاري.

هذا الأعرابي لم يُسلِم في هذه اللحظة وتحت ذلك الخطر، ومع ذلك فقد أطلق رسول الله ﷺ سراحه، فكان ذلك سبباً في إسلامه فيما بعد، وكانت له صحبةٌ مع رسول الله ﷺ. وهو أعرابي من قبيلة محارب، اسمه غورث بن الحارث، وقد ذكر ابنُ حجر ترجمته في كتابه (الإصابة في تمييز الصحابة) من بين أصحاب رسول الله ﷺ[1].

قد يقول قائل: قد يكون الصفح في كل المواضع، إلا في هذا الموضع. فهو رجل قاتل شرير ينبغي أن يُقتل!

الجواب: لو أنَّ رسول الله ﷺ قتله، لكان الدافع له على ذلك إنما هو الانتصار لذاته ولنفسه، وله الحق ﷺ، فالله عز وجل يقول: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [النحل: ١٢٦]، فالدرجة الأعلى والموقف الأسمى، خاصةً فيما يليق برسول الله ﷺ وبالدعاة من بعده، هو أن يصبر وألا ينتصر لنفسه، وإنما ينتصر لربه جل جلاله. والانتصار لدين الله عز وجل يكون بالصفح عن هذا الرجل لا بقتله.. لماذا؟

لأنه ﷺ إذا صفح عنه فلا بد أن يهيمن حبُّ رسول الله ﷺ على قلبه، ولا بد أن تتساقط عوامل الكراهية والضغينة من قلبه، ويُشْرَبَ قلبُه حبَّ الإسلام، وسيعود إلى قبيلته ليتحدث عن رسول الله ﷺ، ولسوف يكون لإسلامه تأثير كبير على قبيلته.. إذن فَصفْح رسول الله ﷺ فيه انتصار لدين الله عز وجل حقاً.

لقد أيقظ رسولُ الله ﷺ أصحابه وأشهدهم على ما حصل ليعلِّمهم كيف يكون الانتصار لله والترفع عن الانتصار للنفس، فعملُه هذا تشريعٌ لهم ولنا، وعمله هذا جزء من منهج الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى.

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة (٥ / ٢٥٢) رقم (٦٩٣٩) لابن حجر العسقلاني.

لا بد من وجود جسور من الثقة والتآلف والانسجام والأخذ والعطاء والحب والشفقة، تصل بين الداعي والمدعوين، وبدونها ينقطع الحوار وتتحطم الثقة فيما بينهم، ولن تنجح هذه الدعوة أبداً. وللمحافظة على هذه الجسور، لا بد للداعي أن يُضحِّي بذاتيته وأنانيته وشخصه، فالتضحية بالـ (أنا) هي التي تُبقي على الجسر الذي بينه وبين الناس.

أمَّا إنْ قام يدعو إلى الله، فوجد في الناس من يستهين به وينظر إليه شَزْراً، فأخذ يقابله الصاع صاعين، والمكيال مكيالين، فإنه عندئذٍ انتصاراً لذاته قَطَع الجسر الذي بينه وبينهم، وبنى مكانه جداراً صُلباً يجعله في واد، بينما هم في وادٍ آخر. ومهما أطلق لسانه بكلمات الدعوة إلى الله عندئذٍ، فلن يجد آذاناً صاغية.

لو كان لداعٍ إلى الله أن يحقد وأن يترك الأنانية تستيقظ بين جوانحه لظلمٍ قابله من إنسان، لكان أولى الناس بذلك رسولُ الله ﷺ في هذا المشهد. ومع ذلك فعندما رأى رسولُ الله ﷺ الأعرابيّ يقف ذليلاً بعد أن سقط سيفُه من يده، سحق الـ (أنا) التي يمكن أن تعتلج في نفسه، في سبيل أن يُبقي على الجسر الذي بينه وبين ذلك الأعرابي. وهذا تعليمٌ للدعاة من بعده، أنْ هكذا كونوا، وهكذا فاصنعوا عندما تَدْعون إلى الله عز وجل، وعندما تقاتلون في سبيل الله.

الداعي إلى الله عز وجل مُمرِّض في أقل الأحوال، وطبيب في أحسن الأحوال. أما المدعو إلى الله فمريض، والمطلوب من الطبيب أن يكون أميناً على مهنته مهما كان المريض شرساً وعِدائياً، بل عليه أن يزداد شفقةً عليه ورحمةً به، ويعطيه الكلمة الطيبة الصادقة حتى يتمكَّن من معالجته.

هل سمعنا بطبيب يحترم مهنته، وقف ليجري عمليةً لمريض، ومن شدة ألم المريض رفع يده وصفع الطبيب، وإذا بالطبيب يردُّ له الصفعةَ صفعتين واللكمةَ لكمتين؟!

لم نسمع بهذا قط في مجال طب الأبدان، ولكننا سمعناه كثيراً عند مَنْ يدَّعون أنهم أطباء القلوب !

عليك - كداع إلى الله - أن تتنكَّر لكل شيء في سبيل الدعوة إلى الله، فإنْ أنت فعلتَ هذا، فانظر إلى الطرف المقابل كيف سيصبح حاله.

عندما يشمُّ منك رائحةَ التضحية بذاتك في سبيل ذاته، ورائحةَ الرحمة به والشفقة الحقيقية عليه - لا شفقةَ السخرية - وأنك إنما تريد أن تحقِّق له الخير والسعادة، وليس لك مصلحة في ذلك، عندها ستتساقط الأنانية ومظاهر الكبرياء والعصبية من كيانه بدوره هو الآخر، ولسوف يتأثر شيئاً فشيئاً بكلامك وينصاع إليك. هكذا نجحت الدعوة على يد رسول الله ﷺ وعلى يد الصادقين المخلصين من بعده، وهكذا كان الجهاد في سبيل الله، إنْ بالكلمة أو بالسلاح، نظيفاً من رعونات النفس والهوى.

تروي كتب التاريخ أنَّ علياً ﷺ كان يُنازِل أحد المشركين في إحدى المعارك، فتغلَّب سيدنا علي ﷺ على المشرك وجثم على صدره، فما كان من المشرك إلا أن بصق في وجه علي ﷺ. فماذا كان ردُّ الفعل عند سيدنا علي ﷺ؟

قام بكل هدوء عن صدر المشرك، ووقف جانباً، ونفض يديه عن كل ما حقَّقه من غَلَبةٍ وانتصارٍ عليه. أما المشرك فذُهل من هذا الموقف، ودفعه حبُّ التطلُّع إلى المجهول إلى أنْ يسأله: لماذا فعلتَ هذا وقد فعلتُ بك ما فعلت؟

قال علي ﷺ: كنتُ أوّلَ الأمر مندفعاً إلى منازلتك ومقاتلتك انتصاراً لله، فلما بصقتَ في وجهي، هاجتْ نفسي واهتاجتْ، فما أحببتُ أن انتصر لها، بعد أن كنتُ أنتصر لله !

وها هو معروف الكرخي ﷺ كان يسير على شاطئ دِجلة مع ثلة من تلاميذه، فمروا بقارب عليه شباب فَسَقَةٌ يُغنُّون ويرقصون. فلفت بعضُ مريدي الشيخ نظره إلى

هؤلاء الشباب، وقال له: انظر يا سيدي إلى هؤلاء الشباب، ألا تدعو الله عليهم؟ فنظر معروف الكرخي إليهم ورفع يديه قائلاً: اللهم كما أدخلتَ السرور على قلوبهم في الدنيا، فأدخل السرور على قلوبهم في الآخرة أيضاً. فاستعظم المريد هذا الكلام، وكأنه رأى بمقياس جهله أنَّ هذا الدعاء تأييد من الشيخ لعملهم، وما علم أنَّ هذا الدعاء ينطوي على الدعاء لهم بالتوبة والهداية، فإنهم إنْ تابوا إلى الله عز وجل وآبوا إليه، جمع الله لهم بين الحسنيين أي جمع الله لهم بين سعادة الدنيا والآخرة[1].[2]

هذا هو حال مَنْ جاهد نفسَه أولاً، ثم اندفع للجهاد في سبيل الله بلسانه أو بيده.

المبحث الثالث: ما هو حال مَنْ قفز فوق مجاهدة نفسه، ليجاهد (في سبيل الله) بلسانه؟

علمنا مما سبق أنَّ التزكية عبارة عن ترويض عواطف القلب ابتغاء تحريرها من أسْرِ النفس وإخضاعها لقرارات العقل. أي تصبح عواطف المسلم خاضعةً لقرارات عقله.

ومعلومٌ أنَّ العقل الصافي لا ميزان له إلا الشرع، وإنما جاء الشرع نجدةً للإنسان عندما تختلط عليه العقول الصافية بالعقول المكدرة. فالشرع إذن ميزان للعقل الصافي عن الشوائب.

فإذا لم يجاهدِ المسلمُ نفسَه ويسلك بها مسالك التزكية، فإنَّ عقله يصبح هو الخاضعَ لعواطفه. ولطالما لم تتوجَّه هذه العواطف إلى الله عز وجل، فلا بد أن تتوجَّه إلى الدنيا بكافة أشكالها، من حبٍّ للذات والمال والمكانة والرئاسة.

---

(١) صفة الصفوة (١ / ٤٧١).

(٢) شرح رياض الصالحين الدرس (٨٣)، إضافة إلى شرح فقه السيرة الدرس (٣٢).

ولطالما كان السلوكُ - شئنا أم أبينا - يتبع العواطفَ صعوداً وهبوطاً عندها:

إذا قام ليدعو إلى الله عز وجل باللسان، فإنه لا يكاد يسير في نشاطه هذا حيناً من الزمن إلا ونجد أن سعيه قد انقلب ليصبح دفاعاً عن شخصه، وخصومةً من منافسيه!

فلماذا تحوَّل عمله من مدافعٍ عن الإسلام إلى مدافعٍ عن شخصه وذاته؟

لأنَّ السلوك - كما قلنا - يتبع العواطف، وعواطف هذا الإنسان لم تتروَّض بعدُ ولم تتحرَّر من أَسْرِ النفس بعد، ولم تتوجَّه إلى الله بعد، بل بقيت أسيرةً بيد النفس وشهواتها، بقيت متوجهةً إلى الأدنى، حيث حب الدنيا والمال والجاه والشرف والزعامة والأنا. فلا بد للسلوك أن يتبع العواطف ويلحق بها، تنافساً مع الآخرين على هذه المحبوبات.

عندها سيتخذ هذا المسلم من الدين وسيلةً للوصول إلى هذه المحبوبات، وسيجعل من دعوته وإرشاده أداةً من أجل الوصول إلى المكانة والأُبَّهة ومدِّ اليد للتقبيل، وتعويد الناس والمريدين على القيام له والتذلل بين يديه، فبدلاً من أن تكون الدنيا مطيةً لرفع كلمة الله عالياً، يصبح الدين عنده مطيةً للوصول إلى حظوظه الدنيوية، ولرفع نفسه وجماعته عالياً! وما هي النتيجة؟

النتيجة هي ترعرع العصبية الباطلة في نفس الفرد إلى الجهة التي ينتمي إليها، سواء كانت أسرةً أو قبيلةً أو شيخاً أو جماعةً. فيجعل ولاءه وأُخُوَّته قاصِرَيْن على الجهة التي ينتمي إليها، وتظلُّ النفس تتغذى بهذا الشعور، حتى ينمحي من ذِهن صاحبها معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، بواقع الأُخُوَّة الضيِّقة.

ثم يتوالد من ذلك خَطْبٌ جَلَلٌ، هو أن يتحوَّل التقديسُ للفكرة والمبدأ، إلى

تقديسٍ للشخص والكيان. فيغدو واقعُ الشخص الذي يقدِّسه هو مقياسَ الحقِّ الذي يؤمن به، بدلاً من أن يكون الحقُّ هو المقياسَ الأوحدَ لتقييم الأشخاص وتقديرهم. ومن ثَمَّ فإنه يرفض الآخرين لأنه لا يرى الحقَّ صافياً معصوماً إلا في جماعته.

فإنْ كان في الناس من يخالف جماعتَه، فهو باطلٌ لمجرَّدِ المخالفة!

وإنْ كان في الناس من يوافق جماعتَه، فهو إنما آخذ منها ومتفرع عنها!

وما أكثر ما يضل الناس بهذا الطريق، فيغيِّرون شرعَ الله ويبدِّلون أحكامه، لأنَّ أحكام الله عز وجل الحكيم، لا توافق مصلحةَ الجماعة ولا تتماشى معها!!

ويرحم الله بديعَ الزمان النورسي - ذلك الداعية الرباني - فقد أحسَّ ذات مرة أنَّ في طلابه مَنْ يقدِّس الحقَّ من أجل اتصاف النورسي به، فقال لهم: (إياكم أنْ تربطوا الحقَّ الذي أدعوكم إليه، بشخصي الفاني المذنب. ولكن عليكم أن تربطوه بينبوعه الأقدس، كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ، ولْتعلموا أني لست أكثر من دلَّالٍ على بضاعة الرحمن، ولْتعلموا أنني إنسان غير معصوم، قد يفرط مني ذنب أو يبدو مني انحراف، فيتشوَّه مظهرُ الحقِّ الذي ربطتموه بي، بذلك الذنب أو الانحراف. فإما أنْ أكون بذلك قدوةً للناس في الانحراف وارتكاب الآثام، أو صارفاً لهم عن الحق بما شوّهه واختلط به من انحرافي وآثامي)[1].

ومَرَدُّ هذه العصبية الخطيرة، إلى طبيعة الأنانية في الإنسان، وهي من أخطر الأمراض القلبية التي يجب على المسلم معالجتها والجهاد الدائب للتحرر منها.. إلا أنَّ الأنانية قد تتمثَّل في النزعة الفردية عند بعض الناس، وقد تتمثَّل في (النزعة

---

(١) أي إما أن يأخذوا مني كلَّ شيء حتى انحرافي وآثامي، فأكون بذلك قدوةً سيئةً للناس في الانحراف وارتكاب الآثام، أو أن يرفضوا مني كلَّ شيء، حتى الحق الذي أذعنوا له، فأكون بذلك صارفاً لهم عن الحق بما اختلط به من انحرافي وآثامي...) ومصدر هذا النص المذكور أعلاه كتاب (باطن الإثم) (ص٣٧).........

الجماعية) عند آخرين، وهم الذين شُغِلوا عن فرديَّتهم بالانضمام إلى هيئةٍ أو شيخٍ أو جماعةٍ، فلا يزال أحدهم يتعصَّب له أوْ لها، وهو إنما يُشبع بذلك نزعتَه الأنانية، حتى يصل به التعصُّبُ إلى حالٍ يرى فيها أنَّ المسلمين الصادقين ليسوا إلا مَنْ كانوا ضمن دائرة التبعيَّةِ لشيخه أو جماعته، أما الآخرون فمسلمون من الدرجة الثانية، وربما تمثَّلتْ هذه الأنانية الجماعية في تعليماتٍ وشعاراتٍ يُغذَّى بها الأفرادُ المتنسبون على أنها جُزءٌ من التعاليم الإسلامية ذاتها !

والعلاج لمرض العصبية هذا - والمتفرع عن الأنانية - ليس في أنْ يتجرَّد المسلم عن صحبة شيخه أو مرشده أو جماعته، وإنما العلاج في أن يدرك المسلم، أنَّ كلاً من شيخه أو مرشده أو جماعته، إنما هو وسيلة لا غاية، والوسيلة لا تحرز من الأهمية إلا بمقدار انسجامها مع الغاية.

وإذن.. فولاؤه إنما ينبغي أنْ يكون للغاية التي هي الإسلام، وما ارتباطه بوسيلةِ الشيخ أو الجماعة، إلا بالقدر الذي يحقق له ذلك الولاء للإسلام على خير وجه. فإذا نمَّى المسلمُ هذه الحقيقةَ بمزيدٍ من التعلُّق والحبِّ للغاية، ذابتْ طبيعةُ العصبية والأنانية في ضِرام هذا الحبِّ، ولم تجد فيه نَزعةً فرديةً أو جماعيةً، بل تنقلب إلى تفانٍ في سبيل الإسلام من حيث هو.

فلا يكون ارتباطه بالآخرين إلا مستظلاً بظلِّ هذا الولاء وخاضعاً لرعايته ورقابته.

فلا يشغله حبُّه لشيخه عن حكم الله عز وجل في حقِّه، ولا تُقصيه تبعيَّتُه لجماعته وإخوانه عن الولاء لبقية المسلمين الصادقين، لأنَّ رابطتَه بشيخه وجماعته متفرعةٌ عن ارتباطه الأوثق بكتاب الله عز وجل وسنَّة رسوله ﷺ، وما يقضيان به من المبادئ والأحكام.

وبقدر ما يفتح دعاة الإسلام قلوبهم لنقد سليم وتوجيه سديد، يزداد عملهم نضجاً وقواهم تماسكاً. وبقدر ما يَسْتَعلون عن قَبول النصح الصحيح والنقد السليم، تزداد عواملُ التصدع فيما بينهم وتتجمع أسبابُ الشقاق في صفوفهم، وينقلب العمل الدعوي الإسلامي إلى مجرد تخطيطاتٍ شكلية وأمورٍ حركية، شأنه شأن المذاهب الأخرى. وقد فاتهم أنَّ فرقاً كبيراً بين الإسلام والمذاهب الفكرية الأخرى:

فالإسلام: قائم بحدِّ ذاته على تحقُّق معنى العبودية لله عز وجل في النفس، فهي المنطلق الأول لكل حركةٍ وعملٍ وسعيٍ في سبيله. وهذا يكلِّف المسلمَ إصلاحَ قلبه قبل كل شيء.

وعندئذٍ يتفجر الصدق والإخلاص لله عز وجل في القلب، وتشيع الثقة بين المسلمين فيتعاونون على البر والتقوى انصياعاً لأمر خالقهم ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٢]، ويتحقَّقون بمعنى قوله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وتتنامى من جرَّاء هذا التعاون أسبابُ القوة في حياتهم، فينظر إليهم عدوُّهم نظرَ هيبةٍ ورهبةٍ، وينفُذُ فيهم وعدُ الله عز وجل: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا﴾ [النور: ٥٥]، فتعود إليهم كرامتُهم المسلوبة وحقوقُهم المغصوبة.

والداعي إلى الله عز وجل من هذا المنطلق يمارس طاعةً حقيقيةً موصولةً بجذورها من العبودية لله عز وجل، ومن ثَمَّ من الحبِّ له والخوف منه والتعظيم له سبحانه.

أما ثمراتها، فالتواضع والسكينة والتذلل والانكسار لله سبحانه والخوف من العاقبة والرجاء بعفو الله سبحانه وتعالى.

وتلك هي الطاعة المقبولة عند الله عز وجل. فقد استوفَتْ جذورَها وثمراتها الإسلامية حقاً، وبها يدخل الداعي إلى الله عز وجل في مضمون قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣].

وتلك هي الدعوة التي يُكتب لها النجاح والقبول في الأرض أيضاً، فإنَّ الناس لا يَصْعُبُ عليهم أن يَشَمُّوا من هذا الداعي رائحةَ الإخلاصِ لله عز وجل، والشفقةِ عليهم والرحمة بهم، والتضحيةِ بالذات والأنا في سبيل هدايتهم.

نعم.. سيمتحنه الله بمن يؤذيه، وربما بمن يحتقره وينظر إليه شَزراً، ولكنه إذا استمر على نهجه وإخلاصه وعدم الانتصار لنفسه، والالتجاء إلى الله عز وجل بالتضرع والدعاء، فلا بد أن ينقلب عدوُّه - يوماً ما - إلى وليٍّ حميم. هذا هو كلام أصدق القائلين: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٤ - ٣٥]، مع العلم أنَّ هذه الآيات جاءت مباشرة بعد قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [فصلت: ٣٣].

وكأن الله عز وجل يقول لنا: هذه هي تضاريسُ طريقِ الدعوة إلى الله عز وجل، إنها مليئة بالعقبات والأشواك، تعترض سيرَ الداعي إلى الله من هنا وهناك. فإن أردتم تذليلَ تلك العقبات وتنحيةَ هذه الأشواك، بل تحويلَها إلى ورودٍ ورياحين، فما عليكم إلا بالإحسان إلى مَنْ أساء إليكم، والترفُّع عن الانتصار للنفس. ومِلاكُ ذلك كلِّه الصبر، لذلك قال: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾، فالذي آتاه الله الحظَّ العظيم يؤتيه الصبر، وعندها يُقدِره على هذه المعاملة.

وقد بيَّن الله عز وجل أنَّ مفتاحَ الصبر هو الالتجاءُ إلى الله عز وجل بالتضرع والدعاء الواجف أن يمدَّك الله بشحنة الصبر على أذى المسيئين وعلى المصائب

عامة، فقال: ﴿وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ [النحل: ١٢٧]. وأكّد رسول الله ﷺ هذا المعنى بقوله: (استعن بالله ولا تعجز)[١]، أي إنِ استعنتَ بالله عز وجل بصدقٍ فلن تعجز عن تطبيق أوامره. فمن طلب المعونةَ من الله أنجده الله بالمعونة، فلماذا لا تتعرَّض لأن تكون صاحبَ هذا الحظ العظيم؟!

لقد ربط الله عز وجل عفوَك عن أخيك وصفحَك عن إساءته، بعفوه عنك ومغفرته لك فقال: ﴿وَلَا يَأۡتَلِ أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤۡتُوٓاْ أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ٢٢﴾ [النور: ٢٢]، وقد نزلت هذه الآية في أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فقد كان يقدِّم جرايةً مالية لرجل فقير اسمه مِسْطَح، فلمَّا علم أنه تحدَّث عن السيدة عائشة رضي الله عنها بحديث الإفك الذي جاء به رئيسُ المنافقين عبدُ الله بنُ أُبيّ بنُ سلول، وأنزل الله براءتها في سورة النور؛ أقسم أبو بكر رضي الله عنه أنْ يقطع عنه هذه الجِراية. فلما نزلت هذه الآية ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ﴾ قال: بلى والله أحبُّ أن يغفر الله لي. وكفَّر عن يمينه وأعاد لمسطح جرايته المالية، وقال: والله لا أنزعها منه أبداً[٢].

هذا هو الصبر المشكور.. إنه الصبر عن حظوظِ النفس والانتصار لها والغضبِ لأجلها. أما عندما تُنتهك حرماتُ الله عز وجل وتُنتهك حدوده، فلا مكان هنا للصبر. بل يجب أن ننتصر لله، ونغضب لله، ونقف في وجه من ينتهك حدود الله بما نستطيع. وأقل ما نستطيع هو أن ننكر المنكر بالحكمة والموعظة الحسنة، ولا داعي للشدة والقسوة، وأضعف الإيمان هو إنكار المنكر بالقلب عند عدم الاستطاعة. أما ألا تنكره حتى بقلبك، أو تقول: إنني غاضب لانتهاك حرماتِ الله عز وجل، ولكن

---

(١) رواه مسلم (٢٦٦٤) عن أبي هريرة، وهو جزء من حديث: (المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف).

(٢) متفق عليه، البخاري (٣٩١٠)، ومسلم (٢٧٧٠) كلاهما عن عائشة رضي الله عنها.

ينبغي أن أصبر، فهذا تلاعب بأحكام الله عز وجل. الصبر المشكور هو الصبر عن حظوظ النفس، أما أن تصبر عن النهي عن المنكر وأنت قادر عليه، فهذا صبر مذموم.. هذا هو الإسلام(١).

- أما المذاهب الفكرية الأخرى: فلا تكلِّف نفوسَ أصحابها اجتنابَ ما أطلق عليه القرآن (باطن الإثم)، لذلك فإنَّ دعوتهم تبدأ بعملٍ حركي وتنتهي بعملٍ حركي، والنفسُ راضيةٌ بذلك، لأنه لا يكلِّفها تركَ شيء من أهوائها وشهواتها. وربما هوَّن الكثير منهم من أمر العبادات والأذكار وحضور الجماعات التي يُتوخى منها إحياءُ القلب وتخليصُه من أمراضه، واعتبروا ذلك من أمر العامة وأنه لا يليق بمن نشط للحركة والدعوة الإسلامية.

ولطالما كانت المذاهبُ الأخرى غيرَ قائمةٍ على أساس العبودية لله عز وجل، ولا تكلِّف نفوسَ أصحابها اجتناب باطن الإثم، إذن فلا بد أنْ يستعبد قلوب أصحابها حبُّ الدنيا بكل أشكالها دون أن يجاهد أحدُهم نفسَه لتزكيتها، وسيشيع فيما بينهم التنافس على الدنيا والأثرة عليها، وتستحكم في قلوبهم الضغائن والأحقاد وكلُّ الأمراض الباطنة من كبرٍ وحسدٍ ورياءٍ وعجب، ويراقب بعضُهم بعضاً بعين الحسد تارةً، وبعين الازدراء تارةً أخرى، وتنعدم الثقة فيما بينهم وتقوم مقامها الظِّنَّة. وبناء على ذلك فهم لا يتعاونون، وإنْ تعاونوا فإنهم على الإثم والعدوان يتعاونون. وبهذا يَسري الضَّعفُ إلى صفوفهم، وينتهز العدو ضعفَهم ليُعمِل بهم ضرباً وقتلاً وتنكيلاً. ويحيق بهم وعيد الله عز وجل ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾﴾ [الطلاق: ٨- ١٠].

---

(١) كتاب باطن الإثم (ص٣٢-٤٠) مع التصرف، وشرح رياض الصالحين الدرس (٤٠).

والداعي إلى الله من منطلق هذه المذاهب، يُفسد ولا يُصلح، لأنَّ الإسلام عنده لم يعد أكثر من إسلامِ فكرةٍ ونظامٍ، منسلخٍ عن جذور العبودية لله عز وجل، تجسَّدتْ فيه شخصيته وذاتيته، فهو يقارع به الأفكارَ والأنظمةَ الأخرى مقارعةَ مغايظةٍ وصراع، وهو إنما يدافع عن ذاته بدفاعه عن تلك الفكرة وذلك النظام.

والناس الذين يدعوهم إلى الإسلام، لم يعودوا في اعتباره إلا خصوماً لفكره، وأعداء لشخصه، فهو يحاول أن يشفي غيظه فيهم، بدلاً من أن يسعى - جُهد استطاعته - لهدايتهم. وإذا بالعلاقة التي بينه وبينهم - وقد كانت في بدايتها علاقة دعوةٍ صافيةٍ لله عز وجل- تصبح علاقةَ مشادَّةٍ حاقدةٍ، من نوع تلك المشادَّات التي تقوم بين أصحاب المذاهب الفكرية المتناحرة!

ولا ريب أنَّ هذه الدعوةَ مقضيٌّ عليها بالخيبة والخسران في الدنيا والآخرة، لأنها طاعة شكلية، جذورها العبوديةُ للنفس والهوى والدنيا، ومن ثمّ حبُّ الدنيا والزعامة والأنانية وحبُّ الذات والانتصار لها، والرغبة الشخصية في العلو، وما ينتج عن ذلك من الرياء والنفاق.

وأما ثمراتُها فالكبر والعجب، والتباهي على الآخرين بكثرة الأتباع، والأمنُ من مكر الله عز وجل. والله عز وجل لا يقبل عملاً هكذا جذورُه وهكذا ثمراتُه، فهو القائل: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [المائدة: ١٠٠].

وأما الناس فلا يصعب عليهم أن يَشَمُّوا رائحةَ السعيِ إلى حظوظ النفس وحبِّ الانتصار للذات من خلال هذه الدعوة.

فانظر - يا أخي المسلم ويا أختي المسلمة - ما تفعله النفس بصاحبها، إن لم يزكِّها ويجاهِدْها في الله. وصدق رسول الله ﷺ القائل: (أعدى عدوِّك نفسك التي

بين جنبيك)[١]، ولا يَغُرَّنَّك قولُ مَنْ طمس الله على بصيرتهم، من أنَّ تزكية النفس وإصلاح القلب بدعة وضلالةً، فإنَّ الحقيقة التي أجمع عليها علماء المسلمين أنَّ تزكية النفس وإصلاح القلب فرضُ عينٍ على كلِّ مكلَّفٍ، وأنه لا خير في إسلام امرئٍ لم يهذِّبِ الإسلامُ نفسَه، ولم يسيطر على قلبه بالإصلاح وإخراج حظِّ الدنيا منه[٢].

المبحث الرابع: وما هو حال مَن قفز فوق مجاهدة نفسه، ليجاهد (في سبيل الله) بيده وسلاحه؟

إنَّ أكثر الأعمال قابلة لأن تدخل فيها قصود لا ترضي الله، لكنَّ أخطر هذه الأعمال هو الجهاد.

فالقتال في سبيل الله تُربةٌ قابلة لأن تحوي على الكثير من الطفيليات، والكثير مما لا يدخل في حقيقة الجهاد.. فما السبب؟

السبب هو أنَّ الإنسان إذا دخل غمار الجهاد، فإنه خلال دقائق سيجد نفسه في حالةٍ تدعوه إلى الثأر أو ردِّ الفعل، أو ردّ الظلامة، أو الغيرة على الذات. لأنَّ لكمةً تأتيه من هنا، وضربة تأتيه من هناك، في مثل هذه الحالة تستيقظ النفس بين جوانح الإنسان، وتستيقظ أَنَفَتُه وحميَّتُه لذاته، فينسى في غمار هذا الهيجان ما كان قد جاء من أجله من إعلاء كلمة الله، ويصبح شغله الشاغل وهدفه الأكبر أن ينتصر لذاته، وإن كان الإطار إطاراً دينياً، وإن كان اللفظ والكلمات والهتاف والشعار كله دينياً.. فلماذا كان سريع الوقوع في هذا المأزق؟

ولماذا انتقل من رجل يقاتل في سبيل الله، إلى رجل يقاتل حميَّةً؟

---

(١) مر ذكره ص ٤٦.

(٢) كتاب باطن الإثم (ص ٣٢ - ٣٥)، إضافة إلى كتاب هكذا فلندع إلى الإسلام (ص ٢٦ - ٢٧).

لأنه في ساعات الرخاء، وقبل أن يدخل غمار المعارك مع العدو، كان مُطْلِقاً لنفسه عنانَها، تفعل ما تشاء دون أن يكلِّفَها الرجوعَ إلى شرع الله ليسأل: ما الذي يحبُّه الله لأجاهد نفسي وألزِمها - قدر الاستطاعة - بالسير في طريقه؟

فلما جاءت ساعاتُ الشدَّةِ ولقاءِ العدوِّ الخارجي كان أسرع تَفَلُّتاً عن شرع الله، فعدوُّه الداخلي - وهو نفسه التي بين جنبيه - فَتَكَ به قبل أن يفتك هو بعدوِّه الخارجي. شأنه شأن قطاع الطريق الذين يقتنصون كل ما مع المسافرين من مال أو متاع لحسابهم.

والنفس - إنْ لم يجاهِدها في الله - تقطع طريق صاحبها إلى الله، وتصادر كلَّ المعاني السامية التي يحبُّها الله ويرضى عنها، لتحوِّلَها إلى معانٍ هابطةٍ تحبُّها النفس وترضى عنها. وإذا بالعبودية لله عز وجل، والحبِّ له وفيه، والتعظيم له ولحرماته، والغضب لله، والبغض فيه، والانتصار لدينه، والخوف منه؛ يتحول إلى عبوديةٍ للدنيا والهوى والنفس، وحبٍ لها وفيها، وتعظيمٍ لها ولكبريائها، وغضبٍ لها، وبغضٍ فيها، وانتصارٍ لحظوظها، وخوفٍ على مصالحها ورغباتها.

وإذا رجعنا إلى الحديث الذي سئل فيه ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعةً، ويقاتل حميَّةً، ويقاتل رياءً، أيُّ ذلك في سبيل الله؟ فقال: (مَنْ قاتل لتكونَ كلمةُ الله هي العليا فهو في سبيل الله)[(١)]، نجد أن القصود الثلاثة التي لا ترضي الله: الشجاعة، والحميَّة، والرياء، كلها من حظوظ النفس ورغباتها، أما القصد الرابع: (لتكون كلمة الله هي العليا) فهو قَصْدٌ لا حظَّ للنفس فيه، وإنما هو قرار عقلي نابع من معرفة الإنسانِ عبوديته لله عز وجل، وأنه عبد لا يملك شيئاً، بل هو مملوك - جملةً

---

(١) متفق عليه. البخاري (٢٩٥٨)، ومسلم (١٩٠٤) كلاهما عن أبي موسى الأشعري. واللفظ لمسلم.

وتفصيلاً - لمالك الملك والملكوت. فكيف لا يسعى لإرضاء ذلك المالك المطلق، واضعاً نفسه المملوكة في مكانها الطبيعي، تحت قدميه، مجاهداً إياها في سبيل أن يكون عبداً لله بالسلوك والاختيار، كما أنه عبد لله عز وجل بالقهر والاضطرار؟!

فانظر إلى عظم خطورة النفس كيف زيَّنتْ لصاحبها ثلاثةَ أرباع القصود لتكون هي العليا، ولم ينجُ من كيدها إلا قصدٌ واحد، هو قرار العقل في أن يقاتل لتكون كلمة الله هي العليا.

إنه صراع بين النفس والعقل، وما التزكية إلا إخضاع تلك لذاك.

فمن جاهد نفسَه في الله، كانت الغلبة في هذا الصراع للعقل، والعقل لا ميزان له إلا الشرع، وبذلك يسير على هدى، ويسعد في الدنيا والآخرة.

ومن لم يجاهد نفسَه في الله، وتركَها تسرح وتمرح بين حظوظها ورغباتها وشهواتها، واضعاً نداءَ عقله ومن ثَمَّ شرعَ ربِّه وراء ظهره، كانت الغلبة في هذا الصراع للنفس. وإذا ما تغلَّبتِ النفس على العقل، استولت على عواطف القلب لتكون لصالحها، وبذلك يتحوَّل صاحبُ هذه النفس إلى شُعلة حماس، لا يضبطه قيدُ عقلٍ ولا ميزانُ شرعٍ، وعندئذٍ كم وكم يَشْرُدُ عن شرع الله، وهو يظنُّ أنه يجاهد في سبيل الله.

إن الطاقة الحماسية الموجودة عند كل إنسان، مفيدة جداً ومسعدة إذا قُيِّدتْ بقيد العقل. والعقل الحقيقي لا ميزان له إلا الشرع. ولكنها طاقة مهلكة ومدمِّرة إذا شردت عن ضوابط العقل والشرع، ويصبح شأنها كشأن حَجرَيِ الرَّحى عندما يَحتَكُّ الواحد منهما بالآخر دون أن يكون بينهما شيء يُطحن.

وما أكثر الناس الذين رضعوا لبان الدين عاطفةً، ولم يرضعوه علماً ومعرفة، فهم شُعلةُ حماسٍ، وبموجَب حماساتِهم هذه يريد أحدهم أن يتصرّف كما يدعوه

حماسُه، يريد أن يصول ويجول لأنَّ حماسه يقتضي ذلك، ولأنَّ عقله لم يتغذَّ بالإسلام علماً. فإذا جاء مَنْ يقول له: رويدك لا تَثُرْ، قيِّدْ حماسك بشرع الله، تعال فتعلم دين الله؛ فسيجد أنَّ الأمر صعب عليه، وسيجد أنَّ عاطفته الدينية تخيِّل إليه أنه على صواب والآخرين على خطأ. فما العلاج؟

العلاج هو أن ينظر إلى حقائق العلم الذي هو أساس الدين وعموده، فإذا وجد أن هنالك فرقاً بين الشريعة علماً وبين دينه حماساً، هنا في هذه اللحظة هو مدعوٌّ إلى أن يكبح جماح نفسه وتصوراته بأحكام الشريعة الإسلامية. وهذا شيء عسير، ولكن هكذا هو دين الله، حتى في مجال التديُّن لا بد أن تمسك بزمام نفسك وتخضعها لأمر ربك. لأن النفس في بعض الأحيان تشتهي وتأخذ حظوظها تحت اسم الدين، وهذا ما حذَّرنا منه رسول الله ﷺ والربانيون من بعده.

ففي الحديث المتفق عليه عن عبد الله بن مسعود أنَّ رسول الله ﷺ قال: (ستكون أَثَرةٌ وأمورٌ تنكرونها! قالوا: يا رسول الله فما تأمرنا؟ قال: تؤدُّون الحقَّ الذي عليكم، وتسألون الله الذي لكم)[1] وهذا ينطبق على الأفراد في علاقاتهم مع بعضهم البعض، وفي علاقاتهم مع المسؤولين. فعن حذيفة بن اليمان أنه ﷺ قال: (يكون بعدي أئمة لا يهتدون بهداي ولا يَستَنُّونَ بسُنَّتي، وسيقوم فيهم رجالٌ قلوبهم قلوب الشياطين في جثمان إنس) قلت: كيف أصنع يا رسول الله إن أدركتُ ذلك؟ قال: (تسمعُ وتطيعُ للأمير وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك، فاسمعْ وأطِعْ)[2]، فأنْ يذهب حقُّ الفرد، إنْ في ماله أو في جسمه، خير من أن يذرَّ قَرنُ الفتنة بين أفراد المسلمين وفي المجتمع، فالله عز وجل يعوِّضه له إنْ في الدنيا أو في الآخرة، فهو القائل:

---

(١) متفق عليه: البخاري (٣٤٠٨) ومسلم (١٨٤٣) كلاهما عن عبد الله بن مسعود، واللفظ للبخاري.

(٢) صحيح مسلم (١٨٤٧) عن حذيفة بن اليمان.

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢-٣].

هذا الذي نقوله في طاعة أولي الأمر له حدود يقف عندها، فلو كُلِّفَ إنسان بأن يشرب الخمر أو بأن يترك الصلاة، فلا ينبغي أن ينصاع، سواء كان الذي كلَّفه بذلك فرداً مثله أو وليّ أمر المسلمين، إذ القاعدة الفقهية المتفق عليها تقول: (لا طاعة لمخلوقٍ في معصية الخالق)[١]. وفي الحديث المتفق عليه عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: (على المرءِ المسلمِ السمعُ والطاعةُ فيما أحبَّ وكَرِهَ، إلا أن يُؤمَر بمعصيةٍ، فإنْ أُمِرَ بمعصيةٍ فلا سَمْعَ ولا طاعةَ)[٢]، أي لا سمع ولا طاعة في هذه الجزئية، وهي المعصية التي أُمِرَ بها، وليس المعنى لا سمع ولا طاعة مطلقاً.

فقد روي أنَّ سلمة بن يزيد سأل رسول الله ﷺ فقال: يا نبيَّ الله أرأيت إن قامت علينا أمراءُ يسألونا حقَّهم ويمنعونا حقَّنا فما تأمرنا؟ فأعرض عنه، ثم سأله، فقال رسول الله ﷺ: (اسمعوا وأطيعوا، فإنما عليهم ما حُمِّلوا وعليكم ما حُمِّلتم)[٣] رواه مسلم.

ههنا يظهر دين الله عز وجل ومكانته في قلبك، بأن تُسكِتَ نفسك وتخنق لهيب جوانحك انصياعاً لحكم الله عز وجل الذي عرفه عقلك والذي ثبت في كتاب الله عز وجل وسنة نبيِّه ﷺ مستعيناً على ذلك بالصبر، فهو ﷺ القائل لك:

- (مَنْ كَرِهَ مِنْ أميره شيئاً فلْيصبِرْ، فإنه مَنْ خرج مِنَ السلطانِ شِبراً ماتَ مِيتةً جاهليةً)[٤].

(اصبروا حتى تلقوني على الحوض)[٥].

---

(١) الحديث رواه أحمد في مسنده (١٠٩٨)، والطبراني في المعجم الكبير(ج١٨/ ص٣٨١).

(٢) رواه مسلم (١٨٣٩)، ورواه البخاري بلفظ قريب (٦٧٢٥) عن عبد الله.

(٣) رواه مسلم (١٨٤٦) عن علقمة بن وائل الحضرمي عن أبيه.

(٤) رواه البخاري (٦٦٤٥)، ومسلم (١٨٤٩) عن ابن عباس.

(٥) رواه البخاري (٢٩٩٢)، ومسلم (١٠٦١) عن أنس.

(ومن يتصبَّر يُصبِّره الله، وما أُعطي أحد عطاءً خيراً وأوسعَ من الصبر)[١].

فبالصبر يتمُّ إخضاع حماس النفس لقرارِ العقل وميزانِ الشرع، وإلا فالعاطفةُ وحدها بدون علم عاصفةٌ تأكل الأخضر واليابس. والعلم يقول على لسان معلّم الناس الخير ﷺ: (مَنْ خرج من الطاعة وفارق الجماعة فمات مات ميتةً جاهليةً، ومَنْ قاتل تحت راية عُمِّية يغضب لِعَصَبَةٍ أو يدعو إلى عَصَبَةٍ أو ينصر عَصَبَةً فقُتِلَ فقِتْلَةٌ جاهليةٌ، ومَنْ خرج على أمتي يضرب برّها وفاجرها ولا يتحاشى من مؤمنها، ولا يفي لذي عهد عهده، فليس مني ولست منه)[٢]. والراية العُمِّية هي الراية التي نسجتْها العصبية أو الأهواء والرعونات ولم يتجمَّعْ أصحابها تحت راية أمير المؤمنين. لذلك قال علماء الشريعة الإسلامية: أنَّ تجاهد في سبيل الله بلسانك فهذا حكم من الأحكام الشرعية العامة، خاطب الله به كلَّ فردٍ فردٍ على حدا، سواء كلَّفه الحاكم بذلك أم لم يكلِّفْه؛ أما الجهاد بالسيف والقتال فلا يُشرع إلا تحت راية رئيس الدولة، لأنَّ هذا الجهاد من أحكام السياسة الشرعية (أحكام الإمامة)، وهذه الأحكام إنما تُطبَّق تحت إشراف رئيس الدولة.. هذا الحكم لا خلاف فيه بين المذاهب قط، فهو حكم مجمع عليه[٣].

فإن قال قائل: لو أن الرؤساء أهملوا الجهاد في سبيل الله ولم يبالوا به، أنترك هذه الشعيرة بسببهم؟

---

(١) رواه البخاري (١٤٠٠)، ومسلم (١٠٥٣)، وهو جزء من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ: أنَّ ناساً من الأنصار سألوا رسول الله ﷺ فأعطاهم ثم سألوه فأعطاهم، حتى نفذ ما عنده، فقال لهم حين أنفق كل شيء بيده: (ما يكن من خير فلن أدخره عنكم... ومن يتصبر...).

(٢) أخرجه مسلم (١٨٤٨) عن أبي هريرة، والنسائي (٤١١٥)عن عبد الله، وابن ماجه (٣٩٤٨) عن أبي هريرة، واللفظ لمسلم.

(٣) شرح رياض الصالحين الدروس: (٨-١٦-٢٧-٤٤-٤٥-٤٦).

الجواب: كلُّ الأئمة بدون خلاف قالوا بأنَّ الجهاد في سبيل الله عز وجل بالسيف هو حكمٌ أناطه الله عز وجل بالحاكم، فهو الإنسان الوحيد الذي يملك أن يعلن الحرب، لا غيره أبداً.

فلو أنَّ الحاكم لم يعلن الحرب - لسببٍ من الأسباب أياً كان - فإن الله عز وجل لا يخوّل أحداً غيره أن يعلنها عنه، شأنه شأن إقامة الحدود - كحد الزنا والسرقة والقذف - إذا لم يَقُمِ الحاكمُ بتطبيق هذه الحدود، فليس لأحد أبداً أن يقوم مقامه بتطبيقها.. ولو أنَّ جماعةً من الناس قاموا بتطبيق حدٍ على الزاني أو السارق فقُتل، فكلُّهم قَتَلَة.

ولو أنَّ الله عز وجل فتح باب الجهاد بالسيف وباب إقامة الحدود لغير الحاكم، إذن لقام رجل هنا وجَمَعَ الناسَ من حوله ينادي بالجهاد وإقامة الحدود، ولقام رجل آخر هناك يدعو إلى ذلك، وثالث ورابع، عندها تستشري الفتنة ويكثر الهرج والمرج وإسالة الدماء، وتعود العادة القذرة وهي عادة الأخذ بالثأر التي قضى عليها الإسلام بأنْ سلَّم زِمام هذا الأمر بيد الحاكم حصراً، رحمةً بنا وحقناً لدماء المسلمين وغير المسلمين.

الله عز وجل لا يريد منك - يا أيها المسلم - أن تكثر من إسالة الدماء على وجه أرضه، ولكنه سبحانه وتعالى يريد منك أن تُدخل الهداية على مزيدٍ من قلوب عباده. وقد ذكرنا ذلك مفصلاً تحت بند (أنواع الجهاد) وبالأخص فقرة (الجهاد بالسلاح).

الله عز وجل يقول: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ [المائدة: ٧٧]، أي لا تتجاوزوا الحدود التي شرعها الله عز وجل لكم. والحدود التي شرعها الله إنما تستبين بالعلم، سواء كانت حدوداً فكرية أو سلوكية، فهي لا تستبين إلا بالعلم. فمن لم يكن عالماً، بل عالماً ربانياً، لم يتمكن من استبانة هذه الحدود، ومن ثم فلا بد أن ينزلق ويهوي. والابتعاد عن هذه الحدود هو الذي يسمى الغلو.

لأجل ذلك حثّنا رسول الله ﷺ على أن نلتمس العلم، ونلتمس له الأناة والحلم، لأن العلم لا يمكن أن تكتسبه إلا بأناة وحلم. فالعلم والعصبية لا يلتقيان أبداً، فصاحب المزاج العصبي لا يمكن أن يفقه قواعد العلم، والرسول ﷺ يقول: (إنما العلم بالتعلُّم، وإنما الحِلم بالتحلُّم)(١)، أي هاتان الصفتان - العلم والحلم - إنما تأتيان بالتكلُّف الناظر إلى الله، أي بمجاهدة النفس على التعلُّمِ والتحلُّمِ، وتكلُّفِ أفعالهما ابتداءً، حتى يصيرا طبعاً انتهاء. ولا تأتيان بالتكلف الناظر إلى الناس، فذلك هو الرياء المحبط للأعمال(٢).

ولكنَّ العلم وحده لا يكفي، بل لا بد أن تسبقه التزكية مصداقاً لقوله تعالى: ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥١-١٥٢]، أما العلم بدون تزكية فما أيسر على النفس أن تصادره لحسابها ومصالحها ورعوناتها، وتلوي عنق الحقائق العلمية لتتناسب مع هذه المصالح، فتقلب الحقَّ باطلاً والباطل حقاً. وهنا عند هذه النقطة ينقسم العلماء إلى فريقين: علماء ربانيين وعلماء سوء.

المبحث الخامس: فما هو الفرق بين العالم الرباني وعالم السوء؟

إنَّ الفرق بين العالم الرباني وعالم السوء لا يكمن في كمية وعدد المسائل العلمية التي أدخلها كلٌّ منهما إلى عقله، وإنما يكمن في درجة التزكية والمجاهدة التي أخذ بها كلٌّ منهما نفسَه، وبالتالي فالعلوم الشرعية التي استقرت في العقل عند كليهما قد تكون متساوية ولكنَّ الاختلاف بينهما في النفس.

(١) رواه الطبراني في المعجم الأوسط (٢٦٨٤) عن أبي الدرداء رضي الله عنه.
(٢) شرح رياض الصالحين، الدرس (١٦-٤٦).

فالعالم الرباني:

١ - ينظر إلى نفسه على أنه لا شيء، فقد وضع عبوديته لله عز وجل موضع التنفيذ، وجاهد نفسه في سبيل انصياعه لأوامر سيده ومالكه. فتوجهت عواطف قلبه من حب وخوف وتعظيم بالكلية لله عز وجل، ثم قام يدعو إلى الله عز وجل انطلاقاً من هذه المعاني. وهذه المعاني (العبودية، الحب، الخوف، التعظيم) إذا توجهت حقاً إلى الله صيَّرتْ صاحبها في حقِّ نفسه لا شيء.

فعبوديته لله تكشف له تقصيرَه في أداء حقوق الربوبية.

وحبُّه لله يقتضيه أن يبذل كل ما يملك من طاقة ومال ومتاع في سبيل رضا محبوبه، ولكنه يعود إلى نفسه وما رُكِّب فيها من الضعف، فيعلم أنه عاجز عن النهوض بأداء حقوق هذا الحب، فيورثه هذا العجز شعوراً بتفاهته وشدة تقصيره ولا شيئيته..

وأما تعظيمه لله عز وجل فيجعله صغيراً حقيراً في حق نفسه، ويُريَه ضآلته بل سوءه أمام ما يلاحقه من عظمة سلطان الله سبحانه وتعالى وعظيم سطوته وجبروته..

وأما خوفه من الله عز وجل فقد غيَّب عن خاطره كلَّ المخاوف الأخرى مهما كانت، لأنَّ كلَّ ما سوى الله ناصيتُه بقبضة الله سبحانه وتعالى.

وهذه هي حقيقة التوحيد التي إذا وصل إليها العبد، نجا من حبائل وكمائن الشرك الخفي. فلم يعد يشرك نفسَه في طريق دعوته إلى الله عز وجل - أي نجا من العجب - كما لم يعد يشرك غيرَه في طريق دعوته إلى الله - أي نجا من الرياء - فأصبح عمله خالصاً لله. وهذا هو العمل المقبول عند الله.. إنه ما وافق الشرع وكان خالصاً لله عز وجل.

ولطالما أنه ينظر إلى نفسه على أنها لا شيء، فإنه ينظر إلى الآخرين ممن

ينهجون السبيل الموصل إلى مرضاة الله عز وجل على أنهم جميعاً خيرٌ منه وأقلُّ تقصيراً منه في جنب الله، وربما كان فيهم مَنْ هم مريدون عنده وتلامذة له.

لقد كان الشيخ أحمد الرفاعي يتمتع بعبوديةٍ واجفة لله عز وجل وحبٍ عظيم له سبحانه وخوفٍ منه وتعظيمٍ له سبحانه، فكانت هذه المعاني تشعره بالحزن الشديد لتقصيره، وباليقين بأنَّ كل الذين يغشون مجالسه من أصحابه ومريديه خير منه، فكان رحمه الله يقول: (أي سادة، أنا لستُ بشيخ. لست بمقدَّم على هذا الجمع، لست بواعظ، لست بمعلِّم، حُشِرت مع فرعون وهامان إنْ خطر لي أني شيخ على أحد من خلق الله، إلا أن يتخمدنيَ الله برحمته فأكون كآحاد المسلمين)[١].

ويقول قدَّس الله سرَّه: (كلُّ الفقراء ورجال هذه الطائفة خير مني، أنا أحيمد اللاش، أنا لاش اللاش)[٢].

إن المرشد كلما ازداد معرفةً بالله عز وجل وتقرباً منه، ازداد اتهاماً لنفسه وشعوراً بتقصيره، وازداد خوفاً من عواقب هذا التقصير، ومنْ ثَمَّ فإنه يوقن بأنَّ الفتح الذي يكرمه الله به، إذ يجلس إلى مريديه، إنما هو ببركتهم، وبأنَّ الضيق أو الانغلاق الذي ينتابه إنما مردُّه إلى سوءحاله. فهو لا يرى في عمله الإرشادي إلا وظيفةً أقامه الله عليها، وأنهم ربما كانوا عند الله أحسن حالاً منه وأفضل مآلاً، فإنه لا يدري العاقبة أبداً.

كان الشيخ ملا رمضان البوطي رحمه الله يقول: (إنَّ النهوض بواجب الدعوة إلى الله والإرشاد ليس أكثر من تنفيذٍ لحكم الشرع، فربما آل حال الفاسق العاصي إلى خيرٍ مِنْ حال مَنْ يرشده وينصحه. وربما آل حال المرشد إلى شر من حال العاصي

---

(١) البرهان المؤيد لسيدي الشيخ أحمد الرفاعي (ص٣١).

(٢) المرجع السابق ذاته (ص٣٢).

الذي يتقلب في فجوره وعصيانه. وإن على المرشدين والدعاة أن يعلموا هذه الحقيقة يقيناً يتعاملون معه، لا تواضعاً شكلياً يتجملون به).

وها هو الشيخ محمد سعيد رمضان البوطي رحمه الله يقول: (إنَّ النهوض بمهام الدعوة ليس أكثر من وظيفةٍ يسخِّر الله للقيام بها مَنْ يشاء، وربما كانت الحكمة من اختيار مَنْ يشاء لها ابتلاءً، وربما كانت تربيةً وتهذيباً للمرشد الداعي، أكثر من أن تكون نصيحةً للناس الذين يرشدهم! وكم من مرشد ضلَّ من خلال فتنة الإرشاد، واهتدى مريدوه بمعرفة الحق الذي تفتَّحتْ عقولهم لإدراكه وتهيأتْ قلوبهم لمحبَّته، ولا أشك أنَّ في المرشدين مَنْ سيدخلهم الله في شفاعة بعض مريديهم).

ورئي الشيخ عبد القادر الجيلاني قدَّس الله روحه في البيت الحرام متعلِّقاً بأستار الكعبة في الملتزم وهو يقول: (اللهم إن كنتَ لا تريد أن تغفر لي ذنوبي يوم القيامة، فأسألك اللهم أن تحشرني أعمى، حتى لا أرى الناس الذين يغترون بظاهري ويحسنون الظن بي اليوم).

هذا هو شأن كل العلماء والمرشدين الربانيين الذين شهد لهم التاريخ بالاستقامة والإخلاص والصلاح، الجامع المشترك بينهم إنكار الذات وتحطيم النفس، والغم الذي يظل ينتابهم بسبب التقصير، والقلق الذي يهيمن عليهم خوفاً من سوء المصير.

فهم يعلمون علم اليقين أنَّ مهمَّة الإرشاد إذ ينهض بها أحدهم، ليست دليلاً على أنه يتبوأ بها مكانة متميزة عند الله على الآخرين، بل هي وظيفة أقامه الله عليها، يمكن بعدها أن يكون من الفائزين برضا الله، إن هو وضع نفسه تحت قدمه وكان عبداً لمولاه، أو أن يكون من العائدين منها بسخط الله، إن هو استعلى بنفسه وعَبَدَ ذاته وهواه. ففي الحديث المتفق عليه: (إنَّ الله ليؤيِّد هذا الدين بالرجل الفاجر)[1] [2].

(١) أخرجه البخاري (٢٨٩٧)، ومسلم (١١١) كلاهما عن أبي هريرة ﷺ.

(٢) الحب في القرآن (ص١٤٧-١٥٥)، إضافة إلى هذا والدي (ص١٤٣) مع التصرف.

٢ - ومن وصل إلى حقيقة التوحيد وأسقط حظَّ نفسه من طريق دعوته إلى الله، لم يعد يمزج انتصاره لله بانتصاره لنفسه ولمن يلوذون به، ولا دفاعه عن الله بدفاعه عن نفسه وعنهم، بل يصبح انتصاره لله وحده، ودفاعه عن الله وحده.

ذلك لأن التوحيد الذي وصل إليه، أسقط شوائب الشرك الخفي كلَّها من نفسه، وبالتالي فقد صَفَتْ نفسُه ولم يعد يرى في الكون كلِّه مَنْ يتعامل معه إلا الله.. فلا يرى أمامه الظالم ولا المظلوم ولا المحسن ولا المسيء ولا النافع ولا الضار، وإنما يرى أمامه محسناً واحداً، ومنتقماً واحداً، ونافعاً واحداً، وضاراً واحداً، ومعطياً واحداً، ومانعاً واحداً.. إنه الله جل جلاله. فإذا جاءه من يشتمه وينتقص منه ويؤذيه، فإنه لا يراه ولا يتعامل معه، وإنما يتعامل مع الله.

وقد سمع كلام الله عز وجل في وصف المتقين: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣-١٣٤]، لذا فما أيسر عليه أن يكظم غيظه ويعفو عن المسيء، بل ويحسن له أيضاً. وهذا دليل على صدق توحيده لله عز وجل.

لذلك يقول تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾ [الشورى: ٤٣]، فاللام لام القسم، أي: والله لمن صبر على من يؤذونه وغفر لهم، فإنَّ ذلك من أبرز مظاهر التمسك الشديد بعرى الإسلام.. ولكن هذا صعب على مَنْ لم يكن قلبه فياضاً بحب الله عز وجل والخشية منه. وسبب ذلك إنما هو الغفلة عن الله، والتعامل مع العباد بدلاً من التعامل مع رب العباد.

والإنسان الذي يتعامل مع الله، يتخلّق بأخلاق الله، ويصبح صبوراً عَفُوّاً محسناً رفيقاً رحيماً لطيفاً مع الناس جميعاً. فالله عز وجل يدعونا إلى أن نتخلّق بأخلاقه، فهو القائل: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [الأعراف: ١٩٩]،

فلماذا قال: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ ولم يقل أعط العفو للمسيئين؟ مع أنَّ الإنسان عندما يعفو يعطي العفوَ للمسيء ولا يأخذه؟!

المعنى هو: خذ مبدأ العفو من الله سبحانه وتعالى وتعامل به مع الناس، وكأن الله عز وجل يقول لنبيه: خُذْ مني هذا الخُلُق وطبِّقْه في معاملاتك مع الناس كافة.

ولقد طبَّق رسول الله ﷺ هذا المبدأ عملياً، فهو القائل لأهل مكة عندما دخلها فاتحاً: (اذهبوا فأنتم الطلقاء)[1].

والقائل: (اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون)[2].

والقائل: لملك الجبال حين استأذنه أن يطبق على أهل مكة الأخْشَبَين: (بل أرجو أن يُخرِجَ اللهُ من أصلابهم مَنْ يعبدُ الله وحده لا يشركُ به شيئاً)[3].

ولقد دعانا رسول الله ﷺ إلى ذلك فقال: (تخلَّقُوا بأخلاق الله)[4].

ولعل من يقول: إنَّ من صفات الله عز وجل أيضاً أنه شديد العقاب، فلماذا لا نتحلَّى بهذا الخُلُق؟

الجواب: شتان بين ما قد دعاك الله إليه عزيمةً وربط ذلك بأجر فقال:

﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [النحل: ١٢٧].

﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٩/ ١٩٩، رقم١٨٢٧٦)، وورد في السيرة النبوية لابن كثير (ج٣/ ص٥٧٠)، وسيرة ابن هشام (ج٢/ ٤١٢).

(٢) مر ذكره ص٢٩٢.

(٣) رواه البخاري (٣٠٥٩) ومسلم (١٧٩٥)، كلاهما عن عائشة.

(٤) مر ذكره ص٢٩٤.

﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣].

﴿فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾ [الحجر: ٨٥].

﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

وأكَّد ذلك رسول الله ﷺ بقوله:

(إنَّ الله رفيق يحبُّ الرفق في الأمر كلِّه)[١].

(ما أُعطي أحدٌ عطاءً خيراً وأوسعَ من الصبر)[٢].

(الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا مَنْ في الأرض يرحمكم مَنْ في السماء)[٣].

(إنَّ الله رفيق يحبُّ الرِّفْقَ، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العُنْفِ وما لا يعطي على ما سواه)[٤].

(من يُحرمِ الرفقَ يُحرمِ الخير)[٥].

وبين ما قد أَذِنَ الله لك به ولم يربطه بأجر فقال:

- ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [النحل: ١٢٦-١٢٨].

---

(١) رواه البخاري (٦٥٢٨) عن عائشة.

(٢) مر ذكره ص٣١٤.

(٣) أخرجه الترمذي (١٩٢٤)، وأبو داود (٤٩٤١)، وأحمد (٦٤٥٨) عن عبد الله بن عمرو بن العاص.

(٤) أخرجه مسلم (٢٥٩٣) عن عائشة.

(٥) رواه مسلم (٢٥٩٢) عن جرير.

- ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٠﴾ [الشورى: ٤٠].

فانظر في هذه الآيات كيف أَذِنَ الله عز وجل بالمعاقبةِ وردِّ السيئة بمثلها، ولكنه سُرعان ما بيَّن لك الطريق الأمثل وربَطَه بالأجر، ألا وهو الصبر والعفو.

فعندما يتحلى المسلم بالصبر والعفو والإحسان والصفح والرفق والرحمة استجابةً لأمر الله عز وجل، فإنَّ الله عز وجل يكتب له الأجر على هذه الأخلاق ويرفع له قَدْراً عنده، وربما إذا استمرَّ على هذه الأخلاق يرفعه إلى رتبة الصديقين.

أما عندما يعاقب المسلمُ مَنْ أساء إليه بمثل إساءته، وهو أمرٌ وإنْ كان مأذوناً به شرعاً، فإنَّ الله عز وجل لا يكتب له الأجر على هذا العقاب، لأنَّ هذا ليس مما دعا إليه الله عزيمةً، وإنما هو مما أَذِنَ به ترخُّصاً.

وكم من الناس مَنْ يتباهى بمعاقبته للمسيئين قائلاً: لقد فعلت به كيت وكيت مثل ما فعل! ظاناً أنه بذلك قد أنجز عملاً عظيماً!

نقول له: إنَّ الله عز وجل وصف المتقين بـ ﴿وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ﴾، ولم يصفهم بـ (المعاقبين).. لقد منعك الله أن تتباهى بصفحك عن أخيك فقال: ﴿فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ﴾ [الحجر: ٨٥]، أي فاصفح صفحاً لا تكن به ممتناً على مَنْ تصفح عنه كما كان العرب يفعلون. فقد كان أحدهم يُظهِر للآخر قدرتَه على البطش والانتقام ثم يقول له: ومع ذلك فقد صفحتُ عنك، ليريه فضله عليه.. هذا ليس صفحاً جميلاً، لأن الصفح + التمنُّن = الذلّ، وقد منعك الله عن ذلك فقال: ﴿قَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞ وَمَغۡفِرَةٌ خَيۡرٞ مِّن صَدَقَةٖ يَتۡبَعُهَآ أَذٗىۗ﴾ [البقرة: ٢٦٣]. فلئن منعك الله من التباهي بالصفح، وقد أمرك به، أفلا يمنعك من التباهي بالعقاب، ولم يأمرك به، بل أذِنَ لك به؟![1]

---

(١) شرح رياض الصالحين. الدرس (٥٨٤).

روي أنَّ رجلاً يهودياً رأى الإمام الشافعي رضي الله عنه في مكان لا يوجد فيه أحد، فأراد أن يغيظه، فسلَّم عليه ثم أدنى يده إلى لحيته وقال له: يا أيها الإمام أريد أن أسألك فأجبني: هل هذه اللحية أفضل عند الله أم ذيل كلب من الكلاب؟ فقال له الإمام: واللهِ إنْ نجوتُ غداً من موقفي بين يدي الله عز وجل فأنا لا أرتاب أن لحيتي أفضل. ولكنْ إنْ جندلَتْني معصيتي في عقاب الله عز وجل، فإنَّ شعرةً واحدةً من ذيل هذا الكلب الذي تقول هي أفضل من الإمام الشافعي كله[١].

ودعي أبو عثمان الحيري إلى دعوة - وكان الداعي قد أراد تجربته - فلما بلغ منزله قال له: ليس لي بك حاجة. فرجع أبو عثمان، فلما ذهب غيرَ بعيد، دعاه ثانياً فأتاه، ثم قال له: ارجع، فرجع. وهكذا عدة مرات، وأبو عثمان لا يتغير عن حاله. فأكبَّ على رجليه وقال: يا أستاذ إنما أردتُ أن أختبرك فما أحسن خُلُقَك! فقال أبو عثمان: إنَّ الذي رأيتَ مني هو خُلُق الكلب، إنَّ الكلب إذا دُعي أجاب، وإذا زُجر انزجر[٢].

وشتم رجلٌ الأحنفَ بن قيس، وهو لا يُجيبه، وكان يتبعه، فلما قَرُبَ من الحي وقف وقال: إنْ كان بقي في نفسك شيء فقُلْه كي لا يسمعَك بعضُ سفهاء الحي فيؤذوك[٣].

وقالت امرأة لمالك بن دينار رحمه الله: يا مرائي. فقال: يا هذه وجدتِ اسمي الذي أضلَّه أهل البصرة[٤].

وكان أبو عثمان الحيري يوماً ما يجتاز مع مريديه سكة فطُرحت عليه من علو

(١) شرح رياض الصالحين. الدرس (٩٠٦).
(٢) إحياء علوم الدين للإمام الغزالي (٣/ ٧١).
(٣) إحياء علوم الدين للإمام الغزالي (٣/ ٧١).
(٤) إحياء علوم الدين (٣/ ٧٢).

إجانة رماد. فنزل عن دابته وسجد سجدة الشكر، ثم جعل ينفض الرماد عن ثيابه ولم يقل شيئاً، فقال له مريدوه: ألا زجرتَهم، فقال: إنَّ مَنِ استحقَّ النار فصولح على الرماد لم يَجُزْ له أن يغضب[(١)].

ولكي يصل الدعاة إلى الله إلى هذه الدرجة من الصبر والرفق والعفو ويتخلَّقوا بأخلاق الله، ينبغي أن يحطِّموا نفوسهم، عندئذٍ يتخلَّصون من الشرك، وعندئذ يُعدُّون موحِّدين.

٣ - وعندما يُسقط الداعي إلى الله حظَّ نفسه من طريق دعوته إلى الله، يصبح أميناً على شرع الله الذي ينقله إلى الناس، مهما كانت الظروف من حوله حالكة، ولن تستطيع نفسُه التي بين جنبيه - حفاظاً على مصالحها وانتصاراً لها - أن تُغْرِيَه بتغيير شرع الله عز وجل والتلاعب بأحكامه. بل سرعان ما يضع نفسه تحت قدمه، وينطق بما عرفه عقله من هذا الشرع الحنيف.

ها هو الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه، امتحن وأوذي على يد المأمون والمعتصم، وعانى من العذاب ما عانى حتى تخلَّعتْ يداه، وهو يقول: القرآن كلام الله القديم.

ولما دُعي ليفتي على سؤال: هل يَجوز لنا أن نخرج على هؤلاء الأئمة أم لا؟ قال في الجواب: لا يجوز الخروج على الإمام وإنْ جار وإن فسق[(٢)].

---

(١) إحياء علوم الدين (٣/ ٧١).

(٢) يقول الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه: (ومن خرج على إمام المسلمين، وقد كان الناس اجتمعوا عليه وأقروا له بالخلافة بأيّ وجهٍ كان، بالرضا أو بالغَلَبَة، فقد شقَّ هذا الخارج عصا المسلمين، وخالف الآثار عن رسول الله ﷺ، فإنْ مات الخارج عليه، مات ميتةً جاهليةً، ولا يحلُّ قتال السلطان ولا الخروج عليه لأحد من الناس، فمن فعل ذلك فهو مبتدع على غير السنة). كتاب (شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة) اعتقاد أحمد بن حنبل رضي الله عنه، لأبي القاسم اللالكائي (١/ ١٧٥) رقم (٣١٧).

ألم يكن شاقاً على نفسه أن يقول في الجواب: لا، وهو الذي عانى من ظلمهم وتعذيبهم ما عانى؟

بلى.. لقد كان شاقاً على نفسه أن ينطق بهذا الحكم الذي عرفه عقله، لكنه - كأي مسلم صادق في إسلامه - يقيِّد أهواء نفسه ورغباتها ومصالحها ورعوناتها بقيد العلم الإلهي الذي أورثه الله إياه، ويتصبَّر فيصبِّره الله.

المطلوب من الداعي إلى الله أن ينتصر على نفسه، لا أن ينتصر لها. فلئن قَدَرَ على نفسه وانتصر عليها، فهو على عدوه الخارجي أقدر، وعندها لن يستطيع أحد أن يشتريَ ذِمَّته بالدنيا وما فيها.. ولئن خَنَعَ أمام نفسه وهُزم، فهو أمام عدوه الخارجي أشدُّ خنوعاً وهزيمةً، وعندها ما أيسرَ أن تُشترى ذِمَّتُه من قِبَل أعداء الله الحاقدين على الإسلام، بِعَرَضٍ من الدنيا قليل، لقاء أن يغيِّرَ ويتلاعب بأحكام الله عز وجل.

الدين الإسلامي عبارةٌ عن شجرةٍ طيبة راسخة ضاربةٍ بجذورها في أعماق الأرض، صاعدة بثمارها إلى عنان السماء. ولا بد للإنسان لكي ينعُم بظلِّها وثمارها أن يُهرع هو إليها، فينال سعادة الدنيا والآخرة، ومفتاح الدخول إلى هذا الدين كلمة لا إله إلا الله مصداقاً لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [إبراهيم: ٢٤-٢٥].

وليس الدينُ شجرةً اصطناعيةً صنعتها يد الإنسان، لا جذور لها ولا ثمار، ينقلها متى شاء إلى حيث شاء، ظاناً أنه سينعم بظلٍ كظل الشجرة الطيبة، وبثمار كثمارها.

لا. فهذا شأن المذاهب الوضعية النابعة من الأرض والتي تحكمها المصالح والأهواء، لا الشرائع السماوية التي أحكمها ربُّ الأرض والسماء.. وإنه ما خرج من ظل هذه ليدخل في ظل تلك، إلا بكلمة خبيثة غيَّرتْ وحرَّفت وتلاعبت بشرع الله

ابتغاء عَرَضٍ من الدنيا قليل. وإذا به في العراء تحت الشمس اللاهبة، لا ظل يؤويه ولا ثمر يغنيه مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾﴾ [إبراهيم: ٢٦]!

٤ - يمارس واجبه في الدعوة إلى الله، ولا يُقحم نفسه في النتائج، بل يَدَعُ النتائج إلى الله ويفوِّض الأمر إليه.. أي لا يرهقنَّ نفسَه بأشياء لم يجعل اللهُ مقاليدها إليه، ولا يسعينَّ في الأمر سعي من يتوهم أنَّ زمام الأمور كلها بيديه، فهو الذي يسوق الأسباب ويأتي بالنتائج ويغير الأمور. بل هو يتيقَّن أنه ليس من شأن الداعي أن يُدخِل الهدايةَ في قلوب الناس، وليس إليه تبديل حالةٍ اجتماعيةٍ بأخرى، وإنما تنتهي وظيفته التي كلَّفه الله عز وجل بها عند البيان باللسان وبالحكمة، وتقديم للمال إذا احتاج الأمر إلى ذلك، وتضحيةٍ بالروح والدم إذا وصلت ضرورات الدعوة إلى ذلك. كل ذلك مع الالتزام بالقواعد والأحكام الشرعية التي من شأنها أن تضبط الداعي على صراط الإسلام فلا ينحرف عنه يمنة ولا يسرة.

إنه ينطلق في عمله في الدعوة إلى الله عز وجل وفي سائر أعماله، من منطلق العبودية لله عز وجل، لذلك فهو يُدرك أنَّ قيامَ المجتمع على دعائم الإسلام وحكمِه ونظامه ليس إلا أجراً من الله تعالى يخلقه هو لعباده من حيث يحتسبون أو لا يحتسبون، في مقابل تطبيقهم للإسلام كله على أنفسهم أولاً، ثم على أهليهم وأولادهم ومَنْ يلوذون بهم ثانياً، مع الإكثار من ذكر الله عز وجل والتبتل إليه والضراعة له سبحانه.

وهذا ما فعله رسول الله ﷺ ذاته مع أصحابه، لم يطرقوا باب المجتمع الإسلامي إلا بهذه الأعمال التي هي في حدود وظائفهم وتكليفاتهم، فلما صدقوا الله تعالى في القيام بها، وقادوا بين يدي ذلك قلوباً زُكِّيتْ بوَقود الخشية من الله عز وجل، بدَّل الله بحالهم التي كانوا عليها حالاً أخرى، فأقام لهم مجتمعاً رَضِياً سعيداً

قوياً قائماً على دعائم الإسلام وحكمه، ثم أقامهم حراساً عليه بالأعمال والوظائف ذاتها التي ألزمهم بها سبحانه وتعالى[1].

هذا ما بيَّنه الله عز وجل بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]، وبقوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا﴾ [النور: ٥٥].

وهذا ما أشار إليه أحد العلماء الربانيين بقوله: (أقيموا دولة الإسلام في بيوتكم، يُقِمْها الله في بلادكم وأوطانكم)[2].

يتميز هذا العصر بكثرة الحركات الإسلامية التي تتخذ من النهج الثوري سبيلاً لها، وهي مدفوعة بعوامل وأسباب شتى، ولكنها جميعاً تتلاقى على صعيد مشترك يتمثل في الهياج النفسي والأحقاد المستعرة والسعي إلى التشفي والانتقام. ولكن فليحاذر أولئك الذين لا غرض لهم إلا العمل من أجل الإسلام والدعوة إليه، من أن

---

(١) هكذا فلندع إلى الإسلام (ص٤٧-٥٠).

(٢) يقول الألباني: (ومن عجائب بعض الدعاة أنهم يهتمون بما لا يستطيعون القيام به من الأمور ويدّعون ما هو واجب عليهم وميسور، وذلك بمجاهدة أنفسهم كما قال ذلك الداعية - حسن البنا - الذي أوصى أتباعه بقوله: (أقيموا دولة الإسلام في نفوسكم تقم لكم في أرضكم وأوطانكم)، ومع ذلك فنحن نجد كثيراً من أتباعه يخالفون ذلك) موسوعة الألباني (٢/ ٢٧)، ثم يقول: (فعلى من يهتم بإعادة الحكم بالإسلام على الأرض الإسلامية، أن يبدأ حيث بدأ الرسول ﷺ، وهو ما نكني عنه بكلمتين: التصفية والتربية.. أولئك الغلاة ليس لهم همٌّ إلا تكفير الحكام، ثم لا شيء.. إذا درسنا الجماعات الإسلامية القائمة الآن منذ قرابة قرن من الزمان، لوجدنا كثيراً منهم لم يستفيدوا شيئاً رغم صياحهم وزعاقهم أنهم يريدونها حكومة إسلامية، وربما سفكوا دماء أبرياءٍ كثيرةً جداً دون أن يستفيدوا من ذلك شيئاً إطلاقاً، فلا نزال نسمع منهم العقائد المخالفة للكتاب والسنة، وهم يريدون إقامة دولة الإسلام) نفس المصدر (٤/ ٢٧٩-٢٨١).

يلتبس عليهم هذا بذاك، أو أن يُصابوا بعدوى تلك الحركات، ولْيعلموا أنَّ من المستحيل أن ينهض وجود حقيقي للإسلام على دعامةٍ من هذا القبيل.

إن كل نظام من الأنظمة الاجتماعية الوضعية قد يُفرض لصقاً بواسطة الضغط الثوري، ولكنَّ الإسلام لا يستقر وجودُه إلا بغرس أصوله في تربية الأفئدة والنفوس، ثم استنباته بالرعاية والتوجيه، ولا يتم هذا إلا بمعاناةٍ فرديةٍ طويلةٍ صابرة.

إذن: لا يمكن للمجتمع الإسلامي أن يترسَّخ إلا بإيجاد أفراده الصالحين أولاً، ولا تتمثل مهمة المسلمين في أكثر من النهوض الحقيقي بهذا الواجب، فإن هم أنجزوا ذلك في صبر وإخلاص وأناة، تكفَّل الله لهم ببقية الأمر، فتوّج لهم جهودهم هذه بنظام إسلامي متماسك وسلطة إسلامية راشدة. لذا فلْيحذرِ المسلمون الذين يهتمّون بشأن الدعوة الإسلامية من آفةٍ هي أخطر آفات الحركات الإسلامية التي تظهر هنا وهناك، وهي أنهم ما يكادون يرون أنَّ الإقبال على الإسلام يتزايد، وأنَّ يقظةً إسلاميةً واعيةً بدأت تنتشر في صفوف الشباب، وأنَّ الأنظار أخذت تَحسِبُ للقوة الإسلامية حساباً، حتى تعاجِلُهم النشوةُ ويستبدُّ بهم الزهوُّ، فيتركون القاعدة التوجيهية التي ما كلَّفهم الله بغيرها، ويطمحون إلى حيث القمة، ليبدّلوا النظم ويقيموا (الدولة الإسلامية التي تحكم بما أنزل الله)...

ولا بد أن تتنبَّه عندئذٍ عواملُ التربص والحذر لدى الأطراف الأخرى، وأن تصطرع القوى وتتأزم الأمور، وأخيراً ينكفئ الطامحون على أعقابهم، وقد خسروا قواعدهم الأولى، ولم يفوزوا بأحلامهم الأخرى. وتلك هي مصيبة الحركات الإسلامية في أكثر بقاع الأرض، هدفها الوصول إلى الحكم[1]!

لقد مر الحسن البصري رحمه الله على رجل يلعنُ الحجاجَ، وكان الحجاج قد

---

(١) الإسلام ملاذ كل المجتمعات الإنسانية (ص٢٣١-٢٣٢).

قتل أحدَ أقاربه، فقال له الحسن البصري رحمه الله: لا تلعن الحجاج، فإني أخشى إن هلك أن تتولاكم القردة والخنازير، لقد روينا عن رسول الله ﷺ: (عُمَّالُكُمْ أعمالكم، كما تكونوا يُولَّى عليكم)[1].

وها هو أحد العلماء الربانيين - وهو الشيخ ملا رمضان البوطي رحمه الله - يرى أن آفة (الجماعات والأحزاب الإسلامية)، تشكل الخطر الأكبر على سلطان الأخوة الإسلامية العامة التي رسَّخها الله عز وجل بقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]. ذلك لأنَّ أيَّ اصطفاءٍ لفئة من المسلمين من الجماعة الإسلامية الكبرى التي سمَّاها رسول الله ﷺ (جماعة المسلمين)، وتمتين الصلة بها دون بقية المسلمين، من شأنه أن يحوِّل الدائرة الإسلامية الواحدة، ذات المحور الواحد الجامع، إلى دوائر ذات محاور متفرقة ومفرِّقة تنهش في جسد الأمة الإسلامية وتمزِّقه شرَّ ممزَّق، وما ذلك في حقيقة دوافعه إلا استجابةً للأَثَرَة والأنانية المقيتة، ولكن في مظهرها الجماعي لا الفردي! بدليل شعارهم القائل: (من لم يكن معنا فهو علينا)، والقائل: (من لم يكن معنا فهو مسلم من الدرجة الثانية). وهكذا يفرح أفراد الجماعة الواحدة بما عندهم وينظرون إلى الآخرين نظرة استعلاء وتسفيه. والرسول ﷺ يقول: (بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم)[2]، وبدلاً من أن يكون بعضهم مع بعض استجابة لأمر الله ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾، يكون بعضهم على بعض استجابة لأمر رؤسائهم (من لم يكن معنا فهو علينا).. هذا ما حذَّرنا منه الله عز وجل بقوله: ﴿وَإِنَّ

---

(١) أخرجه البيهقي في الشعب ٧٠٠٦ بلفظ «يؤمّر عليكم» وقال: حديث منقطع وراويه ضعيف. انتهى وجاء في كتاب (كشف الخفاء) للعجلوني ت. هنداوي ج٢/١٤٩ برقم ١٩٩٧: قال في الأصل: رواه الحاكم ومن طريقه الديلمي عن أبي بكرة مرفوعاً، وأخرجه البيهقي بلفظ «يؤمّر عليكم» بدون شك، وبحذف أبي بكرة؛ فهو منقطع. ورواه الطبراني بمعناه عن الحسن. انتهى

(٢) صحيح مسلم (٢٥٦٤)، وهو جزء من حديث: (لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا...) عن أبي هريرة.

﴿هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ۝٥٢ فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ۝٥٣﴾ [المؤمنون: ٥٢-٥٣][١].

أما العالِم الرباني فلا يدعو إلى نفسه ولا إلى جماعة دون غيرها، وإنما يدعو إلى الإسلام، ولا شيء غيره.

والنتيجة أن الله عز وجل يسخِّر لهذا الداعي القلوب فتنقاد للحق من أيسر سبيل..

ذلك لأن المشاعر - مشاعر الحب والصدق والإخلاص عند الداعي - لا بد أن تلمس مشاعر المدعوين ومن ثَمَّ تخاطبها، والشجى لا بد وأن يبعث الشجى، وهذا هو معنى المثل القائل: (ليست النائحة كالثكلى)[٢]، فالنائحة تنفث من حلقها كلاماً يصل في أقصى مداه إلى صماخ الآذان، وأما الثكلى فتنفث من أعماق صدرها لوعة الأسى والحرمان، لتصل إلى صميم المشاعر والوجدان.

هذا هو حال العلماء الربانيين.. إنهم رجال أضناهم وهج المحبة الإلهية، فكانت كلماتهم البسيطة المضمَّخة بالضنى والمشوية بلوعة الحب، لا تخطئ الوصولَ إلى أعماق نفوس السامعين، فينبعث الضنى الراقد من الضنى المقبل، وتتجاوب لوعةُ النفس مع لوعةِ النفس، ويَصلح حال المجتمع بصلاح حال أفراده، ونصل إلى المجتمع الإسلامي المنشود من أقرب طريق.

روى سفيانُ بن عيينة أنه دخل مع جَمْعٍ من العلماء على الرشيد استجابةً لدعوةٍ وُجِّهتْ إليهم، قال: ودخل الفضيل بن عياض بعدنا جميعاً، مقنِّعاً رأسه بردائه، فلما اطمأن به المجلس قال لي: يا سفيان، أيُّهم أمير المؤمنين؟ فقلت: هذا، وأومأت

---

(١) هذا والدي (ص١٣٣-١٣٥) مع التصرف.

(٢) مجمع الأمثال (٢/ ٢٠٠ رقم ٣٤٠٨)، بلفظ: (ليست النائحة الثكلى كالمستأجرة).

إليه. فنظر الفضيل إليه قائلاً: (يا حَسَنَ الوجه، أنت الذي أَمْرُ هذه الأُمَّة والعباد بيدك وفي عنقك؟!.. لقد تقلَّدت أمراً عظيماً)!

فاستعبر الرشيد باكياً[١].

وزار هارونُ الرشيد مرةً الفضيلَ بن عياض، ففتح الفضيل له الباب ثم ارتقى إلى غرفته فأطفأ المصباح، ثم التجأ إلى زاوية من زوايا البيت، فجعل هارون يجول عليه بيده، حتى وقعت يده على يده، فقال له الفضيل: يا لها من كف ما ألينها إنْ نجتْ غداً من عذاب الله عز وجل! إني أخاف عليك أشد الخوف يوماً تزل فيه الأقدام. فبكى هارون بكاء شديداً حتى غُشي عليه[٢].

إنها لوعة الحب، ورحلة الحزن، هي التي انطوت عليها الكلمات القليلة والبسيطة التي خاطب بها الفضيلُ الرشيدَ. فسرت اللوعة ومشاعر الحزن من الفضيل إلى حيث المشاعر الكامنة في نفس هارون، وانبعث الشجى من الشجى، فاستعبر وتأثر باكياً لتلك الكلمات[٣].

يقول ابن عطاء الله رحمه الله: (كل كلامٍ يبرز وعليه كِسْوةُ القلب الذي منه برز)[٤] أي أنَّ اللسانَ ترجمانُ القلب، فإذا تطهَّر القلب من الأغيار، وأشرقت عليه الأنوار، اكتسى الكلام نوراً، وانتفع به السامعون، ولانَتْ له القلوب. وهذا هو حال العالم الرباني. أما إذا تدنَّس القلب بالذنوب، فإنَّ كلامَ صاحبِه يوجِب قسوةَ القلوب. وهذا هو حال عالم السوء.

---

(١) صفة الصفوة لابن الجوزي (٢/ ٢٣٩) هذا ما جاء في كتاب (شخصيات استوقفتني) للدكتور البوطي (ص٢٨).

(٢) كتاب التوابين لابن قدامة المقدسي (١/ ١٠٣)، مع الاختصار.

(٣) هذا والدي (ص١٤٠-١٤١).

(٤) الحكمة (١٨٣).

فعالم السوء: هو ذاك الذي حشا عقله بالعلوم والمعارف، ولكنه ترك نفسَه ترتع في حب الدنيا من مالٍ وجاهٍ وزعامةٍ وغير ذلك، فكانت القيادة وزِمامُها بيد النَّفس لا بيد العقل، لذا نجده:

١ - محجوباً بنفسه عن ربه: لقد غابت عنه حقيقةُ التوحيد، فانسلخ عن عبوديته لله عز وجل وأصبح عبداً لنفسه وهواه. وإذا بهذه المعاني (العبودية - الحب - الخوف - التعظيم) بدلاً من أن تتوجه إلى الله، فإن النفس تصادرها لحسابها لتصبح خادمة لها من دون الله.. كيف؟

لطالما انشغلتْ نفسُه بالدنيا ولم يجاهدها للتخلص من هذا الداء الخطير، فقد غَفَلَ بها عن الله عز وجل، ففرغ قلبه من حبِّ الله - لوجود علاقة حتميةٍ بين الذكر الحقيقي لله عز وجل ومحبته - وامتلأ بمحبة الأغيار، وأول هذه الأغيار حبُّه لذاته واعتداده بنفسه. ولطالما كانت محبة الشيء تستلزم العبودية له، أي الانقياد والطاعة له - فالسلوكُ يتبع الحبَّ كما علمنا - فهو إذن يعبد ذاتَه ويشرك نفسَه في عمله وهو يدعو إلى الله، وينطبق عليه قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الجاثية: ٢٣]، ويقول ابن عطاء الله رحمه الله تعالى: (ما أحببتَ شيئاً إلا كنتَ له عبداً، وهو - أي الله - لا يحبُّ أن تكون لغيره عبداً) (١).

فانظر إلى هذه السلسلة كيف تقود الحلقة منها إلى التي تليها، ورأس الأفعى فيها حبُّ الدنيا وتقديس النفس وعدمُ مجاهدتها للتخلص من ذلك:

فالانشغال بالدنيا من مالٍ ومنصبٍ وزعامةٍ وجاه ← الغفلة عن الله ← فراغ القلب من حب الله ← امتلاؤه بحب الأغيار وأولها حب الذات وتقديس النفس ← عبوديته

(١) الحكمة (٢١٠) من حكم ابن عطاء الله السكندري.

لنفسه وهواه. لذلك كان حبُّ الدنيا رأس كل خطيئة.

ولو أنه شَغَلَ فكره وعقله بالتفكُّر في ذاته، وكيف أنه عبد مملوك لله عز وجل من رأسه إلى أخمص قدميه، وتلك هي العبودية القسرية لله، إذن لتحولت حلقات السلسلة إلى:

تفكر الإنسان في عبوديته القسرية لله ← الإكثار من ذكر الله ← امتلاء القلب بمحبة الله ← طرد محبة الأغيار ← العبودية لله وحده. لذلك كان (فكر ساعة خير من عبادة ستين سنة)[1].

فانظر كيف أنَّ تفكُّر الإنسان في عبوديته القسرية لله، ساق أخيراً إلى ممارسة العبودية الاختيارية لله، أي الطاعة له والانقياد لحكمه. وتلك هي مهمة الإنسان على وجه الأرض، أن يكون عبداً لله بالسلوك والاختيار، كما أنه عبد لله بالقهر والاضطرار.

وعبودية الإنسان لله عز وجل مناقضةٌ تماماً لعبوديته لنفسه وهواه، فلئن كانت الأولى تكشف للعبد عن ضآلته وتقصيره ولا شيئيته، فإن الثانية تزين للعبد عظمته وارتفاع مكانته عند الله.

ها قد سقطت العبوديةُ والحبُّ في شِراك النفس وفِخاخها، وكذلك أيضاً الخوف والتعظيم!

أما الخوف فبدلاً من أن يكون من ذات الله وعذابه، فقد أصبح خوفاً على حظوظ النفس وشهواتها أن تنقطع عنها لسبب من الأسباب.

وأما التعظيم، فمتى غابت عظمة الله عن عقل الإنسان ومشاعره، فلا بد أن يحل

(١) رواه أبو الشيخ في العظمة عن أبي هريرة، ورمز له السيوطي بالضعف. هذا ما جاء في كتاب (قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث) لمحمد جمال القاسمي (١/ ٣٨٩).

محلّها تعظيم النفس وتقديس الأنا وتعظيم ما يغذّي هذه النفس من الدنيا وذيولها..

كل ذلك مخبوءٌ خلف لائحةٍ بيضاءَ مكتوبٌ عليها: (الدعوةُ إلى الله).. فيا لها من لائحة بيضاء تُخفي وراءَها أمراضاً وأدواءً وأخلاقاً سوداء!!

ثم هو قاطع لغيره عن الله عز وجل، فهو من خلال عبوديته لذاته وحبِّه لنفسه وخوفه على حظوظها وتعظيمه لأنانيته، يوحي إلى مريديه أنه وليُّ الله في أرضه وصفيُّه من عباده، وأنه يتمتَّع بصفاءٍ روحي يورثه الكشفَ من الله، ويرفع عنه الحجب ويعرِّي أمامه الحقائق، لذا فهو بصير بسرائرهم، خبير بما خفي من أوضاعهم وتقلباتهم.

إنه من خلال ممارسته لأعمال الدعوة إلى الله، يسعى لغرس اليقين في قلوب مريديه أنَّ له مكانةً باسِقةً يتمتع بها عند الله، وأنه من خلال هذه المكانة يرى بمصباح الكشف الرباني، لذا فإن ما ينتابه من ضيق الصدر وانقطاع الفتح وهو يلقي إليهم مواعظَه ودروسَه إنما هو بسبب سوء حالهم، وبسبب معاصيهم. لذا فهو يلتفت إليهم ممعناً في وجوههم قائلاً: إنَّ هنالك معصيةً قاتمةً تلوح ظلالها وتهيمن على المكان، ولذلك فإن صدري منقبض، ومن ثم فأنا لا أستطيع البقاء معكم في هذا الجو.. فيمضي مولياً لهم ظهره تاركاً إياهم في حَيْصَ بَيْص.

أما المريدون فلا تسل عن الذعر الذي يجتاح مشاعرهم، لا سيما أنَّ المرشد كان قد غرس في أفئدتهم الثقة التامة به، وبأنه إنما يتلقى مشاعره إلهاماً من عند الله، فيستغرق كل واحد منهم في التفكير بالمعصية التي اجترحها، لعلها تلك أو ربما تلك. وتتحول التخيلات التي يفرضها على نفسه في كثير من الأحيان إلى قلق نفسي، ومن ثم إلى مرض نفسي خطير!

فبدلاً من أن تكون هذه الجلسات من الدعوة والإرشاد سبباً لصحة نفسيةٍ وحياةٍ طيبة، تكون سبباً لأمراضٍ نفسيةٍ وعيشة ضنك! وما ذاك إلا لانحراف الداعي عن

جادة العبودية لله عز وجل، وهو انحراف ينبئ عن فراغ القلب من محبة الله وانشغاله بمحبة الذات وتقديسها. فمتى كان المرشدون الربانيون بدءاً من الرسل والأنبياء يوحون إلى أتباعهم هذه الدعوى ويزجونهم في قلق نفسي مهلك؟![1]

أقول: ليت أن هذا المرشد عَبَدَ ذاتَه ووقف عند هذا الحد، إذاً لاقتصر عمله على إهلاك نفسه فحسب، ولكنه عبد ذاته ودعا الآخرين إلى عبادته. قطع نفسَه بنفسه عن الله، ويسعى لقطع الآخرين بنفسه عن الله سبحانه وتعالى. فبدلاً من أن تتوجه مشاعر (العبودية والحب والخوف والتعظيم) عندهم إلى الله، فإنه يصادرها لنفسه - التي لم يزكِّها ولم يجاهِدْها - لتكون لها من دون الله. وإذا بهم - بعد فترةٍ من الزمن - تتوجّه عبوديتُهم إليه، فينقادون له في كل ما يقول، ولو كان ما يقول مخالفاً لشرع الله، خارجاً عن دائرة رضا الله. وإذا به وبهم يدخلون في مضمون قوله تعالى عن اليهود والنصارى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١]، وهذا ما حذّرنا منه رسول الله ﷺ بقوله: (لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ قبلَكم شِبراً بشبرٍ وذراعاً بذراع، حتى لو سلكوا جُحْرَ ضَبٍّ لسلكتموه) قالوا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: (فَمَنْ)[2]؟

وعن علي رضي الله عنه قال: بعث النبي ﷺ سريةً، وأمّر عليهم رجلاً من الأنصار، وأمرهم أن يطيعوه، فغضب عليهم وقال: أليس قد أمر النبي ﷺ أن تطيعوني؟ قالوا: بلى. قال: قد عزمت عليكم لَمَا جمعتم حطباً، وأوقدتم ناراً، ثم دخلتم فيها. فجمعوا حطباً فأوقدوا ناراً، فلما همُّوا بالدخول، فقام ينظر بعضهم إلى بعض، قال بعضهم: إنما تبعنا النبيَّ ﷺ فراراً من النار، أفندخلها؟

---

(١) الحب في القرآن (ص١٥١-١٥٣). مع التصرف والزيادة.

(٢) أخرجه البخاري (٣٢٦٩)، ومسلم (٢٦٦٩)، كلاهما عن أبي سعيد الخدري، واللفظ للبخاري.

فبينما هم كذلك، إذ خمدت النار، وسكن غضبه. فذُكر للنبي ﷺ فقال: (لو دخلوها ما خرجوا منها أبداً، إنما الطاعة في المعروف)[١].

وعن ابن عيينة أنَّ ربيعة بكى، فقيل: ما يبكيك؟ قال: رياء حاضر وشهوة خفية، والناس عند علمائهم كغلمان في حجور أمهاتهم، إنْ أمروهم ائتمروا، وإنْ نهوهم انتهوا. قال الغزالي: (وهذا هو الانتكاس على أمِّ الرأس، وفاعله يقوم في العرض الأكبر مع المجرمين ناكساً رأسه عند ربه عز وجل) إلى أن قال: (ويتوقَّع المعلِّم في نفس المتعلِّم أن ينقطع إليه ويقتصر عليه، ويقوم معه في كل نائبة، وينصر وليَّه ويعادي عدوَّه، ويَنهض حماراً في حاجاته، مُسخَّراً بين يديه في أوطاره ومهماته، فإن قصَّر غضب عليه وعاداه، فأخسِئ بعالِمٍ يرضى لنفسه هذه الرتبة، ثم يفرح بها، ثم لا يستحيي أن يقول: غرضي من التدريس نشر العلم تقرباً إلى الله)[٢].

وقال كعب رحمه الله: سيكون في آخر الزمان علماء، يتغايرون على العلم كما تتغاير النساء على الرجال، يغضب أحدهم عل جليسه إذا جالس غيره أو أخذ عنه، أولئك الجبارون أعداء الرحمن[٣].

وليت أن الأمر يقف عند هذا الحد، بل إنها متوالية هندسية تنشر هذا الوباء أجيالاً متلاحقة، فكل مريد منهم يتحول بعد فترة إلى مرشد، ليسلك مع مريديه المسْلَكَ ذاتَه ويخرجهم من عبادة الله إلى عبادة العباد!

فانظر إلى عِظَم الفرق بينهم وبين العلماء الربانيين، وعلى رأسهم الصحابة الذين كانوا يقولون: (جئنا لنخرج من شاء منكم، من عبادة العباد، إلى عبادة الله الواحد القهار)!!

---

(١) أخرجه البخاري (٦٧٢٦)، ومسلم (١٨٤٠)، كلاهما عن علي رضي الله عنه، واللفظ للبخاري.
(٢) فيض القدير في شرح الجامع الصغير (١/ ١٨٨) لابن زين العابدين المناوي.
(٣) نفس المرجع (١/ ١٨٨).

وانظر إلى نفس واحدة لم تتزكَّ كيف قطعت أمةً عن الله عز وجل. لأجل ذلك حذرنا رسول الله ﷺ منها بقوله: (أعدى عدوّك نفسُك التي بين جنبيك)(١).

وكأنه ﷺ يقول: ليس عدوك هو الذي يقطع عليك الطريق، فينهب مالك ويسرق متاعك ويتركك في العراء المادي، إنما عدوك هو نفسك التي تقطع عليك وعلى غيرك الطريق إلى الله، لتتركك وإياهم في العراء المعنوي والخواء الروحي!

وأي خواءٍ أكبر من أن يفرغ القلب من العبودية لله ومن مشاعر الحب والخوف والتعظيم له سبحانه، وينصرف عن التوحيد الذي كان يحلّق به عالياً، ليتخطّفه شركاءُ متشاكسون فيخرَّ بهم أسفل سافلين، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١].

٢ - ينتصر لنفسه، ولا يهمّه الانتصار لله، بل ينتصر لنفسه ويدّعي أنه ينتصر لله:

أقول: عندما يعظم الداعي نفسَه هذا التعظيم، فإنه لا يستطيع أن يرى مريداً من مريديه يعارضه في شيء أو يخالفه في منهج. كيف، وهو العظيم الذي لا يُرَدُّ له أمر ولا يُخالَف له نهج؟!

فلو أنَّ أحداً من عامة الناس سَخِرَ به، إذاً لجعله نَكالاً لكل من يعتدي على حرمات نفسه. ولو أنَّ أحداً من مريديه لفت نظره إلى حكم ثابت مقطوع به ومتفق عليه من أحكام الشريعة الإسلامية، إذاً لثارت ثائرته وعدَّ ذلك تطاولاً منه عليه، ولكان لسان حاله - وربما مقاله - يقول: كيف لصعلوك مثلك أن يتطاول على عالمٍ مثلي؟ ما سوء الأدب هذا؟!

يقول هذا الكلام وهو يعلم أنَّ الصواب هو ما يقوله مريدوه، ولكن كيف له أن

---

(١) مر ذكره ص٤٦.

يُعلنَ هذا أمام الناس، ويكبِر شوكةَ نفسه أمام الحقِّ الذي عرفه عقلُه؟! !

لا بد إذن حفاظاً على قُدسيَّة النفس أن يحطِّم قُدسيَّة الدين، ويغيِّر ويحرِّف في أحكام الشرع الحنيف انتصاراً لنفسه. فانظرِ الفرقَ بينه وبين الإمام الشافعي الذي عبث بلحيته اليهودي وسأله: أهذه اللحية خير عند الله أم ذَنَبُ كلبٍ من الكلاب!

وانظر الفرق بينه وبين الإمام أحمد بن حنبل الذي لم ينتصر لنفسه من المأمون والمعتصم، بل انتصر لدين الله، بأن كان أميناً على شرع الله حين سُئل: هل يجوز الخروج على هؤلاء الأئمة؟ فقال: لا يجوز الخروج عليهم!

إنه محور العبودية لله عز وجل، الذي إذا وُجِدَ، وُجِد من ورائه الخيرُ كلُّه، والذي إذا فُقِدَ، فُقِدَ معه الخيرُ كلُّه.

ولو كان هذا الداعي عبداً لله إذاً لانتشلتْه عبوديتُه لله من كلِّ عبوديةٍ لمن سواه، ولَوَضَعَ نفسه - التي يعبدها - تحت قدميه في سبيل مرضاة الله، ولوى عنقَ أهوائه ومصالحه لتتماشى مع شرع الله.

فيا سبحان الله.. يستعظم هذا الداعي من مريده خروجَه عن رأيه، وهو - أي الداعي - بشر يصيب ويخطئ، ولا يستعظم من نفسه خروجَها عن شرع الله وحكمه، وهو الحقُّ المطلق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؟! !

وصدق الله القائل على لسان سيدنا إبراهيم عليه السلام: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٨١].

حقاً إنه بمقدار ما يحيط الداعي إلى الله نفسَه بهالةٍ من التقديس وينتصر لها، بمقدار ما يهتِكُ قدسيَّةَ شرع الله عز وجل ويستهتر به! ! وصلى الله على سيدنا محمد القائل: (ألا يا رُبَّ مُكْرِمٍ لنفسه وهو لها مُهين، ألا يا رُبَّ مُهينٍ لنفسه وهو لها

مكرم)[١]، ولو كان محباً لنفسه حقاً إذاً لجنّبها غضبَ الجبّار ولقال لها: هذا غضبي على مَنْ هتك حرماتِك، فكيف بغضب الجبّار عليّ إن أنا هتكتُ حرماتِه؟! ! أما سمعتِ يا نفسي قولَه ﷺ: (ما مِنْ عبدٍ يسترعيه اللهُ رعيّةً، يموتُ يومَ يموتُ وهو غاشٌّ لرعيّته إلا حرَّم اللهُ عليه الجنّةَ)[٢]؟! !

إنه ليوم آتٍ، وكلُّ ما هو آتٍ قريب ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩].

٣ - خائن لشرع الله: ذلك لأنه إذا لم يتحصّنِ الداعي إلى الله - إضافةً إلى العلم - بحصن الحب لله عز وجل، والذي هو ثمرة التزكية كما علمنا، فما أيسر أن يكون فريسة لأعداء الله من محترفي الغزو الفكري، فهؤلاء دأبهم أن يبعثوا بشبهاتهم المصطنعة إلى الأذهان من بعيد، دون أن يورِّطوا أنفسهم في لقاءات جدلٍ مع علماء المسلمين، ولكنهم إنْ أُلجِئوا إلى المواجهة ولم يستطيعوا العبث بعقولهم، عملوا على شراء نفوسهم. فإن كان الدعاة الذين يواجهونهم محصّنين بحصن الحب إلى جانب التمتّع بالعلم، ذهبت جهودهم كلها سدى، ولم يستطيعوا أن ينالوا من نفوسهم أي منال.

أما إنْ كانوا من الصنف الذي يتاجر بالأقوال ويتباهى بالأفكار، مع انطوائهم على نفوسٍ استعمرها حبُّ الدنيا بكل ما تفور به من شهواتٍ وأهواءٍ وأموال، فما أيسرَ على محترفي الغزو الفكري أن يتصيّدوهم الواحدَ إثر الآخر، يقودونهم إلى حيث يشاؤون من زمام النفس، بعد أن عزّتْ وتأبّتْ عليهم مقادةُ العقل.

---

(١) جاء في مسند أحمد ط. الرسالة (٥/ ١٥٠): هذا الحديث أخرجه ابن سعد في الطبقات (٧/ ٤٢٣)، والقضاعي في مسند الشهاب (١٤٢٣)، والبيهقي في الشعب (١٤٦١)، وقال عنه ابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٢٧٠٣): إسناده ثقات عن ثقات حسن.

(٢) متفق عليه. البخاري (٦٧٣١)، ومسلم (١٤٢)، كلاهما عن الحسن، واللفظ لمسلم.

وما أكثر الذين سيقوا من أزمة نفوسهم إلى ما لا يملكون رجوعاً عنه، وبقيت معارفُهم الدينية وحُجَجُهم الإسلامية حبيسةً في زوايا عقولهم، كما تبقى الأسلحة جاثمةً في أماكنها لتواجه الصدأ، ولتستعصي على الأيدي التي نسيت استعمالها.

لقد أنبأنا الله عز وجل عن قِصَّة ذاك العالم الذي اعتزَّ بعلومه الواسعة الكثيرة، ولكنه نسي أن يحصِّن نفسَه بحصن الوجدان الإيماني المتمثل في محبة الله إذ تهيمن على النفس فتطرد منها محبة الأغيار، وتقطع آمالها عن العاجلة الفانية لتوجهها إلى الآخرة الباقية.. إنه بلعام بن باعوراء، ذاك الذي لم تُفِدْه علومه الكثيرة أمام نفسه المندلقة إلى الدنيا ومفاتنها، فانحطَّ إلى الدون استجابةً لنفسه، وعجز عن أن يرتفع إلى الأعلى استجابة لعقله وعلومه. وفي ذلك يقول تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٥-١٧٦].

إن الآيات التي أوتيها هذا الإنسان، هي العلم بأدقِّ الحقائق الإيمانية الدينية، ولكنه تملَّص منها وانفصل عنها، فلم تَعُدْ منه ولم يَعُدْ منها.. فلماذا فعل بنفسه ذلك؟ ولماذا لم يَقِهِ اللهُ شرَّ نفسه؟

يقول تعالى في الجواب عن ذلك: ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ﴾ أي: لو شئنا لسَمَونا به لأجل علومه الدينية تلك إلى أعلى المراتب، ولكنه لم يستثمر تلك النعمة التي ميَّزه الله بها في تغذية محبة الله والتغلب بها على محبة شهواته وأهوائه، بل استجاب لتلك الشهوات والأهواء، ومال إلى الأرض التي هي أم الشهوات والأهواء والمتاع الدنيوي الفاني، فكان كالذي يأكل ولا يشبع.. تندلق عليه الدنيا من كل الجهات وبكل المشتهيات، ولكنه يظل يتطلع إلى المزيد

﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ ولهث الكلب الدائم أدقُّ تصويرٍ لطمع النَّهِم المتكالب على الدنيا العاشق لمتاعِها دون أن يشعر بالشبع منها.

قال مالك بن دينار: بعث موسى عليه السلام بلعامَ بنَ باعوراء إلى مَلِكِ مدين ليدعوه إلى الإيمان، فأعطاه المَلِكُ من المال ما أسكره، وأقطعه من الأرض ما أبطره، فنسي ما أرسله موسى إليه من أجله، وترك دينه واتبع ما عليه ملك مدين[1][2].

وباختصار: إنَّ العلم وحده لا يكفي ولا بد من السلوك والتطبيق، ولا يكون التطبيق إلا بتربية القلب على محبة الله وتزكية النفس من رعوناتها، فالسلوك يَتْبَع الحبَّ والعاطفةَ دائماً، وعلوم الدنيا كلها لا تفيد صاحبَها شيئاً إن لم يستيقظ معنى الرقابة الإلهية في القلب.. ذلك لأنَّ عقباتٍ كثيرةً متعبةً - ليس من السهل اقتحامُها - تقوم بين الإرادة الإنسانية وتطبيق السلوك الإسلامي، لا يمكن أن ترى شيئاً منها أمام عملية التعلم والإدراك. فما أيسر على العقل أن يعلم الحقَّ، ولكن ما أصعبَ على النفس أن تنقاد لهذا الحق، واضعةً رغباتِها ومصالحَها وشهواتِها وراءها ظِهرياً.

وهذه العقبات في جملتها لا تعدو أن تكون ركوناً إلى زينة الأرض، وفي تفصيلها تتشعب إلى فروع كثيرة، كحبِّ الرياسة والمنصب، والانحياز إلى العُصبة أو العصبية، والرغبة في شهوات البطن والفرج، وحب الشهرة بين الناس، وما يتبع ذلك من عوامل الحسد والحقد والأضغان، وتلك في مجموعها هي مادة الامتحان الإلهي للإنسان في هذه الحياة.

---

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٩/ ٣٨٣) وما بعدها، طبعة مؤسسة الرسالة. وردت فيه هذه القصة.

(٢) الحب في القرآن (ص١٤١-١٤٤).

أما العلم فله ضمن هذه المهيِّجات العاتية والخطيرة أثرٌ واحدٌ لا يتجاوزُه، وهو الدِّلالة المجرّدة، وهيهات أن تتغلب الدلالة وحدها على آفات هذه العوامل الهائجة والعاتية.

وقد علمنا أن ٦٠٪ من دوافع السلوك يتمثل في عوامل نفسية كدوافع العصبية وردود الفعل والانصياع لرغبات النفس، أما العامل العقلي الحر فلا يتجاوز ٣٠ - ٤٠٪. ولا يُستثنى من هذه القاعدة إلا من اقتحم العقبة، وكسر الطوق النفسي الذي يأسر العقلَ والفكرَ ضمن سجنٍ من رغائبها وإيحاءاتها، فانطلق متحرراً من كل سلطان إلا سلطان العقل الكامل المجرد. وهم الذين ربَّاهم الإسلام في ظلٍ من مراقبة الله عز وجل، والاستشعار بأنَّ الله سبحانه وتعالى يُحصي عليهم كلَّ صغيرة وكبيرة، ثم يحاسبهم عليها في يوم آتٍ لا ريب فيه.. وقليل ما هم[1]!

العلم في ذاته أقدسُ حقيقةٍ في الوجود، ولكنه يفقِد قداستَه كلَّها وينقلب وبالاً على صاحبه والآخرين، عندما يُسقى بماء الشهوات والآفات النفسية المختلفة، فيتلوَّن بلونها ويتشبَّع من وحيها.

ومِثْل هؤلاء الناس لا يُغنيهم أيُّ غَناءٍ أن تناقشهم أو تردّهم إلى منطق الحق والعلم، فإن كلاً من الحق والعلم في حياتهم ليس إلا سيفاً مُصْلَتاً بيد شهواتهم وأمانيِّهم النفسية. وما أيسرَ على العالِم - إذا حكَّم هواه فيما يعلم - أنْ يُنطِق علمَه بمكنون هواه، وأنْ يجعل منه أصدقَ شاهدٍ أمينٍ له.

ذلك أن نصوص القواعد والأحكام الشرعية، مثل النصوص القانونية، كلاهما قابل للتحوير والتأويل وإلحاق القيود والشروط المبتدعة به. وكما أنَّ المحامي لا يُعوزه شيء من أن يحوِّر النصوص القانونية ويؤوِّلَها لصالح موكِّله طمعاً في مالٍ يناله

---

(١) الإسلام ملاذ كل المجتمعات الإنسانية (ص٢٥٠-٢٥٢).

منه، فكذلك لا يُعوِز الفقيهَ شيءٌ عن أن يؤوِّل ما شاء من النصوص الشرعية، ويذيِّله بالقيود والشروط الوهمية ابتغاءَ عَرَضٍ من الدنيا قليل. . فما الحل؟

الجواب: ليس من حل لهذه المشكلة إلا أن يوقظ المرء مشاعرَ رقابةِ الله تعالى في قلبه، فإن الإنسان إذا آمن بالله عز وجل، وأيقن بأنَّ الله تعالى رقيب عليه، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وأنَّ كلَّ ذلك يُقيَّد في سجل، ثم يُنشر أمامه يوم القيامة مع صوتٍ يناديه: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيۡكُم بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّا كُنَّا نَسۡتَنسِخُ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٩]. وأنَّ الله محاسِبُه على كل ذلك في محكمةٍ لا نقض فيها ولا استئناف، ولا ينفع معها شاهدُ زور، ولا مَلَكَةُ تحريفٍ ولا تأويل، وأنه سيستقبل من حياته يوماً ثقيلاً، ينسى تحت وطأته طعمَ الشهوات التي أسكرتْه وساعاتِ لذائذه التي أدبر عنها، وأنه مخلَّد بعد ذلك إما في نارٍ أبداً أو في جنةٍ أبداً:

أقول: إذا عاش المؤمن بالله عز وجل عامَّةً، والداعي إلى الله عز وجل خاصَّةً، في دنياه وهو يستشعر هذه الحقيقة ويتمثَّلها، فإنَّ علومَه وأفكارَه كلَّها تتحرَّر من سلطان نفسه، وينطلق العقل صاعداً يبحث عن حقائق الوجود في حريةٍ مطلقةٍ، مجاوِزاً الواحدة إثر الأخرى حتى يقفَ عند حقيقة الحقائق كلِّها وسرِّ الوجود كلِّه.

وليس للنفس من سبيلٍ إذ ذاك، إلا أن تسعى جاهدةً للَّحاق بالعقل في رحلته القدسية هذه، فلأياً بلأيٍ، تتجرد من غوائلها، وترتفع فوق رعوناتها، وتنكسر خاضعةً تحت سلطان العقل وقانونه، وذلك هو مُجْمَلُ وظيفة الإسلام في حياة الإنسان.

وما يمنع المسلمَ - أياً كان - من أن يكون هذا شأنه في الحياة، إلا أنه ينسى أنه مسلم ويستمر ناسياً ذلك، حتى تتخطَّفَه الأهواء وتنسجَ عناكبُ الشهواتِ من حوله خيوطها، فتتمسخ فيه طاقةُ العلم وقدسيةُ العقل، ويتنكَّس وجودُه الذي خُلق متَّجهاً إلى السماء، وإذا هو قد انحطَّ هابطاً إلى الأرض. . ويسير الرجل هكذا منكَّس العقل

والوجود، يفهم الحقائق مُنكَّسةً، ويرى أشياءها معكوسةً، يزهد فيما ينبغي أنْ يحرص عليه، ويتعلّق بما يجب أن يزهد فيه، ويحسب مئة حساب لما يبصره عند أرنبة أنفه، ولا يحسب حساباً واحداً لما هو لاقيه عند وبعد موته.

حتى إذا وافاه الأجل، انقلبت مرآته فجأة، لتبصر الأمور على حقيقتها، ولتريه الدنيا كما هي في ذاتها، وامتلأ سمعه بمعنى قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾ [ق: ٢٢].

وبعد.. فحاشا لأعداء الإسلام أن يصيبوا الإسلام بمكروه، كيف، والله عز وجل هو القائل: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [التوبة: ٣٢-٣٣]، ولكن من عادتهم أنهم يتلمسون بين المسلمين من كانت هذه حاله: مسلم ولكنه نسي إسلامه، يعلم الحق ولكنه لا يبالي أن يدفع علمه في طريق ما تتمناه عليه نفسه... يتلمسون من هؤلاء واحداً إثر الآخر، حتى إذا تهيأ لهم جند من هؤلاء الناس، اتخذوا منهم جسراً إلى كيان الأمة الإسلامية وجوهر هذا الدين الحنيف، ففوقهم يصولون، وعلى ظهورهم يرتعون، وبواسطتهم يفسدون ويدمِّرون.

وتلك قصة رمزية تمثل هذا الذي نقول:

سقطت قطعةُ فأسٍ ذات يوم بين أشجار بستان، فذُعرت الأشجار لهذا العدو المداهم، وداخَلَها الرعب والهلع، ولكنَّ شجرةً كبيرةً قد أتت عليها السِّنون نادت فيهم قائلة: لا يَهولنَّكُمُ الأمر، فلو أن قطعة الحديد هذه ظلت ملقاة فيما بينكم مئة عام لم يكن لها أن تؤذي واحدة منكم، إلا أن يتبرع جذع منكم فيجعل من نفسه مِقبضاً لهذه الفأس[1]!

---

(١) الإسلام ملاذ كل المجتمعات الإنسانية (ص٢٥٣-٢٥٦).

٤ - يقفز فوق المقدمات التي أمره بها الله، ليقحم نفسه في النتائج التي هي من خلق الله.

فنراه يحمِّل نفسَه ما لم يكلِّفْه به الله وما لم يأذن له فيه، جلباً للنتائج وتطلعاً إلى الغايات. وربما قفز في غمار تطلعاته هذه فوق كثير من الأسباب التي ألزمه بها الله عز وجل، مما يدخل في إمكاناته ويخضع لطاقاته، وحصر جهده وشدَّ بصره إلى النتائج التي هي من خلق الله عز وجل، والتي لم يكلِّفْ أحداً من عباده بأن يُحمِّل نفسَه أيَّ رهق في شأنها.

فيا لله من حاله! يُعرِض عن واجب الالتجاء الشديد إلى الله سبحانه وتعالى والإكثار من ذكره في الخلوات والجلوات، والإكثار من مراقبة النفس والسعي إلى تزكيتها بكل الوسائل. كما يُعرِض عن مراقبة بيته والقيام بدقَّةٍ على إصلاح حال الأهل والأولاد، وإشاعةِ ذكر الله وعبادته بين أعضاء الأسرة. يُعرِض عن هذه الواجبات كلِّها، وهي لُبابُ الدعوةِ الإسلامية والعمودُ الفقري فيها، ثم يجلس مع أمثاله يتشاكى في همٍّ منقطع النظير حالَ المسلمين وغِيابَ المجتمع الإسلامي، والسُّبُلَ التي تمكِّنهم من إقامته وتطبيق الحكم الإسلامي!!

وما أكثر الدعاة الذين يتَّخذون من الدعوة إلى الله عز وجل حِرْفةً فقط، والحِرفة إنما تكون خارج الدار لا داخل الدار. يمارسون الدعوة خارج الدار، حتى إذا دخلوا دورهم وأغلقوا عليهم أبوابها، نسوا هذا الواجب، وجلسوا مع أهليهم جِلسة المستمتع بالحياة الدنيا. مثل هذا الداعي لا يؤثر كلامُه في الناس شيئاً، لأنه فَقَدَ سِرَّ الكلام، وسِرُّ الكلام إنما ينبعث من اللوعة والحُرقة وصِدْقِ التعامل مع الله عز وجل. وصِدقُ التعامل مع الله عز وجل إنما يبدأ بالسرائر، يبدأ بحالة الإنسان مع نفسه وأهل بيته.

فيا سبحان الله! يغضُّ الطرف عن الواجبات، ثم يحملق في النتائج والثمرات،

طلباً لها قفزاً فوق تلك الواجبات. . ما أشبه عمله بالفلاح الذي أعرض عن مهمته المتمثلة في إصلاح التربة وحرثها ثم بَذْرِ البذور، وأخذ يتطلَّع إلى الثمار، متى أمتَّع عيني بسحر مرآها، وفمي بلذيذ طعمها؟! ثم إنه نظراً لعدم سلوك الأسباب والوسائل، لم يصل إلى الغايات، ولم تطلع الثمار، فأخذ يبحث عن ثمارٍ ليلصقها على الأغصان إلصاقاً. ولما فعل ذلك وأخذ منه الجهد مأخذه، فوجئ بها بعد فترة قصيرة من الزمن تذبل وتتساقط. فلا عيناً متع، ولا طعماً ذاق ! !

هذا هو شأن الذين يبحثون عن المجتمع الإسلامي بعيداً عن الأسباب الموصلة إليه. أمرهم الله بواجباتٍ وأسبابٍ تتمثل في إصلاح النفس والأهل وإيجاد الأفراد الصالحين، وتكفَّل لهم - إن هم أدّوا ذلك - بالنتائج المتمثلة بإقامة المجتمع الإسلامي السعيد. فتركوا ما أمرهم به الله، وحشروا أنوفهم في النتائج التي تكفَّل بها الله. . تركوا وظيفتَهم ليمارسوا وظيفةَ الله التي ألزم بها ذاته ولا مُلزم له، حتى إذا فشلوا في الوصول إلى المجتمع الإسلامي، أخذوا يلصقون النظام الإسلامي بالمجتمع إلصاقاً، فما كان منه إلا التهاوي والسقوط، لأنه غير موصولٍ بجذور العبودية لله عز وجل والحبِّ له والخوفِ منه سبحانه. أي غير موصول بجذور القلب السليم والنفس المراقبة لله عز وجل.

وماذا تصنع رقابة القانون إن غابت وتلاشت رقابة الله في النفوس؟!

ولعلَّ مردَّ هذه الغفلة التي يقع فيها كثير من المسلمين اليوم، أنهم يحسبون أن طبيعة الدعوة إلى الإسلام كطبيعة الدعوة التي يمارسها أصحاب الأنظمةِ الوضعية والمذاهبِ الأخرى. فأصحاب هذه المذاهب لا يعتمدون إلا على أنفسهم في تطبيقها وإشاعتها في المجتمع، لأنها مذاهب وضعية، هم الذين ابتدعوها، وهم المسؤولون عن كل ما يتعلق بأمرها ورعايتها وتطبيقها وصبغ المجتمعات بها. فينجرف كثير من المسلمين الذين يمارسون الدعوة إلى الإسلام إلى السبيل ذاته، ويسعون بالطرق

والأساليب ذاتها، كما لو كان الإسلامُ مذهبَهم الذي ابتدعوه لأنفسهم في مقابل ما ابتدع الآخرون لأنفسهم من الأنظمة والمذاهب الأخرى. فتراهم يتنافسون ويتصارعون معاً على طريق واحدة من الأسلوب ومعالجة الأمور !

وينسون أنهم ليسوا في الحقيقة إلا موظفين لله جل جلاله للقيام بمهام معينة تدخل في حدود طاقاتهم، مقابل ما يحققه هو لهم من المجتمع الإسلامي المنشود، فهو جل جلاله القائل: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا . . .﴾ [النور: ٥٥]، فالاستخلاف في الأرض والتمكين والأمن، كل ذلك ثواب عاجل من الله عز وجل، ألزم به نفسه لمن آمن وعمل صالحاً.

وإنك لتراهم - في غمار هذا التقليد والنسيان لهوياتهم ووظائفهم- لا يهتمون من الإسلام إلا بالواجهة الاجتماعية التنظيمية له ليقارعوا بها الأنظمة الأخرى !

وعندئذٍ يسقط الفرق بينهم وبين أولئك الآخرين في ميزان الله وحكمه، إذ لا قيمة لشيء من الأحكام والأنظمة الإسلامية إلا من حيث هي دين، يخضع الإنسان من خلاله لسلطان الله وألوهيته، فهي أحكام وأنظمة مرتبطة بجذورها من العبودية لله عز وجل، فإذا أُهملت هذه الجذور وأُغفل هذا الأساس الديني منها، فما أكثر ما تتفق الفروع السطحية مع كثير من المذاهب والآراء[١] .

وهذا هو السر في أن هؤلاء الناس لا يفهمون من كلمة (الحكم بما أنزل الله) في نطاق الدعوة الإسلامية، إلا ما يبرز منه في واجهة المجتمع، ويتكون منه النظام

(١) ارجع إلى الفرق بين الطاعة الحقيقية والشكلية، انظر كيف يتشابه الجذعان في المظهر ويختلفان في الجذور والثمرات ص١٤٧.

العام. فأما الحكم بما أنزل الله في معاملة الإنسان مع نفسه وأهل بيته وأسرته وأولاده وأصدقائه وسائر الناس، فما أكثر ما يغفُلون عنه، بل ربما يُعرِضون عنه إعراضاً تاماً[1] !

هذا الذي قلناه يسوقنا إلى فتح الملفَّات التالية والمتمثلة في سبعة مطالب:

المطلب الأول: ما معنى الحكم بغير ما أنزل الله؟

إنه يعني إبرامَ الأمر وتقريره على خلاف شرع الله، سواء تمَّ هذا الإبرام من الإنسان في حقِّ نفسه، أو في حقِّ أهله وأولاده، أو في حقِّ أصدقائه وأصحابه، أو في حقِّ أمته ومجتمعه. فالذي يقضي بخروج زوجته أو ابنته البالغة سافرةً غير محتشمة بستر الإسلام يحكم بغير ما أنزل الله !

والذي يقضي بإقامة منكر من المنكرات في داره، كالسَّهرات التلفزيونية على أفلام فيها مناظر محرمة، أو اللعب بمحرم كالنرد وما شابه، يحكم بغير ما أنزل الله !

وأعضاء مشروع تجاري عندما يقررون التعامل بالربا لمشروعهم، يحكمون بغير ما أنزل الله !

والحاكم الذي يبرم في رعيته بغير ما أمر الله، يحكم بغير ما أنزل الله !

كل هؤلاء الناس وأمثالهم - وهم منَ الكثرة بمكان - يحكمون بغير ما أنزل الله، ولا موجب أبداً للتفريق بين البعض والآخر. فهل يدخل هؤلاء الناس جميعاً بموجب تصرفاتهم هذه في دائرة الردة والكفر، ويخرجون من ربقة الإسلام؟

لنبدأ أولاً بمعرفة التصرفات المكفِّرة من خلال القاعدة التي أجمع عليها سلف الأمة وجميع أئمة المسلمين، ما عدا الخوارج الذين تم الإجماع على تلبسهم

---

(١) هكذا فلتدع إلى الإسلام (ص ٤٨-٥٢).

بالشذوذ والخروج على ما تقتضيه نصوص الكتاب والسنة[1].. إذن:

المطلب الثاني: ما هي موجبات الكفر وفق القاعدة المجمع عليها؟

إن التصرفات المكفِّرة - على تنوعها وكثرتها - لا تخرج عن الأنواع الثلاثة الآتية:

النوع الأول: الاعتقادات، وتتمثل في أن ينكر الإنسان شيئاً من أركان الإسلام أو الإيمان، أو يحلِّل حراماً أو يحرِّم حلالاً مما هو معروف من الدين بالبداهة والضرورة، أي لا يُحتاج لمعرفته إلى دراسةٍ خاصة. فالذي ينكر وحدانية الله أو البعث أو النشور أو الجنة أو النار أو وجوبَ الصلاة أو الصيام أو الزكاة أو الحج، أو ينكر حُرمةَ الربا مطلقاً أو حرمة الخمر أو حرمة الزنا أو حرمة قتل النفس بغير حق؛ فقد كفر وارتد باتفاق.

أما إنْ كان الحكم الفقهي محلَّ خلافٍ ونظرٍ بين الفقهاء، فإنكاره لا يكفِّر ولكن يُفسِّق.

النوع الثاني: الأفعال، وضابط الأفعال المكفِّرة أن تكون ذاتَ دِلالة على شيء يتناقض مع ركن من أركان الإيمان، كالسجود لصنم، ومدلوله الاعتقاد بألوهية ذلك الصنم، وكوضع الصليب في العنق أو تقبيله، ومدلوله الاعتقاد بصلب سيدنا عيسى عليه السلام، وكالتزيي بالأزياء التي تخص رجال الأديان الأخرى التي لها دلالة دينية.. فإنَّ هذه الأفعال لها دلالة واضحة لا تقلُّ عن دِلالة النطق، فهي أفعال مكفِّرة بمجرد فعل الإنسان لها بمحض إرادته واختياره، سواء كانت مدلولاتُها قائمةً في ذهنه أم لا.

---

(١) هكذا فلندع إلى الإسلام (ص ٧٨-٧٩).

النوع الثالث: السخرية من شيء معروف من الدين بالضرورة، كأن يسخر من الصلاة أو الحج أو الجنة أو النار أو يزدري القرآن أو يسخر بأحد من الرسل والأنبياء أو الفقه الإسلامي عموماً، أو يمتهن شيئاً من الشعائر البارزة للإسلام كالأذان والمساجد والأذكار... إلخ.

هذه السخرية تكفِّر صاحبها ولو لم يكن لها قرار عقلي عند صاحبها.

فإذا لم يتلبس الإنسان بشيء من هذه الأنواع الثلاثة من التصرفات، فهو مسلم لا يجوز تكفيره. وكذلك إذا كنا في شك من وقوعه في واحد من هذه الأشياء المكفرة، فإنَّ الأصل براءتُه منه، ولا يجوز الحكم بردَّته وخروجه عن الإسلام إلا استناداً إلى دليل يقيني على ذلك[١].

المطلب الثالث: فهل الذي يحكم بغير ما أنزل الله - بموجب هذه القاعدة - يعد كافراً؟

الجواب: إنَّ التصرفاتِ التي ضربناها أمثلةً للحكم بغير ما أنزل الله، هي بحدِّ ذاتها ليست داخلةً في أي نوعٍ من أنواع المكفِّرات الثلاث. فهي لا تدخل في الاعتقادات، كما لا تدخل في الأفعال المكفرة المناقضة لركنٍ من أركان الدين، وأيضاً لا تدخل في السخرية بالمبادئ والأحكام التي يَكْفُرِ الإنسان بإنكارها.

إذن ننظر: فإن اقترن بحكم هؤلاء الناس بغير ما أنزل الله، برهان قطعي على الإنكار والجحود الاعتقادي، أو على السخرية والازدراء، وكان الحكم متعلِّقاً بواحدٍ من أركان الإسلام الخمسة، أو بما هو مجمع عليه ومعروف من الدين بالبداهة والضرورة؛ فإنَّ ذلك يكون مكفِّراً، ويكفر صاحبُ هذا الفعل أيا كان، سواء كان

---

(١) هكذا فلندع إلى الإسلام (ص ٧٦-٧٨)، إضافة إلى شرح رياض الصالحين الدرس (٢٧٠).

عاصياً في حق نفسه، أو والداً في أهله، او عضواً في جمعيته، أو حاكماً في دولته، دون أي تفريق.

أما إذا لم تقترن تصرفاتهم ببراهين قاطعةٍ على الجحود أو الاستهزاء والسخرية، أو كان الأمر متعلّقاً بحكمٍ غير معروفٍ من الدين بالضرورة، بأن كان قابلاً للاجتهاد، أو خفياً لا يعلمه إلا أصحاب الدراية والاختصاص؛ فإنَّ مجرد تصرفاتهم هذه وحكمهم بغير ما أنزل الله، لا يخوّلنا أن نحكم عليهم بأكثر من العصيان والفسوق. إذ يُحتمل أن يكونوا مدفوعين إليها بدافع من التهاون أو الكسل أو الانسياق وراء الأهواء والأماني النفسية، لا بدافع من الجحود والإنكار. والقاعدة الشرعية المتَّفق عليها تقول: (الدليل إذا تطرَّق إليه الاحتمال سقط به الاستدلال)[(١)] فلم يَجُزِ الحكم بالتكفير إطلاقاً، سواء كانوا حكاماً أو محكومين[(٢)].

مثال: لا يجوز أن نحكم بالكفر على الرجل الذي يمنع ابنته من الحجاب ويأمرها بالخروج بغير اللباس الإسلامي المحتشم، إلا إذا استعلن وقال: أنا أرفض الحجاب ولا أوقن به، أو قال: لا آخذ بالقرآن. عندها يحكم القاضي بكفره، ويستتيبه، ويذكّره بالهداية والعودة إلى دين الله، والاستغفار والتشهد بشهادة الإسلام، والإذعان بأن القرآن هو كلام الله سبحانه وتعالى.

ولكن إذا سألناه عن السبب فقال: أنا أؤمن بأن الحجاب فرضٌ فرضه الله عز وجل، ولكنه الضعف والخوف على ذهاب مصلحةٍ دنيويةٍ من زواجٍ أو وظيفةٍ وغيرهما، أو سألناه فلم يقل شيئاً؛ فلا يجوز تكفيره إطلاقاً، لأننا لا نعلم سبب هذه المعصية وخلفيَّتها، أهو العجز والضعف، أم هو شهوة من شهوات النفس، أم

---

(١) قواطع الأدلة في الأصول للمروزي (١/ ٦٧)، والفروق للقرافي (٢/ ١٠٠-١٠٣).

(٢) هكذا فلندع إلى الإسلام (ص٧٩-٨٠).

الخوف على ذهاب مصلحة دنيوية، أم هو الجحود والإنكار وعدم الإيمان بأن القرآن كلام الله!

لا يجوز إطلاقاً أن تحكم من عندك على سبب هذه المعصية، ولا يجوز إطلاقاً أن تقتحم سريرة أحد إلا ناصحاً. أما أن تحكم عليه حكم إله يرى القلوب فهذا لا يجوز إطلاقاً[(١)].

مثال آخر: الرجل الذي يأكل الربا مستحلاً إياه، كأن يقول: الربا ليس حراماً بل هو ضرورة من الضروريات، إذا قال هذا الكلام فقد كفر. أما إذا كان يحكم فعلاً بغير ما أنزل الله وهو صامت، فالقاعدة الشرعية تقول: (الساكت لا يُنسب إليه قول)[(٢)]، وعليه فيحرم تكفيره.

ثم إن القاعدة الشرعية تقول: (نحكم بالظاهر، والله يتولى السرائر)[(٣)]، وهذه القاعدة محل اتفاق عند العلماء جميعاً في كل أحكام الشريعة الإسلامية، وهي مأخوذة من كلام الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا تَبۡتَغُونَ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ [النساء: ٩٤]، أي لا تتركوا الظاهر الذي ترونه أمامكم، وتقتحموا الباطن والسرائر، فإنَّ هذا الباطن شأنه إلى الله عز وجل الذي يعلم السرَّ وأخفى. والظاهر الذي تراه من خلال هذه المعصية - وهي الحكم بغير ما أنزل الله- يخوِّلك أن تحكم بفسقه وعصيانه أمرَ ربِّه في شأن الحجاب والربا، ولا يخوِّلك أن تحكم بكفره أبداً.

---

(١) شرح رياض الصالحين الدرس (٤٥٥).

(٢) الإبهاج في شرح المنهاج لتقي الدين السبكي (٢/ ٣٨٠).

(٣) فتح الباري في شرح صحيح البخاري (١٢/ ٢٧٩) قال فيه ابن حجر العسقلاني: (كلهم أجمعوا على أن أحكام الدنيا على الظاهر، والله يتولى السرائر، قال ﷺ لخالد: إني لم أؤمر أن أنقب عن قلوب الناس) رواه البخاري (٤٠٩٤)، ومسلم (١٠٦٤)، وانظر شرح النووي على مسلم (٢/ ٢٧٨).

وأما الأحاديث الصحيحة التي تدعم القاعدة الشرعية (لنا الظاهر والله يتولى السرائر)، فهي كثيرة، وسنذكر منها حديثين صحيحين:

أولهما: روى الشيخان عن المقداد بن الأسود ﷺ قال: قلت لرسول الله ﷺ: أرأيتَ إن لقيتُ رجلاً من الكفار فاقتتلنا، فضرب إحدى يديَّ بالسيف فقطعها ثم لاذَ مني بشجرة فقال: أسلمتُ لله، أأقتله يا رسول الله بعد أن قالها؟ فقال ﷺ: (لا تقتلْه)، فقلتُ يا رسول الله: قطع إحدى يديَّ ثم قال ذلك بعدما قطعها؟ فقال: (لا تقتلْه فإنْ قتلتَه فإنه بمنزلتك قبل أن تقتلَه، وإنك بمنزلته قبل أن يقول كلمتَه التي قال)[1].

فالمقداد بن الأسود يسأل رسولَ الله ﷺ عن مسألةٍ يفترضها افتراضاً وهي لم تقع فيقول: (أرأيتَ) أي افترضْ أني لقيتُ رجلاً من الكفار فاقتتلنا فضرب إحدى يديَّ بالسيف فقطعها، فلما رأى الغضب في مظهري ورأى أنه مقتول لا محالة فرَّ مني ولاذ بشجرة وقال: أسلمتُ لله.. الصورة التي تخطر ببال أي إنسان أن هذه الحالة تدل دلالة واضحة على أن هذا الإنسان قال هذه الكلمة خوفاً من القتل، وإننا لنكاد نجزم بأن قوله: (أسلمتُ لله) كلام كاذب، وأنَّ باطنه على خلاف ذلك!

أجابه ﷺ بقوله: (لا تقتلْه)، أي لا تستطيع أن تخترق ظاهره إلى سريرته، بل يجب أن تحكم عليه بما يتجلى من ظاهره. ونظراً إلى أنَّ ظاهره يدلُّ على أنه قد تحصَّن بحصن الإسلام، إذاً فما ينبغي أن تقتله ولو كان قد قطع يدك. لأنه عندما قطع يدك كان محارِباً، فلما دخل الإسلامَ أسقط الإسلامُ مسؤوليتَه بقطع يدك.

وكأن المقداد ﷺ أراد أن يستوثق من هذا الكلام فقال: (يا رسول الله قطع إحدى يدي، ثم قال ذلك بعد أن قطعها)، أي لا حظ الاحتمال الكبير الذي يدلُّ على أنه قال هذه الكلمة خوفاً من السلاح! فأكَّد له رسول الله ﷺ الجوابَ كما أكد

---

(١) رواه البخاري (٣٧٩٤)، ومسلم (٩٥) كلاهما عن المقداد بن عمرو، واللفظ للبخاري.

المقدادُ السؤالَ وقال له: (لا تقتلْه)، فإنْ قتلته على الرغم مما أقول، فإنه بمنزلتك قبل أن تقتله، أي يموت مسلماً تماماً كحالك قبل أن تقتله، وأنت تكون بمنزلته قبل أن يقول كلمته التي قال، أي تصبح كافراً.

إذن. لا يجوز لنا - في أحكام الشريعة الإسلامية - أن نحكم لأحدٍ أو عليه إلا بموجب ما قد تجلى من ظاهره. ومهما كانت قرائن الأحوال والظروف المحيطة تشككنا بهذا الظاهر، يظل الظاهر هو الأساس وهو الميزان المحكَّم بشرع الله، ولا قيمة لهذه الظروف المشكِّكة والباعثة على الريبة أبداً، فهو حكم واضح لا خلاف فيه في الشريعة الإسلامية إطلاقاً.

وعندما نرجع إلى سيرة المصطفى ﷺ مع أصحابه، نلاحظ تماماً تطبيقه لهذا القانون. وعلى الرغم من أنه ﷺ يختلف عنا، لأن الله عز وجل قد يُطلعه على بواطن الناس، فتكون بواطنهم كظواهرهم بالنسبة له، ومع هذا فإنَّ الله عز وجل لم يعطِ رسولَه ﷺ صلاحية النظر في البواطن أبداً.

فقد كان ﷺ يعامل المنافقين الذين يعلم أنهم منافقون، على أساس الظاهر، أي يعاملهم على أنهم مسلمون، فيعطيهم حقوق الإسلام ويكرمهم كما يكرم كلَّ مسلم.

ها هو عبد الله بن أبي بن سلول - رئيس المنافقين - عندما مرض المرض الذي مات فيه، كان ﷺ يعودُه المرة تلو المرة وكان ينصحه. وفي آخر مرة عادَه فيها قال له عبد الله بن أبي بن سلول: ليس هذا وقت النصيحة، إنه الموت، ولكن أعطني قميصك هذا الذي عليك لكي أوصي بأن أُكفَّن به. وكان عليه ﷺ قميصان، فأراد أن يخلع قميصه الأعلى، فقال: لا بل أعطني القميص الذي على جسدك، فخلعه ﷺ وأعطاه إياه وكُفِّن به[1].

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي (٥/ ٢٨٥) وقال: رواه الواقدي (٣/ ١٠٥٧).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول: لما تُوفِّي عبد الله بن أبي دُعي رسول الله ﷺ للصلاة عليه، فقام إليه، فلما وقف عليه يريد الصلاة، تحوَّلتُ حتى قمتُ في صدره فقلت: يا رسول الله، أَعَلَى عدوِّ الله عبد الله بن أبي القائل يوم كذا وكذا، كذا وكذا، يعدُّ أيامَه. قال: ورسول الله ﷺ يتبسَّم حتى إذا أكثرتُ عليه قال: أخِّر عني يا عمر، إني خُيِّرتُ فاخترتُ، قد قيل لي: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٨٠]،لو أعلم أني لو زدت على السبعين غُفر له لزدتُ. ثم صلى عليه ومشى معه فقام على قبره حتى فُرغ منه[١]...

هذا الموقف من رسول الله ﷺ عبارة عن شرع، ولكنَّ هذا الشرع تُوِّج بخُلُقٍ باسق عظيم[٢].

ثانيهما: يروي مسلم عن جندب بنِ عبد الله أنَّ رسول الله ﷺ بعث بعثاً من المسلمين - أي بعث جيشاً من المسلمين - إلى قوم من المشركين، فكان رجل من المشركين إذا شاء أن يقصد إلى رجل من المسلمين قَصَدَ له فقتله. وأن رجلاً من المسلمين قَصَدَ غفلتَه - وكنا نتحدث أنه أسامة بن زيد - فلما رفع عليه السيف قال: (لا إله إلا الله) فقتله، فجاء البشير إلى رسول الله ﷺ فسأله وأخبره، حتى أخبره خبر الرجل كيف صنع، فدعاه فسأله فقال: لِمَ قتلتَه؟ فقال: يا رسول الله أوجع في المسلمين وقتل فلاناً وفلاناً - وسمى له نفراً - وإني حملتُ عليه فلما رأى السيف- أي مُصلتاً - قال: (لا إله إلا الله). قال رسول الله ﷺ: (أقتلته)؟ قال: نعم، قال: (فكيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة)؟ قال: يا رسول الله استغفر لي،

---

(١) سنن الترمذي (٣٠٩٧)، وجاء في صحيح البخاري (١٢١٠)، وصحيح مسلم (٢٤٠٠) بألفاظ متقاربة، كلاهما عن ابن عمر.

(٢) شرح رياض الصالحين الدرس (٤٥٤).

قال: (وكيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة)؟ فجعل لا يزيد على أن يقول: (كيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة)[١].

إن أقرب ظرف من الظروف يعطينا - فيما نتصور - المبرر لقتله وعدم الاعتراف بشهادته هو هذا الظرف الذي صوَّره لنا الراوي. فهل تستطيع أن تجد تُهمةً تحيط بإنسانٍ وتكاد تعلن أنَّ لسانه الذي يقول: (لا إله إلا الله) لسان كاذب، أقوى من هذه التهمة التي يصورها لنا جندب بنُ عبد الله في هذه الحادثة؟!

هذا إنسان يترصد بالمسلمين، وأُتيح له أن يقتُل واحداً إثر واحدٍ إثر واحد، وكأنه يقتنصهم قنصاً، حتى إذا وجد أنه أُحيط به وأصبح تحت ضربة سيفٍ لا منجاة له منها قال: (أشهد أن لا إله إلا الله).

كلنا نكاد نجزم أن هذه اللحظة لم تنقله من أقصى أودية الكفر والعداوة والبغضاء للإسلام والمسلمين، إلى درجة الإيمان الصادق بالله عز وجل. فهو إلى ما قبيل هذه اللحظة كان يقتل المسلمين، فأيُّ إسلام هذا الذي طرد ظلام الكفر في لحظةٍ واحدةٍ ليستقر مكانه؟! ومع ذلك.. فالقضاء الإسلامي يحرِّم قتلَه، ويأمرك ألا تتجاوز ظواهر ما يتبدَّى لك من الناس من كفر أو إيمان، إلى بواطنهم وسرائرهم[٢].

المطلب الرابع: ما الحكمة من القاعدة الفقهية (نحكم بالظاهر والله يتولى السرائر)؟

ما الحكمة منها والرسول ﷺ يستطيع - في كثير من الأحيان - أن يصل إلى البواطن، وفي الناس من أوتي حظاً من الفراسة؟.. فلماذا لم يعطنا الله عز وجل الصلاحية في أن نحكم على الناس ببواطنهم؟

---

(١) صحيح مسلم (٩٧) عن صفوان بن محرز أنه حدث عن جندب بن عبد الله البجلي.

(٢) شرح رياض الصالحين الدرس (٤٥٧).

الجواب: لو أن الله عز وجل أعطى الإنسان هذه الصلاحية، إذاً لوجدنا كثيراً من الناس يُعمِلون أحقادَهم ورعوناتِهم وكيدَهم في حق أناسٍ أبرياء بموجب هذه الصلاحية، فموضوع الفراسة ليس له مقياس ولا دليل. وبالتالي فالقاضي الذي يتفرَّس في حال المتَّهم وفي عيونه وتصرفاته، إذا جاءه مَنْ بينه وبينه خصومة أو عداوة وبغضاء، فإنه سرعان ما يستعمل هذه الصلاحية ويقضي عليه بعقاب صارم. وهذا هو حكم الهوى الذي حذَّرنا الله عز وجل منه بقوله: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾ [ص: ٢٦].

ثم إن هذا التصرف يتناقض مع قاعدة فقهية أخرى من قواعد الفقه الإسلامي، وهي: (لَأَنْ يخطئ الحاكم في العفو خير من أن يخطئ في العقوبة)[١]، أي إذا قام أمام الحاكم احتمالان، احتمال أن يكون فلان من الناس بريئاً من التهمة، واحتمال آخر هو أن يكون متلبساً بهذه التهمة، ولم يستطع هذا الحاكم أن يصل إلى يقين في ذلك؛ فالشارع جل جلاله يقول له: اجنح إلى الاحتمال الذي يجعله بريئاً، ولنفرض أنك أخطأت، فالخطأ في العفو خير من الخطأ في العقوبة.

---

(١) الأشباه والنظائر للسيوطي (١/ ١٢٢)، القاعدة السادسة: الحدود تسقط بالشبهات، وقال السيوطي: أخرج الترمذي والحاكم والبيهقي وغيرهم من حديث عائشة رضي الله عنها أنه صلى الله عليه سلم قال: (ادرؤوا الحدود عن المسلمين ما استطعتم، فإن وجدتم للمسلم مخرجاً فخلوا سبيله، فإن الإمام لأن يخطئ في العفو خير من أن يخطئ في العقوبة) وفي سنده ضعف. وقال الترمذي في سننه (١٤٢٤): هذا الحديث روي مرفوعاً وموقوفاً، والموقوف أصح، وروي موقوفاً عن غير واحد من أصحاب النبي ﷺ، وأصح الموقوف حديث سفيان الثوري عن عبد الله بن مسعود موقوفاً (ادرؤوا الحدود بالشبهات، ادفعوا القتل عن المسلمين ما استطعتم) انتهى. وقال مسدد في سنده عن ابن مسعود أنه قال: (ادرؤوا الحدود بالشبهة) وهو موقوف حسن الإسناد، وروي موقوفاً عن عمر رضي الله عنه وصحح إسناده الحافظ في (التلخيص)، وجاء في المستدرك على الصحيحين للحاكم (٨٣٥٠): (ادرؤوا الحدود ما استطعتم) مرفوعاً وتعقبه الذهبي.

لأجل هذه الأسباب أغلق الله سبحانه وتعالى هذا الباب حتى على الرسل والأنبياء، ولم يمكّنهم من أن يعاملوا الناس إلا بناءً على الظاهر، دون أن يقتحموا ما وراء ذلك إلى السرائر. سواء على مستوى القادة أو القضاة أو الدعاة إلى الله عز وجل. وهذا الحكم لا خلاف فيه عند كل الأئمة والعلماء، سوى الخوارج الذين خرجوا على سيدنا علي ﷺ، ولا نقيم لآرائهم وزناً، فهم بإجماع الأمة وبإجماع المِلَّة شذُّوا عن الإسلام.

مثال: إذا وجدنا إنساناً يسكن داراً، وليس هنالك دلائل شرعية صريحة على أنه اغتصبها من فلان، فالظاهر يقتضي أن نقول: إنَّ المِلْك لصاحب اليد، أي للإنسان المقيم في هذه الدار. ولا يجوز لنا أن نقول: لعل الرجل اغتصبها، إذاً لتجاوزنا الظاهر وحكمنا عليه بالباطن، وهذا لا يجوز بشكل من الأشكال.

ولو أنَّ مدَّعياً ادعى فقال: إنَّ هذا الإنسان الذي يسكن هذه الدار اغتصبها مني. فإنا لا نقبل دعواه، لأنَّ دعواه تتناقض مع الظاهر، والظاهر هو أن صاحبَ اليد هو المالك، إلا إذا أتى المدعي بظاهرٍ مناقضٍ يعزِّز دعواه وكلامه. كأن يأتينا بوثيقةٍ تُثبت تملُّكه لهذه الدار، فعندئذٍ يترجَّح هذا الظاهر ونحكم بموجبه.

إذن.. فالحكم ينبغي أن يكون سائراً وراء الظاهر، ولو كانت الظنون الأخرى قوية، حتى يُنْسَخ هذا الظاهر بظاهرٍ مكافئٍ له، عندئذٍ نأخذ بهذا الظاهر الأخير الذي نسخ الظاهرَ الأول. ولا يجوز لنا أن نتَّبع الظنون مهما كانت راجحة، ومهما كانت نفوسنا تركن إليها، لأن الظاهر يظل هو الأقوى.

مثال آخر: إذا رأينا إنساناً يتشهَّد بشهادة الإسلام، فالظاهر الذي ينبغي أن نخضع له هو الحكم بأنه مسلم. ولا يجوز أن نفترض أمراً مخالفاً لذلك، كأن نقول: لعل الرجل يكذب في شهادته، لعل باطنه ملحد. لا يجوز هذا بدلالة الأحاديث التي ذكرناها.

ولكن إذا رأينا بينةً ظاهرةً تتناقض مع ظاهر شهادته، فعندئذٍ نطبّق أيضاً الظاهر.. صحيح أنه تشهد بشهادة الإسلام، لكنه استهزأ بالقرآن، أو قال: إن الربا ليس محرماً، أو قال: الفواحش ليست محرمة، أو استهزأ بحدٍّ متّفقٍ عليه من حدود الله عز وجل علانية وصراحة، أو أنكر أمراً بدهياً من أمور الدين؛ فعندئذٍ نحكم عليه بالكفر، وننطلق إلى هذا الحكم من الظاهر لا من الباطن.

على المسلم أن يتّبع هذه القاعدة، فهي تُريحه في اتباع الشرع دائماً، ولا تدخله في متاهات الظنون والتخرصات.. الزم الظاهر واحكم بموجبه، سواء كان الحكم بموجب الظاهر حكماً لإنسان بالإيمان أو حكماً عليه بالكفر. اتبع الظاهر ولا تقفز فوق الظاهر إلى الباطن قط وانتهى الأمر[1].

هنالك من يقول: ولكننا نغار على دين الله عز وجل، والمجتمع مليء بالمنافقين، وهذه القاعدة قد تسبّب ثغراتٍ خطيرةً في المجتمع، فإذا عاملنا الناس بموجبها فما أكثر مَنْ يتقنّع بها، وهو منافق زِنديق يفعل ما يشاء ثم يصفّدنا من هذه القاعدة بأغلال!!

الجواب: صحيح أنَّ هنالك أحكاماً لا تُطبّق إلا بموجَب بيناتٍ ظاهرة لا علاقة لها بالباطن وبقرائن الأحوال أبداً، سواء من حيث الإيمانُ أو الكفر؛ ولكن هنالك أحكام أخرى تدخل في عقوبات الحدود والتعزير.

فافرض أن هذا الإنسان منافق - وقد مُنِعنا أن نحكم عليه بالكفر بناء على ظننا أو قناعتنا بأنه تهرَّب من القتل بأنْ تظاهر بالإسلام - فليس معنى ذلك أن نغفل عنه، بل نراقبه، فإذا امتدت منه يد بأذىً إلى الإسلام والمسلمين نَبْطِش به، لا من حيث إنه كفر، بل من حيث إنه ارتكب ما يوجب عقاباً.. ففي الحدود نقيم عليه الحدَّ، والذي

(١) شرح رياض الصالحين الدرس (٤٥٤ - ٤٥٥).

يقيمه هو الحاكم. وفيما هو خارج عن الحدود نعاقبه العقاب التعزيري، والعقاب التعزيري عقاب يقدِّره الحاكم المسلم كما يشاء، شريطة ألا يصل إلى أدنى حدٍ من حدود الشريعة الإسلامية، فهذه الثغرات التي نتصورها غير واردة قط.

لقد كان الرسول ﷺ يعامل مَنْ يعلم أنهم منافقون، يعاملهم معاملةَ المسلمين. إلا أنه كان يراقبهم، فإذا فعلوا شيئاً يسيء إلى المسلمين لاحَقَهم بالعقاب طِبقاً لقاعدة (نحكم بالظاهر)، ولكن يعاقبهم لا بوصف كونهم منافقين، وإنما بوصف كونهم عملوا عملاً يستوجب العقاب، كما فعل بمسجد الضرار، فقد حرّقه وخرّبه، لأنه بُنِيَ من أجل التربُّص بالإسلام والإضرار بالمسلمين.

فهنالك عقوبات كثيرة تجري على الإنسان الذي نضعه في مصافّ المسلمين، بل هنالك عقوبات لا تنزل إلا بالمسلم. فعندما نعامله معاملة المسلمين نُنزِل به العقاب الذي يخصُّ المسلمين، أما سرائرهم فنتركها إلى محكمة الله عز وجل التي ستُعقد يوم القيامة، ولن يُفلت منها إنسان. والحاكم الذي يقضي بينهم آنذاك ليس هو الإنسان المماثل لهم، وإنما هو من يعلم السر وأخفى[1].

المطلب الخامس: فإن قال قائل: ألم يقل الله: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾؟ [المائدة: ٤٤].

الجواب: الأحاديث الصحيحة التي ذكرناها كلها تدلُّ دِلالة قاطعة واضحة صريحة في أنَّ معاملة الإنسان لأخيه الإنسان إنما يجب أن تكون وفق قاعدة (لنا الظاهر، والله يتولى السرائر)، أي يتعامل معه بموجب الكلام الذي يقوله والفعل الذي يصدر عنه، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

---

(١) شرح رياض الصالحين الدرس (٤٥٧).

ولقد طبق الصحابة الكرام رضوان الله عليهم هذه الوصية النبوية خيرَ تطبيق، فقد روى البخاري عن عبد الله بن عتبة بن مسعود ﷺ قال: سمعتُ عمرَ بن الخطاب ﷺ يقول: (إنَّ أناساً كانوا يؤخذون بالوحي في عهد رسول الله ﷺ، وإنَّ الوحي قد انقطع، وإنما نأخذكم الآن بما ظهر لنا من أعمالكم. فمن أظهر لنا خيراً أمِنَّاه وقرَّبناه وليس إلينا من سريرته شيء، الله يحاسبه في سريرته. ومن أظهر لنا سوءاً لم نأمنه ولم نصدِّقه وإن قال إنَّ سريرته حسنة)(١).

هذا المبدأ إنما يطوف أول ما يطوف حول شيء أساسي كبير هو: (الإيمان والكفر)، ثم يُطبَّق أيضاً في الأمور الأخرى الفرعية المختلفة. وهو حكم شرعي لا خِلاف فيه بين العلماء قط، بل هو محلُّ اتفاق. وكلُّ تجاوزٍ عن هذا الحكم فأساسه حظٌّ من حظوظ النفس وهوىً من أهوائها. لكنَّ الإنسانَ صاحبَ الحظ والهوى لا يعترف بذلك، ولا يفضح نفسَه بهذا الكلام، وإنما يغطي هوى نفسه بكلام شرعي. ومن جملة الأغطية المستعملة والتي اهترأت من كثرة الاستعمال، مسألة أنَّ مَنْ لم يحكم بما أنزل الله فقد كفر، بدليل قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

هذه الشبهة لا تزال تتكرر على مسامعنا منذ عقود، والذي يجعلها تتكرر هو هوى النفس، وإلا فمن السهل على الإنسان عندما يقرأ هذه الآية أن يعود إلى تفسيرها فيجد الجواب فإذا هو مخطئ.

لقد كان الصحابة عَرباً أقحاحاً لم تَشُبْ عروبتَهم أيُّ عُجمةٍ، ومع ذلك فقد كان أحدهم يقول: (أيُّ سماءٍ تظلُّني وأيُّ أرضٍ تقلُّني إنْ قلتُ في كتاب الله ما لا أعلم). أما نحن الذين خالطتْ العجمةُ ألسنتَنا وابتعدنا عن لغتنا وعن سنَّة نبينا ﷺ، فعندما يقرأ أحدنا آيةً في كتاب الله سُرعان ما يقول: قناعتي في تفسيرها كذا وكذا.. إنها

(١) رواه البخاري (٢٤٩٨) عن عبد الله بن عتبة عن عمر بن الخطاب موقوفاً.

مأساةُ الاعتماد على الهوى والتلاعب بتفسير القرآن بواسطة ذلك الهوى.

إذا عدنا إلى تفسير ابن كثير والقرطبي وغيرها من التفاسير، وجدنا فيها أنه روي عن ابن عباس - الذي أجمع السلف الصالح على تفسيره - قوله: (من جحد ما أنزل الله فقد كفر، ومَنْ أقرَّ به ولم يحكم فهو ظالم فاسق. وهو ليس بالكفر الذي تذهبون إليه، هو كفر دون كفر، وليس كفراً ينقل عن المِلة)[1] قال العلماء: الكفر هنا بمعنى جحود النعمة.

إذن فالذي يحكم بغير ما أنزل الله هو أحد شخصين:

١ - لم يحكم بما أنزل الله مستبيحاً هذا الحكم جاحداً به معلناً عن ذلك، فهو كافر كفر مِلَّةٍ.

٢ - لم يحكم بما أنزل الله دون أن يستبيح ذلك، أي لم يعلن أنه يستبيح ذلك - ونحن لنا الظاهر - فهو كفر دون كفر، أي هو كفر نعمة وليس كفرَ مِلَّة. فعدم شكر الباري عز وجل على نعمة من النعم واستعمالها في معصية الله، هو كفران لهذه النعمة، لأنه لم يؤدِّ حقوق هذه النعمة عليه لبارئها وخالقها ومنزلها، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢]. وكفر النعمة لا يُخرج صاحبَه عن الملة أبداً، ولكن يفسّقه لأنه فعل فعلاً مفسِّقاً في الظاهر. والعلماء جميعاً متفقون على ذلك، ولم يقل أحد من علماء السنة بخلاف ذلك - وقد ضربنا أمثلة على ذلك - ولم يخالفهم إلا فئة واحدة هي فئة الخوارج الذين انفردوا وشذوا عن الإجماع، وقالوا بتكفير المسلمين بارتكاب كبائر الذنوب[2].

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٦١)، وتفسير القرطبي (٢/ ٤١)، وهكذا فلندع إلى الإسلام (ص٨٣).

(٢) شرح رياض الصالحين الدرس (٤٥٨).

إذن فالإعراض عما أجمع عليه السلف الصالح من أئمة المسلمين بدءاً بعصر الصحابة فمن دونهم في تفسير هذه الآية، واختلاق تفسير جديد لها يقضي بأن كل من لم يحكم بما أنزل الله فهو كافر مطلقاً؛ جنوح عن الحق الذي أجمعت عليه الأمة، ولا مسوغ لذلك إلا تحكيم الأهواء في كتاب الله عز وجل، وهو إن دل على شيء فإنما يدل على الغيظ النفسي والرغبة في التشفي والانتقام.

فلْيتَّقِ الله أولئك الذين يجازفون في إقامتهم أنفسهم مقام الله عز وجل الذي يعلم السر وأخفى، وكأنهم يطلعون على القلوب والسرائر. يُكفِّرون كلَّ مَنْ لم يحكم بما أنزل الله دون الرجوع إلى ضوابط العلم وقواعده، ولْيتَّهموا أنفسهم بالانسياق وراء غيظ لا يحكمه منهج الإسلام، ولا يُقصد به وجه الله تعالى.

ومن أوضح الأدلة على ذلك أنهم لا يتصورون لمعنى (الحكم بغير ما أنزل الله) إلا مدلولاً واحداً - هو دون غيره محطُّ تكفيرهم - ألا وهو أن يقضي الحاكم الأعلى - رئيس الدولة - في شعبه وقومه بغير شرع الله وحكمه.

أما ما ينجرف فيه عامة الناس في بيوتهم ومع أهليهم وأصدقائهم وفي مجتمعاتهم من المعصية ذاتها، إذ يبرمون أمورهم وأمور مَنْ يهيمنون عليهم على خلاف شرع الله، فهؤلاء كلهم مبرؤون من جريمة الكفر والارتداد، ولا يدخلون تحت طائلة (الحكم بغير ما أنزل لله)؟!

لماذا وكيف انبثق هذا الفرق؟ لا ندري !

ما الفرق بين معصية صدرت من إنسان يتحرك في القاعدة الشعبية، وبين إنسان يعيش في قمة الحكم؟ لا فرق[1].

ثم... من هو الحاكم؟

---

(١) هكذا فلندع إلى الإسلام (٨٣-٨٥).

الحاكم هو الراعي، والرسول ﷺ يقول: (كلُّكم راعٍ وكلُّكم مسؤولٌ عن رعيَّته. الإمام راعٍ ومسؤول عن رعيَّته، والرجل راعٍ في أهله وهو مسؤول عن رعيَّته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها، والخادم راعٍ في مال سيده ومسؤول عن رعيته، وكلكم راع ومسؤول عن رعيته)(١).

فكلُّ إنسانٍ مخوَّلٍ للإشراف على فئة من الناس، كبيرةٍ كانت أم صغيرة، ويملك أن يقضي فيما بينها؛ هو بالنسبة إليها حاكم وراع. فالرجل إن منع ابنته من الحجاب فقد حكم بغير ما أنزل الله.. وإن كلَّف ابنَه بأن يجلس مع بنات عمه وبنات خالاته في حفلةٍ أقامها في بيته فقد حكم بغير ما أنزل الله.. وإن كلفه بأن يشتغل بعمل ربوي فقد حكم بغير ما أنزل الله!!

فلماذا يجنح بعض الناس إلى التقاط فئة من هؤلاء الحكام - وهم القادة - ويضعون عليهم المناظير المكبِّرة، ويحكمون عليهم بالكفر لأنهم لم يحكموا بما أنزل الله - على الرغم من مخالفتهم لقاعدة (نحكم بالظاهر والله يتولى السرائر) - بينما يغضُّون الطرف عن هؤلاء الحكام المنثورين في البيوت والشوارع، ويبتعدون عن تكفيرهم وكأنهم لم يفعلوا شيئاً؟!!

ما دمتم لا تريدون أن تنفِّذوا كلام رسول الله ﷺ في أن تحكموا على الناس بالظاهر، بل تريدون تفسير مخالفة الحكم بالكفران، إذاً فنفِّذوا هذا التصور - ولو بالخطأ - على الناس جميعاً، فكلُّهم حكَّام، ولكن هذا حاكم على عشرة أشخاص وذاك حاكم على عشرة ملايين، والنتيجة واحدة. فالذي لم يحكم بما أنزل الله في حق شخص، كالذي لم يحكم بما أنزل الله في حق مليون شخص، لا فرق بينهما إطلاقاً.

إنكم إن فعلتم ذلك ستكفِّرون أغلبَ الناس، لأن أغلب الناس يحكمون في

---

(١) رواه البخاري (٨٥٣) عن عبد الله بن عمر.

بيوتهم بغير ما أنزل الله. ولكنّ ثلاثة أرباعهم يحكمون بذلك بسائقٍ من الهوى لا بسائقٍ من الكفر والجحود!

ولو أنّ كلاماً من هذا القبيل كرره العلماء مئاتِ المرات، فلسوف نجد من يطرح هذه الشبهة ويسأل هذا السؤال، والسبب أنّ حظَّ النفس والهوى لا يقطع دابرَه المنطقُ. وشرُّ الهوى ما يتسرب إلى الدين. فالهوى الذي يرقص في ساحة الأمور الدنيوية، معروف أنه هوىً، أما عندما يتسرب الهوى إلى الساحة الدينية فإنه يأتي مصبوغاً بصبغة الإسلام، وهذا هو الأمر الخطير جداً. والعاصم لنا من هذا، أن تسلك بنفوسنا مسالك التزكية، وتستمر على ذلك حتى تَطهُر من شوائب الأهواء. عندها، وعندها فقط نستطيع أن نرى الحقّ صافياً، دون أن يحول بيننا وبينه ضبابُ الأهواءِ والحظوظِ النفسية، وغبارُ الرغباتِ المزاجية[(١)].

إذا كان رسول الله ﷺ هو الأسوة والقدوة لك، فانظر إلى هديه ﷺ في هذه المسألة.

المطلب السادس: خلاصة هديه ﷺ في طاعة أولي الأمر.

وسنذكر حديثين صحيحين:

الحديث الأول: روى الشيخان عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أنه قال: (بايعْنا رسولَ الله ﷺ على السمع والطاعة في العُسْر واليُسْر، والمنشط والمكره، وعلى أَثَرَةٍ علينا، وعلى ألَّا ننازع الأمرَ أهلَه - إلا أن تروا كفراً بَواحاً عندكم من الله تعالى فيه برهان - وعلى أن نقول بالحق أينما كنا، لا نخاف في الله لومةَ لائم)[(٢)]. ولا بأس أن نقف عنده بشيء من الشرح.

---

(١) شرح رياض الصالحين الدرس (٤٥٨).

(٢) متفق عليه، البخاري (٦٦٤٧)، ومسلم (١٧٠٩) كلاهما عن عبادة بن الصامت، وهذا اللفظ ورد في كتاب رياض الصالحين (١٨٨)، جمع فيه الإمام النووي بين حديثي البخاري ومسلم.

هذه البيعة كانت قبل هجرة المصطفى ﷺ من مكة إلى المدينة، وذلك أثناء بيعة العقبة الأولى. وكثير من العلماء قالوا: بل كانت بيعةً بعد الهجرة.

وعلى كل حال فهذه البيعة لا تشكِّل أساساً لا بد منه لانتقال الإنسان من الكفر إلى الإيمان، بل بمجرد أن يشهد لسانُه ويُقرُّ جنانُه بأن لا إله إلا الله وأنَّ محمداً رسول الله، ويبرأ من كل دين غير دين الإسلام، يتمّ بهذا إسلامه ويصبح مسلماً مؤمناً حُكماً.

والرسول ﷺ أخذ من صحابته هذه البيعة بعد أن دخلوا الإسلام، لأنَّ الإنسان إذا دخل الإسلام والإيمان فقد حمل في عنقه مسؤولية الانصياع للنظام الإسلامي الذي يتجسَّد في إمامة رئيس المسلمين. وبناءً على هذا الإسلام، عليه أن يبايع هذه البيعة.

فالإسلام دين ودولة:

فهو دين يتمثل في الخضوع العقلاني بالإذعان، والخضوع الوجداني بالحب والخوف والتعظيم، والخضوع اللساني بالاعتراف، فهو دينونة العقل والعواطف والجوارح سلوكاً وتطبيقاً.

وهو دولة، أي هو مجتمع يقوم على نظامٍ ونسقٍ معين، يتّفق وعبودية الإنسان لله عز وجل. ولا ينفك أحد هذين الشطرين عن الآخر.

والصحابة - رضوان الله عليهم - بايعوا رسولَ الله ﷺ هذه البيعة بوصف كونه رئيسَ دولة، لا بوصف كونه نبياً ورسولاً. بدليل أنه ﷺ عندما دخل مكة فاتحاً ودان أهلها له بالولاء والإسلام، لم يكتفِ منهم ﷺ بالإسلام الذي وقر في نفوسهم وصدَّقته ألسنتهم، بل جلس على رابية الصفا، ودعا الناس أن يبايعوه على بيعةٍ كهذه البيعة، رجالاً ونساءً. وإنما كان الفرق بين الرجال والنساء أنه صافح الرجال ولم يصافح النساء، بل اكتفى منهنَّ بالقول.

وكانت البيعةُ (على السمع والطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره) فالسمع والطاعة واجبان في العسر واليسر، سواء بما يتفق مع هوانا أو بما يخالف هوانا، وهذا يسري على كل حاكمٍ بعد رسول الله ﷺ.

ولكن لماذا قال: (على السمع والطاعة) ولم يقل: على الطاعة؟

الرسول ﷺ يتحدث في هذه البيعة كقائد لا كنبي، ويعلِّمنا كيف نتخذ موقفنا من القادة والحكام من بعده. فلو كان الحاكم معصوماً لما أُمرنا إلا بالطاعة، ولكن باعتبار أنه غير معصوم، إذ يمكن أن يأمر بما نهى الله عنه، ويمكن أن ينهى عما أمر الله به، فعلينا إذاً أولاً أن نسمع ونتدبر، فإذا وجدنا أنَّ أمر الحاكم مطابق للإسلام - ونحن سابقاً قد عرفنا الإسلام وآمنا به - فقد جاء دور الطاعة. وإن أمرنا بما نهى عنه الإسلام أو نهانا عما أمر به الإسلام، فلا طاعة لمخلوق- سواء كان حاكماً أو محكوماً - في معصية الخالق.

ومع أن النبي ﷺ معصوم ولا يُتصوَّر منه أن يأمر بمعصية، فإنه ﷺ يعلِّمنا بدءاً من نفسه هو، بأن يقيم نفسه مقام بقية الحكام الذين سيأتون من بعده، لذلك قال: (على السمع والطاعة)، فالطاعة العمياء نحن منهيون عنها.

ففي الحديث المتفق عليه عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: (على المرء المسلم السمعُ والطاعةُ فيما أحبَّ وكره إلا أن يؤمر بمعصية، فإن أُمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة)[1]، أي لا سمع ولا طاعة في هذه المعصية، لا مطلقاً.

ثم قال: (وعلى أثرة علينا) أي: علينا أن نسمع ونطيع ونتحمَّل مغبَّاتِ هذه الطاعة، ولو كان في هذه الطاعة إيثار منا للحاكم وأَثَرَةٌ من الحاكم علينا.

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري (٦٧٢٥)، ومسلم (١٨٣٩) كلاهما عن عبد الله بن عمر، واللفظ لمسلم.

مثال: إذا أراد الحاكم أن يستأثر بشيء من النعمة لنفسه، فآثر نفسَه على الناس، فما الموقف الذي يُرضي الله عز وجل منا تُجاهه؟

يجب على الناس أن يسمعوا ويطيعوا ويسكتوا على أثرة الحاكم عليهم. فلو اقتطع الحاكم لنفسه من حقوق الناس نصيباً ومنع الناس حقوقهم، فالمطلوب منهم شرعاً الإيثار بدليل الأحاديث الصحيحة التالية:

- عن أبي هنيدة وائل بن حجر ﷺ قال: سأل سلمةُ بن يزيد الجعفي رسولَ الله ﷺ فقال: يا نبيَّ الله، أرأيت إنْ قامتْ علينا أمراءُ يسألونا حقَّهم ويمنعونا حقَّنا فما تأمرنا؟ فأعرض عنه، ثم سأله، فقال ﷺ: (اسمعوا وأطيعوا فإنما عليهم ما حُمِّلوا وعليكم ما حُمِّلتم) رواه مسلم[١].

- عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (إنها ستكون بعدي أَثَرَةٌ وأمور تنكرونها)! قالوا: يا رسولَ الله كيف تأمر مَنْ أدرك مِنَّا ذلك؟ قال: (تُؤدُّون الحقَّ الذي عليكم، وتسألونَ اللهَ الذي لكم) متفق عليه[٢].

- عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (كانت بنو إسرائيل تسوسُهُمُ الأنبياء كلما هلك نبي خلفه نبي، وإنه لا نبيَّ بعدي، وسيكونُ بعدي خلفاءُ فيكثرون) قالوا: يا رسولَ الله فما تأمرنا؟ قال: (أوفوا ببيعة الأوَّلِ فالأوَّلِ، ثم أعطوهم حقَّهم، واسألوا الله الذي لكم، فإنَّ الله سائِلُهُم عمَّا استرعاهم) متفق عليه[٣].

- عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: (من خلع يداً من طاعةٍ لقيَ الله يوم القيامة لا حُجَّةَ له، ومَنْ مات وليس في عنقه بَيْعةٌ مات ميتةً جاهليةً)[٤].

---

(١) رواه مسلم (١٨٤٦) عن علقمة بن وائل الحضرمي عن أبيه.

(٢) رواه البخاري (٦٦٤٤)، ومسلم (١٨٤٣) كلاهما عن عبد الله، واللفظ لمسلم.

(٣) رواه البخاري (٣٢٦٨)، ومسلم (١٨٤٢) كلاهما عن أبي هريرة، واللفظ من رياض الصالحين (٦٥٦).

(٤) رواه مسلم (١٨٥١)، عن نافع عن عبد الله بن عمر.

- عن ابن عباس قال: قال ﷺ: (مَنْ كَرِهَ من أميره شيئاً فلْيصبر، فإنَّه مَنْ خرج مِنَ السُّلطانِ شِبراً مات ميتةً جاهليةً)(١).

- عن حذيفة أنه ﷺ قال: (يكونُ بعدي أئمةٌ لا يهتَدون بهدايَ ولا يستنُّون بسنَّتي، وسيقوم فيهم رجال قلوبُهم قلوبُ الشياطين في جثمان إنْس) قال: قلت: كيف أصنع يا رسول الله إن أدركتُ ذلك؟ قال: (تسمعُ وتطيعُ للأمير وإنْ ضرب ظهرك وأخذ مالك، فاسمع وأطع)(٢).

- عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (مَنْ أطاعني فقد أطاع اللهَ، ومن عصاني فقد عصى اللهَ، ومَنْ يُطِعِ الأميرَ فقد أطاعني، ومَنْ يعصِ الأميرَ فقد عصاني) متفق عليه(٣).

فالله عز وجل ينهى الحاكمَ عن الظلم، ويتوعَّدُه بالعقاب يوم القيامة إنْ هو ظلم الرعيةَ. ولكن في الوقت نفسه يأمر الرعيةَ - إن ظلمهم الحاكم وعصى الله فيهم فأكل أموالهم وضرب ظهورهم - أن يسمعوا ويطيعوا، وأن يعطوه حقَّه ويسألوا الله حقَّهم. أما إن أمرهم أن يقوموا هم بالمعصية، كأن يتركوا الصلاة أو يفعلوا فعلاً محرماً، عندها لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق. أي طالما كان هو الذي يعصي اللهَ، فعلينا السمع والطاعة، أما إذا أُمرْنا بمعصية الله، أي أن نكون نحن مَنْ يعصي، فلا سمعَ ولا طاعة.

ثم قال ﷺ: (وعلى ألا ننازع الأمر أهله، إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم من الله تعالى فيه برهان): (الأمر) هو الحكم، وأهل الأمر هم أهل الحكم أي القادة.

---

(١) رواه البخاري (٦٦٤٥)، ومسلم (١٨٤٩) كلاهما عن ابن عباس.

(٢) رواه مسلم (١٨٤٧) عن حذيفة بن اليمان.

(٣) رواه البخاري (٢٧٩٧)، ومسلم (١٨٣٥) كلاهما عن أبي هريرة، واللفظ للبخاري.

إذاً فعلينا ألا ننازع أهل الحكم الحكمَ إلا في حالة واحدة هي الكفر البواح، أي إلا أن يصدر منهم كفر علني صريح عندكم من الله تعالى فيه برهان قاطع ودليل واضح، وذلك عندما تقفون بين يدي الله عز وجل يوم القيامة.. وإلا فلا يجوز لكم الخروج على الحاكم لأي سببٍ من أسباب الفسق ما دام أنَّ هذا السبب لم ينزل به إلى مستوى الكفر. بل لا يكفي أيضاً أن يصل هذا السبب إلى كفرٍ خلافي بين الفقهاء - أي كفر يحتاج إلى أخذٍ وردٍّ لكونه غيرَ مُجمَعٍ عليه عند الفقهاء على أنه كفر بواح - إذ لا يجوز الخروج على الحاكم إلا إذا تلبَّس بكفرٍ صريح واضح مُستَعلَنٍ به أمام الناس.

إذن لا يُعدُّ فِسقُ الحاكم أياً كان نوعه وأياً كانت خطورته، ومهما بلغ شأوه - طالما أنه لم يصل إلى مستوى الكفر - سبباً مجيزاً للخروج على الحاكم. وهذا أمر متَّفق عليه عند العلماء، فهنالك إجماع لدى الشافعية والمالكية والحنابلة والحنفية، أنه لا يجوز الخروج على الحاكم بعد أن استقر في الحكم بأي طريقة، إلا إذا ثبت كفره ثبوتاً صريحاً قاطعاً.

يقول الإمام النووي في شرحه على صحيح مسلم بعد أن قال: (الحاكم الفاسق أو الظالم إذا أمر بمحرَّم لا يطاع) ثم قال: (وأما الخروج عليهم وقتالهم- أي الحكام الفسقة والظالمون- فحرامٌ بإجماع المسلمين، وإن كانوا فسقةً ظالمين، وقد تظاهرت الأحاديث لمعنى ما ذكرتُه، وأجمع أهل السنَّة على أنه لا ينعزل السلطان بالفسق. وأما الوجه المذكور في كتب الفقه لبعض أصحابنا أنه ينعزل، وحكي عن المعتزلة أيضاً، فغلطٌ من قائله مخالف للإجماع)[1].

---

(١) شرح النووي على مسلم (١٢/ ٥٣٩)، ثم قال: قال العلماء: وسبب عدم انعزاله وتحريم الخروج عليه، ما يترتب على ذلك من الفتن وإراقة الدماء وفساد ذات البين، فتكون المفسدة في عزله أكثر منها في بقائه.

ثم قال ﷺ: (وعلى أن نقول بالحق أينما كنا، لا نخاف في الله لومةَ لائم)، فالرسول ﷺ الذي يمنعنا من الخروج على الحاكم والثورة أو التمرد عليه بسبب عصيان أو فسوق بدر منه، يعود فيأمرنا ألا نسكت عن قول الحق وعن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إذا اقتضى الأمر أن يوجَّه للحاكم أو لمن دونه من عامة الناس.

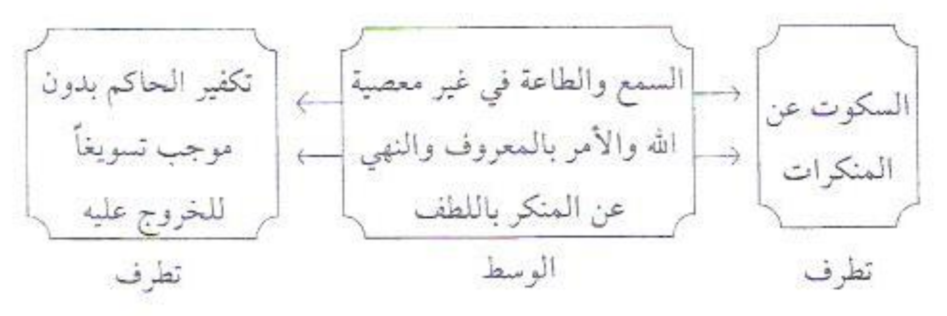
وكأنه ﷺ يبيّن لنا أنَّ لنا في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر غنىً عن التمرد والخروج على حكم الحاكم، فذلك - أي الخروج على الحاكم - تطرُّفٌ لا يجوز الوقوع فيه، وكذلك فالسكوت عن الأمر بالمعروف أينما فُقِد، والنهي عن المنكر أينما وجد، هو أيضاً تطرُّف لا ينبغي الوقوع فيه. والوسط هو المطلوب، وهو وصية رسول الله ﷺ لنا، تلك الوصية الذهبية التي تشكّل صُمَّامَ الأمان الذي يقي المجتمعات الإسلامية من الوقوع في الهرج والمرج والفتن، والمتمثلة ببنودها الثلاث:

١- أن نسمع ونطيع الحاكم، وإن جار وإن فسق، في كل ما يجرُّ علينا خسارةً دنيويةً ومهما كانت درجة إيثار الحاكم، بدليل الأحاديث الصحيحة السابقة الذكر.

٢- ألا نسمع ولا نطيع في كل ما يجرُّ علينا خسارةً دينيةً من جراء أمر الحاكم لنا بمعصية الله، إذ لا طاعة لمخلوقٍ في معصية الخالق، مع عدم جواز الخروج عليه.

٣- أن نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر باللطف واللين.

والخلاصة:



مثال تطبيقي:

علمنا سابقاً أنَّ مجرد الحكم بغير ما أنزل الله لا يخوِّلنا بأن نكفِّر صاحبَه، ولكن يخوِّلنا أن نفسِّقَه. فكما أننا لم نكفِّر ربَّ الأسرة عندما ينهى ابنته عن الحجاب ويأمرها بالمعصية، أيضاً لا نكفِّر الحاكم عندما يأمر رعاياه بالمعصية، فماذا نفعل إذن؟

نفعل ما دلَّنا عليه رسول الله ﷺ بقوله: (وعلى أن نقول بالحق أينما كنا، لا نخاف في الله لومة لائم).. أي:

- أعمد إلى جاري الذي ينهى ابنته عن الحجاب ويأمرها بالمعصية، فأطرق بابه وأدخل داره وألاطفه ثم أقول له: أنت أخي وجاري، ولك علي حق الأخوة وحق الجوار، وأنا أحب لك ما أحب لنفسي. هذا الذي تفعله ستلقى مغبَّتَه غداً، ولسوف تحمل أوزاراً من عملك وأوزاراً من عمل أولادك، فهم آثارك، والله عز وجل يقول: ﴿إنا نحن نكتب ما قدموا وآثارهم وكل شيء أحصيناه في إمام مبين﴾ [يس: ١٢]، وغداً إذا رحلتَ إلى الله ستندم وتتمنَّى الرجعة إلى الدنيا ولو لدقائق لتصلح ما أفسدتَ، ولكن هيهات.

- وكذلك أعمد إلى الحاكم الذي يأمر رعاياه بالمعصية، فأذكِّره بالله وآمره بالمعروف وأنهاه عن المنكر بنفس اللطف وبنفس التعبير، فأقول له: أنت مسؤول، وأنت تقوم مقام سيدنا محمد ﷺ بحمل أمانةِ هذه الأمة، فلا تضيِّع أمانةَ الله التي ائتمنك عليها. إنك إذا استقمتَ على أمر الله عز وجل، كنتَ أول فئةٍ تستظل في ظل الرحمن يوم القيامة فتَسعد في الدنيا والآخرة، وتُسعد أمَّتَك ورعاياك[١].

(١) شرح رياض الصالحين الدرس (٢٦٨-٢٦٩-٢٧٠).

● **فإن قال قائل: ألم يقل رسول الله ﷺ: (مَنْ رأى منكم منكراً فلْيغيِّرْهُ بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعفُ الإيمان)[(١)]، وإني أريد أن أغيِّر المنكر بيدي!**

الجواب: الرسول ﷺ يقول: (فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه).

قال العلماء: عدم الاستطاعة تتمثل في الصور التالية:

١ - أن يغلب على ظنِّ الإنسان أنه إذا غيَّر منكراً ما بيده، فسيتولَّد من جراء ذلك منكر آخرُ أشدَّ منه. كأن يقدِّر أنه لو نهى شاربَ الخمر عن منكره هذا باليد، فسيحلُّ مكان هذا المنكر منكرٌ آخر أشد منه وهو ارتكاب جريمة القتل مثلاً. عندها هو غير مستطيع وعليه أن ينزل من درجة تغيير المنكر باليد إلى درجة تغييره باللسان.

٢ - أن يغلب على ظنِّه أنَّ فتنةً ستتفجَّر من جراء تغييره للمنكر بيده، وأنَّ باباً للهرج والمرج وسيل الدماء سيُفتح، عندها يحرم عليه ذلك، وعليه أن ينزل إلى درجة اللسان.

لذلك قال العلماء من أمثال الإمام الغزالي وغيره: الدرجة الأولى من النهي عن المنكر - أي باليد - إنما تناط بالمسؤولين، وهم القادة والحكام، فهم الذين يستطيعون أن يزيلوا المنكر باليد، دون أن تقوم من وراء ذلك فتنة، فهذا الواجب معلَّق بأعناقهم. ذلك لأنَّ هذه الصور من العجز وعدم الاستطاعة بعيدة عن أن يُبتلى بها أولو الأمر، فأولو الأمر يستطيعون إن شاؤوا أن ينهوا عن المنكر نهياً فعلياً دون أن تحصل فتنة، لأنهم قادرون على درء الفتنة.

وإذن، فالنهي العملي الفعلي عن المنكر باليد ليس من شأن عامة الناس، إنما هو من شأن أولي الأمر[(٢)].

---

(١) صحيح مسلم (٤٩) عن طارق بن شهاب.

(٢) شرح رياض الصالحين الدرس (٢٦٣).

● **فماذا لو أعرض أولو الأمر عن واجب تغيير المنكر باليد وإزالته؟ من الذي يزيله من بعدهم؟**

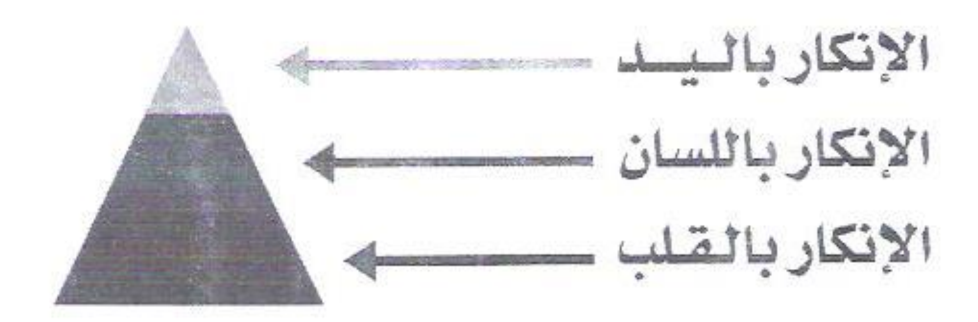
الجواب: إذا أعرض أولو الأمر والقادة عن هذا الواجب ولم يؤدوه، فإنّ ذلك لا يحوّل هذا الحكم من القادة إلى العامّة. أنت وعامّة المسلمين مكلّف فقط بأن تستعمل مع هؤلاء القادة الدرجة الثانية من واجب النهي عن المنكر، وهي درجة التذكير باللسان، فتذكّرهم بأنَّ الله عز وجل أناط هذا الواجب في أعناقهم. ويكون التذكير باللسان وبالكلمة الطيبة وبالعبارة المغمَّسة بالحبِّ والغيرة والشفقة، وهذا ليس وقفاً على العلماء دون عامّة المسلمين. هذا ما كلَّفنا الله عز وجل به، فإن استجابوا فذاك، وإن لم يستجيبوا فلا يجوز لعامّة المسلمين أن ينهضوا بما أناطه الله بخاصتهم - وهم القادة والحكام - سواء قام القادة والحكام بأداء هذا الواجب أم لم يقوموا. فإن قاموا فذاك، وإن لم يقوموا فليس على العامّة إلا أن يذكّروا فقط باللسان. هذا الحكم هو محل اتفاق بين جميع العلماء كافة، ولم نجد فيه خلافاً قط.

نقول لهم: هذا منكر يجب عليكم أن تزيلوه، فأنتم الذين شرّفكم الله عز وجل بحمل مهامّ إزالته. فإن لم يستجيبوا فقد أنجزتَ ما كلَّفك الله عز وجل به، وأدّيتَ ما فرضه الله عليك، وكتب الله لك الأجر على ذلك. ولن يحمِّلك جريرةَ أي تقصيرٍ يقع من غيرك، فلا تحمِّل نفسك أكثر مما حمَّلتْكَ الشريعةُ إياه، ولكن عليك وعلى عامّة المسلمين أن تذكِّر القادة في كل مناسبةٍ بالحديث الحلو وبدافع من الغيرة والحب، فإن لم تُجْدِ التذكرةُ اليوم، فستُجدي غداً، والثبات هو الذي يثمر. فإن لم تَجِدْ فائدة أبداً، فلا تتجاوزِ الحدَّ الذي كلَّفك الله عز وجل به أبداً.

ولكن هناك استثناء: إذا استطاع الإنسان أن ينهى عن المنكر بيده، دون أن ينتج عن ذلك شيء مما أوضحناه من صور العجز وعدم الاستطاعة، إذاً فهو مستطيع،

وهذا النهي عن المنكر باليد مشروع هنا ولا مانع منه. كأن ينهى الأب أولادَه عن المنكر في البيت بيده، فهو جائز، بل هو واجب عليه طالما كان ممكناً.

درجات إنكار المنكر



- فالإنكار باليد يمثّلُ ذِروةَ الهرم وساحته الضيقة المقتصرة على أولي الأمر والقادة فقط.

- أما الإنكار باللسان فساحته أوسع، وتلك هي الوظيفة العامة التي تغطّي كلَّ فئات الناس والتي أناطها بالمجتمع ككل ضمن قانون الفريضة الكفائية رجالاً ونساءً، على اختلاف وظائفهم ومستوياتهم وثقافاتهم. وهذه الدرجة ليست خاصة بالعلماء فقط، بل هي وظيفة أناطها الله بالناس جميعاً بشرائط وآداب سنذكرها لاحقاً.

- وأما الإنكار بالقلب فيمثل قاعدةَ الهرم، وهي أوسع الدرجات إذ تشمل الناس جميعاً، وهي أدنى درجات الإيمان وأضعفه، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل[1].

---

(١) شرح رياض الصالحين الدرس (٢٦٣ - ٢٦٤).

● **آداب وشروط القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر باللسان:**

١ - على الإنسان إذا أراد أن ينهى أحداً من الناس عن منكرٍ ما بلسانه، أن يعود إلى نفسه فيسألها ما الذي يحملني على ذلك؟

فإن كان الدافع لذلك حبُّ الهيمنة والتنافس معه والتفوق عليه، وأن تنتصر لنفسك وتفضحه على ملأ، فاصمتْ فالسكوت أولى بك، ولعل هذه الدوافع أكثر سوءاً من المنكر الذي تريد أن تنهاه عنه. هكذا قال علماء الشريعة الإسلامية.

٢ - إذا عدتَ إلى نفسك وعلمتَ أنك لا تُضمر إلا دافعاً واحداً هو الغيرة على دين الله، وحبُّ أن يكون الناس جميعاً مستقيمين على صراط الله حتى ينالوا سعادة الدارين، فهذا هو المطلوب. إذاً فاستعملِ الكلماتِ التي تعبِّر عن دافعك هذا، ولتكن كلمات لطيفة معسولة، مضمَّخة بالحبّ والشفقة، غير مشوبة بشيء من الانتهار أو الفوقيّة والتسلّط.

٣ - انظر إلى نفسك، هل أنت متلبّس بهذا المنكر الذي تنهى عنه؟ إن كنت كذلك فاصمت وعُدْ إلى نفسك ونظِّف كيانك من هذا المنكر أولاً، ثم بعد ذلك تنهى الناس عن منكرهم. وإلا فقد عرَّضْتَ نفسك لمقت الله الذي يتهدَّدك بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢ - ٣].

يقولون: على مدير الكاس أن ينهى الجُلّاس. وهذا لم يرد في كتاب الله عز وجل ولا في سنَّة رسوله ﷺ، ولا قاله أحد من العلماء. والصحيح أنه على مدير الكاس أن ينهى نفسه أولاً، فإن عجز عن ذلك فهو عن نهي غيره أشد عجزاً، فإذا فرغت من نفسك فالتفت إلى خاصتك وأهل بيتك، وانههم عن المنكرات، ولا تتشاغل عنهم بغيرهم.

ولو أن كلاً منا عمل بوصية رسول الله ﷺ هذه، لوجدنا أنَّ نسيج المجتمع قد تواصل وأن نسيج الإخلاص قد تشابك وتعاون للنهوض إلى المجتمع الإسلامي الرشيد المنشود.

٤ - ينبغي أن يكون المنكَر الذي تنكره، منكراً متَّفقاً على إنكاراً، لذلك ينبغي على المنكِر أن يكون بصيراً ذا ثقافةٍ بهذا المنكَر بالذات، وليس المقصود الثقافة العامة. أما المنكر الذي هو محلُّ خلافٍ بين العلماء، إذ يراه البعض مباحاً ويراه الآخرون منكراً، وكلاهما مجتهد مستقيم، فهذا لا يجوز إنكاره والنهي عنه، لأنك بهذا تنكر اجتهاد المجتهدين، وهذا غير جائز. فإنْ فعلت ذرَّ من ذلك قَرْنُ الفتنة، والله عز وجل يريد من عباده أن يفعلوا ما بوسعهم لدرء الفتنة(١).

● **وآخر درجة من درجات إنكار المنكر هي إنكاره بالقلب بشرط عدم استطاعة إنكاره باللسان، لقوله ﷺ: (فإن لم يستطع فبقلبه):**

عندما يدرك الإنسان بالظن الراجح - لا بمطلق الظن فالظن لا يكفي، ولا بالوهم فالأحكام لا تبنى على الوهم - أنَّ تحذيره باللسان لصاحب المنكر عن ممارسة منكره يجعله يغضب فيتحول إلى منكر أدهى وأخطر، ولن يستطيع عندئذٍ أن يلاحقه بالنهي عن المنكر الثاني؛ فهو إذن عاجز وغيرُ مستطيعٍ أن يدرأ الشرور التي تنبثق أمامه. وهذه هي صورة عدم الاستطاعة المتمثلة بقوله ﷺ: (فإن لم يستطع)، فالعجز ليس مقصوراً على العجز اللساني والمادي، لأنه قادر على أن يتكلم، ولكن عندما لا يستطيع أن يدرأ الشرور التي تنبثق أمامه فهو إذن عاجز، عندها أذن له الشرع بالسكوت، على أن ينكره بقلبه.

مثال عن عدم الاستطاعة بالظن الراجح:

---

(١) شرح رياض الصالحين الدرس (٢٦٣-٢٦٤).

الإنسان يكون عاجزاً عن الإنكار باللسان في حالة واحدة، هي انه إذا تيقَّن أو غلب على ظنه أن نهيه لصاحب المنكر عن منكره باللسان، وإن كان بالرفق واللطف والحكمة، سيجرُّه إلى منكرٍ آخر مثله أو أشد منه، أو يفتح باب الفتنة في ذلك المكان. عندئذٍ فقط يكون عاجزاً، ويمكنه أن ينتقل إلى الدرجة الثالثة من درجات الإنكار، وهي إنكار المنكر بالقلب.

فإذا رأيت إنساناً يشرب الخمر، وقد لعبتْ الخمرةُ برأسه، فأغلب الظن أن نهيك له في هذه الحالة سيضاعف المنكر، وربما تحول إلى منكر أشد، كأن يقترف جريمة القتل. هنا ينطبق عليك قوله ﷺ: (فإن لم يستطع فبقلبه)، ولكن هذه الحالة لا تعفيك من شيء آخر، هو أن تنتظر حتى يفرغ من منكره ويعودَ إلى صحوه، ثم تدخل معه في حوار لطيف، تذكِّره فيه بأمر الله وحكمه.

ولكن في كثير من الأحيان يختلط الظن الراجح بالوهم.

أمثلة عن الوهم الذي يُخيِّل لصاحبه أنه لا يستطيع إنكار المنكر باللسان:

إذا سمعتَ إنساناً يسبُّ الدين، فإنك في بادئ الأمر تقدِّر أنك لو نهيتَه عن هذا المنكر وأمرته بالتوبة والاستغفار أنه سيستشيط غضباً، وسيكرر كلمته مثنى وثلاث ورباع. لكنَّ تصورك هذا وهم، والأحكام - كما قلنا - لا تبنى على الوهم.

أو لعل وهمك صحيح، وذلك إذا نهيتَه بأسلوبٍ فظٍ غليظ جارح وأنت تتمرد عليه، وهذا لا يجوز، ولا يعفيك من أن تنهاه بلسانك. بمعنى أنه يجب عليك أن تنهاه عن منكره بلين وحب وشفقة، كأن تقول له: يا أخي، أنت بهذه الكلمة التي أنطقك بها غضبُك قد خرجتَ عن الإسلام، ولا شك أنك حريص على هذا الدين، فأنا أذكِّرك شفقة عليك وحباً لك وغيرة على دينك، بالتوبة والإنابة والاستغفار، قل أستغفر الله الذي لا إله إلا هو.

إن قلتَ له هذا الكلام، فأغلب الظن - أي الظن الراجح - أنَّ هذا الرجل لن يقول شيئاً مُشيناً. وفي أسوأ الأحوال، ربما لا يلتفت إليك ويُعرض عنك، ولكنْ هذا لا يقدِّم ولا يؤخِّر، وهذا لا يعفيك من أن تقول وتنكر، ولك الثواب العظيم عند الله عز وجل. وأما إعراضه عنك فذنب هو يرتكبه لا يضرك شيئاً. . لا تقل هو مغضب، وإنني إن ذكَّرتُه فسيفعل كذا وكذا، حسبك من المنكر سبُّ الدين. فإن أنت فعلت هذا بنيةٍ صافية وقصدٍ سليم، لا بدافع من الحقد والأنانية والتسلط، فإن الله عز وجل عندها يجعل في طيات كلامك تأثيراً وأيَّ تأثير.

- مثال آخر: إذا أنكرتَ على صاحب المنكر منكره، فآذاك بقوله: وما شأنك بي، امضِ إلى شأنك ولا تتدخل بي، فهذا الرد لا يجعلك في صنف العاجزين، ولا يعفيك من الإنكار باللسان برفق وحكمة ولطف، بل هذا يزيدك أجراً عند الله ومثوبة.

إنما تكون عاجزاً في حالة واحدة: إذا تيقَّنْتَ أو غلب على ظنِّك أنَّ نهيك لصاحب المنكر عن منكره، وإن كان برفق ولطف، سيجره إلى منكر آخر مثله أو أشد منه، ومن ذلك أن يُفتح بابُ الفتنة في ذلك المكان. عندئذٍ فقط تكون عاجزاً، ويمكنك أن تنتقل إلى الدرجة الثالثة من درجات الإنكار وهي إنكار المنكر بالقلب[1].

● **كيف ينهى الإنسان عن المنكر بقلبه؟ وما السر في ذلك؟**

إذا لم أستطع أن أنهى عن المنكر بيدي ولا بلساني، فأقل درجات الإيمان وأضعفها هي قاعدة الهرم، وهي الدرجة الثالثة، بأن أنكره بقلبي وأشمئز منه، وليس دون ذلك من الإيمان حبة خردل.

فإذا لم يشعر المسلم بالاشمئزاز من المنكر، فلْيتفقَّد حقيقةَ إيمانه بالله عز وجل، وليكن في ريبةٍ، لا من تمام إيمانه، ولكن من أصل إيمانه بالله عز وجل. فإنه ما

(١) شرح رياض الصالحين الدرس (٢٦٥).

وصل إلى هذه الحال والنقطة الخارجة عن دائرة الإيمان، إلا لأنه جالس أصحابَ المعاصي والمنكرات واستمرَّ على مجالستهم، حتى سقط وَقْعُها عن قلبه، ورضي بها بعد أن كان مُنكِراً لها.

ثم إنَّ الاشمئزاز من المنكر عبارة عن انفعال وليس فعلاً، أي لا يأتي عن طريق التكلُّف والاختيار. ذلك لأن الإنسان أياً كان، عندما يجد شيئاً يحبُّه فإنه يشعر بالرضا والسرور بدون قصد منه. وعندما يجد شيئاً يكرهه فإنه يشمئز منه، أيضاً بدون قصدٍ منه. فإذا كان المسلم مؤمناً بالله عز وجل حقاً، فلا شك أنه موقن بأنَّ الحق هو ما شرعه الله، وإيمانه يقتضي منه أن يحبَّ الحقَّ ويكره الباطل، فإذا رأى أن الحقَّ قد أهدر، وقام مقامه الباطل، فلا بد أن يحمله إيمانه وحبّه للحق على الاشمئزاز، شاء أم أبى. ولكن إذا شعر المسلم أنه لا يشمئز من المنكر، فلْيتفقَّدْ حقيقةَ إيمانه من أصله، والله عز وجل مطلع على القلوب، ولا يُخدع بالقول إن لم يصدِّقه الحال، فإنه لو حرَّك لسانه بقول: (اللهم هذا منكر لا أرضى به) مئة مرة، ولم يَشعر قلبُه بالاشمئزاز منه، فإنه لم يَنْهَ عن المنكر في درجته الثالثة، ومن ثم لم يَرْقَ إلى أدنى درجات الإيمان[1]!

● **كيف يحافظ المسلم على هذه الدرجة الدنيا من الإيمان؟**

للحفاظ على هذه الدرجة الدنيا من الإيمان، لا بد من شيء واحد، هو ألا تجلس مع المنكر في الوقت الذي لا تستطيع إزالته أو إنكاره بلسانك، ولكن أنكِرْه بقلبك وفارِقِ المجلس. عندها فقط تحافظ على هذه الدرجة الدنيا من الإيمان، والتي سمَّاها رسول الله ﷺ (أضعف الإيمان)، وإلا فما أسرع أن يتبخَّر الإيمان، ويتبخَّر الاشمئزاز من المنكر ويتحول إلى بَلادَةٍ شعورية.

(١) شرح رياض الصالحين الدرس (٢٦٥).

ذلك لأنَّ الإنسان عندما يرى منكراً من المنكرات، فإنه بادئ ذي بدءٍ يشمئز منه، ثم يراه فيشمئز منه، فإذا جلس إليه ولم يَنْهَ عنه واستمر به الحال على ذلك، اعتادت عيناه على رؤيته، ومن ثم فإنَّ وَقْع الاشمئزاز منه يَخِفُّ ثم يَخِفُّ ثم يزول ثم يستأنس بما كان منه يستوحش.

بل إنه مع الزمن يضع له المبرّرات، وهي مُبرّرات نفسية وليست عقلية، ولكن ما أكثر ما يكون الشعور النفساني أشد تغلباً على الإنسان من الإقناع العقلي، ومن ثم يزول الاشمئزاز ويتحوَّل إلى ركونٍ إليه ورضاً عنه واستئناسٍ به والإحساس بأنه أمر طبيعي جداً. وتلك هي المصيبة الكبرى المتمثلة في أنه فَقَدَ حتى أضعف الإيمان، عندها يقع في مَقْتِ الله سبحانه وتعالى، لأنه رضي بما حرَّم الله، واستأنس بما كَرِهَه الله.

ومن هنا جاء التحذير من الإقامة في بلاد الكفر، فكم من أناس كانوا يشمئزون من المنكرات التي تحصل في بلاد الغرب، ولكنهم لما جالسوها وعاينوها استمرؤوها، وعادوا يدافعون عنها بفلسفات لا تنتهي.. ماذا في أن يجالس الرجل المرأة؟!.. وماذا في أن يصافحها؟!.. وماذا في أن حتى يراقصها؟!

السر نفسانيٌ وليس عقلانياً، فالعقل لا يتغير حكمه أبداً، ولكن الذي يتغير هو حكم النفس. كانت النفس خاضعةً لسلطان الدين، ولكن لما انغمس هذا الإنسان في جوٍّ آخر واستمر به الحال على ذلك، تعوَّدتْ نفسُه عليه، والإنسان أسير ما تعوَّد عليه، ولما تعوَّد على هذا الأمر اختلف حكمه لا بقرارٍ عقلي، وإنما بقرارٍ نفسي، ومعنى هذا أنَّ سلطان الإيمان قد انحسر عن كيانه وقلبه، ولولا انحسارُ إيمانِه بالله عز وجل ما تغيَّر حكم النفس أبداً.

إذن فإيمانك بالله عز وجل عليك أن ترعاه على درجتين: الأولى عقلية والثانية نفسية.

أما العقلية: فكلما رأيتَ حقيقةً علمية فتفكَّرْ بها، فإنَّ ذلك يورثك مزيداً من اليقين العلمي بالله عز وجل. ولكن لا تكتفِ بذلك، إذ لا بد من تربية نفسيةٍ، والتربية النفسية لها دوران: دور إيجابي بأن تكون مع الله عز وجل في كل لحظة، بفكرك وشعورك وقلبك، وتكثر من ذكر الله عز وجل، وتستشعر ذُلَّ عبوديتك له سبحانه، وقاهريَّتَه وجبروتَه وسلطانَه سبحانه وتعالى. ودور سلبي بألا تجالس العصاةَ وأصحابَ المنكرات، ولا تأكل مالاً حراماً قط[1].

لأجل ذلك أجمع العلماء على أنَّ الاستيطان في بلاد الكفر من المحرَّمات المطلقة، لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾[النساء: ٩٧]، وقالوا بحرمة التجنُّس بالجنسيَّة الأجنبية، لأنه بذلك يكون قد أعطى ولاءه لرئيس هذه الدولة، وهو كافر، فضلاً عن حرمة الاستيطان في بلاد الكفر.

أما الإنسان الذي وُجد في بلاد الكفر لمهمّة يؤديها ويرجع، كالدراسة أو التجارة أو تبليغ الدعوة، فلا مانع شرعي يمنعه من ذلك، وبوسعه ألا يغشى أماكن المعصية، وأن يجعل عمله محصوراً في مجتمع إسلامي ضيق، تماماً كقارب النجاة في عرض البحر. فإذا رأى عُرضةً أصحابَ المعاصي، فبوسعه أن يشعر بالاشمئزاز والكراهية لمنكراتهم، وأن يحمد الله عز وجل على ما أقامه فيه.

فالإنسان الذي يمرُّ على صور المنكرات والمعاصي مروراً دون أن يقف عليها ولا يقيم عندها، يزداد اعتزازاً بدين الله عز وجل أكثر وأكثر، ويزداد حباً لهذا الإله الذي أكرمه بهذا الدين القويم وأخرجه بفضله من الظلمات إلى النور، فإذا ما رأى إنساناً يخرج مترنّحاً من حانة، فإنَّ الذي ينتابه هو شعور الاعتزاز بدين الله عز وجل والشكر له سبحانه الذي أكرمه بدينٍ يقدِّس العقل ويحميه.

---

(١) انظر فقرة مجالسة الصالحين ص١٧٦ وفقرة فطم الفم عن المال الحرام ص١٩٨.

إذن فمرورك على المنكر بهذا الشكل السريع، يحملك على أن تزداد حباً لربك وتعظيماً لشرعه وحُرُماته ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢]. ولكن عندما تجالس أصحابَ المعاصي ويستمرُّ بك الأمر على ذلك، فإنَّ نظرتَك تختلف، فترى المرضَ صِحَّةً والصحَّةَ مرضاً، وترى الباطلَ حقاً والحقَّ باطلاً. وهذا جلي في قوله تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا[1] فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٤٠]، أي إنَّ مصيركم أن تصبحوا مثلهم إن لم تعتزلوا مجالسهم[2]!

الحديث الثاني: روى مسلم عن أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها عن النبي ﷺ أنه قال: (إنه يُستعمل عليكم أمراء فتعرفون وتنكرون فَمَنْ كَرِهَ فقد برئ، ومَنْ أنكر فقد سَلِمَ، ولكنْ مَنْ رَضِيَ وتابع) قالوا: يا رسول الله ألا نقاتلُهم؟ قال: (لا ما أقاموا فيكم الصلاة)[3]، ولا بأس أيضاً أن نقف عنده بشيء من الشرح:

معنى (تعرفون وتنكرون): أي تصدر عن هؤلاء الأمراء أمور تعرفونها أنها متّفقة مع الشرع وتصدر منهم أمور تنكرونها لأنها غير متّفقة مع الشرع.

---

(١) يقول الطبري في كتابه (جامع البيان في تفسير آيات القرآن): في هذه الآية الدلالة الواضحة على النهي عن مجالسة أهل الباطل من كل نوع من المبتدعة والفسقة عند خوضهم في باطلهم، وبنحو ذلك قال جماعة من الأئمة الماضين، أن المراد بهذه الآية، النهي عن مشاهدة كل باطل عند خوض أهله فيه (٩/ ٣٢١). وقال القرطبي في (الجامع لأحاكم القرآن): دلت هذه الآية على وجوب اجتناب أصحاب المعاصي إذا ظهر منهم منكر، لأنَّ من لم يجتنبْهم فقد رضي فعلهم، فيكون معهم في الوزر سواء (٥/ ٤١٨).

(٢) شرح رياض الصالحين الدرس (٢٦٥).

(٣) رواه مسلم (١٨٥٤) عن أم سلمة بلفظ: (لا ما صلَّوا)، أما اللفظ المثبت أعلاه فقد رواه الإمام النووي في كتابه رياض الصالحين (١٩٠)، وقال: رواه مسلم.

(فمن كره): أي من لم يستطع أن ينكر هذه المنكرات بلسانه ووقف منها موقفَ الكراهية والإنكار القلبي، (فقد برئ) من المعصية وبرئ من إثم عدم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ذلك لأنه وقف عند الدرجة الثالثة من عدم الاستطاعة، أي نهى عن المنكر بقلبه بدليل اشمئزازه منه، ولكنه عجز عن مواجهة صاحب المنكر لسبب من الأسباب.

(ومن أنكر فقد سلم): أي من استطاع أن يعبِّر عن إنكاره لهذا المنكر بلسانه - وذلك بالآداب التي ذكرناها - وأن يوجِّه صاحبَه إلى ضرورة الاستقامة على الحق والابتعاد عن الباطل، فقد سلم من الوقوع في المسؤولية.

(ولكن من رضي وتابع): أي هذا هو الذي لا يبرأ ولا يسلم، ويكون قد وقع في المعصية ذاتها، لأنه رضي بالمنكر ولم ينكره حتى بقلبه.. لأجل ذلك قال ﷺ: (ولكن من رضي وتابع)، ولم يقل: ولكن من رضي، ليبيِّن لنا أنَّ الإنسان الذي يرضى بالمنكر الذي يراه - سواء من أميره أو من أي إنسان آخر - فإنَّ هذا الرضا لا بد أن يستتبع شيئاً آخر هو المتابعة. فالمتابعة نتيجة لا بد منها لرضاه عن هذا المنكر، ومن ثمَّ فإنه ﷺ عَطَفَ المتابعةَ على الرضا، عَطْفَ النتيجة على المقدِّمة.

(قالوا: يا رسولَ الله ألا نقاتلهم)؟ قال: (لا ما أقاموا فيكم الصلاة): أي ما أقاموا فيكم شعائر الصلاة، ولم يضيِّقوا عليكم في تنفيذها، ولم يمنعوكم من إقامة هذه الشعائر مُستَعلنةً صريحةً، فلا يجوز لكم الخروج عليهم بقتالٍ وتمرُّد.. وكأنه ﷺ يقول: نفِّذوا ما أقوله لكم من النهي عن المنكر بالقلب وباللسان، ولن تحتاجوا إلى تغيير المنكر باليد - أي المقاتلة - أبداً.

هذا الحديث وسابقُه وأحاديث كثيرة أخرى صحيحة، هي خلاصةُ هديه ﷺ في كيفية التعامل بين رعايا المسلمين وأمرائهم أو قادتهم[1].

---

(١) شرح رياض الصالحين الدرس (٢٧٤).

المطلب السابع: والآن.. هذا هو هديه ﷺ في هذه المسألة، فما موقفنا نحن منه؟ أنلقي هذا الكلام وراء ظهورنا، أم نتجاهله وهو موجود؟

وماذا نفعل بقوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]؟

● **ما السبب الذي يَحجُبُ فئةً من الشباب عن أن تعيَ هذا الكلام رغم وضوحه ورغم التكرار الشديد له؟!**

إنها العاطفة المتوهِّجة التي لم تنضبط بضوابط العلم الشرعي !

إنه الحماس الشديد الذي ينسي الوعيَ الحقائقَ العلمية، ويجعل صاحبَه يسير في نهجٍ رائده فيه الشعور النفساني لا القرار العقلاني !

إنها النفس التي تريد أن تجعل من رغباتها وأمزجتها الحكَمَ على دين الله، والقرارَ الذي يُملي على قرار الله عز وجل !

المسلم الذي رباه الإسلام عقلاً وعاطفةً، لا يضيق ذرعاً بهدْيِ رسول الله ﷺ، ولا بحقائق هذا الدين، ولا يسير وراء علماء السوء الذين ينفخون بنيران الفتن ويؤجّجونها. بل إنه ببصيرته الآتية من تزكيته لنفسه، يستطيع أن يميِّز بين السراب والشراب، وبين الغثّ والثمين، وبين علماء السوء والعلماء الربانيين، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩]، أي يجعل لكم هدايةً ونوراً تفرِّقون به بين الحق والباطل.

كثيرون هم علماء السوء، وكثيرة هي الجماعات الإسلامية التي تنطلق إلى تكفير الناس بدون موجب، ولمجرد أن يقوم خلافٌ بينها وبين فئة من المسلمين. فهم يتجاوزون الظاهر الذي أُمرنا أن نحكم على الناس بموجبه، ويتمسكون بالبواطن التي

أُمِرنا ألا نصل إليها، وهذا أمر خطير إلى أبعد الحدود. ومصدر هذه الخطورة أنَّ هذه الجماعات لا تتعامل مع الناس على أساسٍ من الإسلام الذي هو دين العلم أبداً، وإنما على أساسٍ من اتباع الرعونات والأمزجة، أما الإسلام فقد هان عليهم حتى لم يَعُدْ إلا مطيَّةً لما تحبُّه أمزجتُهم ورعوناتهم، وإنْ تظاهروا أنهم غيارى على دين الله سبحانه وتعالى.

نحن نملك محكمةً ابتدائيةً في دار الدنيا، أمّا محكمة التمييز فيعقُدُها الله عز وجل غداً يوم يقوم الناس لرب العالمين.

لقد انقسم المسلمون اليوم إلى شطرين، شطرٍ يكفِّر وشطرٍ يكفَّر، ولا نكاد نجد بين هذين الشطرين بقيةً سالمةً إلا من رحم ربك.

فالشطر الأول يكفِّر بالرائحة يشمُّها، وبالخيال يتصوَّره، وبالظنِّ يتبنَّاه لأدنى سبب. ومن خلال هذا التكفير تدور رَحى الفتن، وتُسحق المجتمعات الإنسانية سحقاً[(١)].

● **إننا إن اتبعنا هديَ المصطفى ﷺ - الذي لا يريد بأمته إلا الخير - إذاً لانتهى الأمر، ولما وقعت هذه الفتن وهذا الهرج والمرج!**

لقد علَّمنا ﷺ بأنَّ هذه الفتن إذا كثُرت تكون شرطاً من أشراط الساعة الصغرى، وعلَّمنا أن نكسر سيوفنا ونحطِّم حدَّها على صخرةٍ، ونلقي أرديَتنا على رؤوسنا، وأن يرضى الواحد منَّا أن يكون عبدَ الله المقتولَ لا القاتل، فهو ﷺ القائل: (إنَّ بين يَدَي الساعة فِتَناً كَقِطع الليل المظلم، يُصبح الرجلُ فيها مؤمناً ويمسي كافراً، ويُمسي مؤمناً ويُصبح كافراً، القاعد فيها خير من القائم، والماشي فيها خير من الساعي، فكسِّروا قِسِيَّكم، وقطِّعوا أوتارَكم، واضربوا سيوفكم بالحجارة، فإنْ دُخِل يعني على أحدٍ

---

(١) شرح رياض الصالحين الدرس (٤٥٤ - ٤٥٧).

منكم فليكنْ كخيرِ ابنَي آدم)[١]. أي ليكن كهابيل المقتول، لا كقابيل القاتل.

وهو ﷺ القائل لأبي ذر: (يا أبا ذر أرأيتَ إنْ قَتَلَ الناسُ بعضُهم بعضاً يعني حتى تغرق حجارة الزيت من الدماء، كيف تصنع)؟ قال: الله ورسوله أعلم، قال: (اقعدْ في بيتك وأغلقْ عليك بابك)، قال: فإنْ لم أُترك؟ قال: (فأتِ مَنْ أنت منهم فكنْ فيهم)، قال: فآخذ سلاحي؟ قال: (إذن تُشاركَهم فيما هم فيه، ولكنْ إنْ خَشِيتَ أن يَروعَك شعاعُ السيف، فألقِ طرفَ ردائِك على وجهك حتَّى يبوء بإثمه وإثمك)[٢]، و(حجارة الزيت)، موضع بالمدينة في الحرة، سُمِّي بها لسواد الحجارة، وكأنها طُليتْ بالزيت.

عندما يكون بابُ الفِتَن مغلقاً فما أيسر أن نحرس هذا الباب كي لا يُفتح، ومن مظاهر حراسة هذا الباب، أن نُضحِّي بحقوقنا الجزئية ونصبر على ذلك في سبيل ألا يُفتح بابُ الفتنة، ولكنْ لو أنَّ هذا الباب فُتح فما أعسر أن نغلقه بعد أن فُتح.

كلُّ أحكام الشريعة الإسلامية تسير طِبق مُقتضى سُلَّم الأولويات، فتجعل المصلحة الدنيا ضحيَّةً من أجل استبقاء المصلحة الأعلى. لأجل ذلك يقول ﷺ: لنا من خلال حذيفة بن اليمان رضي الله عنه: (تسمعُ وتطيعُ للأمير وإنْ ضربَ ظهرك وأخذَ مالك، فاسمعْ وأطعْ)[٣]، وكأنه ﷺ يقول لنا: عليكم أن تضحُّوا وتصبروا على انتهاك حقوقكم الجزئية، ابتغاءَ لمقصدٍ كبير جداً، هو دَرْءُ الفتنة عن الأمة والمجتمع[٤].

---

(١) رواه أبو داود (٤٢٥٩)، وابن ماجه (٣٩٦١)، وأحمد (١٩٢٣١) كلهم عن أبي موسى الأشعري، واللفظ لأبي داود.

(٢) رواه أبو داود (٤٢٦١)، وابن ماجه (٣٩٥٨)، وأحمد (٢٠٨١٨)، والحاكم (٢٧١٣)، وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، كلهم عن أبي ذر، واللفظ لأحمد.

(٣) رواه مسلم (١٨٤٧) عن حذيفة بن اليمان.

(٤) شرح رياض الصالحين الدرس (٢٧٦) والدرس (٢٥٥).

● **ولكن هذا الذي نقوله شيء، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر شيء آخر.**

فالأمة التي أوصاها رسول الله ﷺ أن تصبر على فوات حقوقها الجزئية، حمايةً لها من الهرج والمرج والفتن، أمَرَها أن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر دون أن تخافَ في الله لومةَ لائم.

فنحن إذن نسمع ونطيع وفي الوقت ذاته ينبغي أن نذكِّر القادةَ والحكامَ بين الحين والآخر أن هذا شيء محرم، وأنَّ الله عز وجل يحاسب عليه، وأنه لا ينبغي أن تمتدَّ يد من إنسانٍ بظلم، سواء كانت يدُ لرجلٍ من عامة الناس أو من قادتهم.

الله عز وجل يأمرنا أن نتَّقِيَ الفِتَنَ وأسبابَها فيقول لنا: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ﴾ [الأنفال: ٢٥]. وإنما سبب الفتنة كما قال جمهور المفسرين، هو السكوت على المنكر.

وكأنه جل جلاله يقول لنا: إن تركتم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فاعلموا أنَّ فتنةً ما ستقع وستنتشر في المجتمع انتشار الجرثومة الفتاكة في الجسم. فلئن كانت الجراثيم المادية تتسبَّب بموت الفرد إن لم يعالجها، فإنَّ جُرثومةَ انتشار المعاصي والاستعلان بها وعدم الرجوع عنها تتسبَّب بموت المجتمع، إن أهمل الناس واجبَ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وموت الفرد غير موت المجتمع، إذْ موتُ المجتمع من جنس معنى الاجتماع، أي يضرب الله قلوب بعضهم ببعض، ويرسل عليهم مصيبةً عامة تتمثل بأنواعٍ من البلاء والفتن، فتكون سبباً لمهلكهم جميعاً بما فيهم الصالحون.

فعن أم المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله عنها أن النبي ﷺ دخل عليها فَزِعاً يقول: (لا إله إلا الله ويلٌ للعربِ من شرٍّ قد اقترب، فُتِحَ اليوم من رَدْمِ يأجوجَ ومأجوجَ مثلُ هذه) وحلَّق بإصْبُعِه الإبهامَ والتي تليها، فقلتُ: يا رسول الله أنهلكُ وفينا

الصالحون؟ قال: (نعم إذا كثر الخبث)(١).

إنَّ الرَّدْم الذي بين الناس وبين يأجوج ومأجوج يتهاوى شيئاً فشيئاً مع كثرة الفتن. فكلما كثرت الفتن كلما أصبح هذا الردم ضعيفاً، وكلما ازدادت الفتن تهاوى مزيدٌ من حجارة هذا الردم، إلى أن يتهاوى كلياً وتندلق عندئذٍ هذه الخليقةُ التي أعلن رسول الله ﷺ في أكثر من حديث أنها من علامات قرب قيام الساعة. نسأل الله عز وجل أن يعافينا من رؤيتهم ومن العيش زمانهم.

ولقد فهمتْ زينبُ رضي الله عنها هذا الذي يقوله المصطفى ﷺ، وعلمت الخطر المحدق بالمسلمين عامة فقالت: يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: (نعم إذا كثر الخبث)(٢).

● **فإن قال قائل: فما ذنب الصالحين حتى يهلكوا مهلك الظالمين؟**

يقول العلماء: أما الظالمون فيهلكهم الله لارتكابهم المنكر علناً وعدم الإقلاع عنه. وأما الصالحون الذين لم يشتركوا معهم في ارتكاب المنكر فيهلكون لسكوتهم على المنكر الذي يرونه أو يعلمونه، ولقعودهم عن واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ولقد أخبرنا الله عز وجل أن هذا قد حاق ببني إسرائيل فقال: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [المائدة: ٧٨ - ٧٩]، فقد كانت المنكرات تشيع بينهم، ولا عجب في ذلك، فهي

(١) رواه البخاري (٣١٦٨) واللفظ له، ورواه مسلم بلفظ قريب (٢٨٨٠) كلاهما عن زينب بنت جحش رضي الله عنها.
(٢) شرح رياض الصالحين الدرس (٢٦٠).

يمكن أن تشيع في أي عصر من العصور، لكنَّ الجريمةَ الكبرى أن تندلق المنكرات في المجتمع كما تتفجَّر المياه القذرة من مجاريها، ثم لا تجد مَنْ يلاحق هذه المصيبة وهذه المنكرات بالنهي والإنكار!

ولقد أكَّد لنا رسول الله ﷺ هذا المعنى فقال: (إنَّ أول ما دخلَ النقصُ على بني إسرائيلَ، كان الرجلُ يلقى الرجلَ فيقول: يا هذا اتَّقِ الله ودعْ ما تصنع فإنه لا يحلُّ لك، ثم يلقاه من الغد، فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيلَه وشريبَه وقعيدَه، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوبَ بعضهم ببعض، ثم قال: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ﴾)(١).

فأحدهم كان ينكر على صاحبه مُنكَرَه الذي يمارسه وينهاه عنه، حتى إذا لَقِيَه في اليوم التالي على ذات المنكر، لم ينكر عليه، ولم يفارق مجلسَه، وإنما استمرَّ في مجالسته ومؤاكلته. وهكذا سكت الجميع عن هذه المنكرات، وركنوا إليها بعد نفور، واستأنسوا بها بعد استيحاش، فترسَّبتْ في قاع مجتمعاتهم وتراكمت. عندها حاقت اللعنةُ بهم جميعاً، وضرب الله قلوبَ بعضهم ببعض.

وهذا ينطبق على كل مَنْ سار وراءهم واتَّبع سُنَنَهم. فالمنكرات الشائعة بين المسلمين اليوم كثيرة جداً.. فمنكرات في البيوت، ومنكرات في الأسواق، ومنكرات في الشوارع، ومنكرات حتى في بيوت الله، ومنكرات بين العامة، ومنكرات بين الدعاة إلى الله.. منكرات بعضها فوق بعض. وما هذه الفتن التي تدور رحاها في بلاد المسلمين، وما هذا الهرج والمرج الذي انتشر انتشار النار في

---

(١) رواه الترمذي (٣٠٤٨)، وابن ماجه (٤٠٠٦)، كلاهما عن أبي عبيدة، ورواه أبو داود (٤٣٣٦)، وأحمد (٣٧٠٥) كلاهما عن عبد الله، بألفاظ متقاربة، واللفظ لأبي داود.

الهشيم، إلا نتيجة وجود هذه المنكرات، ثم السكوت عليها وعدم إنكارها ! وإذا وُجِد آمرون بالمعروف ناهون عن المنكر فهم قليلون جداً نِسبةً إلى أصحاب المعاصي والمنكرات[١].

● **فإن قلتَ: هذا عقاب الله عز وجل للمنحرفين عن نهجه، وللصالحين الذين قعدوا عن واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فما هو حال الصالحين المصلحين الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر؟**

الجواب: إنَّ سنة الله عز وجل في عباده المستقيمين على أمره، والقائمين بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لها حالتان:

١ - عندما يكون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والمستقيمون على حدود الله هم الكثرةَ الغالبة، بحيث يشكِّلون النصف أو أكثر، فإنَّ الله عز وجل ينجيهم من العذاب، بينما يأخذ الظالمين بعذابٍ بئيس مصداقاً لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٥].

وإذا نظرنا إلى التاريخ الماضي، وجدناها سُنَّةً لا تشذُّ أبداً عبر القرون والآماد.

٢ - عندما يكون المنحرفون والمرتكبون للآثام هم الكثرةَ الغالبة، أما المستقيمون القائمون بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فهم الأقلّية، فالحكم في دار الدنيا للغالب، أما يوم القيامة فيُحشرون على نيّاتهم. أي عندما تنزل فتنة، فإنها لا تكون محصورة في نطاق الذين ظلموا فقط، بل سيصيب رشاشُها كلَّ من كان معهم، ولو كانوا مستقيمين آمرين بالمعروف ناهين عن المنكر.

ذلك لأنَّ هؤلاء المستقيمين القائمين بما كلَّفهم الله به من واجب الأمر

---

(١) شرح رياض الصالحين الدرس (٢٦٠) والدرس (٢٧٦).

بالمعروف والنهي عن المنكر، لما وجدوا أنفسهم أنهم هم الأقلية، وأنَّ أصحاب المنكرات هم الأكثرية، وأنهم مقيمون على منكراتهم مستعلنون بها لا يرعوون؛ كانوا يستطيعون أن يتحركوا وينتقلوا من هذا المكان الذي تشيع فيه المنكرات إلى مكان آخر، فأرضُ الله واسعة، ولكنهم لم يفعلوا. عندها إذا أراد الله أن يُهلك هذه البلدة، فإنه يهلكها بما فيهم هذه الأقلية، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾﴾ [النساء: ٩٧]، ثم يقول تعالى مستثنياً: ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُوْلَـٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾ [النساء: ٩٨-٩٩]، أي عندما تكون الأقلية المطيعة لا تستطيع حِراكاً ولا انتقالاً عن أماكن العصاة، فهؤلاء يعفو الله عنهم[1].

● **ولعل من يقول: إذا عرف المسلم يقيناً أن هؤلاء الذين يعكفون على غيِّهم لن يرعوا مهما أمرهم وحذَّرهم ونصحهم، أفيسقط عنه واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في هذه الحالة؟**

الجواب: لا يسقط.. لأننا أُمِرْنا أن نتناصح ونأمر بالمعروف وننهى عن المنكر، بل هي وظيفة أقامنا الله عز وجل عليها، ونوع من العبادة كلَّفنا الله عز وجل بها، تماماً كما كلَّفنا بالصلاة والصيام والزكاة وذكر الله، أيضاً كلَّفنا أن ننظر إلى المجتمع من حولنا، فكلما رأينا اعوجاجاً عن صراط الله عز وجل فعلينا أن نذكِّر بالله وأمره ونهيه، كما قال الله عز وجل لنبيه ﷺ: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الغاشية: ٢١-٢٢]، وقال: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾﴾ [الحجر: ٩٤]، أي لا يَشْغَلَنَّ بالَكَ إشراكُ المشركين، عليك وظيفة فأنجزها، هي أن

---

(١) شرح رياض الصالحين الدرس (٢٦٢).

تصدع بما تؤمر وانتهى الأمر. ولم تؤمر بتغيير القلوب وإجبار الناس على الاستقامة أبداً.

والدليل على ما نقول، ما أخبرنا الله عز وجل عنه من قصة اليهود الذين احتالوا على اصطياد الحيتان يوم السبت، فقامت فِرقةٌ منهم فنهتْهم عن ذلك واعتزلتْهم، وقامت فِرقة ثانية فلم تَنْهَ عن المنكر ولم تفعلْه، وقالت للفِرقة الناهية عن المنكر فيما أخبرنا الله عز وجل عنهم بقوله: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [الأعراف: ١٦٤].

فالفِرقة التي لم تفعل المنكر ولم تَنْهَ عنه، قالت للفِرقة الناهية عن المنكر: لماذا تتعبون أنفسكم في نصيحة قوم لن ينصاعوا لنصيحتكم، ولعل الله قد قضى بإهلاكهم وعذابهم! فاعتذرتِ الفرقةُ الناهية قائلة: نفعل ذلك معذرةً إلى الله فيما أخذ علينا من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولعل القومَ بهذا الإنكار عليهم يتقون ويتركون مخالفتَهم لأمر الله، ويرجعون إلى الله تائبين. إذ مُهِمَّتُنا الإبلاغ والتحذير، وليست مُهِمَّتُنا أن نجبرهم جبراً على الاستقامة فهذا لا طاقة لنا به، ولم نؤمر أصلاً به. ولقد أثنى الله عز وجل على الفرقة الناهية ونجّاهم من العذاب، مبيناً لنا ذلك بقوله: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾﴾ [الأعراف: ١٦٥].

إذن فمن الخطأ بمكان أن يقول أحدنا: إنني أشعر باليأس من هؤلاء الكفرة أو العصاة لذا فلا فائدة من تذكيرهم!

من أين جاءك اليأس؟ وما هو الدليل والبرهان الذي أطلعك على الغيب وأنبأك أنَّ هؤلاء سيظلون على غيِّهم ولن يؤمنوا ولن يتوبوا ويرعووا؟!

الغيب كلُّه عند الله، وهذا الكلام لا يقوله مؤمن ملتزم بمبادئ الإيمان بالله عز

وجل، لأنه تطاول على معنى العبودية لله عز وجل وتجاوزٌ لسقفها الذي لا ينبغي لعبدٍ قط أن يرتفع عنه أبداً.

لذا فعلى المؤمن أن يقوم بأمرين اثنين:

١ - أن يؤديَ مهمةَ ووظيفةَ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لذاتها، ولا شأن له بموضوع هدايةِ مَنْ يدعوهم أو عدمِ هدايتهم.

٢ - ألا يتجاوز سقفَ عبوديته لله عز وجل بادعاءِ معرفةِ الغيب، وأن يحسن الظن بمن يدعوهم إلى الله، إذ ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾(١).

• ولعلك تقول: ألم يقل الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥]؟!

نقول: لقد سُئل رسولُ الله ﷺ عن ذلك فقال: (بل ائتمروا بالمعروف وتناهَوا عن المنكر، حتى إذا رأيتَ شُحاً مطاعاً، وهوىً متبعاً، ودنيا مؤثرةً، وإعجابَ كلِّ ذي رأيٍ برأيه، فعليك بخاصة نفسك ودع العوامَّ، فإنَّ من ورائكم أياماً الصبر فيهن مِثلُ القبضِ على الجمر، للعامل فيهنَّ مثلُ أجر خمسين رجلاً يعملون مثلَ عملكم)، وفي رواية: قيل: يا رسول الله أجر خمسين منا أو منهم؟ قال: (بل أجر خمسين منكم)(٢).

قال العلماء: إنَّ خاصَّةَ نفسك هم أنتَ وأهلُ بيتك ورحمك وكلُّ مَنْ يلوذ بك، وكلٌّ منا له خاصته، فعليك أن تأمرهم بالمعروف وتنهاهم عن المنكر، فإن أنت فعلتَ

---

(١) شرح رياض الصالحين الدرس (٢٦٢).

(٢) رواه الترمذي (٣٠٥٨) وقال: حديث حسن غريب، ورواه أبو داود (٤٣٤١)، وابن ماجه (٤٠١٤)، والبيهقي في السنن الكبرى (١٠/ ٩٢)، والطبراني في الكبير (٢٢/ ٢٢١ برقم ٥٨٧)، والحاكم (٧٩٨٢) وقال: حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، جميعهم عن أبي أمية الشعباني عن أبي ثعلبة الخشني بألفاظ متقاربة، واللفظ للترمذي.

ذلك واهتديت إليه، فلا يضرُّك ضلالُ من ضلَّ من عامة الناس أو خاصتهم وقادتهم.

هذه الآية تخاطب مَنْ يغار على حرمات الله عز وجل غيرةً منكسةً.. يغضُّ الطرف عن منكرات بيته وأهله، ويحدِّق النظر في المنكرات العامة، ويطلق الزفير تلو الزفير على حُكَّامٍ قعدوا عن واجب إزالة هذه المنكرات، فتقول له: لا يضرُّك مَنْ ضلَّ إذا اهتديت، فهل أنت قد اهتديت؟ هل أنت تقوم بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في دارك وأسرتك ورحمك؟ في سوقك وفي طريقك؟

إن كنتَ قد سِرتَ على هذا المنوال فقد اهتديت إلى تطبيق دين الله عز وجل في خاصَّة نفسك ومَنْ حولك، ولن يضرك مَنْ ضلَّ عندئذٍ، فلماذا تملأ قلبك همّاً ونكداً بأمرٍ لم يكلِّفْك الله عز وجل به، ثم تُعرِض عما كلَّفك الله سبحانه وتعالى به؟!

فلو أن كُلاً مِنَّا نفَّذ هذا الذي يأمرنا به رسول الله ﷺ، إذاً لتواصلت شبكة الإسلام، ولتحوَّل المجتمع في أقصر فترة من الانحراف إلى الاستقامة، ومن الفساد إلى الصلاح. فإن رأيتَ المجتمع على خلاف ذلك فاعلم أننا لا ننفِّذ أمر رسول الله ﷺ هذا، ولا نُعنى بخاصة أنفسنا في بيوتنا!

نحن غالباً نعاني من الإفراط أو التفريط.

- إذا دخلنا بيوتنا رقدْنا رقدةَ أهل الكهف ونسينا الرقابةَ على أهل بيتنا، وطوينا صفحة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهذا تفريط.

- وإذا خرجنا من بيوتنا طالتْ ألسنتُنا في نطاق الحديث عن واجب الحكام في تغيير المنكرات العامة، وإذا بنا نصول ونجول دفاعاً عن حرمات الله - فيما نزعم - وغيرةً على انتهاكها، وهذا إفراط.

ولو كنا مخلصين لله عز وجل في عملنا، لبدأنا بخاصة أنفسنا كما علَّمنا اللهُ عز وجل ورسولُه ﷺ. فعندما أقوم أنا بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ضمن

دائرة أهل بيتي وخاصتي، ويقوم الآخر بذلك ضمن دائرة أهل بيته وخاصته، ويقوم الثالث بذلك، والرابع، والخامس، كلٌّ ضمن دائرة أهل بيته وخاصته، إذاً لا لْتقتْ هذه الدوائر الجزئية لتشكل دائرةً كبيرة كُلِّية، هي دائرة المجتمع الصالح السعيد القائم على شرع الله ونهجه[1].

عن هذا المعنى يتحدث البيان الإلهي فيقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]. إنها سُنَّة ربانية صِيغتْ بعبارةٍ بليغةٍ ذاتِ قرارٍ مزدوج:

- الأول: إنَّ الله لا يغيِّر ما حلَّ بأمةٍ أو جماعةٍ من السوء والضنك والتخلف والضياع، إلى نقيضها من الخير والأمن والرخاء، حتى يبدؤوا هم فيُصلحوا نفوسهم بتزكيتها وتطهيرها من السوء والأخلاق الذميمة.

- الثاني: إنَّ الله لا يغيِّر ما حلَّ بأمةٍ أو جماعةٍ من النعيم والأمن ورغد العيش إلى نقيضها من البؤس والشدة والبلاء، حتى يبدؤوا هم فيكفروا بعد الشكر، ويتظالموا بعد العدل، ويركنوا إلى الفسوق والعصيان والعتو والاستكبار وسوء الأخلاق.

إذن.. فصلاح النفوس سبب لصلاح المجتمع، وفسادها سبب لفساده.

والله عز وجل رقيب على عباده، فإذا قام الأفراد بواجبهم تجاه خاصة أنفسهم وذويهم بالإصلاح والتزكية، فلا بد أن ينهض القادةُ من وراءهم أيضاً بالإصلاح وتغيير المنكرات.

نعم والله.. إنها قاعدة لا نعلم لها شذوذاً أبداً طوال التاريخ:

ما استيقظت أمة من رقادها وهبَّ أفرادها يذكِّرون الناس بدين الله عز وجل، بالحكمة والموعظة الحسنة، إلا وسرى الجِدُّ واليقظةُ إلى القادة أيضاً!

---

(١) شرح رياض الصالحين الدرس (٢٦٤).

وما نامت أمة عن واجبها الذي أناطه الله في عنق أفرادها، إلا وسرى النوم إلى الآخرين[١] !

فاللهمَّ أعِنَّا على التغييرين: تغيير ما بأنفسنا من سوء الأخلاق، وتغيير ما حلَّ بمجتمعاتنا من الفتن والبلاء والفُرقة والشِّقاق، آمين.

- هنا انتهى بنا المطاف في الحديث عن الفَرق بين العلماء الربانيين وعلماء السوء وفيما يلي جدول يبين هذه الفروق باختصار:

العالم الرباني	عالم السوء
١ - ينظر إلى نفسه على أنه لا شيء - حقيقةً لا تصنعاً - وكل الناس خير منه. وما ذلك إلا لأنه وصل إلى التوحيد الحقيقي لله عز وجل. فعبوديته وحبه وخوفه وتعظيمه، كل ذلك لله وحده.. ومَنْ وصل إلى حقيقة التوحيد قادر على أن يوصل إليها غيره من الناس، فهو واصل موصل إلى الله عز وجل.	١ - يرى نفسَه الوليَّ المقرب إلى الله عز وجل، وكلُّ الناس أدنى منزلةً منه. وما ذلك إلا لأنه وقع في فخِّ الشرك الخفي، فهو يشرك نفسه في دعوته إلى الله عز وجل. فعبوديته وحبه وخوفه وتعظيمه كل ذلك للنفس والهوى.. ومن قُطع بكمائن النفس وشراكها عن حقيقة التوحيد لا يمكن أن يوصل إليها غيره من الناس، فهو مقطوع قاطع عن الله.
٢ - ينتصر لله عز وجل فقط، ولا يمزج انتصاره لله بانتصاره لنفسه. لذا فهو يغضب إذا انتُهكت حرماتُ الله، بينما يصفح ويعفو إذا انتُهكت حرماتُ نفسه، ويتخلَّق بأخلاق الله عز وجل من رحمةٍ وعفوٍ وصبرٍ وإحسان.	٢ - ينتصر لنفسه فقط ولا ينتصر لله. بل ينتصر لنفسه ويدَّعي أنه ينتصر لله. لذا لا يتحرَّك فيه ساكن إذا انتُهكتْ حرماتُ الله، بينما يغضب ويصول ويجول إذا انتُهكت حرماتُ نفسه، ويتخلَّق بأخلاق الطغاة من عنفٍ وانتقامٍ وبغيٍ وعدوان.

(١) من سنن الله في عباده (ص ١٥٨-١٦١)، إضافة إلى شرح رياض الصالحين الدرس (٢٦٧).

٣ - أمين على شرع الله الذي ينقله للناس مهما كانت الظروف حوله حالكة. فحبُّه لله عز وجل وخوفه منه سبحانه يمنعانه من تغيير شرع الله عز وجل، انسياقاً وراء رغبةٍ دنيويةٍ أو شهوةٍ نفسية.	٣ - خائن لشرع الله عز وجل. يحلُّ ما حرَّم اللهُ، ويحرِّم ما أحلَّ اللهُ، فحبُّه لنفسه وخوفه على فوات حظوظها العاجلة، يدفعانِه إلى التلاعب بأحكام الله عز وجل، لاهثاً وراء مغانمَ دنيويةٍ وشهواتٍ نفسية.
٤ - يمارس واجبَه في الدعوة إلى الله عز وجلَّ ولا يُقحِم نفسَه في النتائج التي هي من خَلْق الله.	٤ - يقفز فوق المقدِّمات التي أمره بها الله، ليُقحم نفسَه في النتائج التي هي من خلق الله.
والنتيجة: صلاح حال المجتمع بصلاح حال أفراده، والوصول إلى المجتمع الإسلامي الرشيد المنشود من أقرب طريق.	والنتيجة: تكفير الناس وإثارة الفتن والهرج والمرج، وسحق المجتمعات الإسلامية سحقاً، ومن ثمَّ ضياع المجتمع الإسلامي الرشيد المنشود.

وما ساقنا إلى كل هذا التطويل في الحديث عن الثمرة الثالثة للتزكية وهي: الانتصار لدين الله عز وجل والترفع عن الانتصار للنفس، إلا ما تعانيه اليوم - نحن المسلمين - من أنَّ بأسَنا قد أصبح بيننا، بدلاً من أن يكون على عدوِّنا. وما ذلك إلا حصاد نفوس لم تتزكَّ، فاشرأبَّ أصحابها للانتصار لها، بدلاً من الانتصار لدين الله، وتركنا وعد الله ﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧]، لنقع في وعيده ﴿وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦]. فاللهم أخرجنا بقوّتك من أوحال أنفسنا، لنكون عباداً لك حقاً، كما أنك ربنا حقاً. وكما أننا عبيدك حقاً.

وأما الثمرة التي تليها من ثمرات التزكية فهي:

الثمرة الرابعة: استعمال الصفات التي سمّاها الله عز وجل بـ (الأمانة) من حدها المفيد فقط، والوصول إلى حقيقة التقوى، ومن ثم تحقق الأخوة الإنسانية: وفيها خمسة مباحث

المبحث الأول: ما معنى (الأمانة) في قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾ [الأحزاب: ٧٢]؟

عندما خلق الله عز وجل هذا الكون شاء - ولا معقّب لحكمه - أن يجعل في كونه هذا مخلوقاً ممتازاً عن سائر المكوّنات - وهو الإنسان - فيجعله سيّدَ هذا الكونِ، ويجعل سائر مكوّناتِهِ مسخرةً له قائمةً بخدمته.

وشاء الله عز وجل أن يكلّف الإنسان بعمارة هذا الكون - عمارة مادية ومعنوية - وهو المقصود بالاستعمار في قوله: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١].

ولكي يسخّر الله للإنسان ما في الأرض ويجعله قادراً على استخدامها وعمارتها، أعطاه مجموعةً من الملكاتِ والصفاتِ التي لا بد منها لتتكامل لديه القدرة على إدارة شأن الكون وتعميره. هذه الصفات هي:

١ - صفة العقل، وما يتفرع عنها من العلم والإدراك والقدرة على تحليل الأشياء وسبر الأغوار.

٢ - صفة الأنانية، وما يتفرع عنها من النزوع إلى الأثرة والرغبة في التملك وحماية النفس. فالشعور بقدرٍ من الأنا أمر ضروري، ولو أنَّ الإنسان لم يشعر بأنه مستقل عن غيره وبأنَّ له ذاتاً ينبغي أن يرعاها، إذاً لأصبح تافهاً لا يملك شيئاً من مقوِّمات الحياة، من مالٍ أو دار أو أثاث، وغير ذلك من ضروريات الحياة وحاجياتها. إنه بواسطة الشعور بقدر من الأنا وجد نفسه يرغب في التملك، وإذا به

يمتلك داراً ويقول: هذه داري، ولا يمكن لأحد أن يغتصبها مني. وكذلك هذا المتاع متاعي. هذا كله آتٍ من الشعور بقدر من الأنا وما يتفرع عنها من الرغبة في الاحتياج والتملك.

٣ - صفة القدرة والقوة، وما يتفرع عنهما من النزوع إلى السيطرة ومن دفاعٍ واستبسالٍ من أجل حماية الحقوق وحراستها وحفظ العدالة والدفاع عن المثل الفاضلة.

٤ - شحنة من العواطف والأشواق والانفعالات مثل: الحب والكراهية والغضب والإعجاب والتبجيل والتعظيم، والتي تعدُّ متمِّمةً لقيمة تلك الصفات.

هذه الطاقات والصفات كلُّها، عبارة عن أسلحة سلّح الله بها الإنسان لكي يستطيع أن ينجز المهمة التي عُهدت إليه. إلا أنَّ لهذه الصفات آفات عظام، فهي أسلحة ذات حدين، إن استُعملت من طرف، أفادت الفرد والمجتمع الإنساني فائدة عظيمة، ولكن إن استُعملت من الطرف الآخر، أو استُعمل الطرفان معاً، أهلكت الحرث والنسل.

من أجل ذلك سمّى الله عز وجل هذه الأسلحة التي ائتمن عليها الإنسان بـ (الأمانة) وبيَّن مدى أهميتها وعظم شأنها فقال: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

ومصدر خطورة هذه الصفات أنها آثار لصفات الربوبية، فالعلم والتملك والقوة والقدرة والسلطان، كلها مقوّمات للألوهية وصفات للرب جل جلاله، فمن شأن هذه الصفات إذا وجدت في الإنسان أن تُسكِره وتُنسِيَه حقيقةَ عبوديته لله عز وجل، وتجعله يتمطّى إلى مستوى الربوبية والألوهية، وإن كان لا يملك منها إلا الظلال والآثار لصفات الرب جل جلاله. وهذه الظلال والآثار ليس لها من حقيقة الصفات الإلهية إلا الاسم وحده.

ذلك أن الصفات التي يتمتع بها الإنسان تنقسم إلى قسمين:

- صفات نابعة من بشريته ومخلوقيته، مثل حاجته إلى الطعام والشراب والنوم والزواج. هذه القائمة من الصفات لا يوجد بينها وبين صفات الله أي تواصل، فهو جل جلاله ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، و ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ﴾ [الأنعام: ١٠١].

- صفات علوية تنزلت عليه من عَلو، وليست نابعةً من بشريته. مثل صفة العلم والقدرة والإرادة والسمع والبصر. هذه الصفات يوجد بينها وبين صفات الله جل جلاله تواصل. فمن صفات الله عز وجل أنه عليم قدير سميع بصير، ولكنها صفات تُنسب إلى الإنسان نِسبةً مجازية، فقد سكبها الله عز وجل في الهيكل البشري كما قال: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ [النحل: ٧٨]، وقال: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، من أجل أ ن ينهض بوظيفته التي كلَّفه الله عز وجل بها. وبدون هذه الفيوضات الإلهية، لا يمكن للإنسان أن يفعل شيئاً.

إذن فالسمع والبصر والعلم والقدرة والإرادة والوجود، كلها صفات الواحد الأحد فقط، فهي صفات ذاتية قائمة بذات الله عز وجل.

أما وجود الإنسان، فوجودٌ ناقص تبعي، متوقِّف على إيجاد الله عز وجل له وإمداده بالحياة لحظة فلحظة. وكذلك صفاته هي صفات تبعية، أشرقت عليه من الله عز وجل، فهو يتمتع بها إلى حين انتهاء وظيفته في الأرض. ولو أنَّ مدد الله عز وجل انقطع عن الإنسان لحظة أو أقل من ذلك، إذن فلا سمعه يبقى ولا بصره ولا علمه ولا قوته ولا قدرته ولا وجوده. فكلها صفات تبعية وليست صفات ذاتية.

ومن نتائج الخطورة التي في هذه الصفات، أنَّ من شأنها أن تحمل صاحبَها على أن يستعملها من حدِّها الضار، وإذا بها تنقلب لتصبح عاملَ اضطرابٍ وشقاءٍ في حياة الإنسان، بدلاً من أن تكون عامل سعادةٍ ورقي ونظام.

فإذا بصفة العلم تصبح أداة للوصول إلى ما يدمِّر الكون والإنسان !

وإذا بصفة الأنانية تصبح أداة للتكبر والتطاول على الآخرين، وتصبح نزعة التملك أداة لسلب أموال الغير !

وإذا بصفة القدرة والقوة تصبح وسيلة لظلم الآخرين واستعبادهم !

من أجل ذلك، كان لا بد من قوة أخرى، توجّه هذه الصفات إلى الوجهة الصالحة المفيدة، وتمنع استعمالها من حدها الضار[١].

المبحث الثاني: ماذا عسى أن تكون هذه القوة التي تسيطر على شِرّة تلك الصفات وتدفعها في طريق الصلاح وحده؟

إنها قوة العقيدة الإيمانية الصحيحة عن الكون والإنسان والحياة، والتي تجعل الإنسان يقف عند حدود عبوديته لله عز وجل لا يتعدّاها. من أجل ذلك كان لا بد من أن يعرِّف اللهُ عبادَه بأنهم عبيد مقهورون تحت سلطان ربوبيته.

هذه المعرفة، تقاوم دوافِعَه إلى السيطرة والبغي والعدوان وإشفاء الغليل. فعبودية الإنسان لله عز وجل تقاوم ذلك كله.

لأجل ذلك أرسل الله سبحانه وتعالى إلى الإنسان - عن طريق الرسل والأنبياء - خطاباً يعرِّفه فيه على ذاته وعلى ربه وعلى الوظيفة التي أنيطت في عنقه، وكأنه جل جلاله يقول له:

(يا ابن آدم، انظر قبل أن تسكرك هذه الصفات والطاقات، واعلم أنك لست مالكاً لها، بل أنت مملوك. أنت مستودع لهذه الصفات والطاقات، وأنا صانعك ومالكك. من عندي انطلقتَ، وإلي ستعود. وأنا أمدّ حياتك لحظة فلحظة بالوجود. وأنا أراقبك وأنظر إليك ماذا تصنع في هذه الأمانة التي وضعتها بين يديك. المطلوب

(١) شرح كتاب كبرى اليقينيات الكونية الدرس (٧).

منك إقامة عُمران اجتماعي يُظلّه الوئام والحب والوفاق والعدالة والمساواة والوحدة في الأسرة الإنسانية.

فإن أنت استعملت هذه الصفات لهذه الوظيفة، فلسوف أجزيك الجزاء الأوفى. أما إن أسكرتْك هذه الصفات، فنسيتَ هويتك عبداً لله، وقلتَ أنا القوي، وأنا الفعال لما أريد، فاعلم أنك لن تنجوَ من سطوتي وعقابي، ولسوف آخذك من ناصيتك).

هذا الخطاب والبيان هو الإسلام، ولو تأمل به الإنسان وآمن به إيماناً جازماً قائماً على أساسٍ من البحث العقلي المتأمل الحر، لشعر في أعماق كيانه بأنه عبدٌ لهذا الإله الواحد العظيم، وأصبحت هذه الصفات الخطيرة والهامة التي يتمتع بها، أقل من أن تتجاوز به حدَّ عبوديته. وما هي إلا أن تنقلب لتصبح وسيلةً عظمى لسعادته وسعادة بني جنسه، وتقوم بين الناس وشيجةُ الأخوة والمساواة أمام عبوديتهم لله عز وجل، بعد أن كانت تقوم بينهم مسابقات ومنافسات غير شريفة، في ميدانٍ تتصادم فيه القوى وتتنازع فيه الأسنة. حينئذ:

- تغدو صفةُ العلم وسيلة لإفادة الناس وإسعادهم، ونوراً وهاجاً ينكشف به المزيد من خدمات الكون للإنسان.

- وتغدو نزعةُ التملّك وسيلةً طبيعية لإقامة حياة عادلة رخيّة.

- وتغدو نزعةُ القوة والبطش سبيلاً إلى حراسة الحقوق وحفظ العدالة.

وخلال فترة بسيطة ستجد هذا المجتمع هو مثال المجتمع السليم الآمن، الذي يعيش حياة طيبة رخية تشيع فيها الألفة والإيثار.

والدليل على ذلك له شِقان، إيجابي وسلبي:

أما الدليل الإيجابي: فهاهم سحرة فرعون، قبل أن يعرفوا أنفسَهم عبيداً لقيوم السماوات والأرض، كانوا عبيداً أذلاء ضعفاء لفرعون، يقولون: ﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا

﴿نَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٤٤]. ولكن لما دخل الإيمانُ قلوبَهم، وعرفوا هويتهم عبيداً مملوكين لله الواحد الأحد قالوا: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٤٧]. ولما تهددهم فرعون بقوله: ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [طه: ٧١]، قالوا: ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾ [طه: ٧٢]. ولو أنهم سمعوا تهديد فرعون قبل إيمانهم بالله عز وجل، إذاً لأذابهم خوفاً. ولكن عبوديتهم لله انتشلتهم من عبوديتهم لكل من سواه، فقالوا هذا الكلام.

إذن فمعرفة البيان الإلهي المتمثل بدين الإسلام، هذه المعرفة، تنزل بالمتألهين من عروشهم الزائفة إلى مستوى الإنسانية الراضية، وتصعد بالمستضعفين أيضاً إلى خط الإنسانية الراضية السليمة، فلا استكبار ولا ذل. وإذا بالكل يجتمعون على صعيد واحد من السلم والحب والوئام. فهل يمكن لشيء أن يحقق هذا غير معرفة الإنسان لذاته عبداً لله، ومعرفته لخالقه قيوماً عليه؟!

- وأما الدليل السلبي: فانظر إلى العالم المترامي الأطراف. لماذا يتهارج الناس ولماذا يسفك بعضهم دماء بعض؟ لماذا يقوم الإنسان بدورٍ ما قام به أعظم الوحوش وأخطرها في الغابات؟

إنهم يستعملون صفات الـ (أنا) والعلم والحيلة والمكر من حدِّها الضارّ، لذا فالعالم المتمدن المتحضر اليوم مشغول بصنع أحدث وسائل الدمار. فهذا يهيئ أنياباً للطعان، وذلك يهيئ أنياباً أشد! ترى ما الذي يجعل هؤلاء وهؤلاء يهدؤون ويطمئنون بالاً؟

إن كل الوسائل المتمثلة في أصول التربية وفلسفة الحضارات لا تستطيع أن تفعل شيئاً، ولا أن تنهي صراعاً أبداً، إلا شيئاً واحداً، هو أن يعلم الفرقاء مَنْ هم؟ هل هم أحرار، أم هم مملوكون لله الواحد القهار؟

فمعرفتهم أنهم عبيد مملوكون لله عز وجل، هو الشيء الوحيد الذي يغير الحال. فإذا عرفوا هذا شعروا بأن لجاماً محكماً قد وُضع في أفواههم، فلا يستطيعون أن يفعلوا شيئاً من هذا إطلاقاً.

يقول العلماء: إن أخطر وحش على وجه الأرض لا تبحث عنه في الغابات، بل ابحث عنه في أعظم عالم متمدن.. إنه الإنسان.

هذا الإنسان يفوق الوحوش كلها ضراوة إن لم يُلجم بلجام الدين والأخلاق بإحكام، هذا هو فقط الذي يروِّضه.

لقد جعل الله عز وجل للحيوانات كلِّها قانوناً متكاملاً في حياتها اسمه (الغريزة)، فالسبع الضاري إذا جاع تحركت فيه غريزة الافتراس، ولكن إذا شبع ورأى طعامه في جحره نامت فيه هذه الغريزة. أما الإنسان فقد كرمه الله سبحانه وتعالى بدلاً عن هذه الغريزة التلقائية بالعقل، وكأن الله عز وجل يخاطبه قائلاً: أيها الإنسان لقد أعطيتُك عقلاً ورشداً، ولم أُلجِمْك بلجام الغريزة كما فعلتُ بالحيوانات، وعرَّفتُك بوظيفتك في كتاب هو أمامك فيه كل البيانات، فاقرأه وافعل ما كلَّفتُك به باختيارٍ ومحبةٍ وطواعية، فأنت أكرم من تلك الحيوانات التي تسير طبق وظيفتها بالغريزة وهي لا تعلم، وأنا أريد منك أن تؤدي وظيفتك بحرية وإرادة واختيار. وسأثيبك على ذلك، ولك عندي حياة أطول من هذه الحياة.

فإذا لم يأخذ الإنسان بهذا البيان ويقيد نفسه به، ويضع مخافته من الله عز وجل بين جوانحه، وأُفلت من زمام الدين، فما الذي سيُلجمه؟!

لا الغريزة موجودة، ولا الدين الحق الذي جعله الله عز وجل قائماً مقام الغريزة موجود. عندها سيقفز هذا الإنسان من هنا إلى هناك بدون أي قانون، وسيفعل ما يشاء دون أي حدود أو ضوابط، وسيجعل من نفسه سَبُعاً ضارياً دون هدف، وإنما

هدفه فقط إشفاء الغليل، وبذلك يكون أخطرَ من الوحوش ذاتها[١].

لأجل ذلك خاطب الله عز وجل الناس جميعاً، مبيناً لهم أنَّ أصل الأخوَّة ومنطلقها الأول في حياة الإنسان، إنما هو أُخُوَّةُ الأسرة الإنسانية الفطرية النابعة من الخلق، واضعاً لهم القاعدة الأولى لهذه الأخوة في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝١﴾ [النساء: ١]. فمعنى الرحم في هذه الآية هي الرحم التي تشيع بين البشر جميعاً، لانحدارهم من أب واحد وأم واحدة.

ولكن هذه الأخوة لا بد لها من سياج وحِصن يحفظها مما يتهدَّدها، ويجعلها باقية مهما تكاثر الناس وتباعدوا.. فما هو هذا الحِصن؟

إنه حِصن الإيمان بالخالق جل جلاله الذي هو ربُّ هذه الأسرة. فإذا عرف البشر جميعاً أنفسَهم عبيداً لهذا الإله وآمنوا بربوبيته وخضعوا لسلطانه، فإن هذه العقيدة الجامعة تصبح صندوقاً يحفظ الأخوَّة الإنسانية من التمزُّق والضياع، ويضع هذه الأخوة موضع التنفيذ. ومن ثَمَّ فإنَّ الباري سبحانه وتعالى يضع لنا القاعدة الثانية لهذه الأخوَّة بقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠]، وكأن الله عز وجل يقول لنا: إنَّ أخوَّتكم الإيمانية هي التي تحافظ على أخوَّتكم الإنسانية، فمن شرد عن مظلة العقيدة وحِصن الإيمان فقد ضحَّى بأخوَّته الإنسانية ومزَّقها شر ممزق.

ذلك لأن الأخوَّة بين الناس تزداد عُمقاً، كلما كان الأفراد أكثر ارتباطاً بالله عز وجل، أي أكثر عبودية له، وخوفاً منه، وحباً وتعظيماً له سبحانه. بينما تَذْبُلُ وتضعف وتصبح أثراً بعد عين، عندما تجف العبودية لله في القلوب، وينضب حب الله

(١) شرح كتاب كبرى اليقينيات الكونية الدرس (٧).

والخوف منه والتعظيم له فيها. فالأُخوّة بين الناس كالأغصان الكثيرة من الشجرة الواحدة، كلما قوي الجذع قويت الأغصان، وكلما ضعف الجذع ضعفت الأغصان.

مثال: قبل بعثة النبي ﷺ، كان العربُ في الجزيرة العربية مثالَ التهارج والتخاصم والشقاق لأتفهِ الأسباب، وكان القتل يستحرُّ والحرب تقوم ولا تقعد، وتستمر ما شاء الله أن تستمر. فكانت حالة الحرب هي الأصل، أما حالةُ السلم فكانت حالةً عارضة. مع العلم أنَّ الأخوّة الإنسانية بينهم موجودة وهي واقع، ولكنها جَفَّتْ ويَبِسَتْ لأنها لم تُسقَ بماء العبودية لله عز وجل والحب والخوف والتعظيم له. أما بعد بعثته ﷺ، فقد دخلت العقيدة الإيمانية في طوايا قلوبهم وعقولهم، وفاضت أفئدتهم حباً لله عز وجل وخوفاً منه وتعظيماً له، فخرج من هذه القلوب كل الضغائن والأحقاد، وذهب كل ذلك التهارج والتقاتل والبغي، ليحلَّ مكانها الحبُّ والودُّ والإيثار، وأصبحوا مضرب المثل في الأخوة والتراحم والتآزر.

فالأخوة الإنسانية + مشاعر العبودية لله والحب له والخوف منه والتعظيم له سبحانه = الأخوة الإيمانية[1].

المبحث الثالث: ماذا تفعل العبودية لله عز وجل حتى يكون لها هذا الأثر السحري، وماذا تفعل التقوى؟

إن مبدأ عبودية الإنسان لله الواحد الديان، هو المبدأ الوحيد الذي يؤيده العقل الإنساني ويتّفق معه. فإذا ما احتكَمْنا إلى ميزان العقل والمنطق- وهو أقدسُ ميزانٍ على الإطلاق- بصفاءٍ وإخلاصٍ وبدون أيِّ خلفيةٍ مصلحيةٍ، فإنَّ العقل يعطينا مبدأ واحداً لا عشرات المبادئ. فإذا انصاع الجميع لهذا المبدأ توحّدوا واجتمع شملهم، فكان هذا المبدأ غذاء للأخوة الإنسانية الفطرية.

---

(١) شرح رياض الصالحين الدرس (٢٥٣).

أما إذا تركنا ساحةَ العقل، وبحثنا عن مبادئ لا يؤيدها العقل ولا المنطق، وإنما تؤيدها العصبية أو المصالح أو الأهواء والشهوات أو التقاليد، فلسوف نجد أنفسنا أمام عشرات بل مئات المبادئ. لذلك فهي تفرِّق ولا تجمِّع، وتبدِّد ولا توحِّد، وتبعث على التعادي والخصام لا على التعاون والوئام. ذلك لأن الأهواء متشعبة، والعصبيات متنوعة، والتقاليد متلونة. فإذا فتحنا باب اللاعقلية واللامنطقية تجاوباً مع عصبية أو شهوة أو تقليد، تمزقت الأسرة الإنسانية الواحدة مِزَقاً مِزَقاً.

لقد بيَّن لنا الله عز وجل أن المحورَ الجامع للناس جميعاً، والمبدأ الحق الواحد الذي يصلح أن يوحِّدهم، إنما هو مبدأ العقيدة، مبدأ تيقُّن الإنسان بعبوديته لله عز وجل. فإذا ما عرف الإنسان عبوديته لله عز وجل، ومن ثم آمن بربوبية الله عز وجل ومالكيته لكل شيء، فقد أمسك - هو وبنو جنسه - بهذا المحور، وتلاقت حوله أيديهم، وتوحدت عليه قلوبهم. فهو جل جلاله القائل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [آل عمران: ١٠٢ - ١٠٣].

فالله عز وجل قبل أن ينهانا عن التفرقة، دلنا على المحور الجاذب الذي يجذبنا - نحن البشر - إليه جميعاً طالما كنا نحتكم إلى العقل فقال: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا﴾، ثم بعد ذلك قال: ﴿وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾. وكأنه جل جلاله يقول لنا: يا عبادي الذين عرفوا أنهم عبيد مملوكون لي وأني مالكهم، اعتصموا بي من خلال تمسككم بكتابي وسنة نبيي محمد ﷺ، فإنه حبلي المتين الذي إن تمسكتم به نجوتم من الفرقة والشتات. وهو حبل يتفق مع قرار عقولكم جميعاً، على اختلاف ألسنتكم وألوانكم، فاجتمعوا حوله ولا تتفرقوا. أما إن أعرضتم عن محور العقل الواحد والمبدأ

الواحد، فلا بد أن تستبدلوا به محاور الأهواء والشهوات والعصبيات، وهي محاور كثيرة متشاكسة متصادمة، وإذاً فلا بد أن تقعوا في الفرقة والشتات. وصدق ربنا عز وجل القائل: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾[الأنعام:١٥٣].

ثم إن الله عز وجل بعد أن بيَّن لنا محور العبودية لله عز وجل الجامع للناس جميعاً طالما احتكموا إلى العقل، بيَّن لنا أن السبيل الأمثل لوضع عبوديتنا لله عز وجل موضعَ التنفيذ والسلوك، ومن ثم تحقُّق الأخوة الإيمانية، إنما هو عمارة القلب بالتقوى.

- ففي الآيات الآنفة الذكر يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُوا بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٢-١٠٣].

- وفي تبيانه للقاعدة الأولى للأخوة، وهي قاعدة الأخوة الإنسانية يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [النساء: ١].

- وفي تبيانه للقاعدة الثانية للأخوة، وهي قاعدة الأخوة الإيمانية يقول: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الحجرات: ١٠].

وها هو ذا رسول الله ﷺ يبين لنا دور كل من العبودية والتقوى في تحقّق الأخوة الإيمانية فيقول في الحديث الذي رواه الشيخان: (إياكم والظنَّ فإنَّ الظنَّ أكذبُ الحديث، ولا تحسَّسوا، ولا تجسَّسوا، ولا تنافسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عبادَ الله إخوانا كما أمركم. المسلم أخو المسلم: لا يظلمه، ولا يخذُله، ولا يحقِره. التقوى ههنا التقوى ههنا - ويشير إلى صدره - بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم. كل المسلم على المسلم حرام: دمه، وعرضه،

وماله. إن الله لا ينظر إلى أجسادكم، ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم)[١] .[٢]

فهو ﷺ ينهانا عن سبعة أمور ثم يقول لنا: (وكونوا عباد الله إخواناً كما أمركم)، أي كونوا يا عباد الله إخواناً. فكلمة (عباد الله) منادى وأداة النداء محذوفة. وقد ناداهم بـ (يا عباد الله)، لينبّههم إلى ما يحثّهم على الأخوّة، وكأنه يقول لهم: ألستم عباد الله؟ ألستم إخوة لأب واحد وأم واحدة؟ إذاً لماذا تتقاطعون؟

أو أنَّ المعنى هو: كونوا عباداً لله إخواناً، فكلمة (عباد الله) خبر كونوا. أي تحققوا بذُلِّ العبودية لله عز وجل، تكن هذه العبودية سُقيا وغذاءً للأخوة بينكم، فتشتد، وتينع، وتخضر. وتتآلف قلوبكم وتجتمع حول محور عبوديتكم لله الواحد الأحد.

ثم إنه ﷺ، يبين لنا أن خير ما يعيننا على ترك هذه الأمور التي نهانا عنها من: سوء الظن، والتحسس، والتجسس، والتنافس غير الشريف، والتحاسد، والتباغض، والتدابر، والظلم، والتخذيل، والتحقير، إنما هو التقوى، فيقول: (التقوى هينا، التقوى ههنا). ويشير إلى صدره.

وعندما يشير الرسول ﷺ إلى صدره ويقول: (التقوى ههنا، التقوى ههنا)، فإن ذلك يعني أن ما نراه في السلوك الظاهر من امتثال أوامر الله، والابتعاد عن نواهيه، كل ذلك هو ثمرة التقوى، أما التقوى فمكانها القلب. فإذا وجدت التقوى الحقيقية في القلب، فلا بد أن تثمر. وثمرة التقوى، الالتزام بأوامر الله والابتعاد عن نواهيه. أما جوهر التقوى ففي القلب.

---

(١) ذكره الإمام النووي في كتاب رياض الصالحين (١٥٧٢) بهذا اللفظ تماماً، وقال: رواه البخاري ومسلم.. ولم أجده بذات اللفظ في الصحيحين، ولكن بلفظ مقارب، في البخاري (٥٧١٧)، وفي مسلم (٢٥٦٤) كلاهما عن أبي هريرة.

(٢) شرح رياض الصالحين الدرس (٢٥٣).

والتقوى مأخوذة من الوقاية. والوقاية تعني حفظ الإنسان نفسه من كل ما يؤذيه ويضره. أما المعنى الشرعي لكلمة (التقوى)، فهو أن يجعل العبد بينه وبين ما يخافه من سخط الله وقاية.

يقول أحدهم للآخر: اتَّقِ الله يا رجل.. أي ضَعْ مخافة الله عز وجل بين جوانحك.

لكن التقوى لا تتحقق من الخوف من الله عز وجل فقط، ولا من الحب لله عز وجل فقط، ولا من تعظيم الله سبحانه وتعالى فقط - وكل ذلك مكانُه القلب - وإنما تتحقق التقوى، من اجتماع الحب مع الخوف مع التعظيم والمهابة من الله عز وجل في القلب. وإذا ما ازدهرت هذه العواطف في القلب، أثمرت فعل الطاعات وترك المحرمات[1]. فإن وقع في المحرمات، رجع وتاب إلى الله عز وجل، فتاب الله عليه.

من هنا كانت التقوى أجمع كلمة في الدلالة على مجمل ما يشتمل عليه دين الله عز وجل، هذا ما أشار إليه رسول الله ﷺ بقوله: (عليك بتقوى الله عز وجل فإنها جِماعُ كلِّ خير)[2]. [3]

---

(١) وقد علمنا سابقاً أن هذه العواطف هي ثمرة التزكية وثمرة العبودية لله عز وجل، فمن أيقن بمملوكيته لله عز وجل، وبمالكية الله عز وجل له ولما يسبح فيه من النعم جملة وتفصيلاً، لا بد أن يحب هذا الإله ويخافه ويعظمه، وعلمنا أيضاً أن السلوك يتبع هذه العواطف حتماً.

(٢) رواه الطبراني في المعجم الصغير (٢/ ٦٧)، وأحمد (١١٣٦٥) بلفظ: (أوصيك بتقوى الله فإنه رأس كل شيء) كلاهما عن أبي سعيد.

(٣) شرح رياض الصالحين الدرس (٧٠-٣٤٤).

المبحث الرابع: درجات التقوى: وهي ثلاث درجات تبدأ من الأدنى إلى الأعلى.

- الدرجة الأولى: هي تقوى الإيمان بالله عز وجل. وهي أن يكون الإنسان موقناً بعبوديته لله عز وجل، وبوحدانية الله عز وجل وربوبيته. وعندئذٍ يكون قد أخذ بقسطٍ من التقوى، ولكنه قسط بسيط.

- الدرجة الثانية: هي تقوى الشريعة. وهي أن يبدأ الإنسان - بعد تقوى الإيمان - فيلتزم أوامر الله عز وجل، ويبتعد عن نواهيه.

- الدرجة الثالثة: هي تقوى الحقيقة. وهي أن يُقبِل المسلم على الله عز وجل بكُلِّيته متبتلاً له سبحانه. فيكون في ذكرٍ دائم، وشكرٍ دائم، ومراقبةٍ دائمة لله عز وجل. وهذه هي أرقى درجات التقوى.

وقد حثّنا الله عز وجل أن نرقى بأنفسنا إلى أعلى درجات التقوى فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٠٢]. ولكن، أن يتقي الإنسانُ ربَّه حقَّ تقاته تعني أن يطبِّق التقوى في كيانه على النحو الذي تقتضيه ربوبيةُ الله عز وجل، فيجعل من ربوبية الله عز وجل، مقياساً لدرجة التقوى في كيانه. ولا شك أنَّ هذا الأمر صعب، لأن العبدَ مهما بذل جُهده في أداء واجبات التقوى، ووصل إلى أقصى ما يستطيع من التقوى، فإنَّ ربوبيةَ الله عز وجل تقتضي منه أكثر، وإنه لا يستطيع أن يؤدي حقاً واحداً من حقوق الربوبية.

من هنا نجد أن الصحابة رضوان الله عليهم جميعاً، عندما سمعوا هذه الآية اضطربوا وشقَّ ذلك عليهم، فنزلت الآية الثانية بياناً وشرحاً لما خافوا منه، وهي قوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، أي ابذلوا جهد استطاعتكم، من قوة ومن وسيلة، لتنفيذ أوامر الله عز وجل، والابتعاد عن نواهيه. فإن أنتم وصلتم إلى آخر حد الاستطاعة، فإن الله عز وجل لا يؤاخذكم بعد ذلك بما لم تستطيعوا أن

تبلغوه. وكأنه جل جلاله يقول لنا: إنكم إن اتقيتم الله عز وجل جهد استطاعتكم، فقد اتقيتم الله عز وجل حق تقاته[1].

المبحث الخامس: ثمرات التقوى: فلئن كانت التقوى هي ثمرة من ثمرات التزكية، فإنَّ من ثمرات التقوى، والتي تعد ثمرات فرعية للتزكية:

١ - أنَّ المتقي يدخل في معية الله عز وجل ومحبته وولايته:

فالمتقي يدخل في معيَّة الله عز وجل مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٩٤]، وتلك هي المعية الخاصة، وهي معية الحفظ والرعاية والمدد والرشاد والتسديد والتوفيق. أما المعية العامة، فتشمل جميع المخلوقات، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤].

كما أنَّ المتقي يدخل فيمن أحبَّهم الله عز وجل، كما أخبرنا الله بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٤]. وإذا أحبَّ اللهُ وليَّه أحبَّه كلُّ شيء في الكون، ووُضع له القَبول في الأرض. فمن قَرَّتْ عينُه بالله قرَّتْ به كلُّ عين.

وإذا كان الله معه فَمِمَّ يخاف؟ وإذا كان الله يحبه فعلى أي شيء يحزن؟ إنه في ولاية الله، هذا ما أكده الله عز وجل بقوله: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يونس: ٦٢ - ٦٣].

والأولياء جمع ولي، وكلمة (ولي) تحمل معنيين:

١ - بمعنى المتولِّي للشيء.

٢ - بمعنى المتولَّى للشيء.

---

(١) شرح رياض الصالحين الدرس (٧٠)، ويقول الدكتور البوطي رحمه الله: (﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ أي عَزْماً، فإذا سار الإنسان في طريق الطاعة يأتي دور ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ أي عند التطبيق. الدرس (٥٩٧) من شرح رياض الصالحين.

فنقول: الأب ولي هذا الطفل، أي متولِّيه. ونقول: الولد ولي أبيه أي متولّاه. لذلك يقولون: كلمة ولي في اللغة من الأضداد، لأنها تدل على معنيين متضادين، فنقول عن السيد ولي، ونقول عن الخادم ولي.

وكلمة (ولي) في هذه الآية التي جُمعت على (أولياء)، تأتي هنا بمعنى المتولَّى، أي الذي تولاه الله عز وجل بالرعاية والحماية والإكرام. وبالطبع لن يتولّاه الله سبحانه وتعالى إلا إذا هو بدوره تولَّى الله، أي اتخذه ولياً لنفسه وراعياً له ومدافعاً عنه.

وقد بشر الله أولياءه بأنْ ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾. والفرق بين الخوف والحزن، أنَّ الخوف يكون من أمرٍ مُقبلٍ متوقَّع، أما الحزن فيكون على شيء قد مضى.

فأولياء الله ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي لا يصيبهم قلقٌ لمستقبلٍ هم مقبلون عليه، وإنما يفوِّضون أمرهم إلى الله، ومن ثم يطمئنون بالاً. وهذا لا يعني أنَّ أولياء الله لا يشعرون بالخوف إطلاقاً.. ولله المثل الأعلى:

إذا قال الأب لابنه: امشِ في هذا الطريق ولا خوفٌ عليك، فهو يخبره أنه لن يرى في هذا الطريق خطراً. ولكن الابن أثناء سيره في هذا الطريق قد يخاف وقد لا يخاف، ولكنه إذا خاف فإنه يقوِّي إيمانه بكلام أبيه الذي يثق به كل الثقة، هذا هو معنى: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾. فقد يخاف الولي، ولكنه سُرعان ما يلتجئ إلى الله عز وجل، فقد آمن عقله بأنَّ الله واحد في ذاته وصفاته وأفعاله، وأنْ لا ضار ولا نافع في الكون إلا الله الواحد القهار، ومن ثم فهو يُغذِّي هذا الإيمان بكثرة الذكر والالتجاء إلى الله سبحانه وتعالى والدعاء، وإذا بالإيمان ينمو، وإذا بالخوف يزول وتحل الطمأنينة مكانه ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

وقد حثنا الله عز وجل على الإكثار من ذكر الله، خاصةً عندما تواجهنا المخاوف فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥].

أما غير المتقي فيقع فريسةَ خوفه الذي يزداد ويزداد، وهو غافل عن الله، لا يذكر الله إلا قليلاً، ومن ثم فهو يعيش في قلق وخوف دائمين.

﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي يوم القيامة لن يحزنوا على شيء فاتهم أبداً.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ فهما صفتان لأولياء الله عز وجل:

- ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾: أي علموا بيقينٍ أنَّ الله عز وجل واحدٌ في ذاته وصفاته وأفعاله، وأن لا معطيَ ولا مانعَ، ولا ضارَّ ولا نافعَ، ولا قابضَ ولا باسطَ، ولا رازقَ ولا محييَ ولا مميتَ إلا الله، فهم يتعاملون في دنياهم ظاهراً مع الخلائق، وباطناً في يقينهم وفكرهم وشعورهم مع الخالق، ولا يُحجبون بالأسباب عن المسبِّب، ولا بالمكوَّنات عن المكوِّن.

- ﴿وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾: وتلك هي ثمرة الإيمان. فمن آمن بالله عز وجل إيماناً حقيقياً، لا بد أن يتقيه، وذلك بأن يربط قلبه بالله سبحانه وتعالى خوفاً وحباً وتعظيماً. وهذا هو الوَقود الذي يدفع المسلمَ إلى فعل الطاعات وترك المنكرات وسلوك سبيل الاستقامة.

إذن، فالوِلاية = إيمان حقيقي + تقوى.

أو.. الوِلاية = إيمان حقيقي + سلوك سبيل الاستقامة، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [فصلت: ٣٠-٣١]. فكل من كان مؤمناً وأتبع الإيمان بالتقوى فقد أصبح من

أولياء الله. وثمرة التقوى كما علمنا، الاستقامة على شرع الله، بإحلال الحلال وتحريم الحرام.

وقد سئل أحد الصالحين عن كرامات الأولياء فقال: (الاستقامة هي عين الكرامة)، وليست الخوارق هي مقياس الكرامة. قالوا له: إن فلاناً يمشي على الماء، فقال: السمك يمشي على الماء! فقالوا: إنه يطير في الهواء، فقال: الطيور تطير في الهواء! ليس المشي على الماء، ولا الطيران في الهواء، هما دليل الكرامة، وإنما الاستقامة هي دليل الكرامة.

فإذا رأينا من استقام على أمر الله عز وجل، وأحلّ حلاله وحرم حرامه، في حالة السراء والضراء، والخوف والرجاء، والمنع والعطاء، فلْنعلم أنه ربما كان ولياً من أولياء الله سبحانه وتعالى. ولا يشترط أن يكون له خوارق، بل ربما يُجري الله الخوارق على أيدي الفساق استدراجاً، كما هو الحال ببعض سكان الهند الذين يقومون بأغرب الأعمال، بعد أن تمرّنوا وتمرّسوا عليها، وهي ليست من الولاية في شيء[1].

٢ - أنَّ المتقي لا يستحوذ الشيطان على قلبه، وإنما يمرُّ بقلبه مروراً سريعاً، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ٢٠١﴾ [الأعراف: ٢٠١]. أي أن المتقي قد تَزِلُّ به القدم، فيقع فيما سماه الله عز وجل بـ (اللمم) أو (السيئات)، ولكنه إذا زلَّتْ قدمه في حفرة المعصية، وتعلَّقتْ أشواكها بثيابه، رفع قدمه منها، وغسل ثيابه بدموع التوبة والأوبة والانكسار، واستيقظ إلى رشده وكأن ثعباناً قد لدغه، فيقيمه الألم ولا يقعده، ويندم يتوب، مواصلاً السير إلى ربه وسيده ومولاه.

---

(١) شرح رياض الصالحين، باب كرامات الأولياء. الدروس الملقاة في مسجد الرفاعي، وهي ليست مرقمة، بخلاف الدروس الملقاة في مسجد تنكز والإيمان.

وهذه المعصية التي تصدر من العبد المتقي لله، لا تتناقض مع وِلاية الله عز وجل له إطلاقاً، لأنها معصية لا يصاحبها إصرار، ولا استكبار، ولا تبرير، ولا تخطيط. فقد وقع فيها بسائق ضعفه لا بسائق الاستكبار. ولذا فمن السهل عليه أن يرجع إلى ربه ومولاه، معترفاً بذنبه، مستغفراً تائباً، فيتوب الله سبحانه وتعالى عليه، بل يفرح بتوبته ويغفر زلَّته، فهو القائل: ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٣٥ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ١٣٦﴾ [آل عمران: ١٣٣-١٣٦].

أما غير المتقي - وهو الشقي - فيمسُّه الطائف من الشيطان إثر الطائف إثر الطائف، ولا يلقي له بالاً، ويُذكَّر بالله فلا يتذكَّر، ويوعظ بالتوبة فلا يتَّعظ ولا يتوب، وإنما يصرُّ ويستكبر. أولئك وصفهم الله عز وجل بقوله: ﴿ٱسۡتَحۡوَذَ عَلَيۡهِمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمۡ ذِكۡرَ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱلشَّيۡطَٰنِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [المجادلة: ١٩].

والباري عز وجل يدعونا لنكون من المتقين، لا من الأشقياء المحرومين، فيقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ١٩﴾ [الحشر: ١٨ - ١٩][1].

٣ - أنَّ المتقي لا يلتبس عليه حق بباطل أبداً، ومهما أراد المبطلون أن يزيغوا

(١) شرح رياض الصالحين الدرس (٧٠).

عقله ويحرفوه عن رشده، فالله عز وجل يكسبه مناعةً تقيه منزلقات العقيدة. هذا ما أكده الله عز وجل بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩]، أي: فرقاناً ضد الباطل، وفصلاً بين الحق والباطل، فيكون ذلك سبباً لنصركم ونجاتكم في الدنيا وفي الآخرة.

وهذا كقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، أي إن اتقيتم الله وضع الله لكم في قواعد العلم التي تدرسونها، روحَ هذه القواعد. فعرفتم أسرار العلم، ووقفتم على حقائقه، وتجنبتم الباطل، ولم تستطع شياطين الإنس والجن أن يُزيغوا عقولكم أبداً.

وكقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ۝١٧﴾ [محمد: ١٧٠]. فهناك هداية دِلالة وهي عامة للناس جميعاً، وهناك هداية معونة خاصة بالمؤمنين الذين يجاهدون أنفسهم في سبيل مرضاة الله عز وجل. فهؤلاء يهديهم هداية المعونة إضافة إلى هداية الدلالة، ويجنبهم الهوى ويعينهم على التقوى.

والرسول ﷺ يقول: (إنَّ الحلال بيِّنٌ وإنَّ الحرامَ بَيِّنٌ، وبينهما مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهاتِ استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه. ألا وإنَّ لكل مَلِكٍ حِمى، ألا وإنَّ حمى الله محارِمُه، ألا وإنَّ في الجسد مُضغةً إذا صَلَحتْ صَلَحَ الجسد كلُّه وإذا فَسَدتْ فسد الجسد كلُّه ألا وهي القلب). وهو حديث متفق عليه[1].

فالشريعة الإسلامية أوضحت لنا الأمور كلها، وبينت لنا الواجبات، والمحرَّمات، والمندوبات. ولكن الله عز وجل ترك لنا أموراً تحتمل أن تكون من

(١) رواه مسلم (١٥٩٩)، ورواه البخاري (٥٢) بلفظ قريب كلاهما عن النعمان بن بشير.

المحرمات وتحتمل أن تكون من المباحات، وأمرنا بالحيطة. ومن خلال هذه الأمور المشتبهة المحتملة، يتجلى قوة إيمان المسلم أو ضعفه. فكما يحتاط المسلم لأمور دنياه، عليه أن يحتاط لأمور دينه، إن كان قوي الإيمان. أما إن كان ضعيف الإيمان، فنجده يحتاط لأموره الدنيوية فقط، حتى إذا جاء أمر من الأمور الدينية نجده يبحث عن الفتاوى الضعيفة التي تبيح له ذلك ثم يقول: الله لا يؤاخذ!

ورحم الله ابنَ عطاء الله القائل: (لا يُخاف عليك أن تلتبس الطرقُ عليك، وإنما يُخاف عليك من غَلَبَةِ الهوى عليك)[1]. أي لطالما كان الحلال بيِّناً والحرام بيِّناً، وقد جعل الله بينك وبين المحرمات هامِشاً ومسافةَ أمان، وأمرك أن تحتاط وتبتعد عنها، كي لا تقع في جاذبية المحرمات، وسمَّى مسافة الأمان هذه (مشتبهات)؛ إذن فلا يخاف عليك أن تلتبس الطرق عليك، وإنما يخاف عليك من غلبة الهوى عليك.

والمقصود بالهوى، النزوات والشهوات والرغبات الشخصية لتحقيق مصالح دنيوية، والعصبية للذات أو للجماعة. كل ذلك من الهوى الذي هو نقيض التقوى.

فالهوى = حب وخوف وتعظيم غير الله عز وجل. والمقصود بالغير، كل ما سوى الله عز وجل[2].

والتقوى = حب وخوف وتعظيم الله سبحانه وتعالى.

وعندما يتغلَّب الهوى على الإنسان - بفراغ قلبه من التقوى - فإنه يبتدع ديناً جديداً وأحكاماً، ما أنزل الله بها من سلطان.

---

(١) الحكمة (١٠٧) من حكم ابن عطاء الله السكندري رحمه الله.

(٢) ليس المقصود ألا تحب الصالحين وألا تعظمهم، فمن أحب الله وعظمه، أحب أحبابه وعظمهم في الله، وهذا هو التوحيد. إنما المقصود ألا تحب أحداً حباً مع حب الله، ولا تعظم من لا يعظم الله، فذلك شرك. لذلك قال العلماء: الحب في الله توحيد، أما الحب مع الله فشرك.

قد يقول قائل: هناك ٢٥٪ من أحكام الشريعة الإسلامية مُختَلَفٌ فيها بين الأئمة، فالشافعي له رأي مخالف لأبي حنيفة، وكلاهما يخالفان الإمام أحمد ومالك... أليس هذا مَدعاةً لالتباس الطرق علي؟

الجواب: لا، ليس في ذلك التباس، فهذه الأمور الخلافية، التي اختلف فيها العلماء المجتهدون الربانيون المخلصون، بوسعك أن تغمض العين وتتّبع أيَّ واحدٍ منهم، وتستبرئ بذلك لدينك وعرضك. فاختلاف الأئمة الأربعة بعضهم مع بعض كلها حق، إذ لكل واحد منهم أدلته المنطقية المتفقة مع قواعد تفسير النصوص، وليست خلافاً بين حق وباطل أبداً. ومع ذلك، فإنك إن أردتَ أن تحتاط عند اختلاف الأئمة، وتأخذ نفسَك بالأحوط لدينك، فهذا أمر جيد.

والحكمة إنما تتحدث عن الالتباس الذي يزجُّ الإنسانَ في متاهات بين الحق والباطل، فيلتبس عليه هذا بذاك. هذا الالتباس لا سبب له إلا الهوى.

إن أحكام الشريعة الإسلامية قسمان:

- قسم مقطوع به بنصوص قاطعة في الكتاب أو السنة لا تحتمل التأويل، ولا مجال فيها للاجتهاد أبداً، فهي أحكام محسومة متّفق عليها بين الأئمة كلهم: كفرضية الحجاب للمرأة، وحرمة الربا، وحرمة الإقامة في بلاد الكفر، وحرمة الخمر، والأحكام الاعتقادية.

- قسم آخر هو عبارة عن أمور اجتهادية خلافية، للمجتهد المخطئ فيها، نصف أجر المجتهد المصيب، بشرط أن يكون قد وصل إلى درجة الاجتهاد بشروطه العلمية المعروفة.

والخلاف النابع من هذه المسائل الاجتهادية، هو خلافٌ يُقرُّه الله ورسوله ﷺ، ولا مطمع للقضاء عليه في أي عصر من العصور. بل هو باب رحمةٍ فتحه الله لنا

لنكون في مرونةٍ وسهولةٍ وأمام أكثر من حلٍّ لتنفيذ أمر الله سبحانه وتعالى.

مثال: هل تجمع بين المسح على الجبيرة والتيمم؟

- فالحنفية والمالكية قالوا بالاكتفاء بالمسح على الجبيرة، فهو بدل عن الغسل لما تحتها، ولا يضاف إليه التيمم. وبوسع من يقلدهم أن يتوضأ، ثم يمسح على الضماد أو الجبيرة أثناء الوضوء، دون تيمم. وانتهى الإشكال.

- والشافعية قالوا: نجمع بين الغسل والمسح على الجبيرة والتيمم وجوباً. فيُغسل الجزء الصحيح، ويُمسح على الجبيرة، ويُتَيَمَّم وجوباً.

- وتوسط الحنابلة فقالوا: يجزئ المسح على الجبيرة من غير تيمم، إذا لم تتجاوز الجبيرة قدر الحاجة. أما إذا تجاوزت قدر الحاجة، فيُمسح عليها ويُتيمم.

فهل تجب إعادة الصلاة بعد البُرْء؟

- الحنفية والمالكية: لم يشترطوا وضع الجبيرة على طهارة، ولم يوجبوا إعادة الصلاة بعد الصحة من الجرح.

- الشافعية والحنابلة: اشترطوا وضع الجبيرة على طهارة، مع وجوب إعادة الصلاة إذا كانت الجبيرة في عضو من أعضاء التيمم. أي يتوضأ ثم يضع الضماد أو الجبيرة، فإذا لم ينتقض وضوءه، فإنه يتيمَّم عن العضو المصاب. أما إذا انتقض وضوءه، فعليه أن يعيد الوضوء ويتيمم عن العضو المصاب، مع مراعاة ترتيب أعضاء الوضوء، ثم يعيد الصلاة بعد الشفاء إذا كان الضماد أو الجبيرة في عضو من أعضاء التيمم.

وقد شهدت الأمة قاطبةً لهؤلاء الأئمة الأربعة بالصلاح والتقوى والعلم الراسخ. وبوسع المسلم أن يقلِّد أياً منهم ويستبرئ بذلك لدينه وعرضه.

ولكن المشكلة كلَّ المشكلة اليوم في أشباه علماء، خلت قلوبهم من التقوى،

وحلَّ محلَّها الهوى، فقادهم الهوى إلى تصنيع فتاوى ما أنزل الله بها من سلطان. وقاموا بتصدير هذه الفتاوى الكاذبة إلى المسلمين المقيمين في أمريكا وأوربا تحت اسم (فقه الأقليات). مع العلم أنه لا يوجد في الشريعة الإسلامية فِقهان، فقه لعامة الناس، وفقه للأقليات. بل لا وجود بالأصل لكلمة (الأقليات) في قاموس الشريعة الإسلامية، وإنما وجدت بدافع اتباع الهوى وتحقيق مصالح لكل من المفتي والمستفتي. فهنالك أجور يقبضها المفتي من وراء فتاواه الباطلة، والتي من خلالها تُنفَّذ الخطط التآمرية على الإسلام والمسلمين. كل ذلك من الهوى الذي حذَّرنا منه الله عز وجل بقوله: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦].

ذلك لأن مستند الشريعة الإسلامية هو مستند واحد، لمن يعيش في بلاد الإسلام، ولمن يعيش في بلاد الكفر. ففي كليهما تطبق القواعد الفقهية ومنها:

- (الضرورات تبيح المحظورات)[١].
- (إذا ضاق الأمر اتسع)[٢].
- (الضرورات تُقدَّر بقدرها)[٣].
- (لا يُنكر تغيُّر الأحكام بتغيُّر الأزمان)[٤].

وهي قواعد منطقية وسليمة، بشرط أن تكون موجودة في مناخها من علم أصول

---

(١) الأشباه والنظائر لتاج الدين السبكي (١/ ٤٩).

(٢) الأشباه والنظائر لتاج الدين السبكي (١/ ٤٩).

(٣) القواعد الفقهية وتطبيقاتها في المذاهب الأربعة لمحمد مصطفى الزحيلي (١/ ٢٨١) القاعدة (٣٤).

(٤) نفس المرجع السابق (١/ ٣٥٣) القاعدة (٥٢).

الفقه. ولكنَّ الذي يجري اليوم أنَّ هذه القواعد تؤخذ من مناخها، عن طريق مونتاج، وتُسخَّر لهدم الإسلام. وذلك باختراع فتاوى كاذبة فيها افتراء على الشريعة الغراء.. منها:

- الحجاب لا داعي له اليوم، فالزمن الذي كانت تؤمر فيه المرأة بالحجاب قد تبدَّل!

- الجهاد كان فرضاً وركناً من أركان الإسلام قبل أن توجد المؤسسات الدولية والعالمية التي ترعى حقوق الإنسان، أما وقد وُجِدتْ، فينبغي أن يُنسخ الجهاد في الشريعة الإسلامية!

- كان الربا لا حاجة له في العصور الغابرة، بسبب الظروف الاقتصادية الضيقة المحدودة. أما اليوم، وقد أصبحت الشبكة الاقتصادية شبكة عالمية، تهزها من طرف فتهتزّ الأطراف الأخرى كلها، فقد أصبح الربا ضرورة لا مناص منه!

- يجوز للمرأة الغربية إذا أسلمت أن تبقى تحت سلطان زوجها الكافر!

- يجوز للمسلم الذي يعيش في أوروبا وأمريكا الإقامةُ الدائمة هناك!

- يجوز للأمريكي المسلم مقاتلةُ المسلمين في أفغانستان وغيرها، تحت اسم مراعاة حق المواطنة!

- الإنسان الذي يُستشهد في سبيل الله عز وجل في فلسطين، ليس شهيداً وإنما هو منتحر!

كل ذلك التلاعب والافتئات على شرع الله، تحت اسم (الضرورات تبيح المحظورات)، و(تتبدَّل الأحكام بتبدل الأزمان)!

والحق الذي يقوله العلماء الربانيون الراسخون في العلم والمخلصون لله عز وجل، هو أنه: تتبدل الأحكام التي بُنيت على أعرافٍ وعادات، عندما تتبدَّل تلك الأعراف والعادات.

مثال: ما هي العيوب التي تُخِلُّ في متاعٍ اشتراه زيد من الناس؟

العُرف هو المحكَّم، فالشارع يبني على ذلك بُطلان البيع، أو جعل الخيار للمشتري. فقاعدة (تتبدَّل الأحكام بتبدُّل الأزمان)، مستندة على قاعدة (العرف مُحكَّم). ولكنَّ العرف في كل حالاته، لا يُلغي حكماً شرعياً أبداً. فالعرف مُحكَّم ما لم يصطدم بنصٍ في الكتاب، أو السنة، أو الإجماع، أو القياس. تلك هي المصادر الأساسية للشريعة الإسلامية، فإن اصطدم بشيء من ذلك يُعتبر لاغياً.

أما المصادر التبعيَّة للشريعة الإسلامية فهي: الاستحسان، المصالح المرسلة، سد الذرائع، العرف. والمصادر التبعية خاضعة للمصادر الأساسية.

وهناك أحكام تبنى على المصالح المرسلة، فإذا تغيَّرت هذه المصالح تتغير معها الأحكام.

مثال: بيع السلاح في الظروف الطبيعية جائز، ولكن إذا تسربت إلى المجتمع فتنةٌ ما، يصبح بيع السلاح والتعامل معه محرماً.

والمصالح المرسلة هي التي تكون مندرجة في جنس المصالح الخمس: (الدين، الحياة، العقل، النسل، المال)، ولا نص يؤيدها أو يخالفها.

وما كنت لأذكر مثل هذه الدقائق، التي يعرفها أهلُ الاختصاص دون غيرهم من عوام الناس، إلا لأكشف زيغ أولئك الذين يريدون أن ينسفوا أحكام الدين نسفاً، تحت ذريعة (تتبدل الأحكام بتبدل الأزمان). وننظر بعد فترة من الزمن، وإذا بالدين قد تبخَّر فوق لهيب أحقادهم المستعرة. ولكن شيئاً من ذلك لن يصلوا إليه، إلا إن استطاعوا أن يطفئوا ضياء الشمس. فهل يستطيع أحد أن يفعل ذلك؟!

سيحترقون بنارها، قبل أن يطفئوا ضياءها وأنوارها. لأنَّ الذي خلقها لتكون نوراً مادياً يبدِّد ظلمات الكون، والذي أنزل القرآن نوراً معنوياً يبدِّد ظلمات النفس،

هو واحد لا ثاني له.. إنه الله الواحد القهار القائل: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ۝﴾ [الصف: ٨].

إذا نصَّ البيان الإلهي على حكم ما، بصريح القرآن، أو بصحيح السنة، فإنَّ هذا الحكم لا يدخل تحت قاعدة (تتبدل الأحكام بتبدل الأزمان) إطلاقاً، لأنها نصوص قطعية ليست محلَّ اجتهاد.. مثل قوله تعالى:

- ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ [النور: ٣١]، فهي تدل على فرضية الحجاب على المرأة.

- ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ [البقرة: ٢٧٥]، وتدل دلالة قاطعة على حرمة الربا، سواء كانت القروض استثمارية أو إنتاجية. فمن قال: (الضرورات تبيح المحظورات)، نقول ما قاله العلماء: الضرورة هي تلك التي تدفع الإنسان إلى ارتكاب محرَّم، إن لم يرتكبه، تعرَّض للموت والهلاك. وما عدا ذلك من التوسع في البيت، والتجارة، وغيره، فليس ضرورة تبيح أكل الربا إطلاقاً.

- ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ [الممتحنة: ١٠]، وتدل دلالة قاطعة على حرمة بقاء المرأة الغربية التي أسلمت تحت سلطان زوجها الكافر.

- ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦]، وتدل على فرضية الجهاد في سبيل الله بشروطه وتحت راية رئيس الدولة، فهو من أحكام السياسة الشرعية التي خوَّل الله بها الحاكم المسلم دون غيره.

ثم نقول ما يقوله العلماء الربانيون: المسلم الذي يستشهد في سبيل الله في فلسطين، هو شهيد وليس منتحراً. فالمنتحر هو ذاك الذي تبرَّم من حياته، فسلك السبيل الذي يهدف من ورائه إلى القضاء على نفسه. هذا هو الانتحار الذي حذَّرنا

منه رسول الله ﷺ، وأعلن عن خلود صاحبه في جهنم. أما الإنسان الذي يقاتل في سبيل الله، وهدفه ردُّ غائلة العدوان عن أرضه ودياره وأهله ونفسه والمسلمين، وليس قصده إعدامَ نفسه وإهلاكَها، فهو يسلك في سبيل ذلك مسلكاً يعلم أنه في الغالب لن يعود حياً - بغضِّ النظر عن الوسيلة التي يستعملها هل ستبقيه حياً أم لا - فهذا هو الشهيد. فالصحابة الذين كانوا يجاهدون في غزوة مؤتة مثلاً، ألم يكونوا يعرِّضون أنفسَهم لقتلٍ مؤكّد؟!

هذا شيء، والشيء الثاني الذي قاله العلماء: هذا الإنسان الذي يقتحم مَهلكةً في سبيل الله، عليه أن يضع نصب عينيه أنَّ الله يَقْدِرُ أن يخلِّصه بخارقةٍ من خوارقه، وبحماية من لدنه سبحانه، فيقول: يا رب أنا لا أريد إلا أن أستجيب لأمرك وأقاتل في سبيلك، وأنت القادر على أن تبقيني حياً، وأن تبعث خارقةً من عندك تحميني بها من كل سوء. هذا شهيد وليس منتحراً.

ثم إن الذي يقول بأن الجهاد في الإسلام نُسخ لوجود المؤسسات الدولية والعالمية التي ترعى حقوق الإنسان.. نقول له:

حاميها حراميها.. إنهم يتكالبون على الإسلام والمسلمين، ولا يتركون فرصةً للقضاء عليه إلا ويفعلونها، ثم أنت تحتمي بهم وتقف من ورائهم لتُردِّدَ مقالتَهم (حقوق الإنسان)؟!

أين هي حقوق الإنسان في فلسطين وغيرها من الدول المستضعفة؟!

إنها منظماتُ سلبِ حقوق الإنسان، تحت شعار براق من الديمقراطية والحرية الزائفين. وكلامهم لم يعد ينطلي على أطفال المدارس، فضلاً عن ذوي الأحلام والألباب!

- ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾ [النساء: ٩٣]، فهذا نص قاطع يدل على

حرمة قتل المسلم لأخيه المسلم تحت اسم (مراعاة حق المواطنة). أي لا يجوز للأمريكي المسلم، مقاتلة أحد من المسلمين في أفغانستان أو غيرها من بلاد الإسلام والمسلمين، تحت ذريعة حق المواطنة، فالمسلم أخو المسلم، وولاؤه ينبغي أن يكون للمسلمين لا للكافرين ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [المائدة: ٥٧].

أما حق المواطنة هذا، ففتوى مصلحية نابعة من الهوى، ما أنزل الله بها من سلطان. وإنما أفتى بها مَنْ أفتى، من أجل ألا يُثير غضب الغرب، ولا مشكلة عنده في أن يعرِّض نفسه لغضب الربِّ سبحانه وتعالى ! ! يا هذا أما تدبَّرتَ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ۗ﴾ [الحج: ٣٨]، فلماذا تخلط الهوى بشرع الله عز وجل؟!

- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ﴾ [النساء: ٩٧]، فقد أجمع العلماء على أنَّ الاستيطان في بلاد الكفر من المحرَّمات المطلقة، ولو كان المسلم فيها يدعو إلى الله عز وجل، لعدم تمكُّنه من إقامة شرع الله عز وجل في حقِّ نفسه وفي حقِّ أولاده وأهله. فكيف يدعو إلى الله عز وجل، ويغضُّ الطرف عن الحريق الذي يلتهم داره وأولاده؟؟

وكذلك تحرم المشاركة في الانتخابات في بلاد الكفر، لأنَّ كلَّ المرشحين خارجون عن الملة. ولو أننا تخلينا عن اتباع الهوى، فلن نختلف في ذلك أبداً. لأنَّ هذه موالاة، وموالاة الكافرين غير جائزة شرعاً.. هذا عندما نتبع الشرع، ولكن عندما نتبع الهوى والمصالح، فإننا لا نُعلن أنها مصالح، ولكن نغطيها بالشرع، وندعي أننا نجتهد قائلين: إذا أعطينا أصواتنا للمرشح الفلاني، فإنه غداً سيدافع عن قضايا الأمة العربية وعن الإسلام !

لم يعطنا الشارع جل جلاله حق هذا الاجتهاد، لأنه كافر تحرم موالاته.

ثم إنَّ مجرد الاجتهاد في الأمور القطعية، يعني الخيانة لله ولرسوله. والله عز وجل يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الأنفال: ٢٧ - ٢٩].

إنَّ ما فعله الحاكم الأمريكي (بوش) وما يفعله الحكام من بعده، من تقطيعٍ وتبضيعٍ في جسد الأمة الإسلامية، ومن تمزيقٍ لوحدتها، وإثارةٍ للفتن والهرج والمرج بينها، إنما يتحمَّل وِزْرَه المسلمون الذين يقيمون هناك، والذين أدلوا بأصواتهم لهم، وهم يعلمون أنَّ هؤلاء الحكام الأمريكيين إنما يسيرون وراء حركة المسيحية المتهودة والصهيونية العالمية الحاقدة على الإسلام والمسلمين! ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢][1].

٤ - أنَّ الله عز وجل ألزم نفسه أنْ يجعل للمتقين من كل ضيق فرجاً، ومن كل هم مخرجاً، وأن يكرمهم بسعة الرزق من حيث لا يحتسبون ولا يتوقعون، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق ٢ - ٣]. أي يجعل رزقهم آتياً بشكل علني واضح بفضل الله، حتى لا يظن ظانٌّ أنَّ عرقَ جبينه هو مصدرُ رزقه، ولا يتوهم متوهِّم أنَّ حيلةَ عقله هي مفتاحُ غناه.

---

(١) شرح رياض الصالحين الدرس (٧٠)، وشرح الحكم العطائية الدروس (١٠٧-١٢٧-١٢٨)، وشرح ضوابط المصلحة في الشريعة الإسلامية.

فعن جابر بن عبد الله أنَّ عوف بن مالك الأشجعي أسر المشركون ابناً له يسمى سالماً، فأتى رسولَ الله ﷺ وشكا إليه الفاقة وقال: إنَّ العدوَّ أسر ابني وجزعت الأم فما تأمرني؟ فقال ﷺ: (اتَّقِ الله واصبر، وآمرك وإياها أن تستكثر من قول لا حول ولا قوة إلا بالله). فعاد إلى بيته وقال لامرأته: إنَّ رسول الله ﷺ أمرني وإياك أن نستكثر من قول لا حول ولا قوة إلا بالله. فقالت: نِعْمَ ما أُمرنا به. فجعلا يقولان، فغفل العدوُّ عن ابنه، فساق غنمهم وجاء بها إلى أبيه، وهي أربعة آلاف شاة، فنزل قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾[1].

وعنه ﷺ أنه قال: (إني لأعلم آيةً لو أخذ الناس بها لكفتْهم ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾، فما زال يقرؤها ويعيدها)[2].

٥ - **أنَّ المتقي لا بد أن يعلن عن رغبته في الانصياع لأمر الله عز وجل**، لذا فهو دائماً يشكو ضعفه وعجزه إلى الله عز وجل ويطلب منه العون على الاستقامة، عندها يقلب الله سبحانه وتعالى ضعفَه قوةً ويصلح له عمله. هذا هو القول السديد الذي أشار الله عز وجل إليه بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [الأحزاب: ٧٠ - ٧١]. أي يا من آمنتم بالله عز وجل، اجعلوا بينكم وبين عذاب الله وقايةً من الانضباط بأوامر الله عز وجل والابتعاد عن نواهيه.

وكأن قائلاً يقول: إني أريد أن ألتزم أوامر الله سبحانه وتعالى وأبتعد عن نواهيه، ولكني أجد نفسي تثَاقل.. لما علم الله عز وجل أنَّ من عباده من يعتذر بهذا العذر

---

(١) تفسير القرطبي (١٨/ ١٦٠).

(٢) أخرجه أحمد (٢١٠٤١)، وابن ماجه (٤٢٢٠)، ورواه الحاكم في المستدرك (٣٨٧٢) بلفظ قريب، جميعهم عن أبي ذر.

قال: ﴿وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا﴾. أي عاهدوا الله عز وجل بصدق، وليقولن الواحد منكم قولاً صادقاً نابعاً من أعماق قلبه: اللهم إني أريد أن أعبدك حقَّ عبادتك، وإني أكره أن تراني عاكفاً على معصيتك، ولكني عبدك الضعيف، فأعني يا قوي ويا متين. قل هذا الكلام، وأعلن عن رغبتك هذه بينك وبين الله عز وجل. فإنك إنْ قلتَ ذلك، وكانت جذور هذا الكلام راسخةً في قلبك، أصلح الله لك أعمالك، وطهَّر سريرتك وعلانيتك، ويسَّر لك سبل الخير، ونقلك من أقصى أودية الضلال والفساد، إلى أعلى درجات الهداية والرشاد ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ [الحجرات: ٧].

إنَّ قوله تعالى: ﴿وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا﴾، شطب على كثير من الكلمات الفارغة التي نسمعها عندما نذكِّر إنساناً بالله عز وجل فيقول: ادع الله أن يهدينا!

هذا الإنسان يقول، ولكن قوله هذا غير سديد. فهو بلسانه يسأل الله الهداية، وبقلبه يقول: بل أرجو مزيداً من الغواية[١]!

إنَّ العزم الصادق الذي يعزمه المسلم على الاستقامة والتوبة، مضافاً إليه الالتجاء الدائم إلى الله عز وجل ليعينه عليها، هما الشبر الأول الذي يطلبه الله من عبده أن يخطوه إليه، والذي سيأتي بعده الخير سحاً متسلسلاً. هذا ما أخبر به النبي ﷺ في الحديث القدسي فقال: (قال الله تعالى: أنا عند ظنِّ عبدي بي، وأنا معه حيث يذكرني، والله لَلَّهُ أفرح بتوبة عبده من أحدكم يجد ضالته بالفلاة، ومن تقرَّب إليَّ شِبراً تقربتُ إليه ذِراعاً، ومن تقرَّب إليَّ ذِراعاً تقربت إليه باعاً، وإذا أقبل إلي يمشي أقبلتُ إليه أهرول)[٢].

---

(١) شرح رياض الصالحين الدرس (٧٠).

(٢) متفق عليه، وهذا اللفظ لمسلم (٢٦٧٥)، ورواه البخاري بلفظ قريب (٦٩٧٠)، كلاهما عن أبي هريرة ﷺ.

إنَّ التقرب إلى الله عز وجل لا يقاس بالأشبار، ولكن هذا من المجاز البليغ المعروف في اللغة العربية، فليس هنالك شبر ولا ذراع ولا باع ولا مشي ولا هرولة بالمعنى العضوي المادي، وإنما هي النسبة بين إقبال العبد على الله، وإقبال الله سبحانه وتعالى على العبد. أي من تقرب إلي تقرباً يسيراً، تقربت إليه أضعافاً مضاعفة. فالذراع هو أضعاف الشبر، والباع هو أضعاف الذراع، والهرولة أضعاف المشي.

فإذا كان الشبر الأول = العزم على الاستقامة والتوبة إلى الله + الالتجاء إلى الله عز وجل وطلب العون منه على الدوام، فما هو الذراع الذي يتقرَّب الله به إليك لقاء ذلك الشبر منك؟

إنه ذراع انتشال الله عز وجل لك من أوحال المعاصي والآثام، بأن يحبِّب لك الطاعات، ويشرح صدرك للخيرات، ويكرِّه إليك المعاصي والموبقات فتشمئز منها، ويبث في كيانك القوة والقدرة على تركها والتوبة إلى الله منها.. ولكنَّ ذلك لا يتم إلا بعد أن تتقرب إلى الله عز وجل بذلك الشبر الأول. فمنك العزم والالتجاء إلى الله عز وجل، ومن الله سبحانه وتعالى - بفضله وإحسانه - التنفيذ.

ثم يقول: (ومن تقرَّب إليَّ ذِراعاً تقرَّبتُ إليه باعاً)، فما هو الذراع الذي تتقرَّب به أنت إلى الله، وما هو الباع الذي يتقرَّب الله به إليك؟

إنك عندما تُقبِل على الله عز وجل بفعل الطاعات التي حبَّبها - بفضله وإحسانه - إليك، وأولها الصلاة وباقي الفرائض، وتترك المعاصي التي كرَّهها - أيضاً بفضله وإحسانه - إليك، وأولها الكبائر، فإنَّ الله عز وجل يلاحِقُك بفضله وإحسانه ويَعدُّ ذلك منك خطوةً أخرى أكبر من سابقتها، فنِسبتُها إلى سابقتها كنِسبة الذراع إلى الشبر.

فمن الذي نقلك من شبر التقرب إليه إلى ذراع التقرب إليه؟

إنه الله الحنان المنان، فذراع تقرُّبك إلى الله إنما هو بقوةٍ من الله عز وجل، ولكنه سبحانه وتعالى - كذلك بفضله وإحسانه - عدَّها لك خطوةً ثانيةً وأدخلك في المرحلة التالية من المثوبة، بأنْ تقرَّب منك باعاً. هذا الباع هو أنه يزيدك شداً إليه وتقرباً منه وتحبُّباً إليه، فيحبِّب إليك النوافل بعد أن ثبَّتك على الفرائض.

(وإذا أقبل إليَّ يمشي أقبلتُ إليه أهرول): أي عندما تمشي على صراط الله عز وجل، وقد تركت المعاصي وأدّيتَ الفرائض والنوافل، فإنه سبحانه بكرمك بحبِّه لك. فإذا أحبَّك الله جل جلاله، انعكس حبُّه لك إلى فؤادك فأحببتَه، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤]، أي يحبُّهم فيحبُّونه.. و إذا فاض قلبك بحبِّ الله سبحانه وتعالى، فحدِّث عن السعادة التي تستشعرها ولا حرج!

إنها سعادة لا يشعر بها أصحاب اللهو في لهوهم ومجونهم، ولا يعلمها الملوك والسلاطين على عروشهم وبين خدمهم وحشمهم.. من ههنا قال إبراهيم بن أدهم رحمه الله: (لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه من النعيم والسرور لقاتلونا عليه بالسيوف)[1]!

مع العلم أنَّ إبراهيم بن أدهم كان من الأمراء الذين دنتْ مرتبتُهم من الملوك، لكنه لما التفتَ إلى الله شبراً، أقبل الله إليه ذراعاً، فأقبل إلى الله ذراعاً وأقبل الله إليه باعاً، ثم أقبل إلى الله عز وجل يمشي، فدنا سبحانه منه هرولةً، فتوهّج قلبه بحب الله انعكاساً وأثراً لحب الله عز وجل له، فذاق من النشوة والسعادة ما جعله يقول هذا الكلام.

قد يضحك الملوك من كلام إبراهيم بن أدهم هذا، ولكنهم ما ذاقوا وما

---

(١) صفة الصفوة لأبي الفرج الجوزي (٢/ ٣٣٥).

عرفوا.. مساكين، يتقلَّبون في مظاهر السعادة، أما السعادة نفسها فلم يذوقوها ولم يعرفوها[1] !

وشتان بين مظاهر السعادة والسعادة نفسها..

فمظاهر السعادة تنبع من الخارج وهي كثيرة، كأن يظهر الإنسان بلباسه الأنيق ومركبته الفارهة وابتسامته العريضة، ولكنْ من وراء هذه المظاهر فؤاد لا يبارحه الأسى ولا ينفك عنه الشقاء، ولو تتبَّعتَه إلى داره بعد أن يُنجز سهراته ولقاءاته لرأيته يطلق الزفرات تتلوها الزفرات، ويتقلب على فراشٍ من الجمر، ولا تشعر عينه بلذة الرقاد، فإذا استيقظ رأيته يتمطّى وكابوس الشقاء قد انقضَّ عليه مرة أخرى، فهو يخرج في الصباح هرباً من كابوس آلامه وجحيم شقائه، ليعود في المساء بنفس البضاعة.

إنها بضاعة مُزجاةٌ، ظاهرها السعادة والنعيم، وباطنها الشقاء والجحيم.

إنه لا يتمتَّع من السعادة إلا بعناوينها، ولا يملك من النعيم إلا رسومَه وأشكالَه.

أما السعادة نفسها فلا تلتصق بالقلب من الخارج، وإنما تنبع من داخل القلب.. تنبع من مكانٍ في القلب، لا يفجّر السرورَ فيه إلا اللهُ جل جلاله.

وبالمقابل.. فشتان بين مظاهر الشقاء والشقاء نفسه.. فكم من مبتلىً بالأمراض والأسقام والفقر والحرمان، ولكن له عقلاً مؤمناً بالله عز وجل، وقلباً موصولاً به سبحانه حباً وخوفاً وتعظيماً وعبودية. ولو كشف الله لك عن خفايا فؤاده، لرأيت قلباً يتراقص سعادة ورضاً.

تلك هي بضاعته.. في الظاهر حِرمانٌ وشقاء وأسىً، وفي الباطن فرح وسرور ورضاً.

---

(١) شرح رياض الصالحين الدرس (٤٧٣) و(٤٩٧).

أما الإنسان الذي أضاف إلى ما ابتُلي به من الأمراض والأسقام والفقر والحرمان، عقلاً جاحداً بالله، أو مؤمناً بالله ولكن إيماناً تقليدياً، وقلباً غافلاً عن الله سبحانه وتعالى معرضاً عنه، فقد جمع بين مظاهر الشقاء والشقاءِ نفسِه. فمظاهر الشقاء إذن ليست هي مصدر شقاء الإنسان، وإنما مصدر شقائه إنما هو فقط إعراضه عن الله سبحانه وتعالى، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾.

عن هذا المعنى قال ﷺ في الحديث القدسي: (يا ابن آدم تفرَّغْ لعبادتي، أملأ صدرك غِنىً وأسُدَّ فقرك. وإلا تفعل، ملأتُ صدرك شُغلاً ولم أسُدَّ فقرك)[1].

ويقول: (من كانت الآخرة همّه، جعل الله غناه في قلبه، وجمع له شمله، وأتته الدنيا وهي راغمة. ومن كانت الدنيا همّه، جعل الله فقره بين عينيه، وفرق عليه شمله، ولم يأته من الدنيا إلا ما قُدِّر له)[2].

إنها قاعدة لا شذوذ لها إطلاقاً:

- ما سعى إنسان في سبيل أن يُرضي ربّه وخالقه، إلا وتوّج الله عز وجل سعيه بالهناء والسعادة، وإن رأى لبضع خطوات شيئاً من التعب والنصب.

- وما ترك إنسان أمر ربه عز وجل، واستجاب لشهواته وأهوائه، وعبد المظاهر والأشكال، إلا وَكَلَه الله إليها، ولم يصل إلى السعادة قط[3].

---

(١) رواه الترمذي (٢٤٦٦) وقال: حديث حسن غريب، ورواه ابن ماجه (٤١٠٧)، وأحمد (٨٤٨١)، والحاكم (٣٧٠٩) وقال الحاكم: حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. جميعهم عن أبي هريرة.

(٢) رواه الترمذي (٢٤٦٥) عن أنس، ورواه بألفاظ قريبة: ابن ماجه (٤١٠٥)، وأحمد (٢١٠٨٠)، كلاهما عن عبد الرحمن بن أبان بن عثمان بن عفان عن أبيه.

(٣) شرح رياض الصالحين الدرس (٢٤٣).

٦ – ما مضى من الثمرات هي في الدنيا، وأما الآخرة فكلُّها للمتقين، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٣٥].

• فأول ما يخرج المتقي من القبر، يجد ملائكةَ الله عز وجل قد هيأت لاستقباله من ركائب الآخرة ما لا يعلم جمالها إلا الله، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾﴾ [مريم: ٨٥]، ومعنى ﴿وَفْدًا﴾ أي ركباناً. وقوله ﷺ: (يُحشر الناس يوم القيامة ثلاثةَ أصنافٍ: صِنفاً مشاةً، وصِنفاً رُكباناً، وصنفاً على وجوههم)[1].

• وأما يوم القيامة، يوم تدنو الشمس فوق الرؤوس، ويؤتى بجهنم ولها سبعون ألف زمام، مع كل زمامٍ سبعون ألف مَلَكٍ يجرونها، وهي تزمجر وتزفر غضباً منها لغضب ربها، في هذا الجو من الفزع والرعب.. أين المتقون؟

يخبرنا الله سبحانه وتعالى عنهم فيقول:

• ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾﴾ [الدخان: ٥١].

• ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِي مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنبياء: ١٠١ - ١٠٣].

• ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾ [مريم: ٧١ - ٧٢].

• وأما لحظة اقترابهم من الجنة ودخولهم فيها، فقد وصفها الله عز وجل بأبلغ تعبير:

---

(١) رواه الترمذي في سننه عن أبي هريرة (٣١٤٢) وقال: هذا حديث حسن، ورواه أحمد في مسنده (٨٤٣٣) بلفظ قريب عن أبي هريرة.

- ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ [الزمر: ٧٣ - ٧٤].

ثم تتجلى أعلى كرامات الله جل جلاله للمتقين في قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾﴾ [القمر: ٥٤ - ٥٥].

اللهم اجعلنا من المتقين برحمتك يا أرحم الراحمين.

الثمرة الخامسة: حسن الخاتمة والوفاة على الإسلام والإيمان وفيها ثلاثة مباحث

المبحث الأول: لماذا سمّى الله عز وجل لحظات الموت بـ (السكرة)؟

لقد سمّى الله عز وجل لحظات الموت بالسكرة فقال: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾﴾ [ق: ١٩]، لأن آلام الموت الشديدة تُسْكِر العقل وتُطير منه كل الأفكار والحقائق والتصورات السطحية، ولا يبقى مع الإنسان في تلك اللحظات إلا ما استقر في عقله الباطن، وهي تلك التعلقات القلبية، فمن كثرة ارتباطها بالعاطفة حباً وخوفاً وتعظيماً، فإنها ترسخ وتستقر في العقل الباطن، وتبقى حتى في أشد اللحظات والآلام والشدائد.

وشدائد الموت أشد إيلاماً من كل الشدائد على الإطلاق.. هذه الشدائد تبدأ من أخمص القدمين إلى قمة الرأس. أرأيتَ إلى ثلة الحرير إذا وضعتَها بين أشواكٍ كثيرةٍ، ثم جذبتها من جهاتها المختلفة جذبةً واحدة، فتقطّع منها ما تقطّع، وبقي منها ما بقي؟!

هكذا يشبِّه العلماء آلام سكرة الموت عندما يستلُّ ملكُ الموت الروحَ من كل ذرة من ذرات الجسد. وما تعلق شيء بشيء كتعلق الروح بالجسد.

ولطالما كان الموت سبباً لتطاير كل الأفكار العقلية والتصورات السطحية، فلا يبقى مع الإنسان في تلك اللحظات إلا تعلُّقاتُه القلبية وتوجُّهاتُه الوجدانية، فإنَّ حاجة الإنسان إلى ربط عواطف القلب بالعقل وتجنيدها لخدمته - عن طريق التزكية - هي أهم الحاجات على الإطلاق[1].

المبحث الثاني: قد يقول قائل: أليس الإنسان الذي آمن عقله بالله عز وجل وبسائر مقتضيات الإيمان، يعتبر قضائياً مسلماً، ولو انصرف قلبه إلى حب الدنيا والشهوات والأهواء؟ فما الحاجة إذن إلى التربية أو التزكية ليتطابق كل من العقل والوجدان؟! ليكن بينهما تشاكس، لا ضير !

الجواب: لا ريب أن هذا الإنسان يوصف في القضاء الدنيوي بأنه مسلم، ولكنَّ الحقيقة أنَّ الإيمان بالله عز وجل لا يستقر ولا يثبت لدى الإنسان حتى أُخريات حياته، إلا بقوةٍ من دِعامتي العقل والوجدان معاً.

فالإيمان بالله عز وجل لا بد أولاً أن يُغرس وجودُه علماً ومعرفةً في ساحة العقل وبراهينه، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩]، ولا بد ثانياً أن تُغذَّى أصوله برعاية العواطف والوجدان، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]. أي أن الإيمان العقلي لا يقوى ولا يثمر، إلا بواسطة تغذيته بالعواطف والوجدان المستقر في القلب. شأنه كشأن الشجرة، لا بد أولاً أن تغرس في تربة صالحةٍ، ثم لا بد ثانياً أن تُتعهَّد بالرعاية والسقيا.

وكذلك فالإيمان شجرةٌ غِراسها في تُربة العقل والمنطق والعلم، وأما تنميتُها فبالعواطف والوجدان المستقرة في القلب، وذلك بالطرق التربوية السابقة الذكر، وأهمها الإكثار من ذكر الله عز وجل.

---

(١) شرح الحكم العطائية الدرس (١٥).

وكما أن الشجرة تذبل ثم تَيْبَس إذا غرستَها في تربةٍ صالحةٍ ثم أعرضتَ عن رعايتها وسقياها، فكذلك الإيمان الأعزل إذا غرستَه في تُربة العقل قناعةً ويقيناً ثم لم تغذِّه وتُنْعِشْه بمشاعرك الوجدانية، سيَذبُل ثم يَذبُل ثم يزداد ذبولاً، ثم إنَّ ثورة الوجدان المعاكس - أي المتجه إلى الأهواء والشهوات - ستخنقه ثم تُميته. ولئن لم يتجلَّ ذلك في أيام صحوه العقلي، فلا بد أن تحيق به هذه الكارثة قبيل موته، أو عندما تجتاحه عاصفة الموت.

إذن.. فالإيمان العقلي بالله عز وجل بدون حبٍ له سبحانه، شيئاً فشيئاً يذبل ثم يذبل ثم يختنق ثم يموت وتحصل الرِّدَّة - نعوذ بالله الواحد الأحد منها - مصداقاً لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤].

فالباري عز وجل يبين لنا من خلال هذا الكلام أنَّ الذي يرتدُّ عن هذا الدين بعد الإيمان الحقيقي بالله عز وجل، لا يرتدُّ بسبب شكٍ طاف برأسه بعد يقين، وإلا لكان مقتضى ذلك أن يقول: فسوف يأتي الله بقوم يتمتعون بإيمانٍ عقلي ويقين أشد رسوخاً، ولكنه جل جلاله قال: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾، أي إنما يرتدُّ مَنْ يرتدُّ عن هذا الدين، بسبب فراغ قلبه من حب الله عز وجل. فمن فعل ذلك منكم، فسوف يأتي الله بقوم محصنين ضد هذه الرِّدَّة بحصنِ الحب ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾.

لأجل ذلك لا يتحدث الباري جل جلاله عن صفات المؤمنين إلا ويضع الناحية الوجدانية في مقدِّمة الصفات، فهو سبحانه وتعالى القائل:

- ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢]، فالإيمان مكانه العقل، والوجل مكانه القلب.

- ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢﴾ [المؤمنون: ١-٢]، والخشوع مكانه القلب.

- ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، والحب مكانه القلب.

- ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ [البقرة: ٤٠]، والرهبة مكانها القلب.

- والرسول ﷺ يقول: (المرء مع من أحب)[1].

فانظر إلى أهمية تربية القلب على حبِّ الله عز وجل والتعلُّقِ به وحده، في تحصين المسلم ضد الردة وسوء الخاتمة.

والمسلم بعد ذلك أحد رجلين:

- رجل فَرَغَ إناءُ قلبه من حب الله عز وجل، فرسختْ فيه محبَّةُ الأغيار والأهواء. ولطالما كان السلوك تابعاً للحب المستقر على مرآة القلب - كما علمنا - فإنه يُقاد بزمام ذلك الحبِّ الدنيوي الهابط إلى السلوك المنسجم مع هذه المحاب، لا إلى السلوك الذي يحبه الله عز وجل ويرضاه. وإذا به يستدبر الحقائق الإيمانية القابعة في زوايا عقله، فلها أن تقول ما تشاء وتعبِّر عما تريد، أما هو فمشغول بمعانقة أهوائه ورغباته ومحابِّه، فالحكم بيدها والمرجع إليها.. عندئذٍ هيهات أن تقف تلك الحقائقُ الإيمانية العقلية في وجه هذا الوقود من الحب المهيمن على القلب والحافز على السلوك، وإذا بهذه الحقائق تذوي ثم تذوي ثم تذوب ثم تختنق وتموت وتحصل الردة، نعوذ بالله الواحد الأحد منها.

هذا الإنسان تراه قُبيل موته بأشهر، ربما ترك الصلاة وكفر بالقرآن ثم مات على ذلك. هذا بالإضافة إلى أنَّ عاصفة الموت تبدِّد كلَّ الأفكار السطحية المحبوسة في زوايا العقل، وإذا هي ذاهبةٌ في بحر النسيان، ولا تطفو على فكر الإنسان ولسانه عندئذٍ إلا ما غُرس في العقل الباطن، وهو العواطف والوجدان والتعلُّقات القلبية التي كانت تلقى منه الرعاية طوال أيام حياته المدبرة، فيخرج من الدنيا وهي آخر ما يذكره

(١) رواه البخاري (٥٨١٦)، ومسلم (٢٦٤١)، كلاهما عن عبد الله.

ويهتف باسمه ويبحث عنه. ويذكّره مذكّر بالشهادة فلا يذكرها.. يخرج من الدنيا وهو يهتف بأسماء أشخاص يتعشَّقُهم، أو يتحدَّث عن أرقامٍ مالية وأعمال تجارية، وهو يهذي ولا يشعر، ولكن عقله الباطن طفح بهذا الكلام على لسانه، شأنه شأن الرجل الذي أصابته حُمّى، نجده يهذي بألصق القضايا بمشاعره ووجداناته، أما المسائل السطحية فإنها تتطاير. فإذا مات على هذه الحالة ذهب الإيمان وخُتم له بسوء الخاتمة. نعوذ بالله الرحمن الرحيم منها.

- ورجل غَرَسَ الإيمانَ في عقله بالعلم والمعرفة، ثم نَقَلَ هذا الإيمان إلى عواطفه، فكلَّما رأى الدنيا بأشكالها المختلفة ذكَّرته بربِّها وخالقها، وكلَّما تقلَّب في نعمةٍ ذكَّرته بالمنعم، أو لاحتْ أمامه رهبةٌ ذكَّرته بالمنتقم، فعواطفه دائماً منصرفة إلى الله عز وجل حباً وخوفاً وتعظيماً - وتلك هي التقوى كما علمنا - وقلبُه دائماً في ذكرِ لله عز وجل.. هذا الإنسان إذا وقع في سكرات الموت نسي كلَّ شيء إلا الله، وراح لسانُه يلهج بذكر اسم الجلالة (الله)، وخُتم له بالحسنى.

إذن.. فالعبرة بساعة الختام، فإذا أشرقتْ هذه الساعة بانعكاسات حياته الماضية ذكراً لله، وحباً وخوفاً وتعظيماً لعلاه، ختم له بالحسنى واتجه إلى السعادة الخالدة. أما إذا أظلمت هذه الساعة بانعكاسات حياته الماضية نسياناً وغفلة عن الله، ومن ثم حباً وخوفاً وتعظيماً لدنياه، خُتم له بالسوء واتجه إلى الشقاء الأبدي.

لأجل ذلك ربط الله عز وجل بين التقوى - أي الحب والخوف والتعظيم لله كما علمنا - وحسن الخاتمة، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عمران: ١٠٢]، أي إن اتقيتُمُ اللهَ حقَّ تقاته فقد ضمنتم ألا تموتوا إلا مسلمين، وإن لم تتَّقوا الله حقَّ تقاته كنتم في نهايتكم على خطر. فتداركوا أمركم من الآن، وحقِّقوا الضمانة التي تجعلكم ساعة الموت في مأمنٍ من أن تفتقِدوا إيمانكم.. حقِّقوا ونفِّذوا هذا الأمر من الآن، وتنفيذُهُ إنما يكون على ساحةٍ واسعةٍ هي عمر الإنسان كله.

هذا الكلام من الله عز وجل لعباده، مَثَلُه - ولله المثل الأعلى - كَمَثَلِ الأب الذي يقول لابنه: إياك ألا تحصد غلَّةً مربحة مثمرة.. وكأنما يأمره من الآن أن يباشر الزرع ويبذل الجهد حتى يحصد بعد ذلك خير حصاد.

فحسن الخاتمة لا يكون بجهد تلك الساعة - أي ساعة الموت - وإنما هو انعكاس لسعي دائب طوال عمره السابق. وأيضاً سوء الخاتمة لا يكون باكتسابٍ آنيٍ في تلك الساعة، وإنما هو عبارة عن غشاوةٍ آتيةٍ من انعكاساتِ ماضيه وسابقِ دهره وحياته. أما ساعة الموت نفسها، فالإنسان فيها أشبه ما يكون بالخرقة البالية، لا يستطيع أن يعيَ خِطاباً، ولا أن ينفِّذ أمراً، ولا أن يزدجر عن نهي.. هو أقل من أن يعي، فكيف إذن يطبق؟!

إذاً فالمرء يموت على ما عاش عليه، ويُبعث على ما مات عليه مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴿١٢٤﴾﴾ [طه: ١٢٤]، وقوله ﷺ: (يُبعث كلُّ عبدٍ على ما مات عليه)[١]، قال المناوي في (التيسير بشرح الجامع الصغير)[٢]، أي يموت على ما عاش عليه ويبعث على ذلك. انتهى.

ولعل مأساة الوقوع في كمين الشهوات والأهواء لمن لم يحصِّن نفسَه ضدَّها بحصنٍ منيعٍ من محبة الله ورسوله، تتجلى في قصة ابن السقا (فقيه من أعيان القرن الخامس الهجري)، فقد كان واحداً من ثلاثةٍ قصدوا زيارة العالم الرباني الجليل الشيخ يوسف الهمذاني، وكان الثاني ابن عصرون والثالث الشيخ عبد القادر الجيلاني.

---

(١) رواه مسلم (٢٨٧٨) عن جابر.
(٢) (٢/ ٤٤٤) من كتاب التيسير في شرح الجامع الصغير للمناوي.

قال ابن سقا لصاحبيه وهم في الطريق إلى زيارة الشيخ يوسف الهمذاني: إنَّ قصدي من زيارة الشيخ أن امتحنه في علوم الشريعة، وأن أبيِّن جهله للناس المغترين به. وقال ابن عصرون: أما أنا فسأطلب منه الدعاء لي بالغنى ومزيدٍ من المال. وقال الشيخ عبد القادر الجيلاني: أما أنا فقد قيل لي عن صلاحه ومناقبه، سأزوره لأتبارك به، وسأسأله الدعاء لي.

ولما دخلوا على الشيخ يوسف الهمذاني، نظر إلى ابن السقا قائلاً: أرى الجدال والكفر بين عينيك، لعلك جئتَ تسألني عن كذا وكذا، وذكر أموراً كان ابنُ السقا قد أضمر العزم على أن يسأل الشيخ عنها، وأجابه عنها. ثم نظر إلى ابن عصرون قائلاً: سيأتيك المال إلى هنا، وأشار إلى أعلى صدره. ثم خاطب الشيخ عبد القادر الجيلاني فقال: قدمك على عُنُقِ كلِّ أولياء زمانك.

ثم إن عاقبة كلٍ منهم كانت كما قال الشيخ: أما الشيخ عبد القادر الجيلاني فقد شهد له أهل زمانه برسوخه في علوم الشريعة والحقيقة (إصلاح القلب)، وباستقامته وصلاحه. وأما ابنُ عصرون فقد رُزق من المال ما جعله أغنى الناس في عصره، وقبره في دمشق في المنطقة التي تسمى اليوم بالعصرونية. وأما ابن السقا فقد أوفده الخليفةُ إلى بعض ملوك الفرنجة ليناظر النصارى هنالك في شؤون الدين، وذلك بدعوةٍ من الملك ورغبةٍ منه في ذلك. وكان ابن السقا يحفظ القرآن معتداً بعلومه ومعارفه الدينية في العقيدة والفقه، ونزل ضيفاً مكرَّماً على الملك نفسِه، فأوعز الملك إلى ابنةٍ له أن تتزيَّن وأن تقوم على خدمته وإكرامه، فافتُتن بها وطلب الزواج منها، ولكنهم امتنعوا عن ذلك إلا أن يتنصَّر، فتنصَّر، وتم إعلان ذلك في الأوساط، فلما تحقَّق لهم مأربُهم من استضافته، أنهوا هذه الاستضافة وأهملوا شأنه وأبوا أن يزوجوه منها، ثم إنه رئي في القسطنطينية مريضاً وبيده مروحة خَلِقة يذبُّ بها الذباب عن وجهه، فسئل عن القرآن فقال إنه نسيه ولم يعد يذكر منه إلا آيةً واحدةً وهي: ﴿رُّبَمَا

﴿رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ۝٢﴾ [الحجر: ٢]، وقضى نحبه متنصراً مهملاً مرمياً في أسواق القسطنطينية[١].

ولو أنه - إضافةً إلى علومه العقلية - سعى في سبيل تزكية نفسه وتربية قلبه على محبة الله عز وجل، إذاً لتضاءلت أمام هذا الحب كلُّ المحبوبات الأخرى، ولتعاون العقل والقلب على أن يسلكا به مسلك الاستقامة على ما يحبه الله ويرضاه، فكان ذلك حصناً منيعاً يقيه الوقوع في منزلقات ومسالك المحاب الدنيوية كلها[٢].

المبحث الثالث: الموت بوابة للقاء الله سبحانه وتعالى.

تروي السيدة عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: (مَنْ أحبَّ لقاءَ الله أحبَّ اللهُ لقاءَه، ومَنْ كَرِهَ لقاءَ الله كَرِهَ اللهُ لقاءَه) قلت: يا رسول الله أكراهيةُ الموت؟ فكلُّنا نكره الموت. قال: (ليس كذلك، ولكنَّ المؤمن إذا بُشِّر برحمة الله ورضوانه وجنَّته، أحبَّ لقاء الله، فأحبَّ اللهُ لقاءَه ! وإنَّ الكافر إذا بُشِّر بعذاب الله وسخطه كَرِهَ لقاءَ الله، وكره اللهُ لقاءَه)[٣].

الإنسان منا أياً كان - مؤمناً أم كافراً أم فاسقاً - قبل أن يطرق الموتُ بابَه يكون كارهاً للموت. فالباري عز وجل وصف الموت بالسكرة، وهذا ما يجعلنا جميعاً نكرهه، كما قالت السيدة عائشة: (فكلنا نكره الموت).

ولكن إذا أصبح الموت من الإنسان قاب قوسين أو أدنى وبدأت به سكراتُه،

---

(١) جاء في كتاب (الحب في القرآن) للدكتور البوطي (١٤٦) أن هذه القصة وردت في كتاب (شذرات الذهب في أخبار من ذهب) لابن العماد (٤/ ١١١)، طبعة لبنان، وقد وجدت هذه القصة في برنامج المكتبة الشاملة في نفس المرجع ولكن (٦/ ١٨٢) الطبعة الأولى لدار ابن كثير دمشق بيروت.

(٢) شرح الحكم العطائية الدرس ١٥، و (هذا والدي) ص (١٤٤-١٤٦).

(٣) رواه مسلم (٢٦٨٤) عن عائشة، ورواه البخاري بلفظ قريب (٦١٤٢) عن عبادة بن الصامت.

فإنَّ الله عز وجل يُري هذا الإنسانَ عاقبتَه، فهو عندئذٍ أحد رجلين:

- رجل آمن بالله عز وجل إيماناً حقيقياً، ولا زال يغذِّي جذور هذا الإيمان بالإكثار من ذكر الله عز وجل ومراقبته. فهو في كل يوم يناجي ربَّه ومولاه، ويعبده ويتذلَّل لعلاه، ويكثر الالتجاء إليه، والسجودَ والبكاءَ بين يديه.. ونتيجة ذلك أنَّ حبَّ الله عز وجل يكبر وينمو في قلبه حتى يصبح أكبر من كل المحبوبات. ومن ثمرات محبته لله عز وجل هذه، الشوقُ إلى لقائه، إذ من المحال أن يحبَّ الإنسان شيئاً ولا يحبَّ لقاءه والقرب منه!

فهذا الإنسان يعيش في شوق إلى لقاء هذا الإله، الذي طالما عبده وطال سجوده على بابه، وتذلُّله وافتقاره على أعتابه، وهو لا يراه، فهو يحبُّ أن يراه، وكلما امتدت به الحياة على هذا النحو، كلما ازدادت إشراقاتُ قلبه فازداد شوقاً إلى الله جل جلاله. فإذا حانت ساعة الموت فإنَّ الله عز وجل يرسل له - قبيل سكرات الموت - مَلَكاً لا يراه أحد إلا هو، يبشِّره برحمة الله ورضوانه و جنته ويقول له: إن الله يحبُّ لقاءك، فهل أنت تحبُّ لقاءه؟

في تلك الحالة لا يكره الموت، بل يكره الدنيا كما يكره الإنسان طعاماً نتناً طال عهده به حتى فسد.

ولو أنَّ هذا السؤال أُلقي عليه قبل معاناة سكرات الموت، لكان بالطبع يكره الموت، ولكنّ هذه البشرى تجعله يحبُّ الموت ويحبُّ لقاء الله. وتظهر دلائل هذه البشرى واضحة على قَسَمَاتِ وجهه، وتكون كالمخدِّر الذي يخفف من آلام الموت، فتغيب عن ذاكرته وإحساسه تلك الآلام، بل إنَّ قلبه حينئذٍ يقفز فرحاً بهذه البشرى، ويتلهَّف انتظاراً أن يحين موعدُ انتقاله من هذه الحياة الدنيا إلى تلك الحياة التي يلقى فيها ربه جل جلاله.

عن هذه البشرى يتكلم البيان الإلهي فيقول: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ۝٦٣ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [يونس: ٦٢ - ٦٤]، إنها البشرى التي تكون عند الموت.

يروى أنَّ الإمام أبا حامد الغزالي رحمه الله لما كان يوم الاثنين وقت الصبح، توضأ وصلى وقال: عليَّ بالكفن، فأخذه وقبّله ووضعه على عينيه وقال: سمعاً وطاعةً للدخول على الملك، ثم مدَّ رجليه واستقبل القِبلة ومات قبل الإسفار[1].

وكان الشيخ عبد القادر الجيلاني رحمه الله يقول في مرض موته: أنا لا أخاف من أي إنسان، أنا لا أخاف من الموت، ولا من ملك الموت. وكان يرفع يديه ويمدُّهما وهو يقول: (وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته)، ثم أتاه الحقُّ وسكرةُ الموت فجعل يردِّد: (استعنتُ بلا إله إلا الله سبحانه، مَنْ تعزَّز بالقدرة وقهر عبادَه بالموت، لا إله إلا الله محمد رسول الله)، ثم أخذ يردِّد: الله، الله، الله، حتى خفي صوته ولسانه ملتصق بسقف حلقه، ثم خرجتْ روحه الكريمة رحمه الله[2].

- ورجل كفر بالله واليوم الآخر، أو كان مؤمناً بالله ولكن إيماناً تقليدياً، فقد استولت الدنيا على قلبه وعواطفه، فكان إقباله على الدنيا، وسجوده للدنيا، وولاؤه لأهل الدنيا، وسعادته بشهوات الدنيا. أما إيمانه التقليدي بالله فقد خنقته الدنيا حتى نسيَ اللهَ المنعِمَ المتفضِّلَ، فبات يتقلَّب بالنعم محجوباً بها عن المنعم!

هذا الإنسان إذا حان أجله، يرسل الله عز وجل له مَلَكاً يبشِّره بعذاب الله وسخطه. فإذا كان يكره الموتَ وهو في حال الصحو، فإنه الآن يكرهه أضعافاً مضاعفة. فقد كان يكره الموت لآلامه، أما الآن فهو يكره الموت لآلامه، ولأجل

(١) كتاب الثبات عند الممات لابن الجوزي (١/ ١٧٨).

(٢) عصر الدولة الزنكية الدكتور علي محمد الصلابي (١/ ٤١٩-٤٢٠).

العاقبة التي تنتظره، ولأجل انقطاعه عن دنياه التي يعبدها والتي تعلّق قلبه بها. فهي آلام فوق آلام فوق آلام، فإذا جاءه ملك الموت يبشّره بعذاب الله عز وجل وسخطه، كره لقاءَ الله فكره اللهُ لقاءه، وخُتم له بالسوء، نعوذ بالله منه.

قال سليمان بن عبد الملك لأبي حازم، وهو عالم من علماء المدينة السبعة ووليٌّ من أولياء الله عز وجل: يا أبا حازم ما لنا نكره الموت ونحب الحياة؟ قال: لأنكم عَمَرْتُم دنياكم وخَرَبْتُم آخرتكم، فكرهتم أن تنتقلوا من دار عمارٍ إلى دار خراب! فبكى سليمان بن عبد الملك ثم قال له: فكيف القدوم غداً على الله؟ قال: أما المحسن فكالغائب يَقدُم على أهله، وأما المسيء فكالآبق يقدم على مولاه[1] [2].

اللهم أدخلنا في عبادك وأدخلنا في رحمتك، واجعلنا بإحسانك وكرمك من عبادك المحسنين، حتى إذا ما أتيناك يحدونا الشوق إلى لقائك، آويتنا بين ذراعي مغفرتك وكرمك، كما تؤوي الأمُّ ابنَها المقرَّ بذنبه، والمعترفَ بتقصيره، وتضمُّه إليها وتحنو عليه.

فأنت يا أرحم الراحمين أرحم بنا من آبائنا وأمهاتنا، وهم لا يقذفوننا في النار، أفتقذفنا فيها أنت؟!

وأنت يا أكرم الأكرمين أكرم بعطائك لنا منهم، فهم كانوا يكرموننا على قَدْرِهم وعلى قَدْرِ ما عندهم، فأكرمنا وإياهم على قَدْرك فإنه لا يعلم قدرك إلى أنت.

اللهم استجبْ لنا ببركة هذه الكلمات، وبجاه قائلها عندك:

يا مَن يَرى ما في الضمير ويسمعُ ... أنت المُعَدُّ لكل ما يُتَوقَّعُ
يا من يُرجَّى للشدائد كلِّها ... يا من إليه المشتكى والمَفْزَعُ

---

(١) صفة الصفوة لأبي الفرج الجوزي (١/ ٣٨٧).

(٢) شرح الحكم العطائية الدرس (١٥).

يا من خزائنُ مُلْكِه في قولِ كُنْ ... امْنُنْ فإنَّ الخيرَ عندك أجمعُ
ما لي سوى فقري إليك وسيلة ... فبالافتقارِ إليك فَقْريَ أدفعُ
مالي سوى قرعي لبابك حيلة ... فلئن طُرِدتُ فأيَّ باب أقرعُ
ومَن الذي أدعو وأهتِفُ باسمه ... إن كان فضلك عن فقيرك يُمنعُ
حاشا لجودك أن تقنِّط عاصياً ... الفضلُ أجزلُ والمواهبُ أوسعُ
بالذلّ قد وافيتُ بابَك عالماً ... أنَّ التذلُّل عند بابك ينفعُ
وجعلتُ معتمدي عليك توكلاً ... وبسطت كفي سائلاً أتضرع
فبحقّ مَنْ أحببتَه وبعثتَه ... وأجبتَ دعوة مَنْ به يَتشفَّع
اجعل لنا من كل ضِيقٍ مخرجاً ... والطف بنا يا من إليه المرجع
ثم الصلاة على النبي محمدٍ ... خير الأنام ومَنْ به يُتَشفَّع(١)

اللهم تقبل مني هذا العمل الذي شرحتَ صدري له ووفقتني فيه وأعنتني عليه. اللهم وانشر هذا العلم في الآفاق، حتى يدخل الناس - قلباً وقالباً - في دين الله أفواجاً، واجعله حُجَّةً لي ولهم، لا عليَّ ولا عليهم.

اللهم وارفع المحن والمصائب والنِّقم عن أمة نبيِّك محمد ﷺ، وأبْدِلْنا بها المنحَ والمسراتِ والنعم، واجعلنا عبادك الشكورين.

اللهم يا من سِرُّ الأسرار عنده علانية، والعلانية في بحر علمه سر، اجعل سرائرنا خيراً من علانيتنا، واجعل علانيتنا خيراً. اللهم وأرِنا من بعضنا البعض خيراً، وأرِ نبيَّك محمداً ﷺ منّا خيراً، واجعلنا جميعاً قرةَ عينٍ له في الدين والدنيا والآخرة، يا خير المسؤولين ويا أكرم المعطين. آمين.

---

(١) هذه الأبيات لأبي القاسم السهيلي صاحب كتاب الروض الأنف.

وأختم بقول أحد العارفين:

اللهَ قُلْ وذرِ الوجود وما حوى ... إن كنتَ مرتاداً بلوغ كمال

فالكلُّ دون الله إن حقَّقْتَه ... عدم على التفصيل والإجمال

واعلمْ بأنك والعوالِمَ كلَّها ... لولاه في محوٍ وفي اضمحلال

مَنْ لا وجود لذاته من ذاته ... فوجوده لولاه عينُ مُحال

والعارفون بربِّهم لم يشهدوا ... شيئاً سوى المتكبِّر المتعالِ

ورأوا سواه على الحقيقة هالكاً ... في الحال والماضي والاستقبال

تم بعونه تعالى إنهاء هذه الرسالة في يوم عرفة

٩ / ذي الحجة / ١٤٣٥ هـ

الموافق لـ ٣ / ١٠ / ٢٠١٤ م

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين



خاتمة

وبعد.. فهذا هو الهدى، وهذا هو سبيل المؤمنين الذي قال عنه الله عز وجل: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾ [النساء: ١١٥].

وقال عنه رسول الله ﷺ في أحاديث كثيرة منها:

- (إنَّ أمتي لا تجتمع على ضلالة، فإذا رأيتم اختلافاً، فعليكم بالسواد الأعظم)[١].

- (ألا إنَّ مَنْ قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على ثنتين وسبعين ملة، وإنَّ هذه المِلَّة ستفترق على ثلاث وسبعين، ثنتان وسبعون في النار، وواحدة في الجنة، وهي الجماعة)[٢].

- (ليأتين على أمتي ما أتى على بني إسرائيل حذو النعل بالنعل، حتى إن كان منهم من أتى أمَّه علانيةً، لكان في أمتي من يصنع ذلك. وإنَّ بني إسرائيل تفرَّقتْ على ثنتين وسبعين ملة، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين ملة، كلهم في النار إلا واحدة)

(١) رواه ابن ماجه (٣٩٥٠) عن أنس، ورواه بلفظ قريب الترمذي (٢١٦٧) عن ابن عمر وقال: هذا حديث غريب، ورواه أحمد بلفظ: (سألت الله ألا يجمع أمتي على ضلالة فأعطانيها) (٢٦٦٨٢) عن أبي بصرة الغفاري، ورواه الحاكم بلفظ: (لا يجمع الله أمتي على ضلالة أبداً، ويد الله مع الجماعة) (٤٠٧) عن ابن عباس، ورواه الطبراني في الكبير (١٧/ ٢٤٠ برقم ٦٦٥) عن قيس بن بسير بن عمرو عن أبيه.

(٢) رواه أبو داود (٤٥٩٧) عن معاوية، ورواه بلفظ قريب: ابن ماجه (٣٩٩٣) عن أنس بإسناد صحيح ورجال ثقات، وأحمد (١٦٤٩٠)، والحاكم (٤٥٤) وصححه، والطبراني في الكبير (١٩/ ٣٧٧ برقم ٨٨٥)، كلهم عن معاوية.

قالوا: ومن هي يا رسول الله؟ قال: (ما أنا عليه وأصحابي)[١].

إذن: فسبيل المؤمنين = السواد الأعظم = الجماعة = ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه = النجاة في الدنيا والآخرة لأنها هي الفرقة الناجية من بين ثلاث وسبعين ملة.

فماذا قال العلماء عن الجماعة ومرادفاتها؟

- أما البخاري: فقد جزم في كتاب الاعتصام من (صحيحه) أنَّ الجماعة التي أمر النبي ﷺ بلزومها هم أهل العلم[٢]. انتهى.

- وقال الحافظ ابن حجر في (فتح الباري في شرح صحيح البخاري): الجماعة التي أمر النبي ﷺ بلزومها هم أهل العلم الشرعي، ثم ساق قول الكرماني ما نصه: مقتضى الأمر بلزوم الجماعة، أنه يلزم المكلَّف متابعة ما أجمع عليه الجمهور المجتهدون وهم أهل العلم. وقد استدلَّ واحتجَّ أهل الأصول بقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، على أنَّ الإجماع حجّة، لأنهم عُدِّلوا بقوله تعالى: ﴿أُمَّةً وَسَطًا﴾، أي عدولاً، ومقتضى ذلك أنهم عُصِموا من الخطأ فيما أجمعوا عليه قولاً وفعلاً[٣]. انتهى.

- وقال السيوطي: قوله ﷺ: (فعليكم بالسواد الأعظم) يدل على أنه ينبغي العمل بقول الجمهور[٤]. انتهى.

---

(١) رواه الترمذي (٢٦٤١) وقال: حديث حسن غريب، ورواه بلفظ قريب: الحاكم (٤٥٥)، كلاهما عن عبد الله بن عمرو، ورواه الطبراني في الأوسط (٥/ ٤٦٠ برقم ٤٨٨٣ و ٧٨٣٦) عن أنس.

(٢) صحيح البخاري (٦/ ٢٦٧٥)، كتاب الاعتصام، باب قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾.

(٣) فتح الباري في شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني (١٣/ ٣٢٨) مع التصرف.

(٤) حاشية السندي على ابن ماجه (٢/ ٤٦٣).

- وقال الشاطبي: العلماء هم السواد الأعظم وهم الجماعة، وإن قلُّوا، والعوام هم المفارقون للجماعة إن خالفوا، فإن وافقوا فهو الواجب عليهم. وعلى هذا فلو فرضنا خلو الزمان عن مجتهد، لم يمكن اتباع العوام لأمثالهم، ولا يمكن عدّ سوادهم هو السواد الأعظم، الذي من خالفه فميتته جاهلية، بل يتنزل النقل عن المجتهدين منزلة وجود المجتهدين، فالذي يلزم العوام مع وجود المجتهدين، هو الذي يلزم أهل الزمان الخالي عن المجتهدين، فالاعتبار إنما هو بالسواد الأعظم من العلماء المعتبر اجتهادهم، فمن شذ عنهم فمات، فميتته جاهلية، لقوله ﷺ فيما رواه الشيخان: (من رأى من أميره شيئاً يكرهه فلْيصبر، فإنه من فارق الجماعةَ شبراً فمات، إلا مات ميتةً جاهلية)[1]، وإنْ ضمَّ العلماءُ إليهم العوام فبحكم التَّبَع، لأنهم غير عارفين بالشريعة، فلا بد من رجوعهم في دينهم إلى العلماء، فإنَّ العوام لو تمالؤوا على مخالفة العلماء فيما حدُّوا لهم، لكانوا - بحسب الظاهر - هم الغالب وهم السواد الأعظم لقلة العلماء وكثرة الجهال. فلا يقولنَّ أحد: إنَّ اتباع جماعة العوام هو المطلوب، وإنَّ العلماء هم المفارقون للجماعة، وهم المذمومون في الحديث، بل العكس.

ومن هنا لما سُئل ابنُ المبارك عن الجماعة الذين يُقتدى بهم قال: أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، فلم يزل يحسب حتى انتهى إلى محمد بن ثابت والحسين بن واقد، قيل: فهؤلاء ماتوا، فمن الأحياء؟ قال: محمد بن ميمون المروزي.

وقال إسحاق بن راهويه: لو سألتَ الجُهَّالَ عن السواد الأعظم لقالوا: هم

---

(١) رواه البخاري (٦٦٤٦) عن ابن عباس، ورواه بلفظ قريب مسلم (١٨٤٩) عن ابن عباس، وفي رواية الترمذي (٢٨٦٣) بلفظ: (من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه) عن الحارث الأشعري، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح غريب، ورواه أبو داود (٤٧٥٨) بلفظ قريب.

جماعة الناس، ولا يعلمون أنَّ الجماعة عالم متمسِّك بأثر النبي ﷺ وطريقه، فَمَنْ كان معه وتبعه فهو الجماعة، ومَنْ خالفه فقد ترك الجماعة[(١)]. انتهى كلام الشاطبي.

- وقال د. محمد سعيد رمضان البوطي رحمه الله: إنَّ مقتضى بلاغة المصطفى ﷺ وكونه حُجَّة في البيان والفصاحة وقد أوتي جوامع الكلم، أن يقابل كلمة اليهود والنصارى - في حديث افتراق الأُمَّة - بكلمة المسلمين، فيقول: (ويفترق المسلمون على ثلاثٍ وسبعين ملة)، ولكنه ﷺ عَدَلَ عن كلمة المسلمين إلى كلمة (أمتي) فقال: (وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين ملة)، فالمراد بـ (الأُمَّة) هنا، أمة الدعوة لا أمة الاستجابة.

- فأُمَّة الدعوة: كلُّ مَنْ وُجِد من الإنس والجنّ، في عصر رسول الله ﷺ وما بعده إلى قيام الساعة.

- وأُمَّة الاستجابة: كلُّ مَنْ آمن مِنْ أُمَّة الدعوة بالله ورسوله، فالمؤمنون هم مِنْ أُمَّةِ الدعوة وأُمَّةِ الاستجابة معاً، وغيرهم من أُمَّة الدعوة فقط.

إذن: (وتَفترق أمتي على ثلاثٍ وسبعين مِلَّة)[(٢)]، وفي رواية: (وتفترق أمتي على ثلاثٍ وسبعين فِرقة)[(٣)]، المقصود بها: أي تفترق أمة الدعوة إلى أديان مختلفة متناقضة شتى، كلها في النار إلا مِلَّةً واحدة وهي مِلَّة الإسلام بكل فئاتها ومذاهبها، وليس المقصود بها الفِرق والمذاهب الإسلامية المتنوعة. فقد روى الشيخان عن أنس وغيره أن رسول الله ﷺ قال: (مَنْ لقيَ اللهَ لا يشرك به شيئاً دخل الجنة)[(٤)]،

---

(١) الاعتصام للشاطبي (٣/ ٢١٧ - ٢١٩) مع التصرف.

(٢) مر ذكره ص٤٥٢.

(٣) رواه الترمذي (٢٦٤٠)، وأبو داود (٤٥٩٦)، وابن ماجه (٣٩٩١) كلهم عن أبي هريرة.

(٤) رواه البخاري (١٢٩) عن أنس، ومسلم (٩٣) عن جابر.

وقال ﷺ: (مَنْ قال لا إله إلا الله مخلصاً من قلبه دخل الجنة)[(١)]. انتهى كلام د. البوطي رحمه الله.

أقول: وقوله - رحمه الله - هذا، لا يتناقض مع قول البخاري أنَّ المقصود بـ (الجماعة) أو (ما أنا عليه وأصحابي) هم أهل العلم، لأن الإسلام دين علم ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩]، ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٨- ١٩].

إذن.. فالأمة التي دعاها رسول الله ﷺ إلى الإيمان بالله عز وجل والإقرار بوحدانيته، هي أمة الدعوة، المفترقة إلى تلك الفرق، والملة الناجية هي أمة الإجابة، وهي كل من قال: لا إله إلا الله، وآمن بما جاء به النبي ﷺ.

وقد علمنا سابقاً القاعدة الشرعية المتفق عليها والتي تقول: (لنا الظاهر والله يتولى السرائر) فكل من قال: لا إله إلا الله محمد رسول الله، نحسبه من المِلَّة الناجية ولا نكفِّره.

ومما يؤكد كلام الدكتور البوطي رحمه الله، ما رواه مسلم عن أبي هريرة أنه ﷺ قال: (والذي نفسُ محمدٍ بيده، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة - أي أمة الدعوة - يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أُرسِلتُ به، إلا كان من أصحاب النار)[(٢)].

---

(١) رواه الطبراني في الكبير (٥/ ٥٠٧٤)، والأوسط (٢/ ١٢٥٧)، وهذا الكلام الذي سقناه للدكتور البوطي رحمه الله، مأخوذ من خطبة الجمعة بتاريخ (٦/ ٢/ ٢٠٠٩) مع التصرف والزيادة.

(٢) رواه مسلم (١٥٣) عن أبي هريرة.

ولما كانت الملة الناجية هي واحدة من ثلاث وسبعين فرقة فقد قال تعالى: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يوسف: ١٠٣]، وفي ذلك يقول الفضيل بن عياض: (الزمْ طريق الهدى ولا يضرك قِلَّةُ السالكين، وإياك وطرق الضلالة ولا تغتر بكثرة الهالكين)(١).

- وقال المناوي: قوله ﷺ: (ليأتين على أمتي ما أتى على بني إسرائيل... وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين ملة...) أي أمة الدعوة، وهي تشمل كل أهل الملل والنحل الذين ليسوا على قبلتنا(٢). انتهى.

- وقال اللالكائي: (إنَّ منهج أهل السنة والجماعة هو المنهج الأصيل الذي أرسى النبيُّ ﷺ قواعده، وأيُّ منهجٍ بعده لا عبرة له ولا قيمة، وهذا المنهج في كل عصر له رجال، وهو السواد الأعظم الذي قال عنه ﷺ: (لا يزال طائفة من أُمَّتي ظاهرين حتى يأتِيَهم أمرُ الله وهم ظاهرون)(٣). انتهى.

- وقال الحافظ ابن كثير الدمشقي: (السواد الأعظم هم أهل الحق، وأهل الحق هم أكثر الأمة، ولا سيما في زمان الصدر الأول، ولا يكاد يوجد فيهم مَنْ هو على بدعة، أما في الأعصار المتأخرة فلا يعدم الحقُّ عصابةً يقومون به)(٤). انتهى.

وأخيراً أختم بنقطتين:

- النقطة الأولى:

عرفنا تفسير كلمة (الجماعة) ومرادفاتها الواردة في أحاديث النبي ﷺ سابقة

---

(١) ورد في كتاب الاعتصام للشاطبي (١/ ١٣٦)، وفي كتاب المجموع للنووي (٨/ ٢٧٥).

(٢) التيسير بشرح الجامع الصغير للمناوي (٢/ ٣١٧) وهذا هو أحد رأييه.

(٣) الحديث رواه البخاري (٦٨٨١) عن المغيرة بن شعبة، وأما الكلام الذي سقناه للالكائي فمأخوذ من كتابه شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٦/ ١٠) الشارح أبو الأشبال المصري.

(٤) النهاية في الفتن والملاحم للحافظ ابن كثير الدمشقي (١/ ٣٦).

الذكر، ومنها قوله ﷺ: (من خرج من الطاعة وفارق الجماعة فمات، مات ميتة جاهليةً)[١]. وعرفنا معنى هذا الحديث، وهو: أنه مَنْ خرج من طاعة إمام المسلمين - أي رئيس الدولة - وفارق جماعة المسلمين، وهم - كما علمنا - جمهور علماء المسلمين، ثم مات فميتته جاهلية.

ولكن.. هناك بعض الجماعات الإسلامية جرَّتْ هذا الحديث جرّاً ليخدم مصالحها، وفسَّرتْه تفسيراً مناقضاً لتفاسير أهل العلم. وإذا بهم يوحون إلى مريديهم أنهم هم المعنيُّون بهذا الحديث، وأنَّ من خرج عن طاعتهم وفارق جماعتهم ثم مات، فميتته جاهلية! ويصفِّدون مريديهم من هذا الحديث بقيدٍ من الطاعة العمياء لهم في كل شيء.

وكم من شباب يُلجَؤون إلى بعض التصرفات التي لا تقبلها عقولهم، فإذا قلنا لأحدهم: إنَّ هذا التصرف غير جائز شرعاً، ولو عدتَ إلى الشرع لعلمتَ ذلك. فيقول: نعم، ولكني بايعتُ على السمع والطاعة، وإنني صافحتُ مرشدي وقلت له: أبايعك على أن أسمع وأطيع ما تقوله لي. والآن هو يطلب مني كذا وكذا، و إذن فينبغي أن أسمع وأطيع، فإن لم أفعل فسأموت ميتة جاهلية!

نقول له: إذن فأين أنت من القاعدة الفقهية المتفق عليها، والمأخوذة من قول رسول الله ﷺ: (لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق)[٢]، وقوله: (على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحبَّ وكره، إلا أن يؤمر بمعصية، فإن أُمر بمعصيةٍ فلا سمع ولا طاعة)[٣]، وقوله: (لا طاعة في معصية الله، إنما الطاعة في المعروف)[٤]،

(١) رواه مسلم (١٨٤٨) عن أبي هريرة.

(٢) رواه أحمد (١٠٨٩) عن علي، ورواه الطبراني في الكبير (١٨/ ١٧٠ برقم ٣٨١).

(٣) رواه مسلم (١٨٣٩)، والبخاري (٦٧٢٥) بلفظ قريب، كلاهما عن ابن عمر.

(٤) رواه مسلم (١٨٤٠) عن علي.

هذا إضافةً إلى أنَّ المقصود بـ (وفارق الجماعة) هو مَنْ فارق جمهور علماء المسلمين، لا مَنْ فارق الجماعة التي أسَّسها فلانٌ من الناس ونسبَها إلى نفسه !

إنه الدَّجل الذي يمارسه بعضُ المرشدين من جهة، إضافةً إلى الجهل الذي انغمس فيه كثير من المريدين من جهةٍ ثانية، ومن خلال هذين الأمرين، يخرب المجتمع الإسلامي ويسود الهرج والمرج والفتن، لِمَ لا، وكل فئة من الناس تنضوي تحت رايةٍ وجماعة، وكل جماعة لها محورها الذي تطوف حوله وتقدِّسه، ألا وهو رئيسها، وكل رئيس يلقي بأوامره إلى أتباعه الذين يسارعون في التقاط هذه الأوامر وإطاعته فيها طاعةً عمياء في كل ما يشير إليه، فضلاً عما يقوله ويأمر به ! وإذا بهذه المحاور القائمة على المصالح والأحزاب تتصادم، ثم تتصارع، ثم تتقاتل، انتصاراً لعصبية !

وكم حذَّرنا رسول الله ﷺ من أن نصل إلى هذا الدرك، ودلَّنا على رأس الخيط من ذلك، والذي إن اجتنبناه فلن نهوي إلى ذلك الدرك، وهو: الخروج عن طاعة السلطان ومفارقة جمهور المسلمين، فهو ﷺ القائل: (من خرج من الطاعة وفارق الجماعة فمات مات مِيتةً جاهلية. ومن قاتل تحت راية عُمِّيَّةٍ، يغضب لِعَصَبَةٍ أو يدعو إلى عَصَبةٍ، أو ينصر عَصَبَةً، فقُتِلَ، فقِتْلَةٌ جاهلية. ومن خرج على أمتي يضرب بَرَّها وفاجرها، ولا يتحاشى من مؤمنها، ولا يفي لذي عهد عهده، فليس مني ولست منه)[١].

لقد سأل أحدُ الصحابة رسولَ الله ﷺ فقال له: يا رسول الله، أَمِنَ العصبية أن يُحِبَّ الرجلُ قومَه، قال: (لا، ولكن من العصبية أن يعين الرجلُ قومَه على الظلم)[٢].

---

(١) رواه مسلم (١٨٤٨) عن أبي هريرة.

(٢) رواه ابن ماجه (٣٩٤٩) عن فسيلة عن أبيها، ورواه أحمد (١٦٥٤١) عن ذات الصحابي.

- النقطة الثانية:

لقد أمرنا رسول الله ﷺ - في أحاديث كثيرة - عند اشتداد الفتن وتحكُّم الأهواء، أن نلتزم جماعةَ المسلمين وإمامَهم، وربط بين هذين الأمرين:

١ - جماعة المسلمين، وهم كما علمنا أهل العلم وما أجمع عليه جمهور العلماء.

٢ - إمام المسلمين، وهو رئيس الدولة أو خليفة المسلمين أو الأمير، وكلها أسماء لمسمىً واحد.

- ففي الحديث الذي رواه الشيخان عن حذيفة بن اليمان أنه قال: (كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني، فقلت: يا رسول الله إنا كنا في جاهلية وشر، فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: نعم. قلت: وهل بعد ذلك الشر من خير؟ قال: نعم، وفيه دَخَن. قلت: وما دَخَنُه؟ قال: قوم يهدون بغير هديي، تعرف منهم وتنكر. قلت: فهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: نعم، دعاة على أبواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه فيها. قلت: يا رسول الله صفهم لنا. قال: هم من جلدتنا، ويتكلمون بألسنتنا. قلت: فما تأمرني إن أدركني ذلك؟ قال: تلزم جماعة المسلمين وإمامهم. قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال: فاعتزل تلك الفرق كلها، ولو أن تعضَّ بأصل شجرة، حتى يدركك الموت وأنت على ذلك)[١].

- وفي الحديث الذي رواه الشيخان أيضاً عن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: (من رأى من أميره شيئاً يكرهه فليصبر عليه، فإنه من فارق الجماعة شبراً فمات إلا مات ميتةً جاهلية)[٢].

---

(١) رواه البخاري (٦٦٧٣)، ومسلم (١٨٤٧) كلاهما عن حذيفة بن اليمان، واللفظ للبخاري.

(٢) رواه البخاري (٦٦٤٦)، ومسلم (١٨٤٩) كلاهما عن ابن عباس، واللفظ للبخاري.

- وفي الحديث الذي رواه مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: (من خرج من الطاعة وفارق الجماعة فمات، مات ميتة جاهلية)(١).

وقد ساق ابن حجر العسقلاني أثناء شرحه لحديث حذيفة الذي ذكرناه، قول ابن بطال الذي نصه: (هذا الحديث فيه حجة لجماعة الفقهاء في وجوب لزوم جماعة المسلمين، وترك الخروج على أئمة الجور، لأنه وصف الطائفة الأخيرة بأنهم (دعاة على أبواب جهنم)، ولم يقل فيهم (تعرف منهم وتنكر) كما قال في الأولين، وهم لا يكونون كذلك، إلا وهم على غير حق، ومع ذلك فقد أمر ﷺ بلزوم الجماعة والإمام)(٢).

ويؤكد ذلك روايةُ مسلم عن حذيفة بن اليمان أنه ﷺ قال: (تسمع وتطيع للأمير، وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك فاسمع وأطع)(٣).

وأيضاً - مما يؤكد ذلك - رواية ابن أبي شيبة عن حذيفة بن اليمان أنه ﷺ قال: (فإن رأيت خليفةً فالزمه، وإن نهك ظهرك ضرباً وأخذ مالك، فإن لم يكن خليفة فالهرب، حتى يأتيك الموت وأنت عاضٌ على شجرة)(٤).

يتبين لنا من خلال ذلك كله - والعلم كما قال العلماء جمع وفرق - أنَّ أهل السنَّة في كل عصرٍ، هم الذين يسيرون على قدم رسول الله ﷺ، ويَدْعون الناسَ إلى ما دعا إليه رسول الله ﷺ من لزوم جماعة المسلمين وإمامهم، وأولئك هم العلماء الربانيون.

---

(١) رواه مسلم (١٨٤٨) عن أبي هريرة.

(٢) فتح الباري في شرح صحيح البخاري (١٣/ ٣٨ رقم ٦٦٧٣) لابن حجر العسقلاني.

(٣) رواه مسلم (١٨٤٧) عن حذيفة بن اليمان.

(٤) مصنف ابن أبي شيبة (٨/ ٥٩٠ رقم ٥)، عن حذيفة بن اليمان.

أما الذين يَدْعون الناس إلى الخروج عن جماعة المسلمين وأئمتهم، ويتجاهلون كلَّ ما ذكرناه من الأحاديث الصحيحة، وكل ما ذكره شُرَّاح الحديث في ذلك، فهم علماء السوء، دأبهم أن ينفخوا بنيران الفتن، ليوقعوا بين عوام الناس من جهة وبين علمائهم الربانيين وحُكّام المسلمين من جهة أخرى، تحقيقاً لمآرب أعداء الإسلام، فهم عبيدهم وطوع أمرهم، لا طوع أمر رسول الله ﷺ.

ولكنهم مهما فعلوا ومهما تآمروا على الإسلام وأهله، فإنَّ العلماء الربانيين هم الظاهرون عليهم إلى يوم القيامة. فقد روى البخاري عن المغيرة بن شعبة أنَّ رسول الله ﷺ قال: (لا يزال طائفة من أمتي ظاهرين، حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون)[1]، وقال البخاري في أول هذا الباب: وهم أهل العلم[2].

كما روى البخاري عن معاوية أنه ﷺ قال: (لا يزال من أمتي أمةٌ قائمة بأمر الله، لا يضرّهم مَنْ خذلهم ولا من خالفهم، حتى يأتيهم أمر الله وهم على ذلك) ثم قال: قال معاذ: وهم بالشام[3].

إذن.. وبالجمع بين روايتي البخاري:

رواية البخاري عن المغيرة وفيها: (وهم أهل العلم)	+	رواية البخاري عن معاوية وفيها: (وهم بالشام)	←	الطائفة الظاهرة القائمة بالحق (هم أهل العلم الكائنون بالشام)

أولئك هم العلماء الربانيون، وأولئك هم أهل السنَّة، أي أهل الطريقة التي كان

---

(١) رواه البخاري (٦٨٨١) عن المغيرة بن شعبة، ورواه مسلم (١٩٢٠) عن ثوبان، واللفظ للبخاري.

(٢) صحيح البخاري (٦/ ٢٦٦٧) باب قول النبي ﷺ لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق يقاتلون، وهم أهل العلم، ثم بدأ البخاري في هذا الباب بالحديث رقم (٦٨٨١).

(٣) رواه البخاري (٣٤٤٢) عن معاوية.

عليها رسول الله ﷺ وأصحابه مصداقاً لقوله: (ما أنا عليه وأصحابي)، وأولئك هم - في آخر الزمان- الغرباء الذين وصفهم رسول الله ﷺ بقوله: (إنَّ الدين بدأ غريباً، ويرجع غريباً، فطوبى للغرباء، الذين يُصلِحون ما أفسد الناس من بعدي من سنتي)(١).

وفي رواية أخرى أنه ﷺ قال: (طوبى للغرباء)، فقيل: من الغرباء يا رسول الله؟ قال: (أناس صالحون قليل، في أناس سوء كثير، من يعصيهم أكثر ممن يطيعهم)(٢).

وعن سفيان الثوري أنه قال: (استوصوا بأهل السنة فإنهم غرباء)(٣).

والغرباء جمع غريب، والغريب: هو ذاك الذي ألزم نفسه العمل بالحق بعد العلم به، ثم دعا الناس إليه، فهو صالح في نفسه، مصلح لغيره. ولكنه بين ظهراني أناسٍ جهلوا الحق وبطروه، وتألَّبوا عليه وعادوه، نظروا إلى الدنيا نظر تعظيم وإكبار، بينما رمقوا الدينَ وأهلَه رمق تسفيه واحتقار، فأصبحوا لا يبالون بما نقص من دينهم إذا سلمت لهم دنياهم.

وجدوا الغريب بينهم يخالفهم في العادات واللقاءات، فثقُل عليهم أمره فمقتوه وخالفوه وطلبوا له العيوب والعثرات، وألصقوا به التهم والموبقات، حتى أصبح أهله به متضجِّرون، وإخوانه به متثقِّلون، وعامة الخلق منه مستوحشون.. فصار غريباً في دينه لفساد دين أكثر الخلق، غريباً في دنياه، لا يجد معيناً يفرح به، ولا مؤانساً

---

(١) رواه الترمذي (٢٦٣٠) عن كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف بن زيد بن ملحة عن أبيه عن جده، وقال: حديث حسن صحيح، ورواه مسلم (١٤٥) عن أبي هريرة بلفظ: (بدأ الإسلام غريباً وسيعود كما بدأ غريباً، فطوبى للغرباء).

(٢) رواه أحمد (٦٦١٢) عن عبد الله بن عمرو بن العاص، ورواه الطبراني في الأوسط (٩/ ٤٥٤ رقم ٨٩٨١).

(٣) كشف الكربة في وصف أهل الغربة للحافظ ابن رجب الحنبلي (١/ ٣١٩).

يسكن إليه، فجميعهم في الباطل يخوضون، وعنه يذودون.

ها هو أويس القرني - سيد العُبَّاد بعد الصحابة - يقول: (إنَّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لم يدعا للمؤمن صديقاً. نأمرهم بالمعروف فيشتمون أعراضنا، ويجدون على ذلك أعواناً من الفاسقين، حتى واللهِ لقد رموني بالعظائم، وايم الله لا أدع أن أقوم فيهم بحقه)[١].

ولكن الله عز وجل يعامل الغرباء برحمته، ويفتح لهم باب الأنس به، ويدَّخر لهم على ما يلاقونه في غربتهم هذه وصبرهم عليها من الثواب أجر خمسين رجل من الصحابة، فهو ﷺ القائل: (إذا رأيت شحاً مطاعاً، وهوىً متبعاً، ودنيا مؤثرةً، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فعليك بخاصة نفسك ودع العوام، فإنَّ من ورائكم أياماً، الصبر فيهن مثل القبض على الجمر، للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلاً يعملون مثل عملكم) قيل: يا رسول الله، أجر خمسين منا أو منهم؟ قال: (بل أجر خمسين منكم)[٢].

وقال ﷺ: (المتمسك بسنتي عند فساد أمتي له أجر شهيد)[٣].

إذن.. وبعد الاستقراء نجد أن:

الملة الواحدة الناجية = السواد الأعظم = الجماعة = ما كان عليه ﷺ وأصحابه = الطائفة الظاهرة القائمة بالحق إلى قيام الساعة = أهل السنة = في آخر الزمان الغرباء = القابضون على دينهم وكأنه الجمر.

ويستمر مسلسل الغربة على مسرح الحياة، ويستمر الغرباء، إلى أن ينقطع الخير

---

(١) الاعتصام للشاطبي (١/ ٣٢).

(٢) رواه الترمذي (٣٠٥٨) وقال: حسن غريب، ورواه أبو داود (٤٣٤١)، وابن ماجه (٤٠١٤) كلهم عن أبي أمية الشعباني عن أبي ثعلبة الخشني، واللفظ للترمذي.

(٣) رواه الطبراني في الأوسط (٦/ ١٩٧ رقم ٥٤١٠).

انقطاعاً تاماً، فلا يبقى على مسرح الوجود إلا شرار الناس، مصداقاً لقوله ﷺ: (لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض الله الله)[١].

ولطالما كانت التزكية هي محور رسالتي، فعوداً على بدء نقول:

الغربة عند أهل الطريقة غربتان:

- غربة ظاهرة: وهي غربة أهل الصلاح بين الفُسَّاق، وغربة الصادقين بين أهل الرياء والنفاق، وغربة علماء الآخرة بين علماء الدنيا الذين سُلبوا الخشيةَ والإشفاق، وغربة الزاهدين بين الراغبين فيما ينفد وليس بباق، وأصحاب هذه الغربة هم الغرباء.

- وغربة باطنة: وهي غربة العارفين بالله ذوي الهمم العالية بين الخلق كلهم، حتى العلماء والعُبَّاد والزهّاد. فإن أولئك واقفون مع علمهم وعبادتهم وزهدهم، وهؤلاء واقفون مع معبودهم لا يعرِّجون بقلوبهم عنه. فأصحاب هذه الغربة هم غرباء الغرباء. فلئن كان العالِم والعابد والزاهد غريباً بين أهل الدنيا، فالعارف غريب بين أهل الآخرة، لا يعرفه العُبَّاد ولا الزهاد، وإنما يعرفه مَنْ هو مثله وهِمَّته كهِمَّته، لذلك كانت غربته أعز الغربة[٢].

وعن هؤلاء يقول ﷺ: (إنَّ يسير الرياء شرك، وإنَّ من عادى لله ولياً فقد بارز الله بالمحاربة. إن الله يحبُّ الأبرار الأتقياء الأخفياء، الذين إذا غابوا لم يُفتَقدوا، وإن حضروا لم يُدعَوا ولم يُعرفوا، قلوبهم مصابيح الهدى، يخرجون من كل غبراء مظلمة)[٣].

---

(١) رواه مسلم (١٤٨) عن أنس.

(٢) كشف الكربة في وصف أهل الغربة للحافظ ابن رجب الحنبلي (٣٢٨) مع التصرف.

(٣) رواه ابن ماجه (٣٩٨٩)، والحاكم (٤) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ورواه الطبراني في الكبير (٢٠/ ١٥٤ رقم ٣٢١)، والبيهقي في الشعب (٩/ ١٤١ رقم ٦٣٩٣). جميعهم عن عمر بن الخطاب عن معاذ بن جبل.

وكان أبو سليمان الداراني يقول في صفتهم: (وهِمَّتهم غير هِمَّة الناس، وإرادتهم غير إرادة الناس، ودعاؤهم غير دعاء الناس)، وسئل عن أفضل الأعمال فبكى وقال: (أن يطّلع على قلبك، فلا يراك تريد من الدنيا والآخرة غيره)[(١)].

وأكثرهم لا يقوى على مخالطة الخلق، فهو يفِرُّ إلى الخلوة ويطيل الوحدة ليستأنس بحبيبه.

لقد سئل رسول الله ﷺ: ما تزكية النفس؟ فقال: (أنْ يعلم أنَّ الله معه حيث كان)[(٢)].

قيل لبعضهم: ألا تستوحش؟ فقال: كيف أستوحش وهو يقول: أنا جليس من ذكرني؟!

وقال آخر: وهل يستوحش مع الله أحد؟!

وعن بعضهم: من استوحش من وحدته فذلك لِقلَّة أُنسِه بربِّه.

وكان يحيى بن معاذ كثير الوحدة والانفراد، فعاتبه أخوه فقال: إن كنتَ من الناس، فلا بدَّ لك من الناس، فقال يحيى: (إن كنتَ من الناس فلا بدَّ لك من الله)[(٣)].

ولغربتهم عن الناس، ربما نسب بعضهم إلى الجنون، لبعد حاله عن أحوال الناس، كما قيل عن أويس القرني.

وكان أبو مسلم الخولاني كثير اللهج بذكر الله، لا يفتر لسانه. فقال رجل

---

(١) كشف الكربة في وصف أهل الغربة للحافظ ابن رجب الحنبلي (٣٢٨).

(٢) رواه الطبراني في المعجم الصغير (١/ ٢٠١) موسوعة الحديث الشريف، بينما (١/ ٣٣٤ رقم ٥٥٥) المكتبة الشاملة.

(٣) كشف الكربة في وصف أهل الغربة للحافظ ابن رجب الحنبلي (٣٣٠).

لجلسائه: أمجنون صاحبكم؟ فقال أبو مسلم: لا يا ابن أخي، لكن هذا دواء الجنون[١].

ففي الحديث عنه ﷺ: (أكثروا ذكر الله حتى يقولوا مجنون)[٢].

وعنه ﷺ: (إنَّ أفضل الإيمان أن تعلم أنَّ الله معك حيثما كنت)[٣].

وأختم بقول الشهيد الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي رحمه الله: فلنأخذ حظنا من هذه الغربة، ولنرسِّخ غربتنا هذه بالالتصاق بتعاليم كتاب ربِّنا عز وجل وسنَّة نبينا ﷺ، ولنكن معتزِّين بتلك الغربة، فإنها كغربة التبر بين التراب الأغبر، وكغربة الماس بين الفحم الأسود[٤].

اللهم طهرنا من ظاهر الإثم وباطنه، وألبسنا ظاهر الطاعة وباطنها، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.



---

(١) كشف الكربة في وصف أهل الغربة للحافظ ابن رجب الحنبلي (٣٣١).

(٢) رواه أحمد (١١٢٧٧)، والحاكم (١٨٨٢). كلاهما عن أبي سعيد.

(٣) رواه الطبراني في الأوسط (٩/ ٣٦٨ رقم ٨٧٩١) عن عبادة بن الصامت.

(٤) الدرس (٥٩٨) من دروس شرح رياض الصالحين للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي رحمه الله.

المصادر

المصادر الأساسية:

أ - الدروس الصوتية للدكتور الشهيد محمد سعيد رمضان البوطي:

١ - التزكية قبل التقنية

٢ - العبادة والعبودية

٣ - شرح رياض الصالحين

٤ - شرح الحكم العطائية

٥ - شرح فقه السيرة

٦ - شرح كتاب كبرى اليقينيات الكونية

٧ - شرح كتاب ضوابط المصلحة في الشريعة الإسلامية

ب - كتب ومؤلفات الدكتور الشهيد محمد سعيد رمضان البوطي:

١ - مدخل إلى فهم الجذور

٢ - حرية الإنسان في ظل عبوديته لله

٣ - باطن الإثم

٤ - هكذا فلندع إلى الإسلام

٥ - هذا والدي

٦ - الحب في القرآن

٧ - من سنن الله في عباده

٨ - الإسلام ملاذ كل المجتمعات الإنسانية

٩ - شخصيات استوقفتني

١٠ - الحكم العطائية شرح وتحليل

المصادر التوثيقية:

١ - تفسير ابن كثير

٢ - تفسير الطبري(جامع البيان) ط هجر.

٣ - تفسير الشعراوي

٤ - الجامع لأحكام القرآن للقرطبي

٥ - التفسير المنير د. وهبة الزحيلي

٦ - الفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية الموضحة للكلم القرآنية والحكم الفرقانية للشيخ علوان

٧ - روح البيان للمولى أبي الفداء

٨ -السيرة النبوية لابن كثير

٩ - دلائل النبوة للبيهقي

١٠ - الاعتصام للشاطبي

١١ - المجموع للنووي

١٢ - الأشباه والنظائر للسيوطي

١٣ - الأشباه والنظائر للسبكي

١٤ - الإبهاج في شرح المنهاج لتقي الدين السبكي

١٥ - الضروري في أصول الفقه لابن رشد القرطبي

١٦ - قواطع الأدلة في الأصول للمروزي

١٧ - الفروق للقرافي

١٨ - القواعد الفقهية الكبرى وتطبيقاتها د. وهبة الزحيلي

١٩ - كتب السنن الستة وغيرها: البخاري، ومسلم، والترمذي، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه، والأدب المفرد للبخاري، وأحمد، ومالك، والحاكم، والطبري، والبيهقي، وعبد الرزاق، والدارقطني، وابن عساكر، وابن أبي شيبة، وأبو داود الطيالسي، والديلمي.

٢٠ - فتح الباري في شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني

٢١ - شرح النووي على مسلم

٢٢ - رياض الصالحين للإمام النووي

٢٣ - التيسير في شرح الجامع الصغير للمناوي

٢٤ - حاشية السندي على ابن ماجه

٢٥ - كشف الخفاء للعجلوني

٢٦ - شرح الأربعين النووية للإمام النووي

٢٧ - نوادر الأصول في أحاديث الرسول للحكيم الترمذي

٢٨ - جامع الأحاديث لجلال الدين السيوطي

٢٩ - المقاصد الحسنة للسخاوي

٣٠ - الزهد لأحمد بن حنبل

٣١ - الزهد الكبير للبيهقي

٣٢ - جوهرة التوحيد للإمام إبراهيم الباجوري

٣٣ - الزهد لابن المبارك

٣٤ - تحفة الأحوذي للمباركفوري
٣٥ - جامع الأصول في أحاديث الرسول للجزري ابن الأثير
٣٦ - شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة لأبي القاسم اللالكائي
٣٧ - موسوعة الألباني
٣٨ - قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث لمحمد جمال القاسمي
٣٩ - فيض القدير في شرح الجامع الصغير لابن زين العابدين المناوي
٤٠ - الآحاد والمثاني لا بن أبي العاصم
٤١ - كشف الكربة في وصف أهل الغربة للحافظ ابن رجب الحنبلي
٤٢ - النهاية في الفتن والملاحم للحافظ ابن كثير الدمشقي
٤٣ - التوابين لابن قدامة المقدسي
٤٤ - صفة الصفوة لابن الجوزي
٤٥ - إحياء علوم الدين للغزالي
٤٦ - حلية الأولياء وطبقات الأصفياء لأبي نعيم الأصبهاني
٤٧ - الدر المنضود لا بن حجر الهيتمي
٤٨ - الرسالة القشيرية لعبد الكريم بن هوازن القشيري
٤٩ - شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد
٥٠ - شرح الحكم العطائية لعبد المجيد الشرنوبي
٥١ - ربيع الأبرار ونصوص الأخبار للزمخشري
٥٢ - أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير الجزري
٥٣ - الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني

٥٤ - البرهان المؤيد للشيخ أحمد الرفاعي
٥٥ - الثبات عند الممات لابن الجوزي
٥٦ - الأمثال المولدة للخوارزمي
٥٧ - المستقصى في أمثال العرب للزمخشري
٥٨ - مجمع الأمثال للنيسابوري
٥٩ - شرح الطحاوية للجوزجاني
٦٠ - تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام للذهبي

ملاحظة هامة: إن منهج التزكية الذي عرضتُه في هذا الكتاب، كله مأخوذ من الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي رحمه الله، سواء من كتبه أو محاضراته أو دروسه. لذلك سمَّيتُ مصادره بالمصادر الأساسية. أما المصادر التوثيقية فوظيفتها في هذا الكتاب فقط توثيق ما ذكره الإمام البوطي رحمه الله من أحكام وقواعد شرعية وقصص وأقوال عن السلف الصالح، لذلك سمَّيتُها بهذا الاسم.. فلا يقولن قائل إن عدد المصادر التوثيقية أكبر بكثير من عدد المصادر الأساسية، وبالتالي فالمنهج المعروض للتزكية مأخوذ من العلماء الآخرين أكثر من الإمام البوطي !

لا ، أبداً، فالمنهج كله من الإمام البوطي رحمه الله، ولا يعلم صحة كلامي هذا إلا إنسان مثابر على دروس الإمام البوطي رحمه الله بالجد والمواظبة، لا بالتسلية وتقطيع الوقت.

والحمد لله رب العالمين

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

فهرس تحليلي لمنهج الكتاب

كلمة التقديم للدكتور محمد توفيق رمضان البوطي ٥

كلمة التقديم للدكتور بديع السيد اللحام ٩

كلمة التقديم للأستاذ المربي الشيخ محمد الفحّام ١٣

دعاء ١٧

إهداء إلى الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي رحمه الله ١٩

بين يدي هذه الرسالة ٢٥

كلمة شكر وامتنان إلى فضيلة الشيخ الدكتور محمد توفيق رمضان البوطي وعائلته المحترمة ٣٣

الفصل الأول: معنى التزكية وعلاقتها بكل من العقل والقلب والنفس.. وفيه ستة مباحث: ٣٩

المبحث الأول: تعريف التزكية وتعريف كل من العقل والقلب والنفس، ودور كلٍّ منها ٣٩

المبحث الثاني: لماذا يحذّرنا الله عز وجل بشدة من النفس؟ ٤٦

المبحث الثالث: مراحل انتقال النفس بالتزكية من الأمّارة بالسوء إلى اللوامة فالمطمئنة، وانتقال القلب من المريض إلى السليم، وانتقال العقل من المغلوب والمحكوم للنفس إلى الغالب والحاكم عليها ٥٠

المبحث الرابع: ما معنى قوله ﷺ: (كل الناس يغدو فبائع نفسَه فمعتقها أو موبقها)؟ ٥٢

المبحث الخامس: متى تفوح من العبد رائحة عبوديته لله عز وجل؟ ٥٤

المبحث السادس: لماذا قال الله عز وجل: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ ولم يقل: إلا من أتى الله بأوقارٍ من العلوم والعبادات؟ ٥٥

الفصل الثاني: معنى الإحسان ومكانه من بنيان الحقيقة الإسلامية.. وفيه ثلاثة مباحث: ٦١

المبحث الأول: تعريف كلٍ من الإسلام والإيمان والإحسان، ومكان كل منها من كيان الإنسان ٦١

المبحث الثاني: الإحسان هو السلك الواصل بين الإيمان والإسلام، فما طبيعة هذا السلك؟ .. ٦٤
- وما هو حال المسلم إذا وُجد هذا السلك؟ ٦٤
- وما هو حال المسلم إذا فُقِد هذا السلك؟ ٦٥
المبحث الثالث: الإحسان هو لبُّ الإسلام وجوهره، ومن لم يحظَ بهذا اللباب لم ينل من الإسلام إلا المظاهر والقشور ٦٩
الفصل الثالث: كيف يصل المسلم إلى درجة الإحسان؟ وفيه مبحثان: ٧٥
المبحث الأول: من الناحية النظرية.. وفيه مطلبان: ٧٦
المطلب الأول: أن نتذكر هو يتنافى هذه الحياة الدنيا، وهي أننا عبيد مملوكون لله عز وجل، وتلك هي العبودية القسرية، والناس جميعاً فيها سواء ٧٦
المطلب الثاني: أن نتذكر وظيفتنا التي خُلقنا لأجلها، وهي أن نضع عبوديتنا لله عز وجل موضع التنفيذ، وتلك هي العبودية الاختيارية، وهذا السلوك هو فرق ما بين المؤمن والكافر ٨١
المبحث الثاني: من الناحية العملية..وفيه ثلاثة مطالب: ٨٥
المطلب الأول: كلمة عن الإرشاد وصفات المرشد ٨٨
المطلب الثاني: السبل التربوية للوصول إلى درجة الإحسان، وفيه خمسة علاجات: ٩٠
١- الخلوات الجزئية من أجل التحقق بمعنى العبودية لله عز وجل: ٩١
* التفكّر في عبودية الإنسان الفطرية الاضطرارية لله عز وجل والبحث عن المعبود الأوحد ٩٢
* ممارسة العبودية الاختيارية لله سبحانه وتعالى، وهي حال من الاضطرار والافتقار الكلي لله عز وجل، يشعر بها الإنسان تجاه مولاه، فتقوده إلى الدعاء والرجاء والانكسار على بابه تعالى، والتذلل على أعتابه في كل أحواله ٩٣
هذه العبودية هي روح العبادة، ولها دوران هامان في التزكية: ٩٨
أ- أنها الضامن الوحيد لتطبيق العبادات بأركانها الظاهرة، وهذا هو ظاهر الطاعة ٩٨
ب- أنها تنشل صاحبَها من العبودية لغير الله، وبذلك تمنع صاحبها من الرياء والنفاق والعجب، وهذا هو باطن الطاعة ٩٨
وإذا اجتمع ظاهر الطاعة مع باطنها، فذلك هو العمل المقبول عند الله
٢- الإكثار من ذكر الله عز وجل لتربية محبة الله والخوف منه سبحانه في القلب: ١٠١
* معنى الذكر الحقيقي وكيف نصل إليه ١٠١

* دور الحب لله والخوف منه سبحانه في التزكية: ١٠٧

أ- أنه يقلّم أظافر الأخلاق الذميمة التي تترعرع في تربة القلب المريض بحب الدنيا، لتغلُب حبّ الله فيه على حبّ الدنيا.

وأما الخوف منه سبحانه فإنه يذيب كلَّ المخاوف الأخرى، ويوصل صاحبَه- مع الحب - إلى وحدة الشهود ١٠٧

٢- أنه يكون بمثابة الوقود الذي يدفع المسلمَ إلى التضحية والفداء ١١٠

٣- أن حبَّ العبد لربّه يحمله على اتباع المحبوب.. وفيه ثلاثة مسائل: ١١٣

أ- أنّ محبة العبد لربّه حقيقة وليست مجازاً ١١٤

ب- أن محبة العبد لربّه لا تستلزم من المحبّ العصمة من الذنوب، وإنما تستلزم منه العزمَ على الانقياد لأحكام المحبوب جل جلاله، ومن لم يعزم على ذلك فحبُّه لله عز وجل زيف ١١٥

ج- فلماذا لا يجعل الله عز وجل من حبّ عبده له حِصناً يقيه من الوقوع في المعاصي والزلل؟ ١١٩

* درجات محبة العبد لله عز وجل: ١٢٣

أ- درجة بدايات تذوّق المسلم طعمَ الإيمان، والحديث عن التوبة وشروطها ١٢٣

٢- درجة المؤمنين ١٢٨

٣- درجة الصالحين ١٢٩

* فماذا عن حبّ الله عز وجل للإنسان عامّةً، وللمؤمنين به خاصّةً؟ ١٣٢

*علينا أن نعلم أنّ درجة الإحسان هي درجة عالية، فلا ينبغي في سبيل الوصول إليها أن تُزهق الدرجتين الأساسيين وهما الإسلام والإيمان ١٣٨

* كيف يمكنني أن أعرف قلبي، أحيٌ هو أم ميت؟ أسليم هو أم مريض؟ ١٤٢

وما معنى قوله ﷺ: «فو الذي لا إله غيره إنّ أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار...» ١٤٤

*ماالضمانة لكي أبقى على صراط الله عز وجل حتى يأتي الأجل؟ ١٥٠

٣- الإكثار من الدعاء والتضرع لله عز وجل: ١٥١

* معنى الدعاء، ومعنى كل من الاضطرار والتذلل والافتقار لله عز وجل ١٥١

* كيف يدعو المسلم ربّه إذا عرف عبوديته لله واضطراره إليه؟ ١٥٤

كيف يدعو المسلم ربه إذا أعرض عن عبوديته لله ومن ثم عن اضطراره إليه؟ ١٥٩

وكيف يعامله المولى سبحانه وتعالى ١٥٩

* ما معنى قوله ﷺ: «الدعاء هو العبادة»؟ ١٦٣
* شروط استجابة الدعاء ١٦٧
٤- مجالسة الصالحين: ١٧٦
* ما المقصود بـ(الجليس الصالح) و(جليس السوء) في قوله ﷺ: «إنما مَثَلُ الجليس الصالح وجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير...» ١٧٦
* فإن قال قائل: إنني أدعو إلى الله من خلال مصاحبتي لهؤلاء الشاردين، بأن أجعل نفسي صديقاً لهم، فأسكن معهم وأمازحهم، فإذا استأنسوا بي فإنني شيئاً فشيئاً أدخل النصح في قلوبهم من حيث لا يشعرون! ... ١٨٢
* ما معنى قوله ﷺ: «الرجل على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل» وما مدى خطورته؟ وكذا قوله: «المرء مع من أحبّ»؟ ١٩٣
٥- قطع الفم عن المال الحرام: ما العلاقة بين المال الحرام وكلٍّ من العقل والقلب والنفس؟ ١٩٨
المطلب الثالث: وأخيراً لاستكمال الفائدة نقول: على المسلم الصادق في إسلامه لكي يستفيد من العلاجات الخمس السابقة أن يضيف إليها أربعة علاجات أخرى: ٢٠١
١- أن يتلمس ما يعانيه قلبه من الأمراض الخفية، وأن لا يرضى عن نفسه أبداً ٢٠١
٢- أن يعلم أنه لا يصل إلى الله عز وجل إلا بتناسق وانسجام بين الظاهر والباطن وسيرهما معاً على الكتاب والسنة، فلا يَصلح ظاهر بلا باطن، ولا باطن بلا ظاهر ٢٠٤
٣- أن يعلم أنّ الذي يعينه على تزكية نفسه إنما هو توفيق الله، ويتم توفيق الله بأمرين اثنين ٢٠٧
٤- أن يثبت على هذه الحال، إذ لا آخر لمجاهدة النفس إلا الموت ٢١٠
الفصل الرابع: المراحل التي يمرّ بها المسلم في سلوكه إلى الله عز وجل: ٢١٣
المرحلة الأولى: مرحلة اليقين العقلي ٢١٤
المرحلة الثانية: مرحلة الفناء... وفيها مبحثان: ٢١٥
المبحث الأول: ما الفائدة من الوصول إلى مرتبة الفناء أو (وحدة الشهود)؟ ٢١٨
المبحث الثاني: ما هي مخاطر الوصول إلى هذه المرتبة؟ ٢٢٠
المرحلة الثالثة: مرحلة البقاء.. وفيها مبحثان: ٢٢٤
المبحث الأول: إذا كانت مرحلة البقاء هي وحدة الشهود مع بقاء التعامل مع الأسباب، بخلاف مرحلة الفناء، فلماذا لم يتعامل سيدنا إبراهيم ﷺ مع الأسباب عندما زُجَّ في النار؟ ٢٢٦

المبحث الثاني: مراحل انتقال المسلم وترقّيه أثناء الذكر، من ذكر مع وجود غفلة، إلى ذكرٍ مع وجود يقظة، إلى ذكرٍ مع وجود حضور، إلى ذكرٍ مع وجود غَيبةٍ عما سوى المذكور ٢٣٣
الفصل الخامس: ثمرات التزكية.. وهي خمس ثمرات: ٢٤٣
الثمرة الأولى: السعادة الحقيقية في الدنيا والآخرة.. وفيه سبعة مباحث: ٢٤٣
المبحث الأول: الإيمان الحقيقي بالله عز وجل - أي عقلاً وعاطفةً- لابد أن يثمر الطاعة الحقيقة، ومن هنا تنبع السعادة ٢٤٣
المبحث الثاني: الإيمان التقليدي بالله عز وجل - أي عقلاً فقط أما العواطف فمشدودة إلى الدنيا- لابد أن يثمر الطاعة الشكلية أو اللاطاعة، ومن هنا تنبع المعيشة الضنك ٢٤٧
المبحث الثالث: ما معنى الحياة الطيبة في قوله تعالى ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾؟ ٢٥٤
المبحث الرابع: قد يقول قائل: إنني مؤمن بالله عز وجل وأنفذ أوامره، ولكني أعيش في غصص دائمة! ٢٦٠
المبحث الخامس: ما معنى قوله ﷺ: «عجباً لأمر المؤمن إنّ أمره كله له خير..» ٢٦٤
المبحث السادس: قد يقول قائل: أمن رحمة الله عز وجل أن يبتليَ عباده بالمصائب؟! ٢٦٩
المبحث السابع: لماذا يُحجب الإنسان عن التوحيد الذي هو سرّ سعادته؟ ٢٧٢
الثمرة الثانية: التميز بين حنين الروح وأشواقها، ورغبات النفس ورعوناتها ٢٧٥
الثمرة الثالثة: الانتصار لدين الله عز وجل والترفّع عن الانتصار للنفس.. وفيه خمسة مباحث: ٢٨٤
المبحث الأول: معنى الجهاد وأنواعه ٢٨٤
المبحث الثاني: كيف نفرّق بين الانتصار لله عز وجل والانتصار للنفس؟ ٢٩٢
المبحث الثالث: ما هو حال مَنْ قفز فوق مجاهدة نفسه ليجاهد (في سبيل الله) بلسانه؟ ٣٠٠
وما الفرق بين الإسلام والمذاهب الفكرية الأخرى؟ ٣٠٤
المبحث الرابع: وما هو حال مَنْ قفز فوق مجاهدة نفسه ليجاهد (في سبيل الله) بيده وسلاحه؟ ٣٠٩
المبحث الخامس: فما هو الفرق بين العالم الرباني وعالم السوء؟ ٣١٦
العالم الرباني:
١- ينظر إلى نفسه على أنه لا شيء، وكل الناس خير منه ٣١٧
٢- ينتصر لله عز وجل فقط لا لنفسه ٣٢٠
٣- أمين على شرع الله عز وجل ٣٢٥

٤- يمارس واجبه في الدعوة إلى الله، ولا يُقحم نفسَه في النتائج التي هي من خَلْق الله ٣٢٧

والنتيجة: صلاح حال المجتمع بصلاح حال أفراده ٣٣١

عالم السوء: ٣٣٣

١- يرى نفسَه الوليَّ المقرَّب إلى الله عز وجل، وكل الناس أدنى منزلةً منه ٣٣٣

٢- ينتصر لنفسه فقط ولا ينتصر لله ٣٣٨

٣- خائن لشرع الله عز وجل ٣٤٠

٤- يقفز فوق المقدِّمات التي أمره بها الله، ليُقحم نفسَه في النتائج التي هي من خلق الله ٣٤٦

والنتيجة: تكفير الناس وإثارة الفتن والهرج والمرج بحجة (الحكم بغير ما أنزل الله)! ٣٤٨

وهذا يسوقنا إلى فتح الملفَّات التالية والمتمثلة في سبعة مطالب:

المطلب الأول: ما معنى الحكم بغير ما أنزل الله؟ ٣٤٩

المطلب الثاني: ما هي موجبات الكفر وفق القاعدة المجمع عليها؟ ٣٥٠

المطلب الثالث: فهل الذي يحكم بغير ما أنزل الله - بموجب هذه القاعدة- يعدّ كافراً؟ ٣٥١

المطلب الرابع: ما الحكمة من القاعدة الفقهية: «نحكم بالظاهر والله يتولى السرائر»؟ ٣٥٧

المطلب الخامس: فإن قال قائل: ألم يقل الله عز وجل: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ ٣٦١

المطلب السادس: خلاصة هديه ﷺ في طاعة أولي الأمر وحدود هذه الطاعة ٣٦٦

فإن قال قائل: ألم يقل رسول الله ﷺ: «من رأى منكم منكراً فليغيِّره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع...» وإني أريد أن أغيِّر المنكر بيدي! ٣٧٤

ماذا لو أعرض أولو الأمر عن واجب تغيير المنكر باليد وإزالته؟ ٣٧٥

آداب وشروط القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر باللسان ٣٧٧

ما معنى إنكار المنكر بالقلب، بشرط عدم الاستطاعة؟ ٣٧٨

كيف ينهى الإنسان عن المنكر بقلبه؟ وما السرُّ في ذلك؟ ٣٨٠

كيف يحافظ المسلم على هذه الدرجة الدنيا من الإيمان؟ ٣٨١

المطلب السابع: هذا هو هديه ﷺ في هذه المسألة، فما موقفنا نحن منه؟ ٣٨٦

ماالسبب الذي يجعل فئةً من الشباب لا تكاد تعي هذا الكلام رغم وضوحه؟ ٣٨٦

إننا إن اتبعنا هديَه ﷺ أغلقنا باب الهرج والمرج والفتن ٣٨٧

ولكن هذا الذي نقوله شيء، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر شيء آخر، لأنّ السكوت عن المنكر هو أيضاً سبب من أسباب الفتن، مصداقاً لقوله ﷺ عندما سئل: أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «نعم إذا كثر الخبث» ... ٣٨٩
فما ذنب الصالحين حتى يهلكوا مهلك الظالمين؟ ٣٩٠
ما هو حال الصالحين المصلحين الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر؟ ٣٩٢
إذا عرف المسلم يقيناً أنّ هؤلاء الذين يعكفون على غيّهم لن يرعووا مهما أمرهم وحذّرهم ونصحهم، أفيسقط عنه واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في هذه الحالة؟ ٣٩٣
ما معنى قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ﴾؟ ٣٩٥
الثمرة الرابعة: استعمال الصفات التي سمّاها الله عز وجل [الأمانة] من حدّها المفيد فقط، والوصول إلى حقيقة التقوى، ومن ثَمّ تحقّق الأخوة الإنسانية.. فيه خمسة مباحث: ٤٠٠
المبحث الأول: ما معنى الأمانة في قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ...﴾؟ ٤٠٠
المبحث الثاني: ماذا عسى أن تكون هذه القوة التي تسيطر على شِرّة تلك الصفات وتدفعها في طريق الصلاح وحده؟ ٤٠٣
المبحث الثالث: ماذا تفعل العبودية لله عز وجل حتى يكون لها هذا الأثر السحري، وماذا تفعل التقوى؟ ٤٠٨
المبحث الرابع: درجات التقوى، وهي ثلاث درجات، تبدأ من الأدنى إلى الأعلى: ٤١٣
١- تقوى الإيمان
٢- تقوى الشريعة
٣- تقوى الحقيقة
المبحث الخامس: لطالما كانت التقوى ثمرة التزكية، فإنّ من ثمرات التقوى والتي تُعدّ ثمرات فرعية للتزكية: ٤١٤
١- أنّ المتقي يدخل في معيّة الله عز وجل ومحبته وولايته ٤١٤
٢- أنّ المتقي لا يستحوذ الشيطان على قلبه، وإنما يمرّ به مروراً سريعاً ٤١٧
٣- أنّ المتقي لا يلتبس عليه حق بباطل أبداً ٤١٨
٤- أنّ الله ألزم ذاته أن يجعل للمتقين من كل ضيق فرجاً، ومن كل همّ مخرجاً، وأن يكرمهم بسعة الرزق من حيث لا يحتسبون ٤٢٩

٥- أنّ المتقي لابد أن يعلن عن رغبته في الانصياع لأمر الله عز وجل، وذلك بأن يطلب منه العون على الاستقامة، وهذا هو القول السديد، عندها يقلب الله ضعفَه قوةً ويُصلح عمله ٤٣٠

٦- ما مضى من الثمرات هي في الدنيا، وأما الآخرة فكلها للمتقين ﴿وَٱلۡأٓخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ ٤٣٦

الثمرة الخامسة: حسن الخاتمة.. وفيه ثلاثة مباحث: ٤٣٧

المبحث الأول: لماذا سمّى الله عز وجل لحظات الموت بـ(السكرة)؟ ٤٣٧

المبحث الثاني: فإن قال قائل: أليس الإنسان الذي آمن عقله بالله عز وجل وبسائر مقتضيات الإيمان، يُعتبر قضائياً مسلماً ولو انصرف قلبه إلى حبِّ الدنيا والشهوات؟ فما الحاجة إذن إلى التربية أو التزكية ليتطابق كلٌّ من العقل والوجدان؟! لكن بينهما تشاكس، لاضير! ٤٣٨

المبحث الثالث: الموت بوابة للقاء الله سبحانه وتعالى ٤٤٤

خاتمة ٤٥١

المصادر ٤٦٧

الفهرس ٤٧٣







دمشق - سوريا
هاتف : ٢٢٥٩٤٩٧
deraryhya@yahoo.com